

تاريخ ضمان

التراث الخالد

لعلماء الإسلام ومفكره وفنانيه

بقلم مايكل هاميلتون مورجان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نتمنى النفع للجميع
ولا تنسونا من صالح دعائكم

ASAH



أتقن المسلمون اختراع الأسطرلاب لمعرفة البيانات الفلكية وتحديد الوقت .
في الصورة النموذج الفارسي من القرن الثامن عشر الميلادي

تاريخ ضائع

التراث الخالد

لعلماء الإسلام ومفكره وفنانيه

بقلم: مايكل هاميلتون مورجان

التصدير: بقلم صاحب الجلالة
الملك عبد الله الثاني عاهل الأردن



 NATIONAL GEOGRAPHIC

المحتويات

6	الخط الزمني
9	مقدمة الناشر
11	تصدير
13	مقدمة
1	الفصل الأول : أبناء روما
43	الفصل الثاني : مدن العباقرة المفقودة
81	الفصل الثالث : تجلى عظمة الله فى الأرقام
117	الفصل الرابع : أشكال النجوم
151	الفصل الخامس : المخترعون والعلماء
179	الفصل السادس : المعالجون والمستشفيات
219	الفصل السابع : رؤية وصوت وقلعة
251	الفصل الثامن : القيادة المستنيرة
289	الخاتمة
292	شكر وتقدير
293	مراجع الكتاب
295	مراجع الاستشهادات
297	الكشاف

الخط الزمني

الكلمات الداكنة تمثل أسماء الأسرة الحاكمة

- 570 ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مكة.
- 622 هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى المدينة.
- 630 فتح مكة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 632 وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 632 خلافة «أبو بكر الصديق» رضى الله عنه بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وجيوش المسلمين تحكم سيطرتها على شبه الجزيرة العربية.
- 634-644 خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أبي بكر الصديق رضى الله عنه، والقوات الإسلامية تتوغل في الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية.
- 636 موقعة اليرموك، جيش المسلمين يهزم إمبراطور بيزنطة (هرقل) في سورية.
- 637-651 الغزوات القادمة من شبه الجزيرة العربية تثمر عن فتوحات في العراق وبلاد فارس.
- 642 يحكم العرب بيزنطة ومصر ويتوغلون في الشمال الإفريقي.
- 644 خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.
- 656 على بن أبي طالب رضى الله عنه زوج بنت الرسول صلى الله عليه وسلم يتولى الخلافة الإسلامية
- 661 اغتيال على بن أبي طالب رضى الله عنه، انقسام المسلمين إلى شقين متنازعين؛ السنة والشيعة.
- 661-750 الخلافة الأموية في دمشق.
- 661 الأمويون ينقلون الخلافة إلى دمشق. تولى معاوية الخلافة
- 711 طارق بن زياد بقوات من العرب والبربر يفتح إسبانيا.
- 712 المسلمون يتوغلون في السند (باكستان حالياً) ووسط آسيا.
- 715 تمام إنشاء المسجد الأموي في دمشق.
- 721-815 الكيمياء والصيدلى والفيلسوف وعالم الرياضيات جابر بن حيان يعرف بـ: «أبو الكيمياء».
- 725 المسلمون يفتحون مدينة نيس في فرنسا.
- 732 موقعة تور، فرنسا، شارل مارتل يصد المسلمين تحت قيادة عبد الرحمن الغافقى.
- 750 العباسيون يطيحون بالأمويين، الإمبراطورية في أعظم مداها من منغوليا إلى إسبانيا.
- 750-945 العباسيون يحكمون من بغداد.
- 750 بناء أول أسطرلاب للمسلمين على يد إبراهيم الفرازى.
- 754 تولى المنصور الخلافة كثنانى خليفة عباسى بعد وفاة أخيه.
- 756-929 الأمراء الأمويون يحكمون إسبانيا.
- 762 إنشاء المنصور بغداد.
- 780-850 محمد بن موسى الخوارزمى المعروف بـ: «أبو الجبر» (عالم رياضيات وفلك) يتبنى الأعداد الهندية.
- 786 هارون الرشيد يتولى الخلافة في بغداد.
- 786 ثورة الشيعة في مكة تودى إلى امتداد صراعات الشيعة إلى الغرب (ليبيا) في شمال إفريقيا.
- 790 تحت خلافة هارون الرشيد أصبحت بغداد مركزاً للتعليم حيث امتزجت الثقافات العربية والفارسية لينتج عن ذلك أعمال فلسفية وعلمية وأدبية عظيمة.
- 792 بناء أول مصنع للورق في الدولة الإسلامية في بغداد مما أدى إلى استخدام أكبر المدونات المكتوبة.

- 801 الخوارج من البربر ينشئون ولاية إسلامية مستقلة في شمال إفريقيا.
- 802 هارون الرشيد يبعث بقيل وحرير وعطر وغير ذلك من الهدايا القيمة إلى شارلمان.
- 809 وفاة هارون الرشيد.
- 813-823 المأمون (786-833) يتولى الخلافة في بغداد بعد حرب أهلية ومعركة مع أخيه ويتوسع بالدولة الإسلامية إلى الحدود المعروفة الآن لتركمانستان وأفغانستان. وينشئ بيت الحكمة حيث يقوم الدارسون بترجمة الكلاسيكيات اليونانية والسريانية والسكسكربتية والهلوية إلى العربية.
- 823 بداية الفتح الإسلامي لصقلية.
- 829 الخليفة المأمون ينشئ نقاط مراقبة في بغداد والعراق وتدمر وسورية.
- 830 الطبيب النسطوري في بيت الحكمة حنين بن إسحاق (809-873) والمعروف في الغرب باسم (Johannitius) يترجم الكلاسيكيات؛ (جالينوس وأرسطو وأبقراط) وغيرها من اللغة اليونانية إلى السريانية، كذلك كتب نصوصاً مهمة في شأن طب العيون (المقالات العشر في العين).
- 830 الفيلسوف والصيدلي والكيميائي وعالم الرياضيات والموسيقى يعقوب بن إسحاق الكندي (801-873) يكده في بيت الحكمة. ولقد أثرت أعماله مثل: «المناظر» وأعماله الطبية الأخرى في الغرب.
- 833-849 المعتصم يحكم بغداد وينقل العاصمة إلى سامراء في العراق ويعين العبيد الأتراك في المحاكم.
- 840 المعتصم يشجع بناء مصانع الصابون والزجاج في بغداد والبصرة.
- 847-861 المتوكل يحكم من سامراء.
- 852 عباس بن فرناس يقفز من أعلى برج في قرطبة مربوطاً بجناحين ويهبط كأنه يرتدى مظلة.
- 856 ابن كثير الفرجاني يكتب في مسألة مهمة تتعلق بالأسطرلاب ويشرف على بناء مقياس النيل في القاهرة.
- 875 الكيميائي والفيزيائي والفلكي عباس بن فرناس ينشئ أول طائرة شراعية عن عمر يناهز السبعين ويحلق بها من على جبل ويهبط مصاباً بجروح ويموت بعد اثني عشر عاماً من تلك الحادثة.
- 900 أبو بكر محمد بن زكريا الرازي رئيس أطباء مستشفى بغداد يشخص بدقة أمراض الجدري والحصبة ويصف كيفية علاجهما.
- 900 الفيلسوف والعالم أبو نصر الفارابي كتب كتاباً في الموسيقى لا يزال مستخدماً في الموسيقى العربية حتى الآن.
- 909-1171 توسع الفاطميين في شمال إفريقيا.
- 912-961 يتولى عبد الرحمن الثالث الإمارة، وفي عام 929 يولى نفسه خلافة المسلمين في قرطبة.
- 929-1031 الخلافة الأموية تحكم في إسبانيا.
- 969-1055 البويهيون يحكمون في بغداد.
- 969 الفاطميون الإسماعيليون يحتلون مصر وينقلون عاصمتهم إلى القاهرة في عام 973.
- 960 الزهراوي من قرطبة (936-1013) واحد من أعظم جراحى زمانه يطور العديد من المعالجات ما بين طب الأسنان وولادة الأطفال.
- 976 تأسيس جامعة الأزهر في القاهرة.
- 990 عالم الرياضيات والفلكي والفيلسوف أبو الريحان البيروني (973-1048) يطور علم رسم الخرائط وعلم الفلك ويبتكر وسائل لتحديد الجاذبية الأرضية تقدر أعماله بمجمل 120 عملاً.
- 1000 الطبيب والفيلسوف والعالم أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا (980-1037) أو كما يعرف في الغرب بلقب «أبو الطب الحديث».
- 1020 عالم الرياضيات والفلكي ابن الهيثم أو Alhazen يدخل تحسينات على علم البصريات وانعكاس الضوء وبصر الإنسان.

- 1037-1307 السلاجقة يحكمون في وسط آسيا والأناضول .
- 1050 دخول ملك مالي الإسلام .
- 1054 انقسام في الشرق والغرب ، وانقسام الكنيسة المسيحية إلى الكاثوليك الرومان والأرثوذكس الشرقيين .
- 1058 احتلال السلاجقة بغداد .
- 1072-1092 تولى مالك شاه السلطنة على السلاجقة .
- 1076 احتلال المغرب غانا .
- 1090 نهب المرابطين قرطبة .
- 1096 الحملة الصليبية الأولى ، حكم المسيحيين القدس عام 1099 .
- 1100 عالم الرياضيات والشاعر عمر الخيام يكتب الرباعيات .
- 1145-1232 الموحدون يحكمون إسبانيا .
- 1160 الفيلسوف والطبيب ابن رشد أو Averroes (1126-1198) يترجم أعمالاً من العربية إلى العبرية ، وبخاصة أعمال أرسطو .
- 1171 هزيمة الفاطميين على يد صلاح الدين في مصر .
- 1171-1250 الدولة الأيوبية تتولى الحكم في مصر .
- 1187 استعادة صلاح الدين الحكم الإسلامي على القدس .
- 1175 إنشاء أول إمبراطورية إسلامية في الهند .
- 1200 ابن اسماعيل الرزاز الجزري يخترع العمود المرفقى ، وبعض أنواع الساعات الميكانيكية البدائية التي تعمل بتأثير الماء والأثقال ، وكذلك مضخات المياه . كما اخترع القفل الرقمي كواحدة من اختراعاته الخمسين .
- 1206-1406 الإمبراطورية المغولية
- 1206-1526 سلاطين دلهي .
- 1207-1273 الشاعر جلال الدين الرومي .
- 1218 بداية الاحتلال المغولي .
- 1230 الطبيب دمشقي ابن النفيس (1213-1288) عمل طبيباً في مستشفى في القاهرة ، وصف الدورة الدموية في الرئتين وساهم إلى حد بعيد في طب العيون .
- 1232-1492 الناصريون يحكمون إسبانيا .
- 1250-1517 المماليك يحصلون على السلطة في مصر .
- 1258 نهب بغداد على يد المغول .
- 1270 عالم الرياضيات والفلكي في مرصد نصر الدين الطوسي (1201-1274) يبتكر جداول فلكية لحساب أماكن النجوم والكواكب ويطور علم المثلثات كعلم رياضي مستقل ومنضبط .
- 1285 حسان الرماح يكتب في شأن استخدام البارود في الصواريخ .
- 1325 رحيل ابن بطوطة عن طنجة ليسافر حول العالم ويبقى على مدونات مكتوبة .
- 1336-1405 تيمورلنك يحتل أجزاء من الأراضي التي سميت فيما بعد أفغانستان .
- 1336-1506 التيموريون يحكمون في وسط آسيا والشرق الأوسط .
- 1453 محمد الفاتح يحتل القسطنطينية البيزنطية (فتح القسطنطينية) ويجعلها عاصمة الدولة العثمانية .
- 1492 المسيحية تنتزع إسبانيا مرة أخرى .
- 1453-1922 الإمبراطورية العثمانية .
- 1526 تأسيس سلالة المغول الكبار الحاكمة في الهند .
- 1587-1629 شاه عباس يستعيد الكثير من الحدود القديمة لبلاد فارس .
- 1494-1566 سليمان القانوني يذهب بالإمبراطورية العثمانية لأقصى مداها من المغرب إلى بحر قزوين والخليج الفارسي وداخل أوروبا من خلال البلقان والمجر .
- 1922 نهاية الدولة العثمانية .

مقدمة الناشر

تود دار نهضة مصر أن تعرب عن اعتزازها الشديد لتمكّنها من نشر الترجمة العربية لكتاب «تاريخ ضائع» لمؤلفه: مايكل مورجان .

هذا الكتاب واحد من أهم نماذج التواصل بين الإسلام والغرب؛ ولذا فترجمته ونشره الآن يمثلان خطوة مهمة في ظل ما نعيشه من رغبة عالمية في سيادة روح التسامح والتفاهم بين مختلف الحضارات والأديان، خاصة أن هذا الكتاب يتوجه لمخاطبة القارئ العادي بحقائق فعلية مثبتة تاريخياً عن دور الفكر والفن والفلسفة العربية والإسلامية في نهضة الثقافة الغربية والعالمية.

تتمنى الدار أن يكون هذا العمل إسهاماً حقيقياً منها أولاً تجاه وطنها الأول مصر الحبيبة ونهضتها الثقافية التي تشهدها الآن، وثانياً: وطننا الأكبر الوطن العربي والإسلامي، بل وللإنسانية كلها. وأملنا أن يكون هذا الكتاب لبنة في رآب الصدع بين المسلمين والغرب والإبانة - لمن لا يعرف - عن أهمية دراسة التاريخ كمؤشر لحقائق الأمور من أجل التواصل الإنساني البناء.

وجدير بنا أن نتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور يوسف زيدان مدير إدارتي المخطوطات والتزويد بمكتبة الإسكندرية، والأستاذ رامي الجمل رئيس قسم الأنشطة الأكاديمية والترجمة المتخصصة، الذي أمد يد العون في توثيق بعض الاستشهادات المذكورة بالكتاب، وردها إلى أصولها من كتب التراث والمخطوطات النادرة، وقد اتفق على عدم تنقيح تلك الاستشهادات أو مراجعتها إبقاء على روح النص التراثي القديم.

وأخيراً وليس بآخر، نرجو أن يوفقنا الله في مساعيها نحو توفير كل ما هو جيد وجديد ومحترم للقارئ المصري العربي، بل والعالمي حيثما كان.

تصدير

عمان

12 فبراير، 2007

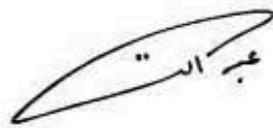
الأصدقاء الأعزاء،

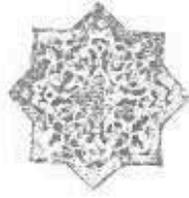
على الرغم من أن المرء يستطيع أن يفرق بكل سهولة ويسر بين كلمتي «المسيحية» و«العالم المسيحي»، ففي اللغات الغربية لا يظهر هذا التمييز بين كلمتي «الإسلام» كديانة و«الحضارة الإسلامية». وأثناء هذه الفترات العصبية التي نعيشها الآن يسهل نسيان التراث الفكري والثقافي العظيم الذي صنعه الإسلام. فعبر التاريخ الإسلامي الذي تعدى 1400 عام، منح المسلمون للعالم قمماً عظيمة في فروع الفنون والعمارة والشعر والفلسفة والعلوم، وكلها كانت تتغذى على تعاليم القرآن مستمدة روحانيته محاطة بمناخ من الورع والتقوى نابع من قلب هذا الدين، وما كانت هذه الإنجازات الفكرية والثقافية للإسلام بمجهل عن أوروبا، ولا سيما الفلاسفة والعلماء والشعراء والموسيقيين اليهود والمسيحيين، بل إن علماء اللاهوت أنفسهم قد نهلوا من إنجازات علماء الدين المسلمين.

وهذا الكتاب الذي يروي قصة غالباً ما يحيطها الكتمان، هو إضافة يحتفى بها إلى الأدبيات التي كتبت عن التاريخ الفكري والثقافي للعالم الإسلامي وكذا الكتابات التي تحدثت عن علاقة الإسلام بالغرب. ففي كثير من الأحيان، يقتصر الحديث عن إنجازات الحضارة الإسلامية وصلتها القوية بالغرب على أعمال الباحثين والدوريات الأكاديمية، علاوة على ذلك فالكثير من الأعمال المتوفرة ترسم صورة من صدام قائم بين الحضارتين الإسلامية والغربية، بينما في واقع الأمر كانت العلاقة بينهما يرسبها التبادل والتكافل. ومن المأمول أن يساعد هذا العمل في تحسين فهم الغرب للإسلام وإدراكهم أنه كما كان ماضيها مشتركاً ومتداخلاً وبناءً في الكثير من جوانبه، فالفرصة مواتية لمستقبلنا معاً أن يصبح بناءً ومثمراً.

المخلص،

عبدالله الثاني بن الحسين





مقدمة

الضياع هو إحدى السمات المميزة للتجربة الإنسانية، فما من شيء داخل هذا العالم المادي يدوم ويبقى. وقد يعتري ذكرى ما ضاع الكثير من المشاعر النبيلة ومشاعر الألم.

ويعلمنا التاريخ أن الحضارات تزدهر وتموت وتختفي، وفي بعض الأحيان تموت هذه الحضارات سريعاً، وفي أحيان أخرى تتجرع سكرات الموت ببطء. وفي فترات أخرى كما هو الحال مع حضارة روما وغيرها تجد هذه الحضارة أصداءً لها وتبعث مرة أخرى داخل حضارة جديدة وثقافات أخرى.

بيد أن ضياع الذكرى لحضارة كاملة أمر مؤسف ومأساوي وخطير، ويرجع ذلك إلى أن كل حضارة مهما كانت عظيمة أو معيبة فهي في النهاية عبارة عن مختبر لأفكار ومثل إنسانية وأحلام وكوابيس، ونستطيع أن نستخلص الكثير من الدروس المستفادة من كل ذلك.

بعد مرور عدة أيام من وقوع أحداث 11 سبتمبر في الولايات المتحدة طلب إلى أن أكتب خطبة لواحدة من أشهر كبار التنفيذيات الأمريكيات في مجال الأعمال. وعلى الرغم من أن الموضوع الرئيس كان ينبغي أن ينصب على أعمال هذه السيدة ومجال الصناعة الذي تعمل به إلا أنه بسبب حالة الحزن العامة التي كانت تهيمن على الأجواء السائدة في البلاد لم يكن من اللائق تجاهل ذلك الحدث الجلل الذي وقع لتوه. وعلى هذا وافقت على أن تحاول أن تبني جسراً لعبور هذه الهوة المخيفة التي تفصل ما بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك من خلال إعادة إحياء ذكرى العظمة التي ألقى بذورها العالم الإسلامي والمعاني العميقة التي خلفها.

وبدلاً من التركيز على الواقع المظلم الرابض على جنبات المكان قررت أن أجعلها تتحدث عن التاريخ المذهل لهذا العالم الإسلامي والذي اكتشفته من خلال قراءاتي وأبحاثي. فقد كان تاريخاً يزخر بالاختراع والإبداع والأفكار العظيمة ويعزز قيم التسامح والتعايش، تاريخاً يعج بالإنجازات الفكرية أكثر من أوروبا المسيحية في هذا الوقت، تاريخاً عاش فيه المسيحيون واليهود والهندوس والبوذيون معاً يعملون ويزدهرون. إن الحضارة الإسلامية ألفت ببذور عصر النهضة الأوربي وساهمت في ظهور الكثير من جوانب الحضارة الغربية والعالمية الحديثة. ولكن هذا التاريخ أصبح مع بداية القرن الـ 21 نسياً منسياً وتم تجاهله وأسىء فهمه بل وأعيدت كتابته. واعتقدت أن خطبتها هذه قد تجذب بعض الاهتمام وقد تثير بعض النقد في موطننا هنا، ولكن ما لم أتوقعه هو أن يكتب المسلمون لها من شتى أرجاء العالم يرغبون في معرفة تلك الرموز الفكرية التي أشارت إليها في كلمتها وكيف يحصلون على المزيد من المعلومات.

ساعتها فقط أدركت وجود هذه الهوة العميقة من سوء الفهم على الجانبين، وأدركت أيضاً أن هذه الهوة تحتاج إلى من يسدها، وبدأت أفكر لو استطعنا أن نعيد ذكرى أمجاد هذه الحضارة فربما نضع عبارة «صدام الحضارات» في إطار جديد. وكان نتاج هذه الإرهاصات الفكرية هذا الكتاب، وإنى أعلم تماماً أن هناك أشخاصاً من غير المسلمين ممن يقفون على الجانب الآخر من هذه الهوة سيزعمون أنني أشوه التاريخ لأنني أركز على الجانب المضيء من حضارة بالغة التعقيد. وأرد على هؤلاء بأن أقول إنني ببساطة أضرب توازناً ما بين الأجزاء الأخرى الناقصة أو السلبية التي تم تلقينها لنا نحن غير المسلمين.

وكي نطبق حجج هؤلاء النقاد بعدالة وتكامل نحتاج إلى أن نضمن في تاريخنا أقصد بذلك الحضارة الغربية المسيحية أفكار فولتير والقديس طوما الأكويني فضلاً عن أعمال ومعتقدات أدولف هتلر وجوزيف ستالين.

كما قد يكون هناك مسلمون أيضاً يرون أنني سعيت لتعظيم وتمجيد مجموعة من العلماء المسلمين المهرطقين يستحقون التعظيم عليهم أو نسيانهم.

وليس بمحض المصادفة أن يكون كل المفكرين العظام والمخترعين والفنانين في الحضارة الإسلامية من العقول المبدعة، فهم يشبهون إلى حد كبير العلماء في وقتنا الحاضر، فكلُّ قد تدرّب ودرس في مجاله، يشكك دائماً في الافتراضات بغية الوصول إلى الحقيقة العليا، وكان من بينهم أتباع ديانات أخرى، وعلى الرغم من أن أفكار هؤلاء كانت مشبعة بروح فلسفاتهم ومعتقداتهم، فالقليل منهم كان من أصحاب العقول المتجمدة غير العملية، وكانوا جميعاً يعملون في سياق سياسى يختلف تماماً عما نشهده اليوم، إن مسعى العلماء المسلمين للنهل من العلم والمعرفة دفع أتقى

الحكام وأكثر العلماء ورعاً لدعم التفكير الحر والعلوم التجريبية، بيد أن الولع بالعقل والفكر تعرض للكثير من الهجوم المتزايد مع بداية القرن التاسع، وكان أحد هذه الخلافات هو ذلك الذى نشب بين «أصحاب المذهب العقلى» من المسلمين الذين آمنوا بأن اكتشاف الحقيقة الإلهية أمر يدركه أولو الأبواب، وبين «أصحاب المنهج الحرفى» الذين تمسكوا بالمعنى الحرفى من أفعال وأقوال الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ولا يختلف هذا كثيراً عن الجدل الأمريكى القائم ذى التاريخ الطويل ما بين مؤيدى نظرية داروين ومؤيدى الإبداع والتصميمات الذكية.

وبكتابة «تاريخ ضائع» أتمنى ألا أظهر إسهامات حضارة قديمة وثرية فحسب ولكن أرغب فى أن ألقى الضوء على ما توصل إليه الخليفة المأمون حين قال إن العقل والدين أمران لا ينفصلان أحدهما عن الآخر، وإن إتاحة قدر من الحرية للفكر وإطلاق العنان للإبداع الإنسانى بوسعه أن يفعل المعجزات بما فى ذلك إحلال السلام.

لا يتحدث هذا الكتاب عن الدين الإسلامى أو أى دين آخر كما لا يتحدث عن اللاهوت أو أى عقيدة دينية بل يتناول حضارة كان للإسلام فيها دور رائد. وبكتابتى لهذا الكتاب الآن والذى أستهدف به القارئ العادى وليس القارئ الأكاديمى فأنا أشبه إلى حد كبير شخصاً يوغل فى حقل من الألغام. وتزداد خطورة حقل الألغام هذا فى الفترة الأخيرة مع تزايد الإرهاب النابع من فكر إسلامى راديكالى وانتشار نماذج من الأصوليين الذين يلتزمون «بحرفية» النص فحسب فى تنظيم المجتمعات وحياة الأفراد وكذا الحروب المستمرة ما بين إسرائيل وجيرانها وثوران المنهج المعادى للسامية وغزو الولايات المتحدة لأفغانستان والعراق و«حربها ضد الإرهاب» والأزمات السياسية والاقتصادية فى بعض المجتمعات الإسلامية.

ومعظم الأمريكين بما فيهم الأمريكيون المسلمون وحتى عدد كبير من المسلمين حول العالم لا يعرفون سوى قشور التاريخ الإسلامى أى «أنهم كانوا من العظماء فى يوم من الأيام وأنهم اخترعوا علم الحساب ثم سقطوا فى مستنقعات التأخر». كما أن معظم الغربيين قد تلقن أن جذور المجد الغربى تعود إلى أيام الرومان والإغريق وأنه بعد سبات دام ألف عام بين مجاهل عصور الظلام، حدثت المعجزة واستيقظت أوروبا لتستعيد صلاتها بأصولها الرومانية والإغريقية. وكما تشير الرواية التقليدية، أن إعادة اكتشاف بلاد الإغريق الكلاسيكية وما صاحبه من دعم أخلاقى أساسه الاعتقاد اليهودى المسيحى، قد تمخض عنه عصر النهضة والتنوير والثورة العلمية والصناعية. أما الإسهامات الفكرية للعرب والفرس والهنود والصينيين والأفارقة وآخرين فى العالم الإسلامى فقد اختزلت واقتصرت على الحواشى المتناثرة هنا وهناك.

إن السواد الأعظم منا لا يعرف تفاصيل التاريخ الإسلامى بسبب حواجز اللغة وانقضاء العديد من القرون وكذا الإشارات المبهمة عن أسماء وأماكن وأحداث لا نعلم عنها شيئاً، ذلك بالإضافة إلى السرد المتعرج لتاريخ أوروبا والذي يعزى لها الفضل فى كل شىء فى عصر النهضة وفى جميع أشكال التقدم الذى حدث بعد ذلك، ومن ناحية أخرى فإن المسلمين التقليديين المتزمتين يستأصلون شأفة نظرائهم من أصحاب النظريات غير التقليدية، كما أن عمليات إحراق الكتب وتدمير المكتبات عبر التاريخ قد ساهمت هى الأخرى فى تعزيز جهلنا بالتاريخ الإسلامى.

وقد أمعنت مجموعات قليلة من الأكاديميين النظر فى هذه القضايا بجدية من خلال وجهات نظر متباينة وخلصوا إلى نتائج مختلفة.

وأول هذه المجموعات والتي أخرجت التاريخ الفكرى الإسلامى إلى حيز النور هى مجموعة «المستشرقين». ويرى هذا الفريق أن العالم الإسلامى مر بمرحلة من الإبداع الفكرى بالتحديد من عام 800 حتى 1200 ميلادياً. وقد ساهم فى إحداث هذه النهضة ترجمات المفكرين الإغريق، وما لبث أن انتقل جسم المعرفة هذا ذو الأصول الإغريقية إلى الأوربيين بفضل المسلمين. وفيما بعد وبسبب هجمات المغول والاضطرابات الداخلية التى منعت من تطور الفكر الحر داخل المجتمعات الإسلامية تخلفت الدول الإسلامية عن بقية دول العالم.

أما المجموعة الثانية فهى تيار المحافظين الجدد وترى هذه المجموعة التى ركزت على دراسة الشرق الأوسط المضطرب أنه وبالرغم من أن العرب يمثلون 17% فقط من إجمالى مسلمى العالم إلا أن الحضارة الإسلامية تضم فى طياتها عناصر تتناقض مع الحرية الفكرية والتقدم الاجتماعى والعلمى والديمقراطية الليبرالية. وقد طغت أفكار تيار المحافظين الجدد بشكل غير مسبوق على السياسة الخارجية والإعلام الأمريكى خاصة فى أعقاب أحداث 11 سبتمبر/أيلول. ويعى الكثير من غير المسلمين حول العالم هذا التيار الفكرى.

أما المجموعة الثالثة فهى معسكر العلوم المبتدئة والتي ينضم إليها فى الوقت الحالى عدد من العلماء المعاصرين. وتذهب هذه المجموعة إلى أنه حتى القرن الخامس عشر كانت علوم وتكنولوجيا المسلمين تفوق مثيلاتها فى أوروبا وقد تسرب الكثير من مظاهر التقدم هذه إلى أوروبا إبان القرون الوسطى واضعة نواة النهضة الأوروبية القادمة ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن الاضطرابات الداخلية قد بلغت المدى داخل العالم الإسلامى وظهرت بعض المعوقات الخاصة بهذه الثقافة، علاوة على تزايد الأزمت الاقتصادية والمناخية. ولم يستطع المسلمون اللحاق بركب العلم الحديث مثل الصين والهند وهو ما قامت به أوروبا.

ويمكن إطلاق اسم «الليبراليين» على المعسكر الرابع. وترى هذه المجموعة أن

مثل الدين الإسلامى وقيمه لم تكن عائقاً أو مقوضاً لتقدم العالم الإسلامى، ولكن هى التى ساهمت فى إحداث تقدم فى العلوم والتكنولوجيا والمجتمع المدنى، وتتمثل تلك القيم والمثل فى الرغبة فى النهل من المعرفة ومساواة جميع البشر أمام الله. وفيما بعد، انتقلت أشكال التقدم هذه إلى أوروبا ومنها إلى العالم بأسره، وهى لا تزال تحتل مكانة من الأهمية فى القرن الحادى والعشرين. وربما يذهب هؤلاء المفكرون أيضاً إلى أن الحضارة الأوربية اليهودية المسيحية ينبغى أن تضاف إلى توصيفها كلمة إسلامية أيضاً.

أما المجموعة الخامسة فيمكن تسميتها معسكر «أنصار الإسلام» بالرغم من أن أتباعها هم عدد قليل من السلك الأكاديمى. وتذهب هذه المجموعة إلى أن المسلمين اخترعوا تقريباً كل المظاهر الحديثة للعلم والطب والتكنولوجيا والنظام الاجتماعى إلا أنهم قد سلبوا حقهم إذ إن كل هذا لم ينسب إليهم.

كُتِبَ «تاريخ ضائع» عن وعى بكل هذه الرؤى متضمناً عناصر من كل منها. بيد أنه فى ذات الوقت لم يَتحيز لأى منها ولكنه يتفق معها جميعاً بشكل من الأشكال.

ولم يُكتب «تاريخ ضائع» للتعبير عن موقف وسط هذه المناظرة الأكاديمية البحتة، إنما يقصد إلى توضيح الخطوط البهيمية فى تاريخ المسلمين، والتى تلقاها معظمنا، والتمسك بالحقائق الراسخة مع إعادة أهم الشخصيات والأحداث إلى الحياة واستحضار الماضى المسلم المغمر والغامض والبعيد. وإظهار كيف أن الأحداث والأفكار التى مضى عليها ألف عام لها علاقة مباشرة بحياتنا اليوم. ويجب أن يعى القارئ أن الأجزاء المتعلقة بحاضرنا فى مقدمة كل فصل هى من وحي الخيال وكذلك المشاهد الدرامية بالأجزاء التاريخية، فمع الالتزام بالحقائق المستمدة من روايات تاريخية غالباً ما تتسم بعدم الوضوح فهى مبتكرة من وحي الخيال أيضاً ولاسيما عند تقديم حوار ما أو مناخاة للنفس.

وخلافاً للمؤلفات التاريخية التى تميل إلى التركيز على المفكرين والمخترعين فى ما يسمى بالعصر الذهبى للعرب والذى يشمل أيضاً بلاد فارس وإسبانيا فى الفترة الزمنية من عام 632 وحتى 1258 ميلادياً انتهاءً بسقوط بغداد، فإن هذا الكتاب يركز على العديد من العصور الذهبية للفكر الإسلامى بما فى ذلك آسيا الوسطى وتركيا العثمانية والهند المغولية حتى القرن الثامن عشر.

ولم يكن بمقدور «تاريخ ضائع» أن يلتم بالتفاصيل الهائلة والفوارق المعقدة لحضارة ألف وأربعمائة سنة والتى تتجسد الآن فى كيان يتكون من مليار نسمة. ولم يكن بمقدور «تاريخ ضائع» أن يعين كل اسم عظيم أو يلتم بكل حدث تاريخى برز فى تطور هذا الكيان الهائل الذى نسميه العالم الإسلامى. لكن ما سوف يظهر على السطح هو شكل ومعنى - وجه - حضارة قديمة دائمة التطور تمسنا جميعاً.

وما قد يطفو على السطح أيضًا هو إدراك أننا جميعًا - مسلمون وغير مسلمين - ندين بالامتنان العميق لهؤلاء الفرسان من الماضي البعيد الذين تحلوا بالشجاعة في أغلب فترات حياتهم والقسوة في بعض أوقاتها وربما حادوا عن الصواب في قليل من الأحيان ، وكذا إدراك أن الحضارة الإسلامية هي جزء من الحضارة الغربية بنفس القدر الذي تختلف فيه عنها، وأن الكثير من الصراعات التي تملأ عناوين الصحف الآن لها سوابق ومثيلات في مناظرات وخلافات وقعت منذ ألف سنة مضت .

وأخيرًا باستعادة تاريخنا المشترك الضائع، أتمنى أن يزيد شعور غير المسلمين بالاحترام ويزداد فهمهم لأولاد عمومته المسلمين بخلاف ما تقترحه السياسات وعناوين الصحف اليوم، وأتمنى أن يعرف أيضًا مسلمو اليوم كيف كان الإسلام في الماضي يطبق بما فيه مساندة للإبداع والابتكار والتسامح وتنوع الفكر والسلوك سواء على مستوى الحياة الاجتماعية أو الفردية .

وهكذا وباستعادة التاريخ الضائع يمكن أن نبدأ فهم قضايا اليوم والتي لا يمكن حلها بالقوة . وإن كان هناك درس واحد أجدى بالتعلم من تاريخ ضائع فهو أن القوة نادرًا ما تحل قضايا الروح والنفس بشكل إيجابي سواء كانت فردية أو حضارية .



أبناء روما

﴿آلَمَ (1) غَلَبَتِ الرُّومَ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)﴾

[الرّوم 3-1]

مدينة تور، فرنسا في 2006: يوم من أيام الصيف داخل مدينة فرنسية متوسطة الحجم تقع في وادي لوار وتسمى تور.

أشرقت الشمس في كامل بهائها في شهر يوليو لتلقى بأشعتها عبر سماء زرقاء تحجز بين طياتها أبراجاً متراكمة من السحب. ومن السحاب خفتت أصوات الحياة الصاخبة والحركة التجارية والأنشطة الجارية، كما تضاعل حجم حركة البشر لتبدو كخيوط النسيج ولكن إن اقتربت منها تراها أقرب إلى الحركات الفوضوية؛ فالشاحنات تدور بين الشوارع، والأطفال يتسابقون نحو الحدائق وترى رافعة إنشاءات معلقة فوق أحد المراكز التجارية الجديدة في ضواحي المدينة والنساء يتجاذبن أطراف الحديث عبر أسوار حديقة. وكل هذا بعض أجزاء من حركة المدينة.

ومن السحاب تستطيع أن ترى الصورة بشكل أكبر، فتبدو شبكة الطرق غير عشوائية، إنما تحددها احتياجات وأنشطة الحركة السكانية المستمرة، وتلتقى تلك الشبكة بالطرق السريعة المتجهة شمالاً إلى باريس وجنوباً وغرباً تجاه البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي. وهكذا يبدو الوجه الأكبر لمدينة من المدن ومحيطها الطبيعي، فهو أشبه بالفسيفساء المصنوعة من آلاف المكونات، والتي قد تبدو منفصلة وعشوائية إذا ما نظر إليها منفردة ومن مستوى أقرب، غير أنها من مكان بعيد ومرتفع تبدو ككيان واحد من التراب والحجارة والخرسانة أو من الحقول والغابات والأنهار. ويتجاوز عمر هذا الكيان أعمار المكونات المنفردة التي تشكله.

إن يوماً من أيام صيف فرنسا لهو أشبه باللوحات الزيتية التي تصور الحياة الريفية كما رسمها فنانون مثل فراجونار وبوسان وواتو فترى فيها الغيضة المكتظة بالأشجار

المورقة والواحات التى تلوح وسط مساحات اللوحة الواسعة التى تضم الحقول والشجيرات والقرى . إن هذا لهو بالفعل واحد من تلك الأيام .

وفى يوم كهذا يذهب الناس إلى الحديقة الرئيسة بوسط مدينة تور ويصطحبون معهم كرات القدم وأجهزة الأى بود . ويبدأ الطلاب الذين أطلقت الإجازات سراهم من داخل أسوار المدارس بلعب الكرة . وهناك تتحدث سيدة مسنة مع حفيدها بالقرب من النافورة . كما تظهر عائلة مسلمة من محبى التجوال فى فترة النهار وهى عائلة الغافقى ، تستمتع بالنزهة التى أتوا لها خصيصاً من باريس . ترتدى المرأة غطاء للرأس كما جرت العادة فى مدن المغرب مسقط رأسها لكنها تفعل ذلك فى غير أوقات العمل ، حيث إنه غير مسموح بارتداء غطاء للرأس فى أثناء العمل بموجب القوانين الفرنسية ، بينما يرتدى الزوج زياً رياضياً . ولقد عاشت عائلة الغافقى فى فرنسا لعقود ، وحتى الآن ، كما أن أبناءهم - وهم الآن فى فترة المراهقة - قد ولدوا فى فرنسا ويتحدثون الفرنسية بطلاقة أكثر من العربية .

وتحيا العائلة حياة كريمة فى مديرية رقم 10 بباريس ؛ وهى عبارة عن حى عربى راق . ويشعر أفراد العائلة بأنهم محظوظون ، خاصة فى ظل استمرار أجواء التوتر التى تحيط بالمهاجرين . فقد عاش الزوج إدريس والزوجة كريمة 20 عاماً فى فرنسا معاً ، بينما يعانى أحد أصدقائهم ، الذى هاجر منذ فترة طويلة بدون زوجته وابنيه . فقد حاول مؤخراً أن يأتى بهم إلى فرنسا غير أن أسرته قد تم ترحيلها قسرياً إلى المغرب . وبخلاف الكثير من المهاجرين الذين يواجهون المشكلات فى الاندماج بالمجتمع الفرنسى باقتصاده وثقافته استطاع كلا الزوجين أن يجدا وظائف مناسبة لهما؛ حيث تعمل الزوجة كمدرسة فى إحدى المدارس الحكومية ، كما يعمل الزوج محاسباً فى شركة كريديه ليونيه . ولا تتميز العائلة بالثراء ، لكنهم فى ذات الوقت ليسوا ممن يعانون شظف العيش . وقد تباعدت صلاتهم بالمغرب مع مرور الزمن ، وهم يعتبرون أنفسهم الآن من الفرنسيين المسلمين .

وتور مدينة لها تاريخ يبدو أشبه بالممثل الصغير داخل أحداث درامية كبيرة تكون فى بعض الأحيان كبيرة وممتدة لفترة طويلة بحيث ينسى من عاشوها الصورة الأكبر التى كانت تهيمن على الوضع فى يوم من الأيام . يعود تاريخ المدينة إلى زمان بلاد الغال وعهود الرومان أى إلى حوالى ألفى عام . وكانت مدينة تور تعرف باسم تورنيسيس خلفاً لاسم القبيلة التى كانت تقطن هذه المنطقة ألا وهى قبيلة التورنز . كما كانت مدينة تور الوطن الأخير لأحد حراس الإمبراطورية الرومانية الذى اعتنق الديانة المسيحية وأصبح اسمه القديس مارتن . بعد أن ترك خدمته للإمبراطور أصبح مارتن أسقفاً كاثوليكياً فى القرن الرابع قرابة نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية . وقد اشتهر الأسقف بتواضعه وكرمه . فى أحد الأيام عندما شكأ أحد الشحاذين من البرد خلع الأسقف رداءه وقسمه نصفين وأعطى أحدهما للرجل الفقير . وفى أعقاب وفاة مارتن بُنى ضريح له ووضع فيه متعلقاته ، ثم تم بناء كنيسة على ضريحه تسمى كنيسة بازيليك القديس مارتن .

وهكذا أصبح هذا الضريح مكاناً له مهابته خاصة في سنوات الظلام الطوال التي تلت سقوط روما. ولطالما أتى الحجاج إلى الضريح كي يقدموا قرابينهم، وبهذا أصبح المكان يتسم ببراء فاحش. كما نهب الفايكنج المدينة مرتين في القرنين التاسع والعاشر، لكنهم لم يتركوا وراءهم أى آثار واضحة توحى بقدمهم.

وفيما بعد أصبحت تلك المدينة الكاثوليكية القديمة مقراً للبروتستانتيين الفرنسيين كما ازدهرت فيها صناعة النسيج في القرن الـ 17. ولو كان في ذلك الزمان قد سمح بتنامى نفوذ البروتستانت الفرنسيين لبانت فرنسا دولة بروتستانتية مثلها في ذلك مثل إنجلترا أو ربما حتى مكاناً لوجود مزيج من الديانات مثل ألمانيا.

بيد أن البروتستانتيين الفرنسيين أُجبروا على الرحيل أو تغيير دينهم بسبب إصدار المرسوم الملكي لنانت. فأخذ الكثير منهم مهارتهم في صناعة النسيج معهم إلى أيرلندا. وهكذا ظلت فرنسا وتور كاثوليكيتين. وخلال الثورة الفرنسية وعهد نابليون في أوائل القرن الـ 19 مرت بمدينة تور أحداث جُلِي. وما زالت توجد في المدينة شجرة أرز كبيرة زرعتها نابليون فوق الحديقة التي يستمتع الناس بقضاء يوم الأحد فيها الآن. وإبان الحرب الفرنسية البروسية وخلال حصار بروسيا لباريس كانت تور عاصمة فرنسا المؤقتة في ذلك الوقت.

وفي وقتنا الحاضر تعتبر تور عاصمة مقاطعة أندريه دو لوار ونقطة انطلاق الرحلات السياحية إلى قصور وادي لوار. كما تحتفظ المدينة بكاتدرائية القديس جاتيان العظيمة التي لازالت تقف بشموخ هناك وتنعم بالسلام والازدهار. هذا بإيجاز تاريخ مدينة تور ككل. ويبدو أن تاريخها موثق بشكل مناسب كما أن هويتها صلدة وقوية.

وبالرغم من وجود بعض الأدلة المادية للتاريخ الإنساني هناك فإنه لا يزال محدوداً كما أنه يتلاشى بمرور الزمن. ففي هذه الرقعة مثلاً نجد أن كل ما يتبقى من التاريخ الروماني ما هو إلا بعض البوابات والأبراج، ومن ثم ينبغى على المرء أن يقتنع تماماً بدقة كتابات المؤرخين المهترئة التي تم جمعها والروايات التي تم تناقلها عبر خمسة أجيال، والتي تحكى تاريخ المكان، وذلك بالرغم من اختفاء الأدلة المادية على الغال وروما منذ زمن بعيد.

ولكنك في ذات الوقت عندما تمعن التفكير في الأدلة المادية للقرون الأخرى المتداخلة تجدها هي الأخرى متفاوتة. فهل دخلت أوروبا فعلاً في عصر من الظلمات بعد سقوط روما في 476 أم كانت هذه مجرد إشاعة لا أكثر. يوجد في مدينة تور مجموعة من المنازل المصنوع نصفها من الخشب، ويعود طرازها إلى العصور الوسطى وتحتلها الآن الحانات الصغيرة والمحال، وهو مكان يرتاده الناس كي يأكلوا ويشربوا ولكن هل يعد هذا من الأدلة المادية؟ والغابات الكثيفة في عصور بلاد الغال والرومان تحولت إلى حقول، ثم عادت كي تصبح غابات ثم حقولاً مرات عديدة عبر القرون. كما أن الغابات الخشبية التي كانت تأوى

إليها في يوم من الأيام الأيائل والذئاب والدببة قد أصبحت الآن ضواحي وطرقاً سريعة ومزارع ومراعى .

غير أنك ينبغي أن تقف على مسافة بعيدة جداً كي ترى السور الأكبر .

فالأماكن المحددة لأحداث بعينها وقعت منذ آلاف السنين ولكنها بعد سقوط روما غير معروفة حتى الآن . فأحداث القرن الثامن ، على سبيل المثال ، بدءاً من عهد شارل مارتل الذى اشتهر بلقب المطرقة لا يمكن تحديد أماكنها الفعلية على خريطة مدينة تور . وبالرغم من أن لشارل الفضل في تغيير مقدرات مدينة بأكملها ، بل قارة وحضارة أيضاً ، فلا يعرف أحد مكان كل ذلك بالتحديد . وهذه الأحداث العظيمة مذكورة بإيجاز في الكتب السياحية وبعض اللوحات التذكارية المتناثرة في المكان .

ومما لاشك فيه أن تلك هي أهم الأحداث التى وقعت في مدينة تور عبر تاريخها الممتد خلال ألفى عام ، لكن كل ذلك يبدو غير ذى أهمية لمرتادى الحديقة الآن ، فهم منشغلون في شئونهم الخاصة وحياتهم واحتياجاتهم . واليوم هو أحد أيام الأحاد الجميلة ، حيث عدد قليل من الناس يحضر القداس المنعقد في كاتدرائية القديس جاتيان وكنيسة القديس مارتن الصغيرة ، كما تجتاح الصغار حالة من المرح الصاخب بسبب حلول الصيف وانتهاء أيام الدراسة . وتنهل الجدة من إحساس السعادة الذى أورثه مد الله في عمرها كي ترى حفيدتها . أما عائلة الغافقى فتتمتع باليوم الذى تقضيه بعيداً عن منزلها وتشاهد مكاناً جديداً .

وبخلاف المنطقة التى يعيشون فيها في باريس ، تخطط مدينة تور لبناء مسجد في الجوار . فحالة التوتر العرقى الذى تعانيه باريس وحادث إشعال النيران في السيارات الذى وقع عام 2005 في منطقة كليشى سو بوا بعيد كل البعد عن ما يحدث في تور . فالتيارات الشديدة والأنماط المتعددة للحركة الأوربية والهجرة والتمازج بين الثقافات يبدو أنه تجاوز مدينة تور .

ويتجه أبناء عائلة الغافقى نحو النافورة بينما يستمتع والداهما بغدائهما المكون من الجبن ولحم الضأن . ولا تجذب العائلة أنظار أحد في الحديقة ، ومن منظور أعلى تكاد العائلة تتلاشى عن الأنظار .

وقد يبدو كل ذلك هو لب تاريخ تور حتى لو كان جزء من هذا التاريخ ضائعاً؛ فالأمر غير مهم .

وبينما تقرأ كريمة جريدتها يجلس إدريس على البطانية وينظر إلى المشهد المترامى أمام بصره وبحوزته نشرة سياحية التقطها من مكتب السياحة . يلقي نظرة على النشرة ، ثم يرفع بصره مرة أخرى وينظر إلى ما وراء الحديقة حيث المدينة . ولأنه الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية ومشاهدة سباق السيارات ، فإنه أخذ يتساءل بينه وبين نفسه إن كانت هناك حلبة سباق قريبة .

لقد كان يتوقع الكثير من هذه الرحلة وأعتقد أنه سمع الكثير من الأمور الطيبة عن مدينة تور ، لكنها كلها كانت خليطاً من الروايات التى سمع الآخرين يروونها ولكنه

لا يتذكر أى تفاصيل محددة الآن . وبالطبع لن يخبر زوجته عما يدور فى ذهنه؛ ترى أكان من الأفضل أن يذهبوا إلى مكان آخر، ربما مثلاً إلى سواحل برينانى التى يعشقها، أو إلى بروفينس التى لم يسبق له أن رآها، غير أن تلك الأماكن كانت بعيدة لرحلة اليوم الواحد، فهم مضطرون إلى العودة فى ذات اليوم حيث إن لديهم مناسبة عائلية فى الغد. لقد كان إدريس يتوقع ما هو أكثر من ذلك، لا يعرف بالضبط ماذا يريد، ولكنه لا يجده هنا فى تور. ويعاود النظر عدة مرات إلى المدينة وكأنما يبحث عن شيء مفقود. هل ثمة شيء يحدث خارج مرمى بصره؟ هل رأى وميضاً يتلألأ أو ضوءاً يلمع؟ هل صرخ أحدهم من بعيد؟

وفيما بعد وهم يمرون على كاتدرائية القديس جاتين المصنوعة على الطراز القوطى وكنيسة القديس مارتن التى أعيد بناؤها من جديد يستهويه أمر ما. هو مسلم الديانة، لكنه ليس متديناً بقدر كبير حيث يسمح لنفسه باحتساء النبيذ والبيرة ولا يذهب إلى المسجد كثيراً على خلاف المهاجرين حديثى العهد. كما أنه لا يشعر بالارتياح فى ظل الأجواء الدينية الشديدة.

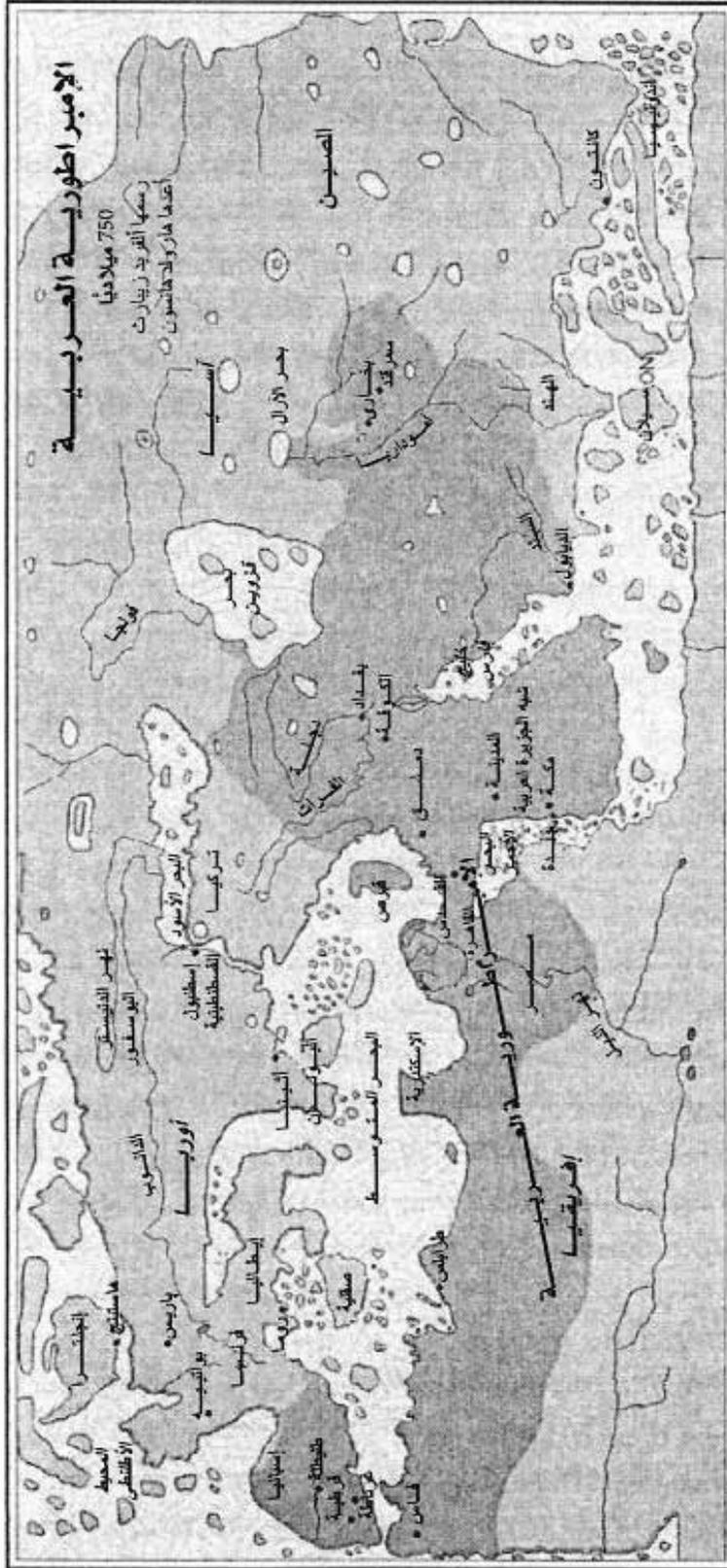
ولكن ماذا عن تلك الكاتدرائيات... تبدو على أبنائه علامات عدم الاهتمام، أما الزوجة فترغب فى أن تذهب لرؤية المحلات، ولكنه يتوقف هاهنا وينظر إلى الحواجز التى تحيط بالسقف وإلى الأقواس المسننة بينما يمضى الآخرون قدماً لكنه يبقى ويقف فى ظل الزجاج الملون.

تلك الكاتدرائيات تذكره بشيء؛ شيء من بعيد، من زمان سحيق، ولكن ترى ما هو؟ المكان البعيد والزمان السحيق بالنسبة له هو المغرب. ولكن ما علاقة تلك الكاتدرائيات المسيحية بالمغرب الإسلامية؟ هل الأمر له علاقة بالأقواس المسننة وصفوف الأعمدة والأبراج؟

ومن فوقه تعلق السحب أكبر فى السماء، ربما تمطر السماء فى أية لحظة، وفى اتجاه الغرب يبدو الأفق رمادى اللون مصبوغاً بالأزرق الداكن. لم يجلب معه المظلة الواقية من المطر، ربما يكون من الأفضل له الآن أن يحاول اللحاق بالعائلة. فربما ينتهى اليوم بسرعة بالنسبة لهم بسبب الأمطار وهم يرغبون فى رؤية المزيد، قدر الاستطاعة، قبل أن يبدأوا رحلة العودة إلى منزلهم.

ولكن ماذا كان الهدف من زيارة مدينة تور؟ لماذا أتى إلى هنا؟ هل هناك أمر ما لم يحكه أحد أو يره إياه أحد؟ هل هناك مدينة أخرى تسمى تور غير هذه؟ ربما أفضل حالا وأكثر تشويقاً؟ هل نسى شيئاً أم أضاع شيئاً؟

مكة، الجزيرة العربية 570 سنة بعد الميلاد: من بين الكثير من خيوط نسيج التاريخ الضائع يوجد خيط من الوحي الإلهى. وهذا الوحي الإلهى تشترك فيه الأديان الثلاثة التى نزلت مع النبى إبراهيم عليه السلام وإن كان له شكل مختلف. وتتبع تلك الأديان السماوية الثلاثة من المصدر نفسه، وتؤمن بالرب نفسه، وتدعو إلى القيم ذاتها وتستخدم الكثير من نفس الأسماء الواحدة، والتى تأتى من الجذور اللغوية، كما تبجل الأديان السماوية الثلاثة نفس القديسين والأنبياء.



مع حلول عام 750 ميلادياً أى قرابة ما يزيد على 100 عام من وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تنامت الدولة الإسلامية إلى أقصى حدود ممكنة لها.

أما ثالث الأديان السماوية وآخرها فبدأ تنزله في أطراف المدينة العربية العتيقة، مكة المكرمة.

ظهر الحرم المكي في فترة ما قبل نزول الإسلام حول بئر زمزم الذى رحل إليه سيدنا إبراهيم أبو اليهود والمسيحيين والمسلمين في زيارة في الأزمان السحيقة. وبالكعبة أيضاً حجر أسود مبارك تنزل من السماء. وكانت العشائر في مكة في ذلك الوقت تعتمد على الزوار الذين يأتون لزيارة مقدساتهم الدينية ويتركون القرابين لها ويصرفون الأموال على الطعام والسكن. كما كانت تلك العشائر تؤمن تماماً بأنها كى تجذب أكبر عدد من الحجاج إليها فينبغى تمثيل أكبر عدد من الأديان لديها.

كانت مكة في ذلك الوقت مدينة تجارية لا دين لها يحيط بها المؤمنون وغير المؤمنين من أطراف مختلفة. وكان اقتصادها يرتكز على تعدد الآلهة، ذلك هو أبسط توصيف لحالتها. وفي ذلك الوقت كان القساوسة المسيحيون ينتمون إما إلى الكنيسة البيزنطية وإما إلى الكنيسة الآشورية في الشرق، والتي كانت تعرف أيضاً باسم الكنيسة النسطورية. وكان الحاخامات اليهود يدرسون تعاليم التوراة كما كان هناك عباد للنار وعباد الإله مئرا وعباد إلهة الخصوبة وعرافون وكهنة ومداؤون وأطباء مشعوذون. فهناك من ينتقى ويختار من يعبد وهناك من لا يختار شيئاً.

وتتحدد ملامح الحياة وشكل المجتمع بفعل الطبيعة والمناخ حيث تندر المياه ويغلب على الطبيعة وجود الصحارى ذات الرمال الملتهبة وخطوط السواحل والشواطئ المتعرجة التى تغمرها المياه ذات اللون الأزرق النئلى وتظهر التلال الصخرية من وقت لآخر بشكل منتظم والجبال وعرة التضاريس أشبه بنصل السكين. كما تتوافر المسطحات السوداء المصنوعة من الصخور البركانية التى خلفتها تدفقات الحمم فى الأزمان القديمة. وبينما تحتل بعض المدن والموانئ هوامش المحيط الخارجى للمكان فإن الدخول فى وسطه أمر محفوف بالمخاطر ومميت فى أغلب الأحيان. أما الحياة فى المدن البعيدة عن السواحل فتقوم على الآبار والعيون والواحات، التى يبدو وجودها فى هذه الأماكن القاحلة بمثابة المعجزة. وقد سمح وجود مثل هذه الواحات بزراعة القمح والشعير ونخيل البلح، كما أنهم يوفرون مصدراً للظل أيضاً. أما تحت أشعة الشمس العارية فى نهار اليوم فتصل درجات الحرارة إلى (حوالى 48 درجة مئوية) ومن ثم تصبح من أكثر بقاع الأرض حرارة. أما فى مساء الشتاء، فتبدأ الحرارة فى الهروب إلى الفضاء عبر الغلاف الجوى الخالى من السحب ليجلب موجات من الصقيع تخدر الأبدان.

لكن هذه الظروف القاسية لا تعنى بالضرورة انعدام الحياة أو الحضارة أو حتى التاريخ. وبالرغم من أن ندرة المياه قد تمنع فى الكثير من الأحيان نمو المدن والمجتمعات الكبيرة فإنها لم تمنع تاريخ الجزيرة العربية الطويل والغنى بالخبرات من البرزوغ. وبحلول القرن السادس كانت الجزيرة العربية قد تفاعلت بالفعل مع حضارات قديمة مثل الحضارة المصرية والفينيقية والآشورية والفارسية والإغريقية والهندية والرومانية والبيزنطية وذلك من خلال التجارة فى البهارات الغالية والبخور

والمر . وتلتصق الجزيرة العربية مباشرة بالأراضي الأولى المذكورة في توراة اليهود وإنجيل المسيحيين .

وفي مثل هذه البيئة الجافة والغنية في ذات الوقت كان أساس القانون والنظام هو العشيرة التي تنقسم بدورها إلى عدة قبائل . ويبدو المجتمع بأسره عبارة عن لوحة فسيفسائية من العشائر تتحالف مع بعضها البعض بشكل مستمر وتمارس الأعمال التجارية وتنظر في الشكاوى والتظلمات ، وفي بعض الأحيان تدخل في منازعات أيضا . وبالرغم من أن الطابع البدوي هو السائد على السكان العرب في القرن السادس فإن قانون العشائر لا يزال هو القانون السارى على المدن أيضا . فالعشيرة هي التي تقرر في نهاية الأمر كل شيء ، ووالأسفاه على من لا عشيرة له حيث سينتهى به الأمر أن يصبح عبدا لا حقوق له على الإطلاق .

ويلوح في الأفق المجاور للمناخ السياسي للجزيرة العربية الإمبراطوريات العظيمة والدول الأصغر حجماً والمالية لها عسكرياً . أما الدول العظمى فهي بيزنطة وبلاد الفرس الساسانية ، والدول الأصغر المالية لها عسكرياً هي مصر وسورية وفلسطين وبلاد الرافدين وبلاد الحبشة المسيحية التي يفصلها عن الجزيرة العربية البحر فحسب .

وفي وسط هذه الطبيعة الموحشة وفي حوالى العام 570 يولد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ويصبح شاباً ذا نسب طيب وظروف متواضعة حيث يذوق اليتيم في سن مبكرة . وبالرغم من أنه لا يتمتع بالمال ولا بالنفوذ غير أنه ذكي وحساس .

وكراعى غنم صغير السن يشاهد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الشمس والقمر والنجوم وهي تتحرك في السماء . كما يشاهد حركة القوافل وصراع الحيوانات في البرية كما يسمع أناشيد الديانات المختلفة ويشعر بوطأة الفقر .

وينتمى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إلى قبيلة قريش التابعة للعشيرة الهاشمية ، والتي سوف تأتى في يوم من الأيام بسلسال من الملوك في دولة لم تعرف بعد وتسمى الأردن .

يتمتع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بالوسامة الشديدة ويعرف بالأمانة . وعندما يبلغ سن الرشد يقوم برعاية الجمال لأحد أكبر القوافل التابعة لعشائر مكة . ومن هنا يترقى في عمله حتى يدير القوافل بنفسه وأعمال التجارة أيضا . ويؤدى أداء طيباً في عمله لدرجة أن أموال أصحاب القوافل تزداد وتنامى . وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره يدير إحدى القوافل التي تملكها أرملة ثرية تدعى خديجة ، رضى الله عنها ، وهي من أصحاب الأعمال التجارية وذات شخصية مستقلة كما تمتلك قدراً عالياً من الأخلاق والقيم . وحيث إنها تحيا وحيدة يتقدم لطلب يدها العديد من الخطاب ، لكنها ترفضهم جميعاً .

تنتبه خديجة ، رضى الله عنها ، لهذا الشاب الذى يعمل عندها بالرغم من أنها تكبره بحوالى خمسة عشر عاماً . وفي مرحلة ما تبعث إلى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عارضة عليه الزواج ويقبل هو بالعرض ويتزوجان .

ويزدهر العمل ، وبالرغم من أن الزوجين يفقدان اثنين من أبنائهما فإن بناتهما الأربع يبقين على قيد الحياة . وبسبب زواجه ونجاحه يؤدي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، دورًا كبيرًا الآن داخل المجتمع الذي يتناسب وأصله الكريم . وبعد وفاة السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، يتزوج سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نساء أخريات .

ومثله مثل أغلبية رجال مجتمعه لا يتلقى سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، تعليمًا رسميًا . وتخبّرنا المصادر التقليدية أنه لم يكن يستطيع لا القراءة ولا الكتابة ، لكن هذا الوسط كان يهيمن عليه الاتصال بالوسائل الشفهية ، كما كانت أرقى فنونه هي فنون الشعر . فأعظم عقول هذا المجتمع وأكثرها إبداعًا كانت تعبر عن نفسها بإلقاء الشعر . كما كانت الجوائز ترصد في ذلك الوقت لمسابقات إلقاء الشعر وسرد القصص . وهذا الشاب الصغير ، بالرغم من أنه لم يكن شاعرًا فإن الشعر كان يخلف أثرًا عميقًا في نفسه مثله في ذلك مثل بقية سكان الجزيرة العربية .

وكانت اللغة التي يتحدثها الناس في ذلك الوقت هي العربية الفصحى ، أما بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يجيدون الكتابة فقد كانت الحروف المستخدمة هي عبارة عن صياغة زخرفية منحنية تعبر عن وعي وإدراك مختلف تمام الاختلاف عن الكتابة الرومانية . فالألقباء الرومانية لها أحرف جامدة منتظمة مثل رءوس الأعمدة الرومانية وكذا مثل المنطق الذي يحكم القانون الروماني ، أما الخط العربي فهو أكثر قربًا من العمل الفني الذي يحتوى على الكثير من الروحانية والإلهام .

وربما كانت القصة تنتهي هنا بأن يكبر هذا الرجل المكي ، الناجح في أعمال التجارة ، في السن ويلحق بزوجته في العالم الآخر وأن يترك وراءه عشيرة كبيرة مزدهرة ومؤثرة فيمن حولها .

لكن الوحي يبدأ في النزول على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في سن الأربعين . في البداية يشعر وكأنه على حافة الجنون . ووفقًا لما جاء في روايات السيرة المحمدية يخبر محمد ، صلى الله عليه وسلم ، السيدة خديجة رضى الله عنها بما يحدث له وعندها تأخذه ، وهي تشعر بالارتباك ، إلى ابن عمها - ورقة بن نوفل - الذي له علم بديانات أهل الكتاب ، فلما سمع ما حدث طلب منه أن يهدأ وأن يشكر الله على نعمته عليه؛ لأن ما يراه هو رسائل من الله .

ويقبل سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بحقيقة أن ما ينتزل عليه هو كلام الله سبحانه وتعالى . ويأمره الملك جبريل عليه السلام بأن يقرأ ومن عقله وعلى لسانه تنسال تلاوة متدفقة غزيرة كأنغام القيثارة ، ويقدر لها أن تستمر مدة 23 عامًا يحفظها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ثم تنتقل إلى تابعيه فيما بعد . وبمرور الوقت وفي خلال هذا الدفق من الكلمات ، تتجلى صور هذا الدين وهيكله الذي ينبع من الأديان اليهودية والمسيحية ويحترم ويقدر سلسال الأنبياء اليهود والنبي عيسى عليه السلام ، كما يضيف إرشادات جديدة ليس فقط فيما يتعلق بعلاقة الانسان المباشرة بالله ، ولكن أيضا بكيفية اتصال الإنسان بالموجودات الأخرى التي خلقها الله ، والتي تعبر كلها في

النهاية عن عظمة الخالق . ومجموع هذه الآيات المنزلة يشكل ما يطلق عليه القرآن ، وهى وفقاً لما يؤمن به المسلمون كلام الله المكتوب الذى أنزله الله على نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من خلال الملك جبريل عليه السلام . أما أقوال الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله فقد تم جمعها وتعرف باسم السنة النبوية .

وتتمثل الأركان الخمسة لهذا الدين الجديد فيما يلى: الإيمان بالله ورسوله ، وإقامة الصلاة خمس مرات يومياً تجاه قبلة المسلمين؛ أى مكة وتلاوة آيات من الذكر الحكيم فى أثناء الصلاة ، وإيتاء الزكاة للمحتاجين ، وصوم رمضان؛ أى الامتناع عن إتيان أى من الشهوات من مطلع الفجر وحتى غروب الشمس ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وبخلاف تلك النقاط السابق ذكرها يتناول القرآن الكريم كيفية حفاظ المرء على نظافته وصحته وممارسة أعماله الدنيوية بقدر من الأخلاق والقيم وجعل المجتمع أكثر كرمًا وسخاءً وإنسانيةً . كما يدعم ضرورة إعطاء المرأة حقوقها والسعى لاكتساب العلم والمعرفة وجهاد النفس والدفاع عن الإسلام .

ووفقاً للقرآن الكريم يطلق على هذا الدين اسم «الإسلام» وتعنى كلمة الإسلام بالعربية الإذعان أو الاستسلام لإرادة الله عز وجل كما تشترك فى جذرها بكلمة السلام .

لم يظهر الشكل النهائى للقرآن بترتيب نزول الآيات ولكنه رتب تقريباً حسب طول السور ، من «الفاتحة» إلى «الناس» . وبالرغم من حفظ الصحابة القرآن ، وكتابة له وكتابة بعضهم له ، فلم تبدأ حركة تدوينه الفعلية إلا بعد مرور 20 عاماً من وفاة الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه . وستتمثل مهمة بعض الصحابة فيما بعد ، وهى المهمة التى ستكون مصدراً لإثارة نزاعات وخلافات ، فى المستقبل ، فى الاتفاق على تفسير كلام الله فى ضوء الكلمات التى نزلت على الرسول الكريم وأخذت منه ، ولاسيما فى المواقف الجديدة التى ستتكشف مع مرور الوقت ، والتى يبدو أن القرآن لا يشتمل على مثيلاتها ، أو تلك التى تبدو متناقضة .

إن الوصايا التى خرجت بها علينا تعاليم الرسول سوف تعجل بازدهار فكر الحضارة الإسلامية ، كما سوف تلهب شرارة البحث وراء العلم والمعرفة والاكتشاف وتشمل هذه:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«إن مداد العلماء فى الميزان أثقل من دم الشهداء وأكثر ثواباً يوم القيامة»
(رواه الديلمى فى الفردوس (488) .

عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه فمّن أخذه بحظ وافر» (سنن ابن ماجه) .

عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير» (سنن الترمذى).

وسيتكشف الأثر الثقافى والتاريخى العظيم لهذه الكلمات فى المستقبل.

وإبان اتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، للأوامر الإلهية بنشر الرسالة للآخرين يحدث الخلل والارتباك فى نظام مكة حيث يطلب منهم هدم الأصنام الموضوعه داخل الحرم المكى وهم يرون أن هذا يضر بأعمالهم التجارية غير أن إصرار النبى، صلى الله عليه وسلم، على أنه قد أتى بالدين الحق يجعل أصدقاءه وحلفاءه ينقلبون ضده بينما يؤمن آخرون برسالته وينضمون إلى دعوته.

وفى نهاية الأمر وبينما دعوته للإيمان بالله الواحد تهدد حالة الوفاق والاتفاق فى مكة يزداد عدد أعدائه وحقدهم عليه فيخططون لقتله. فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة وكانت تعرف قبل الهجرة بيثرب.

ويحاول أعداؤه فى مكة الهجوم عليه عدة مرات، لكن محاولتهم تبوء بالفشل كما ينقلب ضده بعض الحلفاء. ويفوز النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، فى معركة الأخيرة أمام قريش ويفتح مكة، ومع أتباعه كان شديد الكرم، ومع من أساء له كان شديد التسامح. ويبدأ بعد ذلك الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، فى نشر دعوته فى جميع أرجاء الجزيرة العربية وفى ذات الوقت يحافظ على عهده بإعطاء أهل الكتاب مكانة خاصة، وهم أتباع الديانتين الأخرين من نسل إبراهيم عليه السلام، ألا وهما اليهود والمسيحيون. ويبلغ الرسول، صلى الله عليه وسلم، الستين من عمره ويبدأ الحديث عن موته بالرغم من أنه يبدو وكأن الآخرين لا يسمعون ذلك. وفى خطبة الوداع يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجموعة من الرؤى والمفاهيم التقدمية التى سيناضل البشر لتحقيقها فى الألف عام التالية مثل الجزئية التالية من خطبة الوداع التى تتناول المساواة العرقية والمساواة ما بين الأجناس.

«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وادم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»⁽¹⁾.

وبعد خطبة الوداع هذه بفترة وجيزة يمرض الرسول ويتوفاه الله. وبالرغم من أنه كان دائماً يحذر أتباعه ويخبرهم أنه لن يعيش أبداً، لكنه حين يموت تنتاب أتباعه حالة من الذهول والحزن الشديد وتعلن حالة الحداد لأيام. ويتساءل الكثيرون عن من سوف يقودهم الآن.

ومن ثم تصبح قضية الخلافة محل نزاع داخل الأمة الإسلامية الشابة. ويبقى السؤال: من منهم يستحق أن يصبح خليفة للمسلمين وأن يقود الأمة نحو المستقبل؟

وتساند إحدى المجموعات أبا بكر الصديق والد زوجة الرسول وأم المؤمنين السيدة عائشة، رضى الله عنها، مستشهدين بروح القيادة لديه ونزاهته وطيبه قلبه وحكمته وقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد كان أحد صحابة النبي، صلى الله عليه وسلم، كما كان من أوائل من اعتنق الإسلام، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحبه ويثق به. ألم يطلب من أبى بكر وهو على فراش الموت أن يؤم المسلمين فى الصلاة؟ ومن ثم فلا بد أن يكون هو الشخص الذى يختاره الرسول كى يمسك بالخلافة.

ومن ناحية أخرى تساند مجموعة أخرى على بن أبى طالب وتدعم ذلك بقولها أن علياً، رضى الله عنه، من أهل بيت الرسول. كما أن الرسول كان يحبه حبه لأبنائه وقد اختاره وفضله على بقية الرجال وزوجه ابنته فاطمة رضى الله عنها. ويزعمون أن الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، فى يوم من الأيام أمسك بيد على ورفعها عالياً فى السماء فى ظهر يوم شديد الحرارة وأعلن أنه خليفته وأنه القائد.

وفى يوم وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تجتمع مجموعة من الرجال فى فناء أحد المنازل كى يتشاوروا ويختاروا الخليفة. وتختار هذه المجموعة سيدنا أبا بكر، رضى الله عنه، ويمنحونه عباءة الخلافة. وفى اليوم التالى يقف سيدنا أبوبكر، رضى الله عنه، أمام المسلمين على منبر المسجد فى المكان الذى كان الرسول يلقى منه خطبه على المسلمين. وتبايعه الأمة الإسلامية بوصفه أول خليفة للمسلمين.

لكنه لم يكن هناك إجماع فى رأى على اختيار سيدنا أبوبكر كخليفة للمسلمين، فهناك من كانوا يرون أن سيدنا علياً، رضى الله عنه، قد حرم من أحقيته فى الخلافة، وأن هؤلاء الذين اختاروا سيدنا أبا بكر، رضى الله عنه، وأرضاه، لم يحترموا رغبة الرسول. ولقد خلقت مثل هذه التوترات السياسية التى أحاطت بمسألة الخلافة تصدعات عميقة داخل الأمة، ومن ثم انقسم الولاء بداخلها ومهدت الطريق لظهور الانقسام فى مرحلة لاحقة فى الإسلام ما بين طوائف السنة والشيعة.

ولقد ألقى أبوبكر أول خطبة له قائلاً:

أما بعد أيها الناس فإننى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعنينى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله (2).

وبالرغم من أن قضية الخلافة سوف تزرع بذور الشقاق المستقبلى داخل الأمة الإسلامية فإنها فى ذات الوقت سوف تطلق شرارة جدل سياسى ثرى حول قضايا

القيادة والمشاورات السياسية، والتي بدورها سوف تُحیی تناول مسائل الدولة والسياسات. ومن ثم فسيتحدثون عن الأمور المتعلقة بكيفية اختيار القائد، ومن الذى يقوم بعملية الاختيار هذه، كما سيتناولون ماهية صفات هذا القائد ومقدار أهمية القبول الشخصى له ومستوى تعلمه فضلاً عن تناول الأدوار الاجتماعية والسياسية والروحية التى يؤديها القائد داخل المجتمع.

ويعد مبدأ إجماع الرأى أحد الأفكار الرئيسية التى تؤدى دوراً كبيراً فى الفكر الإسلامى السياسى والقانونى فى عملية اتخاذ القرار. وقد ظهرت هذه الفكرة تحت عدة مسميات منها إجماع جمهور المسلمين والشورى. ولقد كانت الشورى من الأمور التى كان يقدرها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهى الوسيلة المتبعة عند اتخاذ القرارات التى من شأنها أن تؤثر على المجتمع؛ أى أن تؤخذ هذه القرارات بالتشاور مع أعضاء المجتمع. بل إن إحدى سور القرآن الكريم يطلق عليها اسم «الشورى». وفى هذا السياق أشير إلى الآية التى تقول بما معناه أن المقربين إلى الله هم هؤلاء الذين يكون أمرهم شورى بينهم.

وفى مسألة القيادة هذه، ومع بداية تكوين المجتمع الإسلامى، سوف تصبح كل من الشورى وإجماع الرأى إحدى النقاط الهامة لإثارة المعارضة. فبينما سيصر الشيعة على أنه لم يتم استشارة الجميع فى مسألة تولى سيدنا أبى بكر، رضى الله عنه، الخلافة على على سوف ترد جماعة السنة قائلة إنه تم استشارة السواد الأعظم من المسلمين وقد اتفقوا على قيادة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وأرضاه. وبالرغم من أن قضية الإجماع فى الرأى وأهميته بالنسبة للسياسة والقانون والدين فقد ظلت محل نزاع فى القرون التى تلت ذلك داخل الأمة الإسلامية، لكن فى العصر الحديث سوف يتم بذل الجهد من جانب بعض المسلمين للربط بين المفاهيم التقليدية شأن عملية الشورى والأفكار السياسية الأكثر حداثة مثل الديمقراطية النيابية.

ولكن فى تلك الأيام الأولى لدولة الإسلام، وبعد وفاة مؤسسها، كانت قضية الخلافة لاتزال غير أكيدة. وبالرغم من أن معظم سكان الجزيرة العربية كانوا قد دخلوا فى الإسلام، فالجزيرة العربية كانت لاتزال أرضاً فقيرة ومعزولة نسبياً عن المدن الغنية ومراكز القوى الموجودة فى البحر المتوسط وبلاد الفرس والهند. كما أن كونها أضعف من الدولة البيزنطية والفارسية المجاورة لم يجعلها بالتأكيد من الدول المرشحة لتغيير العالم.

لكن ما سبق هو بالضبط ما سوف يحدث فى الأعوام المائة التالية. وبالتحديد فإن سبب حدوث هذا التحول غير المتوقع قد سقط فى طى النسيان.

وتشير الروايات التقليدية التى كتبت بعد هذه الأحداث إلى أن سبب قيام الفتوحات الإسلامية فى ظل قيادة المسلمين العرب ترجع إلى قوة إيمانهم بالله وحده فقط. وبناءً على وجهة النظر هذه، فهذا يعنى أن القوات العربية تحت قيادة سيدنا أبى بكر،

رضى الله عنه، ومدفوعة بالرغبة في نشر الإسلام وحذو الرسول صلوات الله عليه وسلامه قد حاربت ضد ظروف مستحيلة وتدفقت من الجزيرة العربية إلى العالم المجاور لها.

أما وجهة النظر الأخرى فتري أنه مع الاعتراف بأهمية عنصر نشر الدين تدخل عناصر أخرى شأن الإحساس بطعم الثراء والحظ الجيد فضلاً عن معرفتهم بأن القوات التي هم بصدد محاربتها قد أجهدتهم طول فترات العراك في الماضي. وكل هذه العناصر الأخرى لها دور كبير أيضاً في قيام مثل هذه الفتوحات.

ففي عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، كانت القوتان المتنافستان ألا وهما الدولتان البيزنطية والفارسية، لا تتعاركان لأجل نزع فتيل قوة كل منهما أو إجهاد بعضهما البعض فحسب، ولكنهما كانتا قد بدأتا بالفعل في التحدى على أراضي العرب من ناحية الشمال والشرق. وهكذا فالمسلمون الأوائل الذين كانوا قد أسسوا دولتهم الجديدة في الجزيرة العربية بدءوا على الفور في عمليات طرد القوات الفارسية والبيزنطية لتحسين حدودهم والمحافظة على دولتهم الجديدة.

لكن شيئاً عجيباً يبدأ في الحدوث، فبينما يبدأ العرب في الدفع بقواتهم، بشرع أعدائهم في التراجع. في حين كان العرب يتوقعون خطأ صلباً من الدفاع والمقاومة من جانب الأعداء. ومن ثم تأخذ مسألة تحسين العرب لحدودهم زخماً جديداً معتمداً على الاكتفاء الذاتي. وتبدأ أموال الجزية والغنائم في التدفق داخل بيت المال من أراضي الفتوحات. وقد استغلت تلك الأموال في تعزيز شأن الدولة الإسلامية.

الأبواب الموصدة تنفجر، وتلوح في الأفق فرص غير متوقعة. وهكذا تتجلى كل الأمور ويبدأ العرب في التغنى بأناشيد المعارك وترديد قصائد الحروب القديمة وتمدح النساء والأطفال أزواجهم وآباءهم وإخوانهم ويرسلونهم إلى الحرب في أمواج تتلاطم خارج الجزيرة العربية تستهدف المدن الأسطورية في الشمال والشرق والغرب. وينطلق المحاربون العرب إلى نفس الأماكن التي زارتها في يوم من الأيام قوافلهم التجارية. وتعتاد الجيوش العربية على المقاومة أو الإغارة أو عقد المعاهدات مع جيوش بيزنطة والفرس القوية، وبهذا تتحول الشخصية العربية وتسرى في دماؤها الحماسة والقوة التي لا تتصل ولا ترتبط بثروة حيازة الأراضي أو العلم أو حتى السعى وراء التاريخ العظيم الذي يبعث على الفخر أو اتباع تقاليد غزو الأراضي وتحقيق الفتوحات والسيطرة. فهم يتقدمون إلى الأمام متبعين نهج الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، نفسه والذي بدأ بلا شيء على الإطلاق ونجح في النهاية في أن يغير من الجزيرة العربية برمتها.

وكانت نتائج هذه الحملة المفاجئة والمرتجلة غير معقولة تقريباً. فبعد مرور

عامين فحسب على وفاة الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، نجد الجيوش العربية تفتح مساحات شاسعة من الإمبراطورية البيزنطية شاملة سورية وفلسطين . ويلي أبوبكر الصديق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما ، فى خلافة المسلمين ويقود هذا الأخير الجيوش العربية إلى نطاقات أعمق داخل كل من الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وفى معركة اليرموك فى سورية فى العام 636 يدمر عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قوات الإمبراطور البيزنطى هرقل . وفى عام 642 يرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الجيوش إلى مصر التى كانت تخضع للحكم البيزنطى ويبدءون فى التقدم نحو شمال إفريقيا . فى عام 644 يتولى عثمان بن عفان الخلافة تبعاً لعمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما ، وفى عهده اكتمل فتح بلاد الفرس فى عام 651 .

ويختزل التاريخ الغربى انتصارات جيوش المسلمين هذه فى هذا القرن الأول بالغ الأهمية للإسلام فى مجموعة من التواريخ وأسماء للمعارك والغزوات . ويصورها التاريخ الغربى كلها على أنها مجرد وسيلة لفرض هذا الدين الجديد بشكل جبرى . وبالرغم من أن أقل ما يوصف به تقدم الجيوش العربية فى هذه السنوات الأولى بأنه حملة عسكرية واسعة النطاق ، ومع كل الآثار المؤسفة والمصاحبة لهذه الحملة ، والتى دائماً ما تقع إبان الحروب فإن بعض الروايات التى تسرد وقائع هذه الفترة تنسى فى ذات الوقت أن تؤرخ أيضاً للأحداث المؤثرة التى وقعت أيضاً فى هذا السياق .

أولاً ينسى هذا النسيج التاريخى التقليدى أن أحد الخيوط المؤثرة ، والتى أدت إلى انتشار الإسلام بشكل سريع ، يرجع جزئياً إلى الانتعاشة الاقتصادية ، والتى لم تتحقق بفعل الغزوات أو إجبار الآخرين على تغيير دياناتهم واعتناق الإسلام . كما أدى النظام العربى الذى اعتمد على دفع رواتب الجنود نقداً دوراً كبيراً فى خلق اقتصاد سوق نقدى حضرى فى الفترات الأولى من إنشاء الدولة الإسلامية . وهذا يعنى أن كمية كبيرة من العملة يتم تداولها ، الأمر الذى من شأنه أن يودى إلى التنمية الحضرية وإعادة إحياء الحياة التجارية فى البلدان والمدن التى بدأت فى الانهيار اقتصادياً بفعل الحروب البيزنطية الفارسية .

ثانياً ، يفتقر هذا النسيج إلى ذكر حقيقة أن تحويل سكان الدول التى غزاها المسلمون إلى اعتناق الإسلام لم يتم بالإكراه والقهر . فقد ظل المسلمون أقلية فى الكثير من المناطق التى وقعت تحت الحكم الإسلامى وفى بعض المناطق ، مثل فارس على سبيل المثال ، كانت نسبة المسلمين أقل من عشرة بالمائة من السكان وذلك فى القرن الأول من توسع الدولة الإسلامية .

إنما فرض الإسلام الجزية على أهل الكتاب نظير رعايتهم وتقديم الخدمات الاجتماعية لهم فى ظل الدولة الإسلامية الناشئة . فمسألة تغيير الديانة التى كانت تحدث فى تلك الأيام الأولى من نشأة الحضارة الإسلامية كانت تتم بناءً على

رغبة الأشخاص أنفسهم، ولم يقم الحكام المسلمون محاكم للتحقق من نية من يدخل الإسلام، فربما لجأ البعض لذلك لخفض نسب الضرائب التي يدفعونها ويحسنون من درجة ترفيهم داخل المجتمع ويسهلون على أنفسهم مسألة الاندماج في الحياة التجارية والحكومة. كما كان يسمح لهؤلاء ممن لم يعتنقوا الإسلام بالاحتفاظ بدور العبادة الخاصة بهم. كما يحظر ادعاء النبوة أو التعدي على النبي، صلى الله عليه وسلم.

وهذا الجزء المنسى من سماحة المسلمين في التعامل مع الأديان الأخرى يتضح في القصة التالية التي تروى عندما فتح المسلمون مدينة الإسكندرية البيزنطية وفي كيفية تعامل المسلمين مع البطريك القبطي بنيامين وذلك كما تسرد أحداثها الرواية القبطية التالي ذكرها:

فكتب عمرو بن العاص إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه: الموضع الذي فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر أماناً مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته. فلما سمع لاقديس بنيامين هذا عاد إلى إسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاث عشرة سنة، منها عشر سنين لهرقل الرومي الكافر، وثلاث سنين قبل أن يفتحوا المسلمون إسكندرية، لا بسا إكليل الصبر وشدة الجهاد الذي كان على الشعب الأرتدكسي من الاضطهاد من المخالفين.

فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينة واعلمو بمجيئه سانوتيوس الدوكس المؤمن بالمسيح، الذي كان قرر مع الأمير عمرو حضوره وأخذ له منه الأمان، فمضى لذلك الأمير وعرفه بوصوله فأمر باحضاره بكرامة واعزاز ومحبة، فلما راه اكرمه وقال لأصحابه وخواصه: إن في جميع الكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل [من رجال] الله يشبه هذا. وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً جيد الكلام بسكون ووقار. ثم التفت عمرو إليه وقال له: جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم وإذا أنت صليت على حتى أمضى إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر.

وأعود إليك سالماً بسرعة فعلت لك كل ما تطلبه مني. فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلاماً حسناً أعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وريح كثير لمن بسمعه، وأوحى إليه بأشياء وانصرف من عنده مكرماً ميجلاً. وكل ما قاله الأب الطوباني للأمير عمرو بن العاص وجده صحيحاً لم يسقط منه حرف واحد⁽³⁾.

تشهد سياسة التسامح بين الأديان على بداية التعايش بين المسيحيين واليهود

والهندوس والديانات الأخرى، والتي سوف تمتد على مدار التاريخ في الأماكن التي يشكل المسلمون أغلبية سكانها وذلك حتى القرن الحادى والعشرين.

أما بالنسبة للإسلام، فيحدث أن تقع واقعة مشنومة فى العام 661 مما يؤدي إلى إشاعة الفرقة بين أتباع هذا الدين إلى الأبد. فبعد أحداث عام 632 عندما يتم اختيار أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، كأول خليفة للمسلمين، ثم يتولى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، خلافة المسلمين أخيراً عام 656، ولكن فى عام 661 يعزل على، رضى الله عنه، ويُقتل ويصبح معاوية سليل العشيرة المكية وبنى أمية هو الخليفة. لكن بعض المسلمين يظلون أولياء لسيدنا على، رضى الله عنه، وأرضاه ويرفضون الخليفة الجديد. ويُطلق على هؤلاء المسلمين الشيعة التى تنبثق عن كلمة شيعة سيدنا على أو «أتباع سيدنا على» أما أولياء معاوية فيعرفون باسم السنيين وتنبثق هذه الكلمة عن كلمة السنة؛ أى «أتباع أحاديث وسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم» وتُعرف هذه الأسرة الحاكمة ببنى أمية.

وفى نقلة خطيرة أخرى، يتحرك بنو أمية من مسقط رأسهم بالجزيرة العربية ويتركون مكة مركزهم الدينى ويؤسسون محوراً سياسياً وتجارياً جديداً لهم فى المدينة البيزنطية القديمة دمشق.

ويبقى السؤال هو: لماذا يقرر أبناء مكة الأوفياء هؤلاء أن يديروا ظهورهم لهذه المدينة المقدسة بينما إمبراطوريتهم تنمو وتتعاظم؟ فى أغلب الأحوال يعود السبب فى ذلك إلى قلة أعدادهم حتى مع التقدم الذى يحققه عرب الصحراء. ومن هنا تبدأ صفوف العرب بالامتلاء بالأشخاص الذين تلقوا العلم بشكل رسمى من مصر وسورية وفلسطين والعراق، وذلك بجانب الفرس والبيزنطيين والأتراك من وسط آسيا، كما امتلأت صفوف العرب برجال من الإمبراطوريات الثرية السابقة شأن الإسكندرية ودمشق وتيسفون أو قطسيفون والقدس وجلبوا معهم أذواقهم وأفكارهم وقصصهم وأسننتهم. وكان العرب على أتم استعداد لاحتضان كل هؤلاء الشعوب وخبراتهم ليس لإدارة هذا العالم الإسلامى المتمدد فحسب ولكن عملاً بقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، أيضاً «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

وسوف ترسى الاستراتيجية الإسلامية العربية المبنية على الارتجال والقدرة على الاستيعاب بالإضافة إلى النهم الشديد للنهل من بحار المعرفة والخبرة مستقبل العصور الإسلامية التالية، والذى سوف يؤدي إلى حصاد من العصور الذهبية الإسلامية تبدأ فى الأراضى العربية فالأندلس فبلاد الفرس ثم وسط آسيا والهند وصولاً إلى الأناضول والهند المغولية.

وبالرغم من أن خارطة العالم ومعتقدات البشر تمران بحالة من التحول فهذا لا يعنى أن السنوات المائة الأولى من ارتجال المسلمين وتضامنهم معاً بعد وفاة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، قد أضافت قدرًا من المثالية المطلقة على السلوك البشرى.

فقد امتازت هذه الفترة مثلها في ذلك مثل فترات أخرى مشابهة في تاريخ البشرية بالصراعات السياسية والانقلابات والاضطرابات والرفض والأخذ بالتأثر الذي كان يتحول من وقت إلى آخر إلى حرب أهلية. بيد أنه في ذات الوقت بدأ هذا الاضطراب الذي تصاحبه القدرة على استيعاب كل ما هو جديد يؤدي إلى خلق ثقافة مختلطة أصلها عربي، لكنها متشعبة وغنية بمزيج من الثقافات الأخرى شأن فنون القراءة والكتابة الفارسية الغزيرة ووسائل العلم والأساليب البيزنطية فضلاً عن أصداء الحضارات الإغريقية والرومانية.

إن فحوى وحجم التراث المعرفي الذي نقلته الحضارتان البيزنطية والفارسية إلى أتباع الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، لسوف يتجلى واضحاً بعد فترة قصيرة حين ازدهار العصر الذهبي الإسلامي. كما أن لسان الشعر العربي الفصيح سيصبح هو اللغة السائدة لهذا العالم الجديد واللغة الوحيدة للمناظرات الدينية ووسيلة التعبير الديني وستزداد أهمية هذه اللغة في أعمال التجارة والآداب والحياة اليومية. ويذهب الجميع سواء كانوا من الفرس أو البيزنطيين أو البربر وآخرين تحت الحكم الإسلامي إلى تعلم اللغة العربية.

ولمئات السنين تهب رياح فتوحات العرب المسلمين بقوة على المكان. وتطرد قوات الخليفة القوط الغربيين من شمال إفريقيا. وبحلول عام 711 وتحت قيادة العبد المحرر طارق بن زياد تغزو قوة مختلطة من العرب والبربر إسبانيا التي كانت تخضع وقتها لحكم القوط الغربيين وتفتتها. وبعدها بحوالي العام أي في 712 يتقدم المسلمون إلى بلاد السند كما هو اسمها الآن في باكستان ثم يغزون ما نعرفه الآن بوسط آسيا وكانت وقتها تسمى بلاد ما وراء النهر.

ويقول البعض إن غزو إسبانيا قد حرض عليه المسيحيون الأيبيريون المنشقون الذين حاولوا جذب المسلمين إلى الشمال كي يكونوا حلفاء لهم في حرب أهلية قبلية ضد الملك لذريق الحاكم. وإبان ذلك الوقت كانت إسبانيا التي تخضع للحكم القوطي تعاني اضطراباً شديداً بشأن أمور حزبية، كما كان الحكام يشنون حملة ضد اليهود المنتشرين في المملكة. وكانت الأقلية من القوط الغربيين يحكمون بطريقة قاسية وضارية ويستبدون بالشعب المتمرد من السكان الأصليين أخلاف عهد الرومان وما قبله.

ولم يبذل الحكام القوط أي جهد كي يفوزوا بموالاتة الشعب اللاتيني وتواصل أيبيريا انغماسها في نفس الركود المدني والاقتصادي الذي جلبه عليهم سقوط الرومان، والذي لازالت تعاني ويلاتة بقية أجزاء أوروبا.

ولا يزال الأمير المسلم موسى بن نصير في شمال إفريقيا يتوخى الحذر ويتساءل عما إذا كانوا يدفعونه للوقوع في شرك ما وعما إذا كانت أيبيريا فعلاً تستحق كل

هذا العناء . فبيعت بقوة صغيرة كى تجس النبض غير أنه لا يجد أى قوات للدفاع هناك . وعلى هذا يرسل قائده الوفى طارق كى يتأسس حملة تهدف إلى تأسيس معقل للمسلمين هنالك .

بيد أن كلمة معقل لا تعبر حقاً عما حدث هناك . يرسى طارق بن زياد قواته فى مكان يطلق عليه فيما بعد جبل طارق بسبب ما حدث هنالك فى ذلك اليوم فى 30 إبريل من عام 711 . يتكون جيش طارق من 7000 جندى ، الجزء الأصغر منهم من عرب سوريا ، أما الجزء الأكبر منهم فمن البربر أهل بلد طارق . وعندما رسا طارق فى ذلك المكان يروى أنه ألقى على مسامح قواته الخطبة الآتى ذكرها:

أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللثام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهز الفرصة فيه لمكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألد طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فيما حظكم فيه أوفر من حظى وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى إنجازكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه وأحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون (4).

ويقاتل القائد طارق بن زياد في طريقه نحو الشمال وبحلول الصيف يوقع هو وقواته هزيمة ثقيلة على الملك لذريق وقواته في مدينة جوديليت على ريو باربيت وبذلك يصبح الباب مفتوحاً لغزو إسبانيا بشكل كامل في العقد التالي . وتنتشر شائعات قائلة بأن هزيمة تلك الأعداد الكبيرة من القوط الغربيين تُعزى إلى انضمام الكثيرين منهم إلى صفوف المسلمين في أوج المعركة، ويرجع ذلك إلى عدم رضاهم عن حكامهم . وينطلق طارق نحو الشمال وقد حصل على الغنائم الكبيرة . وعندما يعرف موسى بن نصير وليه في شمال إفريقيا بالأنباء يرسل إليه طالبا شرح ما حدث . وفي اجتماع تشويه الكثير من المهانة يجدد طارق بن زياد ولاءه للأمير موسى بن نصير ويسلمه الغنائم شاملة طاولة قوطية مرصعة بالزمرد واللؤلؤ ومعها كراسيها تساوي 200000 ألف دينار بالرغم من أن الكثير من الجنود البربر كانوا يتوقعون أن يتم توزيع مثل هذه الغنيمة عليهم .

وتصل أنباء هذه النجاحات الإسلامية شيئاً فشيئاً إلى مسامع الخليفة في دمشق من خلال الرسل والمبعوثين . وتختلف دقة تلك الروايات وهي تخترق ربوع الخلافة . فهم ينقلون أخباراً تفصلها عن المكان آلاف الأميال وتبعد كل البعد عن حياة هؤلاء الذين يعتلون المناصب المرموقة في ذلك المجتمع الكبير . بيد أن المعنى الحقيقي والإنساني يصل إلى الجميع في أحد أيام الشتاء الصافية في دمشق في العام 715 .

يتترك حدثان رئيسيان آثارهما على هذا العام في دمشق ، ينطوي الحدث الأول على الانتهاء من استكمال أعمال بناء جامع بني أمية الكبير ، أما الحدث الثاني فيتلخص في زيارة موسى بن نصير التاريخية للخليفة الوليد بن عبد الملك . ويقدم الأمير للخليفة عدد أربعين أسيراً قوطياً من النبلاء والرسل وعدداً أكبر من تابعيهم الذين أحضرهم من إسبانيا . ووسط صيحات وهتافات الجمهور العريض من المسلمين الجدد ومواطني دمشق يؤدي الأسرى فروض الولاء والطاعة أمام الخليفة . وتحمل هذه الاحتفالية العامة في طياتها أصداء احتفاليات مشابهة جرت في روما القديمة والقسطنطينية .

وبحلول عام 732 في أقصى الغرب بعد مضي 100 عام فحسب من وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لم يستطع تابعوه أن يحكموا سيطرتهم على شبه جزيرة أيبيريا فحسب ، بل وأسسوا أيضاً مراكز لهم في الأجزاء الجنوبية من فرنسا وأخضعوها لحكم أمراء الولايات المحلية . وقد تم تأسيس الكثير من هذه المراكز بواسطة حملات غزو مستقلة عن كونها قوات غزو رسمية . وفي أحيان كثيرة كان أمراء الولايات يوطدون أواصر الولاء عن طريق زواجهم من أسر النبلاء المسيحية . وبالرغم من أنه في إسبانيا وفي جميع أرجاء الخلافة يبدو الشكل الاقتصادي والسياسي للمنطقة أشبه بكونها ولايات المدن أكثر من كونها بلاداً وأما غير أننا نستطيع القول إنه في عام 732 كانت هناك مملكة إسلامية شاسعة يتمركز محور قوتها في دمشق وتمتد من

إسبانيا في الغرب إلى أقصى حدود منغوليا ومن جنوب فرنسا في الشمال حتى المحيط الهندي وإفريقيا في الجنوب .

تور، نوستريا، دولة فرنسا القديمة 732 ميلادياً - داخل نسيج التاريخ الضائع يوجد خيط لصراع يوصف بعدها بعدة قرون على أنه حرب بين الأديان وصدام للحضارات بالرغم من أنه في واقع الأمر لم يكن بهذه البساطة ولا الغموض .

وحيث إن الدوافع الحقيقية للأفعال التي يأتيها الرجال يفقد التاريخ في كثير من الأحيان أثرها أو يعاد تفسيرها في آونة أخرى؛ هنالك تبرز الرواية التقليدية لهذا الصراع وتلقى بالضوء على هاتين الحضارتين وتصفهما بألد الأعداء .

وبالرغم من أن تاريخ العالم بأسره بما في ذلك أوروبا إلى هذه القصة وحتى بعدها بفترة طويلة قد اكتسى بغمام الحرب اللامتناهية والطموح الاستبدادي والصراع الديني فإن هذا الصراع بالتحديد سوف يكتنفه الكثير من الغموض خاصة من ناحية الأوربيين .

في واقع الأمر تحمل هاتان الحضارتان أصداء ذكريات حضارة الرومان كما تشترك الديانتان في الكثير من المعتقدات والتقاليد وتعبدان إلهًا واحدًا . وعلى ذلك سوف يصبح هذا الصراع صراعاً للتحكم السياسي والعسكري أكثر من كونه فكرة غزو ديانة الإسلام «الغربية» للديانة المسيحية «المتأصلة» . بيد أن هذا التفسير الأخير المؤسف هو الذي سوف يطفو على السطح في السنوات الألف التالية .

وهذا الخيط المرئي للصراع الحتمي القادم يمكن اقتفاء أثره ليعود بنا إلى سلسلة من المعارك حدثت في أول الزمان .

وتأتي هذه اللحظة المأساوية لأول اتصال وسوء فهم يحدث بين الحضارتين .

ويبدأ الجيشان في الاقتراب من بعضهما البعض .

فقرّب نهاية أحد أيام الخريف الباردة المبشرة بمجيء الشتاء على عجل وفي هذا المكان الذي يشهد الكثير من التطورات ، والذي كان يُعرف في يوم من الأيام باسم مدينة جول الرومانية تبدو الأرض أشبه بقطعة من القماش متعدد الألوان والأشكال من الإقطاعات الفرنجية التي تنتشر بين منطقة أكويتين والقناة الإنجليزية وتديرها شبكة دائمة التغير من النبلاء تربطهم علاقات من التحالف المتوتر أو الصراع . يسود هذه الفترة من الزمان جو من الظلام والاضطراب والخوف واقتناص الفرص .

ويكسو الظلام الدامس السماء أيضًا منذرًا بالسوء أما الغابات فتغطيها الأوراق المتساقطة والمبتلة بكثافة وها هي ذى الحقول قد تحول لونها إلى البني بفعل عمليات الحصاد .

أما تور المدينة الرومانية القديمة، والتي أصبحت مستقرًا لضريح القديس مارتن فتبدو كالقرية المتضخمة التي يعزز اقتصادها الزيارات الدينية التي يقوم بها الناس إلى الضريح. فالزوار الذين يأتون كي يبجلوا القديس المتوفى يقدمون قرابينهم ويصرفون أموالهم ويحاولون أعمالهم التجارية في هذا المكان. فالدين هنا يخلق فرص العمل.

وفوق كل ذلك ومن بعيد، يخيم الصمت على المكان ويطغى صوت الرياح والرعد والطبيعة على أصوات أعمال البشر وضجيجهم. فالطبيعة مازالت لها اليد العليا في ذلك المكان. ويجرح هذا المشهد الريفى خيوط الدخان التي تنبعث من مداخن الأكواخ الصغيرة والإضاءة الخافتة التي تخرج من نوافذ بيوت القرية. وتذهب أصوات ثغاء الخراف والماعز وقوقأة الدجاج أدراج الرياح.

وبالرغم من أن بعض أساليب وأشكال الحياة في هذا المكان يغلب عليها الطابع الفرنجى فإن النموذج المثالى الذى يسعى الجميع إلى تحقيقه هو الرومانى. وبالرغم من أن الرومان قد أتوا إلى هذه البلاد بفيالق جيوشهم ورماحهم فى العام 55 قبل الميلاد فإن الغالين ظلوا على ولائهم للحكم الرومانى حتى بعد مضى وقت طويل على سقوط الإمبراطورية الرومانية، فلا يزال خلفاؤهم فى القرن الثامن يقلدونهم وكأنهم بذلك سوف يستطيعون إعادة إمبراطوريتهم إلى الحياة مرة أخرى. ولم لا؟ فالإمبراطورية الرومانية بهياكلها وبنائها قد جلبت معها النظام ورسمت خريطة المكان كما فعلت مع العشرات من الحضارات والأمم التى خضعت لها. وحتى فى الأعوام الأخيرة لتلك الحضارة الغربية اعتنقت الحضارة الرومانية الديانة المسيحية وأصبحت هذه الديانة هى ديانة الجميع تقريباً.

ويتجلى صدى الحضارة الرومانية فى لغة حديث أخلافها حتى بعد مرور المئات من السنين. وفى هذا الجزء من أوروبا بالرغم من أن اللغة اللاتينية تتغير وتأخذ شكل لغة جديدة فإن جذورها تعود إلى لغة الإمبراطورية الرومانية الجديدة أكثر من اللغات الجرمانية من الشمال والشرق.

وذلك الرجل الأجنبى الذى يلاحظ كل ذلك لا يتحدث اللغة المحلية هذه ولا اللغة اللاتينية، لكنه قد سمع الكثير من اللغات الأجنبية منذ يوم ولادته، سمعها أولاً فى سوق الميناء باليمن حيث نشأ وترعرع، سمعها فى حديث البيزنطيين والفرس والإثيوبيين الذين يزاولون أعمال التجارة هناك. وكصبى تربى تحت شمس الصحراء الحارقة وساحل الجزيرة العربية الجنوبى الصخرى نمت لديه حاسة تذوق الأشياء البعيدة.

اسمه عبد الرحمن الغافقى وهو الآن أمير الأندلس الذى يقود المعركة مع الفرنجة. وعندما يفكر فى الطريق الطويل الذى قطعه منذ أن كان صبياً فى اليمن يتساءل هل ما فيه الآن مجرد حلم؟

منذ زمن بعيد استمع إلى حكايات عن الرومان، كانت تلك الحكايات غريبة

ورائعة لدرجة لا تصدق . سمع عن القسطنطينية وسمع عن سقوط مدينة روما نفسها وسمع أيضاً أن أعداد المسيحيين حول العالم تفوق أعداد المسلمين .

والآن بعد أن أصبح رجلاً وتبعده كل تلك المساحات الشاسعة عن موطنه يبدو كل شيء وكأنه ضَرْبٌ من الخيال فهو يرى الآن أراضى كل هؤلاء الذين لمهم كصبى . وها هو وقد جذبته كليةً توهج هذه الحضارة واندفاع القوات العربية إلى الشمال خارج موطنها . وقد شق طريقه أولاً نحو تونس ومنها إلى المغرب حيث تعرف على أمراء المسلمين الجدد فى إسبانيا الأندلسية . وفى عام 730 يجعله الخليفة الأموى فى دمشق أميراً على قرطبة .

لقد خرج من ظلمات الغموض كى يصبح أقوى حاكم على الإطلاق فى هذا الجزء من العالم . واستكمالاً لأداء واجباته يجد نفسه فى أراضى المسيحيين الفرنجة وسط مكان تكسوه مساحات خضراء رائعة وأراضٍ رطبة وغابات لا حدود لها تسكن فى ثناياها أنواع الحيات البرية التى لا حصر لها . وبالرغم من أن البيئة التى يحيا فيها البشر هناك تعترىها البدائية والفقر فإن الطبيعة المحيطة ثرية وآسرة .

ويعتبر عبد الرحمن الغافقى نفسه محظوظاً لكونه قد منح هذه الفرصة للبحث والاكتشاف ، فلطالما شعر إبان حياته فى اليمن أنه ولد كى يهيم على وجهه . والآن يحصل على راتبه لقاء البحث والاكتشاف .

أما الجزء الثانى من مهنته فينطوى على حكم الإمارة الأندلسية وحمايتها . ومن ثم فعندما يتمرد أحد الأمراء المحليين فى إمارة ناربورن الفرنجية الجنوبية ويتحالف مع الكونت المسيحى إيود من الأكواتيين ، يبدأ الغافقى فى التصرف على الفور لكسر حلقات هذا التحالف . وعندما استطاع نفس هذا الشخص المدعو إيود هزيمة قوة أندلسية أرسلها الأمير لتأديبهم فى المدينة الفرنسية تولوز بدا أن المشكلة قد باتت تشكل تهديداً أكبر .

وهكذا تم سحب عبد الرحمن الغافقى بعيداً إلى الشمال وهو الآن هنا فى محاولة لوضع نهاية للمتمردين وللتهديدات الأجنبية على الحدود الشمالية للإمبراطورية الإسلامية .

والغافقى لا يعرف حتى اسم قائد الجيش المضاد ولكن الأمر لا يهم فهذا اليمنى يعرف تمام المعرفة أن عدد جيشه يفوق كثيراً ما يمكن أن يتحمله الفرنجة . كما أنه يعلم أيضاً وسائلهم فى القتال ، فبخلاف الإسبان العرب لا يوجد لدى هؤلاء خيول ولا سلاح فرسان ، فأسلحتهم البسيطة ودروعهم الخفيفة تشبه إلى حد كبير الأسلحة التى تركها جنود المشاة الرومان منذ قرون مضت ، وهى عبارة عن خوذة من الحديد وواق للرقبة وحامل للرماح وأقواس وسهام وترس واق بسيط يمتد من الصدر وحتى الفخذين ، لكن الجنود الذين يجبرون على الحرب كمشاة ينبغى أن يحملوا ما هو أكثر من ذلك ، ولكن غياب التكنولوجيا فى ذلك الحين لم يسمح لهم بحمل ما

هو أكثر من ذلك. ويُخمن الغافقي أنه اليوم خارج مدينة تور لا يتعدى عدد الجنود الفرنجة 15000 جندي .

أما الفرنجة فيرون الأمر من وجهة نظر أخرى فهم يعرفون أنه هناك جيش منظم وعظيم قد أتى إليهم من الشمال الغربي ، جيش من عالم آخر بالتأكيد. ولكن ما هو أكثر غرابة هو أن ما يرونه يبدو أشبه بالرومان ، ولكن كيف لهم أن يدركوا ذلك؟ إن هؤلاء القادمين هم بالفعل أشبه بخلفاء الرومان أو هم ممن يطمحون أن يعلوا علو الروم . لكن هذا الجيش في تقدمه الفخيم الذي يوقع الخوف والرهبة في قلوب من يراه لم يكن بأى حال من الأحوال أقل من جيوش الرومان التي اعتادت أن تبتث الرعب في القلوب وهي تزحف من الشمال من جبال الألب كي تقهر قبائل البربر في الأجواء قارسة البرودة منذ 700 عام مضت .

وتلك القوة القادمة تجاه الفرنجة ما هي إلا فرع صغير من كيان هائل يمتد الآن من صحراء الجزيرة العربية ماراً بمدن بلاد فارس الأسطورية والحدود الشمالية للهند فالدول التي تم حصارها في شمال إفريقيا وأراضي البحر المتوسط هي التي تمخض عنها العصر البيزنطي والروماني .

والقوة التي أتت من الجنوب الغربي ما هي في النهاية سوى واحدة من جيوش عظيمة تعمل على امتداد 4000 ميل عبر الكرة الأرضية، وهي عبارة عن غارة محلية وقوة لتحقق استتباباً واستقراراً في الأوضاع ، وهي تقوم بإبلاغ الأنبياء إلى القائد الديني والسياسي الأكبر في دمشق خليفة المسلمين عبد الملك .

إن هذا الجيش الزاحف الذي يلقي بالرعب في القلوب ليس جيشاً محتلاً يهدف إلى غزو وطرده المملكة الفرنجية وإجبار الجميع على اعتناق الدين الجديد، بل على العكس هو قوة تستهدف الهجوم العسكري التكتيكي وتقوم ببعض أعمال السلب التقليدية وتثبط معنويات أنصار وحلفاء أمير ناربورن الخائن وحليفه إيود .

ولكن جيش الدفاع الفرنجي لا يعرف شيئاً عن ذلك فلقد تنامت إلى علمه قصص مغالي فيها تحبب لها الأنفاس عما حدث جنوباً وهم يرون الآن أن دورهم قد جاء .

وهؤلاء الغزاة الجدد لا يختلفون عن الرومان فهم أصحاب جيوش جرارة ومتعددة الجنسيات والأسنة . وداخل صفوف هذه الجيوش يوجد الجنرالات والجنود الذين أتوا من أراضٍ بعيدة ، وبعضهم مغامرون من بلاد الفرس مر على اعتناقهم ديانة الإسلام – بعد أن كانوا من أتباع دين الزرادشتية – عقد واحد لا أكثر . كما يحتوى الجيش على عرب من الجزيرة العربية ويمنيين وبربر من شمال إفريقيا ومسيحيين إسبان امتصهم المجتمع الإسلامي ويتعلمون كيف يتحدثون العربية ويهود من المهجر .

أما الفرنجة فلا يعرفون سوى جانب القصة الذي حكاها لهم إيود . ولأجل حماية أكواتين والحفاظ على استقلاليتها بعيداً عن الفرنجة ، عقد إيود تحالفاً مع الأمير المحلي

لمدينة ناربورن . ولقد سارت الأمور على ما يرام لفترة ثم أعلن الأمير استقلاله عن الأندلسية وهذا ما دفع الجيش الغازى للحضور .

وهم يعلمون تمام العلم أن طريقة تعامل الأمير الأندلسى مع الأعداء والخونة بسيطة تتلخص فى أن يسحقهم بقوة قاهرة . كما سمعوا أن الغافقى فى طريقه نحو الشمال وقد حاول تثبيط همة العدو بحرق الكنائس والبلدان ونهب القرى وتدمير مدينة بوردو والاستيلاء على الجزء الأكبر من الحصاد لإطعام قوافل الجيش التى يصل عددها إلى 60000 أو ما يزيد . ويسمعون أن فرق الاستطلاع قد أبلغته بضريح القديس مارتن المترف فى تور . وهذا يعنى أن الكثير من الغنائم فى انتظار من يقتنصها . كما سمعوا أن هذا الأمير هو مقتنصها ما لم يوقفوه .

ويتساءل سكان القرية وفقراؤها المسيحيون عن شكل هذه القوة المتقدمة نحوهم . ويشاهد الفرنجة عدداً كبيراً من الخيول بقدر ما يشاهدون عدداً كبيراً من الرجال وعدد الاثنى أكبر من عدد أى شىء شاهده هؤلاء القرويون فى حياتهم . وتصل القلوب إلى الحناجر بفعل أصوات حوافر الخيل وقعقة الأسلحة وصهيل الخيل والأنشودة التى يرددتها الجنود من حلوهم باللغة العربية . لم يسمع أهل المكان صوتاً مثل هذا من قبل . وعلى ظهور الخيل برز أول جنود مدرعين فى تاريخ أوروبا ، أول سلاح فرسان مدرع كأنما رؤيا تنبئية تطل عليهم من الكتاب المقدس .

وسوف يضيع بين صفحات التاريخ حقيقة أن المثل الأعلى للأساطير الأوربية ، وهو الجندى المدرع الذى يمتطى جواده بأسلحته ومناوراته الحربية ، ما هو إلا نموذج محاك لهذا الغازى الأجنبى المهيب كما أن فكرة الجنود الذين يمتطون الخيول بدروعهم وأسلحتهم هى فى الواقع أحد الابتكارات التى أتى بها المسلمون إلى أوروبا .

وسوف يوضح كتاب «تاريخ ضائع» أن نقل المسلمين لأساليبهم وأفكارهم وتكنولوجيااتهم لأوروبا عملية ستستمر فترة 800 عام وتتم من اتجاه واحد فحسب غير أنه فى كثير من الأحيان سوف يتم إغفال جانب نقل التكنولوجيا هذا والتركيز على الصراع بين الأديان فقط .

وينظر الفرنجة الفقراء المرعوبون من مخابئهم نحو الجنود المسلمين المكتسبين بالحديد المصنوع فى أفران طليطلة وتتأرجح سيوفهم التى تم سبكها فى مسبك الحديد فى دمشق . وتغطى هؤلاء الجنود أثواب وسترات ويمسكون بأعلامهم الخضراء المرفرفة ودروعهم تلمع فى المكان . ويبدو المشهد ، فى أعين الفرنجة ، ليس بمشهد جيش مهيب عظيم فحسب بل يبدو أشبه بقوة من قوى الطبيعة .

وبينما يعصف القلق بنفوس الفرنجة وقائدهم الواثق من قدراته شارل ويحاولون جاهدين وضع الخطط الحربية المناسبة لمواجهة هذا العدو الرهيب ، لا تساور الغافقى أى شكوك اللهم سوى بعض الأمور العسكرية المعهودة التى

تدور بخَلْدِه فى بداية أى معركة مع عدو أضعف بمراحل منه. فالغافقى بعيد عن قواعده ويبدل جهوداً جهيدة حتى يطعم جيشه ويمده بالعتاد والشتاء على الأبواب. ورجاله قادمون من الجنوب، كما أنهم لا يرتدون الملابس المناسبة لمواجهة البرد والأمطار. ويندم الغافقى على أن سعيه وراء إيود قد دفع به دفعاً حتى أتى إلى هذا المكان. وبالرغم من كل ذلك فسوف يستخدم الغافقى أسلوبه المعتاد فى اكتساح العدو وهزيمته. وإن لم يتوقف الفرنجة عن مقاومتهم ويؤدون له وللخليفة فروض الولاء والطاعة فسوف ينزل بهم العقاب.

أما شارل فلديه خطة مختلفة وبعض الخدع فى جعبته فبدلاً من أن يسمح للعدو بتحديد إطار المعركة فسوف يحددها هو وقد زحف إلى هذا المكان متجنباً الطرق التى شيدها الرومان من أجل أن يتجنب رؤية أى من قوات الاستطلاع الإسلامية. وبعد قطعه لهذه المسافة الطويلة دون أن يلححه أحد يستطيع الآن أن يرسى قواعد جيشه فى الغابة ويستفيد من وجود الأشجار ويشكل رجاله على شكل كتبية، وهو تشكيل المشاة التقليدى ذو الجوانب الأربعة، والذى صممه الإغريق منذ أكثر من ألف سنة مضت وتبناه وتفوق فيه الرومان.

ولا يحوز الفرنجة أية خيول أو جنود مدرعين غير أن الخوف والدافع الكبير يملؤهم كى يدافعوا عن عائلاتهم وموطنهم. بالإضافة إلى ذلك فهم ينظرون إلى المعركة باعتبارها معركة دينية، معركة لحماية الديانة المسيحية من مقاتلى هذا الدين الجنوبى الجديد. وبالفعل هناك الآن اختلاف شديد بين القوتين وفى منظورهم لبعضهم البعض وفى أهمية هذه المعركة القادمة. بالنسبة للفرنجة يبدو الأمر أشبه بالكابوس فالمعركة لهم ليست مسألة حياة أو موت فحسب بل هى كفاح للدفاع عن المسيحية.

أما بالنسبة للأندلسيين والعرب المسلمين وجيشهم فليس للأمر نفس القدر من الأهمية. وحيث إن جيشهم يحتوى على ديانات وأجناس متعددة فلا يشوب هذه المعركة أى صبغة لدين أو قبيلة. وحيث إن هذه القوة موجودة لتوجيه ضربة تكتيكية أرسلتها إمبراطورية تبعد 4000 ميل فالمسألة ليست مسألة حياة أو موت إلا على المستوى الشخصى فحسب.

وعلى الورق تبدو خطة شارل عقيمة بشكل كبير، فجنود المشاة لا يستطيعون أبداً هزيمة سلاح الفرسان، وهذا ما أثبتته المعارك واحدة تلو الأخرى، وخاصة إن كان سلاح الفرسان هذا يتكون من المسلمين المدرعين الذين سوف يستخدمون سيوفهم فى قطع رءوس الجنود المشاة الذين يقفون بدورهم على ارتفاع خفيض. وكى يتسنى لشارل التغلب على مثل هذا العيب الخطير يقرر أن يختار هو مسرح المعركة كى يستدرج العدو الذى يمتطى الخيول إليه فى مكان يمثل نقطة ضعف كبيرة لمثل هذا العدو حيث يرتفع مستوى التربة وتتكاثر الأشجار.

وهكذا ينتظر شارل العدو داخل هذه الغابة بالقرب من منطقة لوار. وفى نفس الوقت ينتظر الغافقى الخبر اليقين من فريق الاستطلاع. ووسط هذا الجو الخريفى

المظلم الكئيّب المبلل بمياه المطر ينتظر الأمير على مدار ستة أيام خروج الفرنجة من الغابة. والغافقي ليس بالأحمق فهو يعرف أن شارل قد غير من ميزان القوة بعض الشيء وتراوده فكرة تجاهل شارل أو حتى العودة إلى الجنوب.

بيد أن ذكاء الغافقي قد خانته بعض الشيء هنا حيث إنه افترض أن القوة والتكنولوجيا الأندلسية الكاسحة والأعداد الجارّة للجيش وسلاح الفرسان والركاب تعطيه ميزة لا يمكن أحدًا البتة من مهاجمته. ومن ثم فلم يقدر عدوه حق تقديره كما أنه لم يكن يعرف أن شارل هذا قد اشتهر بالتغلب على أقوى الأعداء بحيلته ودهائه.

حتى شارل نفسه بدأ في مراجعة نفسه، فقد وافق على مقترح إيود مقابل إذعان هذا الأخير له، كما كان يرغب في حماية ضريح القديس مارتن. وفي واقع الأمر كان صيت شارل قد بدأ يذيع بفعل حمايته للمسيحية في أوروبا، وهكذا بدأ يخطو أول خطوات له نحو بناء إمبراطوريته. وفي نفس الوقت كان البابا جريجوري الذي لا حول له ولا قوة قد ناشد شارل من أجل حماية المدينة المقدسة روما من اللمبارديين:

من البابا جريجوري إلى الابن المعظم شارل:

في خضم بلائنا العظيم رأينا أنه من الضروري أن نكتب إليك مرة ثانية، فنحن نؤمن أنك ستهرع لحماية كنيسة الرب وشعبه المختار حيث إنك من أولياء القديس بطرس أمير الحواريين ومن مبعليه ومن محبيننا. فنحن لم نعد نستطيع تحمل طغيان واضطهاد اللمبارديين لنا، فقد أخذوا كل ممتلكات القديس بطرس حتى تلك الهدايا التي قدمتها له أنت ووالدك. إن اللمبارديين يكرهوننا ويظلموننا؛ لأننا طلبنا حمايتك ولنفس هذا السبب قد نهبوا الكنيسة وخرّبوها. ولقد أرسلنا سردًا تفصيليًا للولايات التي عانيناها مع أحد رعاياك المخلصين رسولنا الحالي. وأنت أيها الابن الوفي سوف تنتزل علينا النعم والهبات من أمير الحواريين الآن وفي المستقبل بمباركة من الرب في حال إرسالك النجدة سريعة لكنيسة الرب ولنا، وبهذا سيعرف الجميع إيمانك وحبك وهدفك الأسمى وأنت تهرع للدفاع عن القديس بطرس وعنا وعن شعب الله المختار. كما أنك إن فعلت ذلك فسوف تحظى بالشهرة الأبدية على الأرض والحياة الأبدية في الجنة دار الخلود.

وبهذا فإن شارل لا يحمي ضريحاً فحسب، ولكنه يشعر وكأنه مسئول عن المسيحية الأوروبية برمتها، وفي هذه المرة فهو يحميها من عدو أقوى بكثير من اللمبارديين. ولقد سمع عن القائمة الطويلة من ملوك القوطيين الغربيين الذين تم تدميرهم

أو الإطاحة بهم . ففي أثناء فترة حياته القصيرة على الأرض في هذا الجزء من العالم استولى العرب الأندلسيون على إسبانيا وأجزاء من فرنسا . فهؤلاء المسلمون لديهم الدروع العظيمة ولديهم الخيول ، كما أنهم يتفوقون من ناحية العدد وقادة الجيش ، وهم يرسون بسفنهم على السواحل الجنوبية لفرنسا ، فهم بالفعل متقدمون .

وتأتى اللحظة الحاسمة ويشعر الغافقى الآن بالبرد والعصبية وشيء من عدم الارتياح ويطلب الحماية من الله العلى العظيم ، ويطلب من الله أيضا أن ينصره هو ورجاله على أعدائه كما نصر رسوله يوم فتح مكة . ويرسل الغافقى الخيالة إلى الغابة وينطلقون نحو الكتبية . وتتطاير السيوف والفتوس والسهام فى الهواء وتتعالى الصرخات والصيحات والتهافتات باللغات المختلفة وتصلصل الرماح والفتوس عند اصطدامها بالدروع . ويسقط رجال من الفرنجة والأندلسيين ولكن ليس بأعداد كبيرة . ويخترق الأندلسيون مربع الكتبية عدة مرات ويدخلون شارل فى دائرة من الشك ، لكنهم لا يستطيعون الاقتراب أكثر من ذلك . ويقع المسيحيون قتلى كما يقع المسلمون . لكن حراس شارل يستمسكون بأماكنهم ويطردون الأندلسيين ويصدونهم المرة بعد المرة .

ويصف المعركة أحد كتب التاريخ الإشباني المجهولة:

ووسط فجاعة المعركة بدأ رجال الشمال أشبه بالبحر الذى يستحيل تحريك جنباته . فقد وقفوا بثبات مصطفين جنباً إلى جنب يشكلون ما يشبه الجبل الجليدى وبضربات سيوفهم الهائلة أسقطوا العرب صرعى . التف الجيش كشريط متين حول قائده وحمل رجاله الأوستراسيون قلوبهم فى أيديهم . وأغمدت أيديهم التى لا تكل ولا تمل السيوف فى صدور العدو .

ويستمر الوضع كما هو عليه لفترة من الوقت وتتعاذل قوة الجيشين ، لكن هذا يمثل انتصاراً مؤقتاً بالنسبة لشارل ، ولكنه يعلم تماماً أنه لن يستطيع الحفاظ على انتصاره لفترة طويلة . فحيث يعد الفرنجة محبوسين فى شكل مربع داخل الغابة يتمتع الأندلسيون بعنصر الوقت .

ويتحير الغافقى بفعل نتيجة المعركة الأولية ويتحرك إلى الأمام ليرى المشكلة عن كثب ويفكر فى كيفية اختراق مربع الكتبية . وينتابه إحساس بالغضب فهو لا يكاد يصدق كيف لتشكيل من المشاة الإغريقيين أن يتصدى لأعظم سلاح فرسان فى العالم . إنه بالتأكيد سوف يسجل هذا فى بيان يومياته لهذه الليلة .

وبعد مضى ألفية على هذا العهد سوف يدرك واضعو استراتيجيات الحروب ما الخطأ الذى وقع فى تلك الليلة . فمخطوط الحروب ممن لهم خبرة بنفسية الخيول يعرفون أنه ما من حصان بوسعه أن يخترق صفاً من الرجال من حاملى التروس .

فهذا المشهد يبدو مخيفاً بالنسبة لها، كما أنه يثير الرعب لديها. وحيث إن هذه الخيول مدربة منذ ولادتها على طاعة سيدها فلن يهاجم الحصان أبداً خياله. ويزيد من مخاوف الخيل اختراقه لمكان لا تبدو فيه مساحات واضحة لموطئ القدم ويزيد الطين بلة وجود عوائق من الأشجار.

وتبدأ فصول الخدعة في الانكشاف شيئاً فشيئاً، فبينما يسدل الليل ستاره على هذا اليوم الخريفي يستطيع شارل هاهنا أن يرسل فريقاً من الاستطلاع إلى ظهير الجيش الأندلسي كي يطلقوا سراح الأسرى من الفرنجة وينشروا شائعة سرقة الأسرى المحررين لغنائم الجيش التي جمعها إبان حملته.

ويتسبب هذا في ترك بعض الجنود الأندلسيين لمواقعهم كي يعودوا إلى أماكن المؤن ليستطلعوا ما يحدث. وهكذا تسود شائعة قاتلة إن الجيش يتقهقر فيتبع الجيش هؤلاء الذين يتراجعون إلى الوراء. ووسط هذه الفوضى يكون الأمير العظيم عبدالرحمن الغافقي في الصفوف الأمامية، بعيداً عما يحدث، يجاهد كي يعيد السيطرة والاتصال بالجيش الآخذ في التراجع. وفجأة يجد نفسه منعزلاً بعيداً عن الجيش ويحيط به رجال شارل ولا يوجد معه أي من رجاله. والأمير لديه الخبرة، ومسلح بشكل مناسب، ويحارب بشجاعة الجندي مثله مثل شارل ولكن بعد ثوان معدودة يقهره رجال شارل ويخترقون حصانه بالرماح ويسقط الحصان ويسقط الغافقي هو الآخر.

وبعدها يقتل الغافقي حيث تخترق سنون الرماح الفجوات القليلة الموجودة في درعه وتنتاب الأخير حالة من الذهول تمنعه من النضال. وهكذا تندفع الدماء خارجة من جسده ويتلو دعاءه الأخير ويموت الأمير الصلب وهو في خدمة الخليفة. وبعد أن كان يتوقع أن يفوز بسهولة بهذه المعركة هاهو يسقط شهيداً.

وتنتشر أنباء مقتل القائد بين الجيشين انتشار النار في الهشيم. لقد سقط الأمير الباسل المهيب؛ سقط أمير الأندلس، سقط عبدالرحمن الغافقي. ويشعل هذا النبأ حماساً مؤقتاً لدى الفرنجة ويوقع الصدمة في قلوب الأندلسيين. ولكن مع هول اللحظة ينتاب الأمر الكثير من الغموض لكل من الجيشين. وعندما يعود الجنود الأندلسيون إلى ظهير الجيش يجدون الغنائم لم يمسهها سوء فيدركون ساعتها أنهم وقعوا فريسة لخدعة مما أوقعهم في مأزق وتسبب في موت قائدهم الأمير العظيم. ولكن لا يزال لدى الغزاة جيش جرار فضلاً عن الكثير من البأس والقوة التي أتوا بها معهم إلى المكان. ويشعرون في هذه اللحظة بالحرع والغضب ويرغبون في الانتقام.

وبالرغم من هذا الانتصار المؤقت الذي حققه الفرنجة فإنهم لا يزالون غير متيقنين بعد مما يحدث. ويحل الظلام ويستغرق الفرنجة في نوم متقطع فهم يتوقعون أن يستأنف القتال في اليوم التالي. ويتساءل شارل عما إذا كان جيشه يتحمل موقعة أخرى ومبلغ طاقة التحمل هذه.

وعلى الجانب الآخر فى الحقول المبتلة المظلمة ما بعد الغابة تختلف الأحداث الدائرة بين الجنوبيين ويحدث ما هو غير متوقع . فجيش الأمير الصريح لا يزال سليماً لكنه مهتز . فالمسألة لا تخرج عن كونها تعييناً لقائد جديد وإعادة تقييم لاستراتيجية الحرب ، إما الإغارة المفاجئة على موقع شارل ، وإما مهاجمته مباشرة .

وتظل مشكلة صغار القادة داخل الجيش الأندلسى هى اختيار قائد واحد ليقود الجيش ويتجادلون فيما بينهم خلال ظلمات الليل حول هذه النقطة . فالغافقى وحده هو من كان له السلطة المطلقة والتكليف من الخليفة فى دمشق ولم يخول أحد آخر مثل هذه السلطة من الفرس أو البربر أو اليمنيين أو الإسبان أو العرب وهكذا تتفكك قطع النسيج المتداخلة وتغيب القيادة .

تضعف معنويات جيش شارل مع بزوغ شمس اليوم التالى ويتراءى أمامهم بحر من خيام الخليفة السوداء . لم تتحرك تلك الخيام قيد أنملة عن مواقعها فى اليوم السابق وهذا ينبئ باندلاع معركة أخرى . لكن لا يحدث شئ ولا يتحرك شئ ساكن . ولا يظهر أى من جنود الأعداء . وتذهب فرق الكشافة وتبلغ الجيش بأن خيام الغزاة خالية تماماً .

ولأول وهلة ينتاب شارل شعور بالخوف ، ويحس أن فى الأمر شبهة خدعة؛ ربما كمين كى يردوا على حيلة الأمس . ترى أين اختبأ العدو؟ هل سوف يكتسحون المكان بغد الظهر أو ربما فى الليل عندما يخرج الفرنجة من بين الأشجار . ولكن فرق الاستطلاع تعود لتؤكد أنها جابت المكان كله لكنها لم تجد شيئاً . لقد اختفى الجيش الأندلسى بين ظلمات الليل . وفاز الفرنجة بالمعركة . وهزم جيش شارل ذو العدد القليل والمعدات البائدة جيش الغافقى الرهيب الذى انسحب رجاله ليلاً لأنهم لم يستطيعوا أن يعينوا قائداً لهم . أما بقية القصة فتسقط ما بين صفحات التاريخ .

ومما لاشك فيه أن هذا الانتصار الفرنسى المفاجئ سوف تكون له آثار فورية فشارل لن يضيع أى وقت فى استيعاب التقنيات العسكرية المتفوقة للعدو . وسوف يجرد هو ورجاله؛ الجنود الأندلسيين المنهزمين من دروعهم وسيوفهم ومتاريسهم وركابهم . وبعدها بأيام قليلة يبدأ شارل فى تكوين أول سلاح فرسان أوربى مدرع ، ويستخدم هذا الجيش فى محاربة المسلمين بعد هذه الموقعة بخمس سنين فقط فى ناربورن جنوب فرنسا . وهكذا يصبح سلاح الفرسان الأوربى المأخوذ عن التكنولوجيا التى جاء بها الغزاة الأندلسيون هو أساس القوة العسكرية الأوربية للأعوام الـ 500 المقبلة .

كما أن فترة توقف الحرب هذه ستحول شارل مارتل إلى هذا القائد المهيب الذى سوف يطلق عليه رجاله لقب «المطرقة» فيما بعد . كما سيجعل شارل وورثته الحرب على المسلمين أحد المهام الرئيسية للجيش الأوربى . وفى يوم من الأيام سوف يذهب ابن شارل وخليفته إلى بينين الثالث؛ البابا الفرع فى روما ويجادله بأنه حيث إن القوة الحقيقية لأوربا تكمن فى أيدي عائلة شارل فينبغى تنصيبهم ملوكاً

على فرنسا. ويقبل البابا الذي يتلهم للحصول على أى قدر من الحماية العسكرية بهذا العرض ويتوج أسرة كارولينجيان أسرة حاكمة. وبهذا تزرع بذور مستقبل أوروبا الحديثة.

وبخلاف هذه التحولات المباشرة وبمرور السنوات والقرون ستسيطر فكرة أن أحد المنعطفات الرئيسية فى التاريخ الغربى وقعت فى مدينة تور. وبالطبع لا يعرف أحد هذا فى العام 732 وذلك يرجع إلى أن المعنى المكنم لما حدث ونتائجه لن تتكشف بسهولة داخل الحركة العظيمة والدرامية البطيئة لسير التاريخ.

أما بالنسبة لمنظور العرب والأندلسيين وحاكمهم الأموى فى دمشق فموقعة تور لن تبدو أكثر من جرس إنذار حيث إنهم فى أعقابها سيبدءون النظر إلى الفرنجة نظرة أكثر جدية وهم يحاولون إرساء قواعد الاستقرار وتوحيد جنبات إمبراطوريتهم الجديدة. كما سيبدأ قادتهم وعلماؤهم فى التركيز على عدوهم اللدودين ألا وهما البيزنطيون والفرنجة.

بيد أن الفائدة التى سوف تعود على الأوربيين ستكون أعظم وهم يعيدون صياغة النصر الذى حققوه فى المعركة إلى حملة للدفاع عن المسيحية الأوربية.

فالنظرة الغربية التقليدية تقول إنه لو كان المسلمون قد انتصروا فى معركة تور واستمروا فى الضغط تجاه الشمال والشرق لكانوا قد غزوا أوروبا برمتها. فلقد كانت لهم القوة على القيام بذلك، ومن ثم ففى حالة عدم وجود شارل مارتل ما كان من قائد أو قوة لتوقفهم فى أوروبا. كما يؤمن أصحاب وجهة النظر التقليدية هذه أن أوروبا فى مثل هذه الحالة كانت سوف تصبح ذات ثقافة مصطبغة بالصبغة الإسلامية. كما كانت الكنيسة الكاثوليكية سوف تختفى من روما، وربما ما كانت أوروبا سوف تتطور بالشكل الحالى.

ويصف إدوارد جيبون وهو من المتمسكين بالتقاليد الأوربية الوضع بعد مضى ألف عام على المعركة كالتالى:

زحف جيش جرار من الجنود المنتصرين على مسافة تفوق الألف ميل من أول مضيق جبل طارق وحتى ضفاف نهر اللوار، وربما لو كان هذا الجيش قد زحف بمقدار مسافة مماثلة أخرى لكان المسلمون قد دخلوا بولندا وهضاب إسكتلندا وعبروا نهر الراين الذى لا يمثل فى عبوره صعوبة أكبر من صعوبة عبور نهر النيل أو الفرات وربما كان الأسطول العربى قد أبحر بدون أى مواجهة بحرية إلى فم نهر التايمز. وربما كان تفسير القرآن يدرس الآن فى جامعة أكسفورد كما أن أئمة هذا المجتمع المظهر كانوا سيتحدثون عن قدسية وصدق الوحي الذى تنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

بيد أنه لا يوجد أى دليل على أن العرب الأندلسيين كانوا يرغبون فى أن يستحوذوا على أوروبا كما فعلوا مع أيبيريا. وبعد أن انهزم المسلمون مرة أخرى هزيمة منكرة فى ناربون فى عام 737 على يد شارل مارتل لم يتم شن حملة أخرى. وبحلول عام 800 كان حفيد شارل مارتل شارلمان قد دفع بالجنوبيين إلى خارج فرنسا كما كان يجس نبض الأحوال فى إسبانيا.

وحتى لو قرر المسلمون أن يتوسعوا فى فتوحاتهم نحو الشمال فإن الأمور كانت ستتعقد بفعل الاضطراب المتصاعد فى الخلافة نفسها؛ تلك الخلافة التى سوف تتفكك بعد مضى عشرين عاماً فقط على موقعة تور ما بين كيانين متعادين ألا وهما الحكم الأموى المتمركز فى قرطبة والخلافة العباسية فى بغداد. هل كانت إسبانيا الإسلامية سوف تستمر بدون دعم كل من دمشق وبغداد أو كانت ستتاح لها القدرة على غزو واحتلال بقية أوروبا؟

لا يمكن حل مثل هذا الخلاف. ولكن ما هو أهم من ذلك هو أنه بالنسبة للأوربيين فإن الفتوحات العسكرية العربية الشرسة والسريعة لبلاد الفرس والرومان القديمة، التى وصلت بهم حتى وسط فرنسا كانت لهم كالصدمة ذات الوقع الشديد، ومن ثم فقد تركت وراءها جرحاً لم يندمل كليةً بالرغم من سقوط تفاصيله فى طى النسيان. بيد أن ذكرى هذا الحدث كما تم تناقله عبر 1300 عام تظل كامنة تحت السطح.

ومرة أخرى يعد الإرث الذى خلفته الأحداث التى وقعت فى مدينة تور فضلاً عن الأحداث المرتبطة بغزوات العرب فى القرنين السابع والثامن قد أربها أوصال أوروبا وشكل منظورها تجاه العالم الإسلامى. فرؤية الأوربيين للمسلمين كغزاة لا يعرفون الرحمة خلقت نوعاً من الإيهار المزوج بالرهبة مما سوف يكون لهذا عظيم الأثر فى صياغة الكثير من الرؤى فى المستقبل. ومن هذه الرؤى أن هذا الدين الجديد يحمل أصداء الديانتين اليهودية والمسيحية غير أنه يختلف عنهما فى ذات الوقت ويضيف الكثير من التعقيدات.

وربما كانت تنبؤات المستمسكين بالتقاليد الغربية حول عواقب الغزو الإسلامى لأوروبا ستتحقق لولا مقاومة شارل مارتل. ولكن بناءً على قراءة بعض أجزاء التاريخ الضائع التى شملت الإنجازات المنسية للعصور الذهبية للمسلمين والتطور الفريد لإسبانيا الإسلامية والثقافات المختلطة الأخرى فربما كان سيثبت أيضاً خطأ مثل هذه التنبؤات. فالغزوات الرومانية والبربرية الأولى لأوروبا قد تمخض عنها ولادة ثقافة جديدة كان من شأنها أن تجتاح العالم فى يوم من الأيام وتعد النموذج المثالى للثقافة. فلم لم يكن ليتحقق أمر مشابه بالنسبة للمسلمين؟

وبناءً على الغوص بين صفحات التاريخ الضائع يتضح أن العالم الإسلامى تفوق كثيراً على أوروبا المسيحية فى المجالات الاقتصادية والفكرية والتكنولوجية

لفترة تصل إلى 700 عام بعد أحداث تور. وعلى هذا ألم يكن ليتحقق نفس التفوق والتقدم في كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأماكن أخرى لو كان المسلمون قد حكموها؟

ويعد أبلغ دليل على ما سبق أنه بالرغم من هزيمة المسلمين فإن أفكار وأساليب وأشكال العالم الإسلامي قد أثرت على العالم الغربي غير الإسلامي. بيد أنه بسبب سمو هذا الأثر وعدم تجليه بشكل صريح وضياح أجزاء من هذا التاريخ أصبح هذا الأثر يُعزى لأسباب أخرى غير المنبع والمصدر الرئيسي لها. ولكن مع مرور رده من الزمان والنظر إلى الصورة الكبيرة من بعيد يمكن القول بأن أفضل نتاج للفكر الإسلامي ومخترعاته وفنونه نجح في الذوبان بطريقة دائرية داخل الغرب.

وسوف يحدد الانجذاب الأوربي للتكنولوجيا والفكر الإسلامي والخوف في ذات الوقت من النفوذ والدين الإسلامي ملامح العلاقة بين الأوربيين والمسلمين حتى عصر النهضة وما بعده. ولن يتغير الأمر حتى تصبح أوروبا هي الإمبراطورية العالمية العظمى في القرن السادس عشر وحين يأفل نجم العصور الذهبية للإسلام. كما أن إعادة صياغة التاريخ من منظور أوربي بحت سوف يقوض من عظمة العصور الذهبية الإسلامية، ويُعزى الفضل للأوربيين في ابتكار علوم الرياضيات والفلك والطب والعلوم والتكنولوجيا والسياسة والإنسانيات والمجتمع المتعدد.

وبالنظر من خلال عدسات التاريخ الضائع فمعركة تور لا تمثل صدمة للأوربيين فحسب ولكنها أيضًا بمثابة هدية فريدة حصلوا عليها. فالأوربيون بقيادة شارل مارتل وبعده شارلمان فعلوا ما هو أكثر من مجرد استخدام الحدث كدليل على وجود تهديد أجنبي حفز عمليات توحيد الصفوف التدريجية بين مخلفات الحضارة الرومانية والقبائل الجرمانية البدائية ودفعت بهم نحو إشعال شرارة الحضارة الجديدة. فضلًا عن أنهم استفادوا أيضًا مما تسببت فيه معركة تور من نقل تكنولوجيا وفكر وتنظيمات ميدانية لحضارة متفوقة امتدت على مدار فترة 700 عام إلى إقليم متخلف من العالم.

ويثبت كل ما سبق حقيقة أن جنود كل من شارل وشارلمان الذين شكلوا مستقبلهم عن طريق الدخول في حروب مع المسلمين ودفعهم نحو جنوب برينيه كانوا في ذات الوقت من أشد المعجبين بالإنجازات الفكرية والتكنولوجية التي حققها هذا العدو. وحتى عندما كان شارلمان يحارب الأمويين في إسبانيا بدأ في ذات الوقت في الدخول في سلسلة من المراسلات الطويلة مع الخليفة العباسي هارون الرشيد في بغداد؛ وذلك حتى يتحد معه ضد البيزنطيين.

ويعلمنا التاريخ الضائع أن هذا اللقاء القدرى بين أوروبا والمسلمين كان أكثر تعقيداً من مجرد وصفه على أنه صدام بين الحضارات أو حرب بين الأديان . فبالنسبة للأوروبيين كان الأمر بمثابة الصدمة التى تستمد بعض أجزائها من قصص الأنجيل بيد أنها كانت فى ذات الوقت بداية تلقيهم للتكنولوجيا والأفكار المتفوقة التى جاء بها المسلمون .

أما بالنسبة للمسلمين العرب فكانت معركة تور هى إشارة لانتهاى مرحلة الفتوحات وبداية لاطلاق شرارة طاقاتهم نحو الاختراع والإبداع . وبالرغم من أن إنجازاتهم العسكرية كانت مذهلة عن حق فإن إبداعاتهم الفكرية كانت أكثر روعة وجمالاً .

دمشق، مركز الخلافة الإسلامية العام 661 بعد الميلاد: تنتقل أحداث القصة الآن نحو دمشق المدينة المقدسة القديمة والمكان الذى تحول فيه شارل مُعذب المسيحيين إلى الديانة المسيحية بعد أن رأى فى منامه رؤيا غيرت من سير حياته جذرياً وأصبح بعدها القديس بولس أو بولس الرسول . والآن فى الجزء الثانى من القرن السابع تبدو أسطح المدينة المصنوعة من البلاط على الطراز الرومانى والبيزنطى منتظمة الشكل وهى تركز على التلال السورية التى لوحتها أشعة الشمس الحارقة بين الشجيرات الحجرية . كما تحدد الأطر الخارجية للأراضى والمراعى جدراناً مصنوعة من الحجارة وأشجار الأرز المصفرة بفعل الصراع الأبدى بين الحياة والموت .

وفى عام 661 تصبح مدينة القديس بولس القديمة مستقر الخلافة الإسلامية التى يبلغ عمرها الآن 130 عاماً . وهاهنا يضم الإسلام ملايين الناس وعشرات اللغات . وبخلاف مشكلات توجيه الجيوش لإتمام الفتوحات ونشر الدين تتجلى أمور يومية أكثر إلحاحاً شأن إدارة هذه المساحة الشاسعة من الأراضى فضلاً عن هذا الكم الرهيب من البشر وتحقيق الاستقرار والاستدامة لهذا المجتمع وهذه الإمبراطورية الحديثة التى نشأت بقوة الإيمان ودماء الشهداء .

وما يزيد تصاعد الأمور هو هذه التنافسية السياسية الناشئة بين عشيرتين انبثقتا عن قبيلة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، فى مكة ألا وهى قبيلة قريش . والعائلتان هما أولاً سلالة العباس عم الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، وأحلافه والذين اشتهروا فيما بعد بالأسرة العباسية وثانياً سلالة وحلفاء أقارب للرسول، صلى الله عليه وسلم، من بعيد ألا وهم بنو أمية، والذين اشتهروا فيما بعد بالأمويين .

وتجيش صدور العائلتين بالحقد والضعينة تجاه بعضهما البعض لفترة مديدة من

الزمان . وتحمل العائلتان دماء الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، لكن العباسيين يعدون ذوى صلة مباشرة برسول الله ، صلى الله عليه وسلم . أضف إلى ما تقدم أن أحد مؤسسى العائلة الأموية هو أبو سفيان ، والذي كان فى ذات الوقت من ألد أعداء الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فى السنوات الأولى للدعوة واستمر كذلك حتى يوم فتح مكة . فبعد أن خسر المعركة صفح الرسول صلى الله عليه وسلم عنه وانضم هذا الأخير إلى ركب الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن لم ينس الكثير من أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مقاومة أبى سفيان له .

وعندما يتم عزل آخر الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وابن عم الرسول وصهره ، فى العام 661 ويعلن أحد الأمويين وهو معاوية توليه الخلافة - تجيش الصدور بالمزيد من الضغائن والأحقاد .



فى عام 711 ، تمكن طارق بن زياد من غزو إسبانيا والاستيلاء عليها ومع قوة صغيرة من العرب والبربر وذلك لتوسيع الخلافة الإسلامية .

فبينما تبقى مكة هى الحرم الشريف تصبح دمشق مستقر ومركز الخلافة فى الإسلام . ويعتبر الناس معاوية الأول قائد الإسلام والسنيين بالرغم من أنه لم يدع النبوة . أما الشيعة فيتبعون سلسلاً آخر من الخلفاء . وفى هذه الأيام الأولى للإسلام الذى كان لا يزال فى المهد ، وتشوب الأمور النزعة الارتجالية يصبح لمعاوية وخلفائه نفوذ عظيم ليحكموا فى كل الشئون بما فى ذلك القضايا الدينية . بيد أن هذا لا يعنى أنهم كانوا لا يستمعون إلى آراء الآخرين فالعادات القبلية العربية كانت تنطوى على الإنصات والتفاوض والتجارة وتكوين الائتلافات والأحلاف والحفاظ على شرف العشيرة واتباع نهج صارم للسلوك .

وكى يعلنوا عن هذا النفوذ العظيم وعلو وسمو هذا الدين الجديد يبدأ خلفاء معاوية فى الحكم بناء ما يعتقدون عليه النية فى أن يصبح أعظم مسجد فى الإسلام على الإطلاق غير أنهم يتساءلون فيما بينهم كيف سيبدو هذا المسجد؟ هل يشبه الحرم المكى الشريف هذا البيت العتيق الذى يعود تاريخه إلى قرون بعيدة؟ هل سيأخذ معماره بعض الخصائص من معمار مكة والمدينة ومدن الموانئ العربية وربما شكل الخيام البدوية ، وبهذا يعلن هذا المسجد عن كل هذه الملامح كى تظهر جليلة أمام العالم .

وإبان عملية الاختيار هذه يلجأ الأمويون إلى عباقرة وجهابذة المفكرين من داخل كل المجتمعات التي استوعبها العالم الإسلامي في ذلك الوقت ليس ذلك بسبب قلة في المهندسين المسلمين أو العرب، فهؤلاء لديهم الحس الجمالي الذي تشكل لديهم بفعل حضارات عتيقة وعظيمة.

وبالرغم من أن الأمويين والكثير من أتباعهم المحليين قد جاءوا رأساً من قلب صحراء شبه الجزيرة العربية فإن المسجد الذي يقررون تشييده، والذي سوف يدوم لفترة 1300 عام ما هو إلا دليل عبقرى ومبهر على حضارة قديمة آلت إلى الفناء وعلى حضارة أخرى لم تر النور بعد ولكنها سوف تشرق بوضوح عبر الـ 700 عام التالية. فهذا المسجد الذي تأسس في القرن السابع دالاً على بزوغ فجر الإسلام ومبشراً بحلول حضارة جديدة وناشئة يقف أيضاً شاهداً على حضارة فنيت مع الزمان كما أنه يتنبأ بولادة حضارة أخرى في المستقبل تنبثق عن الحضارة الرومانية القديمة ألا وهي حضارة النهضة بإيطاليا.

حتى شكل هذا المسجد يبوح بصفات مشتركة بين تراث البحر المتوسط الإسلامي والمسيحي، بل إن الأرض التي يقف عليها تردد أصداء النزواج فيها بين العقيدتين. فعندما يغزو المسلمون العرب دمشق في القرن السابع يجدون مكان هذا المسجد الكنيسة البيزنطية، والتي سوف يحل المسجد محلها فيما بعد. كما أن يوحنا المعمدان مدفون في نفس هذا المكان. وفي الأزمان الخوالي كان يقع مكان هذه الكنيسة المعبد الروماني الذي تم بناؤه لتقديس الإله جوبيتر كبير آلهة الرومان. وإبان حكم معاوية خصص المسلمون مكان عبادة لهم داخل هذه الكنيسة. ويستمر الوضع هكذا لفترة 25 عاماً بعد وفاة معاوية حتى يزداد عدد المسلمين ويصبح هذا المكان لا يكفيهم البتة.

وفي عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك خلال الفترة ما بين 705-715 بعد الميلاد يتم شراء الكنيسة التي يبلغ عمرها الآن قرنين من الزمان من القادة المسيحيين مع التعهد بحماية بقية الكنائس في دمشق بالإضافة إلى بناء كنيسة جديدة باسم مريم العذراء. وبهذا يتم هدم الكنيسة القديمة، ومحلها يتم بناء المسجد الأموي بخطة معمارية جديدة وتصميم مبتكر. ويصبح الوليد بن عبد الملك مسئولاً عن إتمام هذا البناء الأموي العظيم كما يتم بناء قبة الصخرة الشهيرة في مدينة القدس على الحرم القدسي الشريف.

وعند إتمامه ستبدو الواجهة الكلاسيكية للمسجد الأموي العظيم ذات طراز يوناني وروماني خالص ومنقحة على الطريقة البيزنطية. أما الأقواس الدائرية الشكل، والتي سوف تصبح فيما بعد أحد ملامح المعمار الإسلامي في إسبانيا، فما هي إلا نسخة معدلة من الأقواس الرومانية، كما أن أعمدة المسجد وتيجان الأعمدة وأعتاب الأبواب والنوافذ العليا والشكل المثلثي للأسقف كلها مأخوذة مباشرة من أثينا وروما.

وفيما يتعلق بالقبة المشيدة في المنتصف والجزء الداخلى المستطيل الشكل ثم ذى الطرف النائى والنصف دائرى مع النوافذ المرتفعة فوق المصلين فيردد أصداء البانتيون أو الهيكل الرومانى . والأكثر إبهاراً من ذلك هو أن ساحة المسجد التى تم تشييدها كى تكون مكاناً لعبادة الله عز وجل لا تعكس ساحة البانتيون الرومانى المكرسة لعبادة الآلهة فحسب ، ولكنها أيضاً تبشر بشكل ساحة كنيسة القديس بطرس التى سوف تبنى فى روما بعد عدة قرون بالاضافة إلى ساحات مدن عصر النهضة شأن ساحات مدينة سينيا وفلورنسا وفينيسيا .

ويبقى السؤال هو: كيف لمسجد شيد فى القرن السابع فى مقر الخلافة الإسلامية الجديدة أن يمثل روما الفانية وعصر النهضة فى إيطاليا المستقبلية؟ هل هاتان الحضارتان المتنافستان ما هما إلا تعبير جلى عن بعضهما البعض؟
ويقدم لنا وصف عربى أندلسى فى القرن الـ 12 شكل المسجد العظيم ودمشق كالتالى:

البلدة المشهورة قسبة الشام وهى جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رفعة وكثرة مياه ووجود مآرب وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهى حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبتهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهى بأيدى الروم، ولا اعتراض عليهم فيها.

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفظهما وأكبرهما، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون اليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء بيكرون اليه فى كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر. وهذا القديم هو غربى الجامع المكرم.

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغربية الشأن، وهياكلها الهائلة البنيان، المعجزة الصنعة والاتقان، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان: الصعود أعلى قبة الرصاص المذكورة فى هذا التقييد، القائمة وسط الجامع المكرم، والدخول فى جوفها، واحالة لحظ الاعتبار فى بديع وضعها، مع القبة التى فى وسطها كأنها كرة مجوفة داخله وسط كرة أخرى أعظم منها؛ سعدنا اليه فى جملة من الأصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن

عشر لجمادى الأولى المذكورة من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم، وتمشينا على سطح الجامع المكرم، وكله ألواح رصاص منتظمة، كما قد تقدم الذكر لذلك، وطول كل لوح أربعة أشبار، وعرضه ثلاثة أشبار، وربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة، حتى انتهينا القبة المذكورة، فصعدنا إليها على سلم منصوب، وريح الميد تكاد تطير بنا، فحبونا فى المشى الطيف بها، وهو من رصاص، وسعته ستة أشبار، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه، فأسرعنا الولوج فى جوف القبة على أحد شراحيبها المفتحة فى الرصاص، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول، وتفق دون ادراك هنية وصفه الافهام، وجلنا فى فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة الداخلة فى جوف القبة الرصاصية على الصفة التى ذكرناها، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر⁽⁵⁾.

وينبغى على معاوية وخلفائه أمثال يزيد (680-683) ومعاوية الثانى (683-684) ومروان (684-685) وعبد الملك (685-705) والوليد (705-715) أن يوفرنا الطعام والسكن لشعب العاصمة، وكما هو الحال دائماً فى جميع أرجاء الخلافة الحديثة يظل الماء هو المشكلة. فالماء هو سر الحياة وأساس الزراعة ومصدر النظافة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. وحتى يتسنى للزراعة أن توفر الطعام لعاصمة الإمبراطورية الجديدة يأمر الخليفة باللجوء إلى استخدام وسائل حديثة للرى. وبالرغم من أن هذه الوسائل الجديدة قد تم أخذها من بلاد الفرس، فإن الحضارة الإسلامية سوف تنقلها عبر أرجائها المختلفة مع إدخال بعض التعديلات عليها. وفى يوم من الأيام سوف ينقلها الإسبان الكاثوليكيون إلى العالم الجديد. ويعود الفضل أيضاً إلى الدولة الأموية فى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للحكومة، كما سيغيرون الكتابة على سك العملة البيزنطية والفارسية إلى اللغة العربية.

وفى أثناء حكم معاوية الأول وتأسيسه لبيت القضاء فى دمشق وخلفائه الأربعة عشر فى الفترة ما بين 680-750 بعد الميلاد يتخذ هو وخلفاؤه بعض القرارات السياسية المصيرية. فكأبناء لمكة المكرمة وأقارب للرسول، صلوات الله عليه وسلامه، يتأكدون دائماً من بقاء مناصب القوة والنفوذ فى أيدي العرب ومجموعة منتقاة من السوريين. أما جيوشهم التى تنطلق نحو فتح العالم فتتكون الغالبية العظمى منها من السوريين أيضاً. ومن ناحية أخرى فإن السواد الأعظم من الجنسيات الأخرى من الأجانب الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية سواء كانوا من الفرس أو الأتراك أو البيزنطيين أو المصريين فقد كانوا فى المناصب الأدنى فى ظل حكم

الأمويين . وانتهاكًا لتعليمات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يجبر هؤلاء على دفع الجزية حتى بعد اعتناقهم للإسلام .

أما تلك المجموعة من المسلمين الأجانب ، والتي تحتل الرتبة الثانية في المجتمع ويطلق عليها اسم الموالي فستتحالف مع سلالة الأسرة العباسية المنافسة للأسرة الأموية كما ستشترك في إسقاط الخلافة الأموية . بعد مضي عقود على تأسيس الخلافة في دمشق ، وبالرغم من الاستمرار في التوسع في جنبات الإمبراطورية ، وتدفق صناديق الغنائم والثروة إلى الخليفة وتمتع دمشق بأعظم فترات نموها وثرائها ، فقد بدأ عبء وإدارة مثل هذه الإمبراطورية وحجمها يتقل على صدور الأمويين . وحتى الطبيعة تتحالف ضد بني أمية وتأتي بفترة من الجفاف الشديد على سورية الجافة بطبيعتها ، ومن ثم تزدوى الحقول وتجف ترع الري الجديدة . ويجبر الجفاف الأمويين على الاعتماد على إمدادات الطعام التي تأتي إليهم من أرض العراق ، والتي تتمتع بوفرة في المياه بفضل نهرها دجلة والفرات .

وهكذا يُغير هذا التحول الذي يطراً على الزراعة والتجارة من سورية إلى الشرق نحو العراق المزيج السياسي بشكل كبير . فطالما كانت العراق تمثل منطقة عازلة تقطع الطريق على الفرس كما أنها في ذات الوقت تعد عتبة الباب إلى الدخول إلى بلاد فارس . وهذا يعني أن اعتماد سورية المتنامي على العراق للإبقاء على الإمبراطورية يعتمد بدوره على مدى تعاون الفرس . وفي ذات الوقت لا يمنح المسلمون الفرس الوضع السياسي المناسب الذي تمليه مجريات الأمور من حيث الأهمية الاقتصادية والفكرية . وهذا كله يولد المزيد من الكراهية .

وبينما تصل الخلافة الأموية إلى قمته من حيث الفتوحات الجغرافية تُحاك المؤامرات ضد بني أمية على مدار العقود والعقود . وتزيد حدة الأمور بفعل اشتداد قوة المقاومة من أعداء خارجيين على الأركان المترامية للإمبراطورية . ففي فرنسا ووسط آسيا وبلاد الفرس والهند الشمالية يبدأ الأعداء في مقاومة الغزاة المسلمين وفي نفس الوقت يقاوم الرعية والمسلمون الأجانب النظام العربي الحاكم الذي تديره مجموعة محدودة من الصفوة في دمشق . وتفشل محاولة لقلب نظام الحكم في العام 740 بعد الميلاد ، ولكن في عام 750 يتحالف العباسيون ، غرماء الأمويين ، مع المسلمين الأجانب وكان معظمهم من بلاد الفرس وفي معركة أخيرة على ضفاف نهر الزاب ، أحد روافد نهر دجلة ، يلحقون بالأمويين هزيمة منكرة .

وفي ليلة مظلمة يباغت العباسيون من تبقى من بني أمية ويجتاحون سورية . يدعو العباسيون نبلاء بني أمية إلى «مأدبة تصالح» . وبروح الإيمان والسماحة والسلام يطرحون فكرة إيجاد وسيلة لتطبيق نظام حكم مشترك بينهما للسيطرة على إمبراطوريتهم العالمية .

وتعقد المأدبة في القصر الأموي ويجتمع الجميع، لكن هذا لا يعني أن أوصال الأمويين لا ترتعد لرؤية العباسيين وهم يدخلون بأعلامهم السوداء وسيوفهم ودروعهم قلب البيت الأموي. ولكن لم يعد هناك من يقاومهم فلقد قتل خليفتهم في المعركة واستسلم الجيش. وهذا هو واقع العالم الجديد.

وهكذا يتألف ذلك العشاء من المنتصرين والمنهزمين وفجأة عندما يبدو هذا التصالح المستحيل على وشك أن يقع ضد كل ظروف الخلاف بين الأسرتين الحاكميتين منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام وبينما يلعب النبيذ بالراءوس ويستمتع الحضور بالطعام في هدوء يسبق العاصفة المدوية، يصدر أمر سرى بين الزوار وتبدأ السيوف تسل وتؤدي واجبها. ويذبح العباسيون كل رجل وامرأة وطفل في الحاشية الأموية من طباخين إلى خدم، فالزوجات فالحریم فالأبناء فالبنات فأبناء العم فالخال فالتابعين. وفي ذروة هذا الكابوس من الخيانة تدمر الأسرة الحاكمة الجديدة الأسرة القديمة. وتحول حجرات نوم الأطفال وغرف نوم الكبار والمطابخ إلى برك من الدماء. ويسمع صوت صرخات مدوية بين جدران دمشق صرخات آلام وأوجاع ما سمع بها بشر من قبل.

ويرتعد صبيان أخوان في مرحلة المراهقة؛ اسم الأول هو عبد الرحمن أما الثاني فاسمه يحيى، من المفترض أنهما الوارثان القادمان للخلافة، ويتحركان بين جنبات القصر المظلمة يسمعان أصوات صراخ وبكاء أمهما وإخوانهما وأخواتهما وأبناء أعمامهما وأبناء أخوالهما وفوق كل ذلك صرخات استغاثة رجال الحاشية الذين عرفوها منذ مولدهما وهم يذبحون حتى الموت دون رحمة أو شفقة. إنها حقاً تجربة بلغت منتهى القسوة ستبعث في قلوب الكثيرين خوفاً لا شفاء منه وحرناً لا عزاء فيه أو غضباً لا انتقام بعده. بيد أنه يفعل حيلة بارعة لبعض رجال الحاشية يتم تهريب الأميرين ليلاً وإطلاق سراحهما وبصحبتهما خادم واحد بلا مال ولا حرس تجاه شمال إفريقيا. سيحالفهما الحظ إن كتبت لهما فرص النجاة ولكن ترى أى نوع من الحياة ينتظرهما؟

بالنسبة لأعدائهما فلن يحدث الأمر أى فارق في الوقت الحاضر فهم حتى لا يعلمون أن الصبيين على قيد الحياة. وبسرعة يقوم العباسيون المنتصرون بتوحيد صفوفهم ونفوذهم بيسر بعد أحداث المذبحة ويأتون بمجموعات المسلمين المتعددة الطائفة، وبصفة خاصة الفرس، إلى مناصب أعلى من خلال اتفاقية لاقتسام السلطة والنفوذ فيما بينهم. ويديرون ظهورهم للأبد إلى الحكم الأموي بدمشق ويقررون نقل الخلافة إلى المدينة المبهمة حتى الآن، والتي تقع على ضفاف نهر دجلة، وليست ببعيدة عن آثار حضارة بابل القديمة. ولا يختار الخليفة المنصور بغداد لما هي عليه الآن، بل لما سوف تصبح عليه في المستقبل. فالمدينة تقع على بعد متساوٍ بين مراكز النفوذ في سوريا والجزيرة العربية وبالقرب من بلاد فارس، وبهذا سوف يرسي المنصور قواعد العصر الذهبي الأول للمسلمين في بغداد.

وبغض النظر عن الوحشية التي سادت طريقة تولى العباسيين للسلطة فإن أسلوب المنصور ومن خلفه في صياغة الحياة السياسية والاجتماعية والمدنية والثقافية والدينية سوف تؤدي إلى ازدهار 500 عام تالية اشتهرت بأنها العظمى في تاريخ الإنسانية كما أن القرون الخمسة هذه سوف تتردد أصدائها لفترة 1250 عامًا. إن أمجاد إنجازاتهم كانت لامعة وبراقة لدرجة أنه ما ظهر نظير لها في أى وقت معاصر. وفي نفس السياق سوف ينبعث الحكم العباسي ليضيء مدينة بغداد بأسرها فهي مدينة المستقبل.

ولكن لسخرية القدر اللاذعة سوف تلهب تجربة ليلة مذبحة قصر الأمويين شرارة بزوغ إنجاز باهر عن حق بالرغم من كل الظروف وسوف ترسي قواعد خلافة وحضارة منافسة تظهر في مدينة اسمها قرطبة في مكان بعيد يطلق عليه اسم الأندلس. فالحكم الأموي الذي لن يتجلى بعد اليوم في دمشق سوف يبرز فجره في إسبانيا.

كما أن هاتين العائلتين والأسرتين الحاكميتين الغريمتين ذواتي الرؤى المتنافسة واللتين قد نبعتا من داخل نفس الديانة وخرجتا من بين ضلوع نفس المدينة المقدسة مكة المكرمة وافترقتا إلى الأبد يوم مذبحة دمشق سوف تؤسسان حضارتين وعصرين ذهبيين، ولن تركزا من الآن فصاعدا على الغزوات أو الفتوحات، أو على إعادة غير المؤمنين إلى الدين الحق أو تهتما بسلب الغنائم، بل سيشغل بالهما بناء مركزين ثوهمين للفكر والاختراع والإبداع.

كما أن تأثير هاتين الحضارتين على العالم لهو أشبه بإزالة الخرافات عن وجه العالم. فهاتان الثقافتان مجتمعتان سوف تلهمان أعظم الأفكار والنماذج المثالية التي رآها العالم طوال حياته من أول الحب العذري الأوربي حتى الشعر الغنائي إلى قصص ألف ليلة وليلة التي ترويها شهرزاد إلى فلسفة ابن ميمون وصولاً إلى الجامعة الحديثة والطب الحديث وأخيراً المجتمع المدني متعدد الأحزاب.

وكل هذا تاريخ ضائع.



مدن العباقرة المفقودة

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

[سورة طه، 114]

بغداد، العراق 2007: من على ارتفاع كبير ومن بعيد تبدو بغداد في القرن الـ 21 أشبه بالمتاهة الترابية هندسية الشكل ومنخفضة ، تتألف من دلتا ذات طفلة صفراء بفعل نهر يخترق الصحراء ، وهي بالتأكيد لا تختلف كثيراً عن شكل بابل القديمة منذ دهور مضت في اتجاه الشمال . بيد أن هذا المبنى يبدو أكبر كثيراً ويتلأأ بفعل النقاء ضى المعدن مع الأسطح الزجاجية وهذا بالتأكيد لم يكن له وجود في أثناء حضارة بابل القديمة . بيد أنه في وقتنا الحاضر لا توجد حدائق معلقة بالرغم من آمال صدام حسين في تحقيق ذلك .

وتتبع شبكات الطرق الشاسعة حدوداً معينة داخل الأراضي على طول شريان نهر دجلة ذى الضفاف الخضراء التي تحيط به مستنقعات لها شكل منسق ومساحات خضراء تصنع إطاراً لخريطة ذات خطوط متوازية تجمع 6 ملايين نسمة أتوا كي يعملوا ويتاجروا ويحيوا معاً . وعند النظر في اتجاه الأفق البعيد بدوران يبلغ 360 درجة يختفى الضوء البرتقالي الذى يحيط بفترة بزوغ الفجر مع ضوء شروق الشمس وزرقة السماء ويأخذ المرء غرباً حيث سورية والأردن . وتتعلق فى السماء طبقة لها لون ضارب إلى الزرقة بفعل العوادم والنيران فى قلب صيف العراق الحارق وتنتشر فى اتجاه الضواحي .

يستيقظ «على المدينة» ، الذى ربما أخذت عائلته لقبها عن مدينة صغيرة تقع فى الشمال أو ربما عن المدينة المنورة فى الجزيرة العربية التى هاجر إليها الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، يستيقظ على صوت رنين المنبه الذى يعمل بالزنبرك حيث إن الكهرباء غير مضمونة هذه الأيام . ومن خلال زجاج نافذته وبالنظر لما وراء الأسطح مربعة الشكل وأحبال غسيل الجيران فى منطقة الأدهمية يرى اللون القرنفل

الذى يحيط بشروق الشمس وهو يلامس قبة مسجد أبى حنيفة الذى بناه العباسيون منذ 1200 سنة مضت .

ومثل تلك المنازل الأسمنتية رمادية اللون وهالة المجد التى تحيط بالمسجد القديم ، تقف عائلة «المدينة» بين هذا التراث المزدوج المبهم؛ بين حال نعمه القتامة وملامح خفية لما هو أكثر عظمة . فقد تكون لهذه العائلة مجرد أصول بسيطة تعود إلى إحدى القرى العراقية مثلما سمع أمه تصرخ لزوجها يوماً ما منذ زمن بعيد فى إحدى تلك المشاحنات . أو ربما كانوا جنوداً محاربين فى جيش الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ترعرعوا خارج المدينة المنورة ثم خرجوا من الجزيرة العربية فيما بعد لخدمة الخلفاء واستقر بهم الحال هنا . فقد حكى جدة «على» لأبيه كل هذه القصص يوماً ما كما تغنت له بأغانٍ تشهد على ذلك .

أياً تكن الحقيقة يجلس «على» ويتناول إفطاره المكون من البيض المقلّى والجبن ويسمع ولديه أمينة وأنور يتحدثان عن الأخبار المفزعة التى سمعاها فى التلفزيون ليلة أمس سمعا عن حدوث انفجارين آخرين ، وعن عملية إطلاق نار جماعية فى السوق وعن جثث وجدت فى أحد المخازن وعن اختطاف لمجموعة كاملة من الموظفين الذين يعملون فى مكتب حكومى وعن رجال ونساء معصوبى الأعين اختطفهم بعض الرجال الذين يرتدون زى الشرطة وتم وضعهم فى شاحنات بلا هوية أخذتهم بعيداً .

هذه ليس نوعية الموضوعات التى ينبغى أن يتحدث عنها الصغار ، ولهذا يطلب منهم أن يلتزموا الصمت . ويتساءل فى نفسه - كما سبق - وأن تساءل ألف مرة سابقة فى الأعوام الثلاثة الأخيرة - كيف لهؤلاء الأطفال أن يتحملوا العيش فى مثل هذا المكان؟ وهذا كله يؤدى به إلى التفكير فى الهجرة إلى الأردن أو سورية أو دى أو أبوظبى . لقد ناقش هذا الأمر مع زوجته مرات كثيرة . ومنذ عشر سنوات كان تراثه العربى ولغته يمكنانه من الحصول على وظيفة غير أن الإمارات الغنية تجذب أفضل فئات من المهندسين والمعماريين من حول العالم ، تجذب رجالاً ونساء من جامعة ستانفورد وأكسفورد والسوربون .

وكثيراً ما انتهت مثل هذه الحوارات بجيتان عاطفى حول ثمن ترك الوطن ، فبيغداد هى الوطن ، هى شبكة ممتدة من أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء الذين يصل عددهم إلى المئات . ياترى ما شكل الحياة بدونهم؟

وتخبره «ميرنا» زوجته أن اليوم هو أحد الأيام الصعبة ، ويتساءلون إن كان من المناسب الخروج إلى الشارع اليوم وإرسال الأبناء إلى المدرسة والذهاب إلى العمل؟

ولفلقهم سبب وجيه؛ فـ «على» من السنة أما «ميرنا» فمن الشيعة . وحتى العام

الماضى لم يخطر ببالهما هذا الأمر ، فهما لم يعودا يذهبان إلى أى مسجد من المساجد ، فهذا التراث المشترك فيما بينهما يكفى لاختطافهما وولديهما وإطلاق الرصاص عليهما من المتعصبين من الجانبين .

أىكون اليوم موعدهم مع ضربات القدر؟ إنها حقاً لمعجزة حقيقية أنهم ظلوا سالمين فما أحد من أقاربهم المباشرين إلا وقد طالته نيران الحرب أو الاحتلال . ففي العمل والسوق والمدرسة قد طال الأذى الجميع تقريباً ولو على مسافة قريبة . إن آل المدينة يعرفون الطرق التى ينبغى أن يسلكوها والبيوت والمباني والحافلات والأماكن التى ينبغى أن يتجنبوها ، إلا أنه ما من شىء مضمون .

ويقبل على زوجته وينادى على إحدى سيارات الأجرة التى يقودها أحد جيرانه وهو يقف فى ميدان المنطقة المجاورة . ولا يحتاج «على» أن يخبر صديقه إلى أين يذهب حيث يعمل فى وزارة الأشغال العامة . فمن المعروف فى هذا الحى أن «على» هو مهندس مدنى يعمل على إعادة بناء البنية التحتية المرورية . إن الجيرة كلها تعلم تمام العلم أن «على» لديه وظيفة محترمة أيضاً ، ومهمته تتلخص فى إصلاح الكبارى والطرق السريعة التى دمرها الغزو ويزداد تدميرها بفعل المقاومة . و«على» يعمل - عن كثب - مع مجموعة من المهندسين من إحدى شركات البناء الأمريكية .

ولقد كانت العلاقة أفضل فى الماضى قبل بداية حالة المقاومة كما كان الأمريكيون ومقاولوهم يتحركون بحرية أكثر فى السابق . والآن يبقى الأمريكيون داخل المنطقة الخضراء ، وإن رغب «على» فى مقابلة أحد منهم وجها لوجه فعليه أن يحدد موعداً قبل ذلك بأيام . وبصاحب ذلك فترة طويلة من التأخير ومجموعة من الموافقات فضلاً عن تحديد عدد الساعات الضرورية للتفاوض مع نقاط التفتيش والحواجز الموجودة على المحيط الخارجى للمنطقة الحمراء . ولهذه الأسباب يقصرون اتصالهم على الهواتف المحمولة والفاكس ويلجئون فى بعض الأحيان القليلة إلى البريد الإلكتروني .

وبينما تمضى السيارة قدماً فى شارع الرشيد وتمر بالبيوت الخرسانية المربعة الشكل ونخيل البلح ، والضباب البرتقالى اللون الذى يكسو فترة الصباح يقترّب «على» من البوابة الوحيدة المتبقية من المدينة القديمة التى تم تأسيسها إبان الخلافة العباسية ، يمر بالبواب الأوسط والبوابة إلى خراسان فى الجزء الشمالى الشرقى من إيران . ويطلب «على» من سائق التاكسى أن يتوقف أمام كشكه المفضل لشراء السجائر .

ويبيع له صديقه فى الكشك سجائر ماركة كاميلز ويتوقف «على» لبرهة وهو يفض الكيس الذى يحيط بالعبوة ويعيد الريالات العراقية المتبقية إلى جيبه وتطير إحدى

العملات الورقية من يده وتستقر عند قاعدة أحد الآثار القديمة عبارة عن قاعدة تمثال
مربعة تثبت تمثالاً مكسوراً لبطل مجهول . لقد مر «على» على هذا الأثر مئات المرات
غير أنه لم يلحظه أبداً .

ويسارع «على» لالتقاط العملة الورقية قبل أن تطيح بها الرياح بعيداً ويجرى على
السلام المشققة التي يعلوها الغبار وورق التغليف والحشائش والزجاجات المكسورة
وقطع صغيرة من أوراق الجرائد . وتسوقه الرياح إلى القمة الهرمية للتمثال حيث
يلتقط عملته الورقية أخيراً .

ويرى في أعلاها أن أحدهم قد ترك صندوقاً به مجموعة من الكتب ، تركها تذبذب
من الشمس والغبار . فيلتقط أولها ، وهو كتاب مغلف بالجلد وعنوانه «عصر بغداد
الذهبي» ، ويجد صفحات الكتاب ملتصقة ببعضها البعض ربما بفعل أمطار الربيع
السابقة التي نسيها منذ زمن . وفي الرسم المواجه للعنوان والذي بدا عليه أثر الزمن
والظروف المناخية يظهر أحد أشكال الخط العربي المستخدم في بداية هذا القرن ،
وربما يعود إلى أيام العثمانيين أو الاحتلال البريطاني . فالكتاب لا يأخذ الشكل الضخم
البارز الذي يشتهر به عصر صدام حسين .

ويضع «على» العملة الورقية في حافظته ويضيء وجهه وهو يشير إلى السائق
بالانتظار ، ويبدأ في القراءة .

هذا الكتاب إهداء إلى ذكرى الخليفة المجيد والحكيم أبو جعفر عبد الله
المأمون سليل الأسرة العباسية الذي ولد في العام 164 بعد الهجرة (786 بعد
الميلاد) ومات بعد ولادته بـ 47 عاماً .

والمأمون هو وريث الخلافة الإسلامية التي امتدت من شمال إفريقيا
وحتى الجزيرة العربية وبلاد فارس وأفغانستان وشمال الهند ، وحفيد الخليفة
المنصور الذي اختار مدينة تجارية صغيرة تقع على نهر الفرات حتى تكون
عاصمته ، وابن هارون الرشيد الذي جعل من بغداد عاصمة للعالم .

وتحت قيادة المأمون بزغ نجم بغداد حتى أصبحت مركز التعلم للعالم
أجمع وقلب العصر الذهبي العربي . أما بيته بيت الحكمة الذي عمل بين
جناباته المترجمون مسيحيون وأجانب كي ينقلوا النصوص الكلاسيكية اليونانية
والرومانية والبيزنطية والفارسية والهندوسية إلى العربية - فقد كان بمثابة
اللبنة التي قامت على أساسها علوم الرياضيات والفلك والكيمياء والطب
والآداب . ونتيجة لرعايته ورؤيته ولدت في هذه المدينة علوم الجبر والمثلثات
وأسماء النجوم وصبغات الألوان ووصفات العلاج ، وأرسى أساس الفلسفة
والآداب . فها هنا حكمت شهرزاد قصص ألف ليلة وليلة .

ومنذ ذلك اليوم وحتى وصول المغول في القرن الـ 13 لم يكن لأي مدينة

ثروة أو تراث علمي يوازي ذلك الذي في بغداد. وانتشرت قصور المرمر
وجنات النخيل والياسمين والطرق الحجرية كما ازدهرت أكبر أسواق القارة
الآسيوية هناك.

أيها العراقيون فلنتذكروا عظمة خليفتمك أبي جعفر عبد الله المأمون
ولنتفانوا في تحقيق مثله.

المجتمع التاريخي لبغداد 3 مايو 1915.

وتتأب «على» حالة من الضحك في أول رد فعل له. ويتساءل: أي نوع من
التباهي والتفاخر هذا! ألا يشبه هذا إلى حد كبير عهد صدام حسين الذي بالغ فيه تضخيم
تاريخ العراق وحوله إلى شيء متكلف في عظمته مما يعنى بدوره عظمة صدام حسين
نفسه؟! ولكن مما لاشك فيه أنه قد سمع عن «المأمون» أيام مرحلة الدراسة الابتدائية
غير أن مدارس ذلك الوقت لم تشرح تفاصيل إنجازاته. لا بل إن بطل الكتب الدراسية
كان يتسم بالبرود والخلو من الحياة مثله في ذلك مثل هذا التمثال.

ولثوان معدودة تمر «على» مخيلة على صور القصور المصنوعة من المرمر
ويرى الحدائق الغناء مشهداً أغنى وأعظم من الباني العامة المبتذلة التي شيدها صدام
حسين، مشهداً أكثر أبهةً وجمالاً.

هل كان ذلك ماضيها؟ أخذ يفكر وعينه تمسح مباني بغداد الخرسانية المكتظة بالسكان على
مرمى البصر التي تقطعها طلقات الرصاص بين اللحظة والأخرى، والرصاص والدخان
الأسود المتصاعد في الأفق الجنوبي مشيراً إلى اندلاع النيران في مكان ما إما بشكل غير
متعمد أو بفعل المقاومة. ويصاحب كل هذا أصوات المروحيات الأمريكية السوداء من طراز
الهُوك وهي تنقل حمولتها من البشر من المطار الدولي وحتى المنطقة الخضراء.

هل كان الماضي أعظم من الحاضر؟ كيف يحدث هذا في عصر التقدم؟

ويضغط سائق السيارة الأجرة على بوق سيارته وتزداد الحركة المرورية كثافة.
ومن المتوقع أن يتوقفوا ساعات عند نقطة التفطيش الجديدة الكائنة في شارع الرشيد إن
لم يسرعوا بترك المكان الآن. ويتطاير الغبار وأوراق الجرائد حول التمثال. وينفث
«على» أول دخان من سجائره ويعود مسرعاً إلى السيارة متأهباً للعودة إلى العمل.

من المقرر له هذا الصباح أن يعمل على إصلاح كوبري الفتح المتهم الكائن في
شمال بغداد. وبسبب القرارات الخاطئة التي اتخذها المقاول الأمريكي الرئيس تخلف
استكمال هذا المشروع سنوات فضلاً عن تكلفه عشرات الملايين من الدولارات الزائدة
على الميزانية المحددة. وإن كتب لهذا المشروع التمام فسوف يكون أروع كوبري
في العراق وأفضل حالاً من الشوارع التي تحيط به على الجانبين. ومهما يكن الأمر
فـ «على» يحصل على راتب مناسب.

«بغداد مركز للعالم».. يتمم «على» في نفسه ويضحك ساخراً: إنه لأمر مستحيل، إنه لأمر مستحيل.

بغداد، العام 813 بعد الميلاد: تحت سماء بغداد المضيئة بالنجوم يتقلب «المأمون» في مضجعه طوال الليل وفي اللحظات القصيرة التي تسبق بزوغ الفجر تنتابه الأحلام المتقطعة. ويحلم أن شكلاً بشرياً يكتنفه الضوء ويتحلى بالذهب ويرتدى الزى الإغريقي القديم وتنبعث منه رائحة زيت الزيتون، يأتي ويقف أمامه:

إن «المأمون» رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل جالساً على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت منه هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس. فسرت به وقلت: أيها الحكيم أسألك. قال: سل. قلت: ما الحُسن؟ قال: ما حُسن في العقل. قلت ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم. وفي رواية أخرى. قلت: زدني. قال: من نصحك من الذهب، فليكن عندك كالذهب. وعليك بالتوحيد⁽⁶⁾.

ويومئ الخليفة برأسه فهو يؤمن بأن ما قيل له هو الحق. وقبل أن يتسنى له أن يودع زائره يرى أرسطو وهو يختفي في وهج ضوء الفجر بدون أن يترك أي أثر وراءه اللهم إلا الذكرى.

ويستيقظ الخليفة أبو جعفر عبدالله المأمون متسماً من رؤياه العجيبة التنبؤية ولأنه لم يعتد على إطالة فترات التراخي والتفكير فقد كان يسترق بعض اللحظات قبل أن يبدأ يومه المكتظ بالأعمال كي يفكر ويفسر رؤياه هذه.

وخارج جدران غرفته وأسفل شرفته ذات الشكل الهندسي المتشابك يسمع صوت الخيول والجمال وثرثرة حوار دائر خفيض يميز منه كلمة بين الحين والآخر، غير أن تلك الأحاديث الدائرة لا تتم كلها بلغة يعرفها. فهو معتاد على سماع رنين هذا الدفق من الكلمات غير أن الكلام غير مفهوم بالنسبة له.

ويصل إليه رنين أصوات مشابهة من داخل جنبات قصره خلف الستائر التي تخفي مدخل غرفته وفي الفناء الخارجي، فبعض عمال القصر قد استيقظوا، كما أن عدداً من زوجاته يتحركن في المكان ويسمع صراخ أحدث أطفاله الرضع.

لقد تعدى الأربعين من عمره ولو كان رجلاً عادياً لقليل إنه محظوظ لكونه لا يزال على قيد الحياة. وبالرغم من أنه قد غامر بحياته في معركة تلو الأخرى

حتى إنه هزم أخاه نفسه كي يحظى بعرش الخلافة فإن حياته لم تعرف يوماً الشقاء وشظف العيش الذي يعرفه الأجراء. لقد تفادى أن يكون حظه في الحياة كحظ رجل فقير يعمل في الحقول أو في الصحراء، وهكذا عاش عمراً أطول من آخرين كما أنه لا يشعر بالهرم.

ومن مكانه يستطيع سماع نداء المؤذن من مئذنة مسجد أبي حنيفة الذي شيده والده هارون الرشيد. ويتراءى المسجد وقبته واضحين خلال الفجر البازغ. ويبدأ بلا وعى في الاستعداد للصلاة. ولا يراه أحد سوى الله جل جلاله. من هذه الشرفة تلاحقه الأفكار أكثر فأكثر، ومن ثم يتوه في هذه الأفكار وهو يؤدي صلاته التي يحفظها عن ظهر قلب. ويحمد الله سبحانه وتعالى على حلمه.

فهذا الرجل هو حاكم إمبراطورية لم تجد نفسها بعد، بل إن هذا الرجل يحكم الخيال نفسه حيث إن عقله تواق لمعرفة الكثير والكثير ولا تتقل كاهله فكرة الفشل أو المستحيل، فهو لم يتعلم بعد تجنب تجاوز الحدود. وهو يؤمن بأن العالم القديم لفترة ما قبل التاريخ قد انطمست معالمه كما يؤمن بأن الحواجز والعقبات تكمن في العقل البشرى وحده وفي المعوقات التي يضعها أعداؤه.

إن مدينته هي بغداد ولسوف يجعلها مركزاً للعالم، وإمبراطوريته هي الخلافة العباسية ولن يكون لها نظير. ولسوف تغذى هذه الخلافة مسألة استيعاب الإنجازات الفكرية والفنية للمجتمعات الأقدم عمراً، والتي سقطت في الجعبة العربية وتكيفت جميعها مع عقيدة الإسلام. إن كلاً من الغزاة والمقهورين سوف يرتفعون إلى أسмы الدرجات.

بغداد، ترى ما بغداد؟ إنها العاصمة السياسية للإسلام وهو دور انتزعه قاداتها من دمشق إلى مكان ليس ببعيد عن آثار حضارة بابل المنسية، وجنات عدن المستنقعية لبلاد الرافدين وقرب مدن بلاد فارس القديمة. إن بغداد هي بلدة قديمة تضم التجار والصيادين غير أن المأمون ينوى أن يحولها إلى شيء آخر.

لقد مضى الآن على وفاة الرسول صلوات الله عليه وسلامه 200 عام، وأحاديثه التي كان يحفظها الناس عن ظهر قلب قد تمت كتابتها الآن كي تكون في متناول الجميع. ويعقد المأمون النية على إتمام بناء الأمة الإسلامية حيث يعتقد أن هذه كانت رغبة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ويواصل تحويل العقيدة برمتها إلى أسلوب جديد للتفكير والإبداع.

وعلى الرغم من سقوط روما وإقامة الحداد عليها لأكثر من 350 عاماً واختبار صمود بيزنطة وقدرتها على الحفاظ على الدين والأساليب الرومانية وتذكر بلاد الفرس أمجادهم العظيمة السابقة فإن المأمون يرغب في أن تصبح بغداد هي مدينة المستقبل. ويرى نفسه خليفة القياصرة والملوك الفرس والإسكندر الأكبر. بيد أن لديه شيئاً لم

يحصلوا عليه هم البتة. وعلى الرغم من أنه ليس من سلالة بلاط الإمبراطوريات القديمة فإنه يرى أنه حامى حمى الدين.

ولكن ما الدين؟ إنه بالنسبة للمأمون وكثيرين غيره ليس سوى الظماً، إنها رغبة شديدة فى ابتلاع كل المعرفة والمعتقدات وإدخال كل شىء داخل هيكل الدين. إنه الاستعداد لاستيعاب الشعوب والتواريخ والأسرار والسلوكيات وجعلها تثمر وتزدهر فى هذه البلاد. إن الدين يخبرنا أن كل المخلوقات والأشياء حولنا ما هى إلا تعبير عن عظمة الله عز وجل. ويسعى الخليفة إلى جمع كل الأشياء وعدم تنحية أى شىء جانباً.

وعلى هذا يتم استيعاب كثرة من الشعوب بعضها لا يعتنق الدين ولكنه يعتنق الحياة، فهناك الفرس والمصريون والبربر والقوط الغربيون واليهود والمسيحيون والهندوس والبوذيون والأكراد والأذريون والأتراك والأوزبكيون والكازاكيون والبشتونيون وكلهم يجتمعون تحت حكم الخليفة.

وهم يشعرون بكل هذه الطاقة والحركة والدفق ويرغبون فى أن يكونوا جزءاً منه أو يذعنوا له بالكامل. ويبدأ الكثير منهم فى تعلم اللغة العربية والخط العربى ويقلدون الأصوات الصادرة عن هذه اللغة. وعلى الرغم من أن الفرس لا يتخلون عن لغتهم فإنهم يكتبونها بحروف عربية.

ويحتاج المسلمون إلى أن ينهضوا فوق هذا الفيضان الذى ابتلعوه. فمن هم؟ وبهذا سوف يرسم المأمون خارطة الطريق. وسواء أكان حلم أرسطو هذا رؤيا من الله أم كان وليد الموقف السياسى فسوف يستخدم فى يوم من الأيام فى الخطاب السياسى لدعم سياسات المعسكر السياسى.

ويتلخص الموقف السياسى للمأمون فيما يلى: على المأمون أن يستخدم المهارات الإدارية والعقلية للفرس ولكن فى ذات الوقت ينبغى ألا يخول إليهم الكثير من السلطات. وبالفعل تحاول بعض الصفوة الفارسية من كبار السن أن تقوض بهدوء الشرعية الإسلامية من خلال تطبيق تعاليم الديانات الفارسية الغنوصية والديانة الزرادشتية وأهورامزدا والمناوية.

وفى ذات الوقت تضجر مجموعة من المسلمين الأصوليين ومن العامة من أسلوب حكم العباسيين والأسلوب الاستبدادى للخليفة ويشعرون أنه يبتعد عن نهج الرسول صلوات الله عليه وسلامه.

فبدلاً من أن يترك المأمون لمجموعة من الفرس الأرستقراطيين والمسلمين المتحفظين مسألة توجيه مسار الأمة يقرر هو أن يحدد ما فى صالح الدين والأمة.

وحتى يتسنى للمأمون تقديم المبررات المناسبة لأسلوبه فى الحكم والإدارة يقترب من جمع وافر من المفكرين الذين ينتمون إلى فرقة كلامية يطلق عليها اسم المعتزلة.

وعلى الرغم من أن فرقة المعتزلة هذه سوف تنعت في يوم من الأيام باسم المهرطقين كما سيقمهم الأصوليون المسلمون فإن الخليفة في ذلك الوقت كان يدعمهم، ومن ثم كانت لهم السطوة.

ويتحيز المأمون للمعتزلة؛ لأن أفكارهم تدعم نوع الدولة والدين الذي يرغب في بنائه، كما أنهم كانوا معلميه ومدرسيه في يوم من الأيام.

وتتلخص نظرة المعتزلة الراديكالية فيما يلي: يؤمن المعتزلة بأن القرآن هو من خلق الله سبحانه وتعالى وليس كلام الله عز وجل الأبدى الدائم كما يؤمنون بتقديم العقل على الوحي.

وفرقة المعتزلة الذين كان الخليفة راعيهم ونصيرهم يؤمنون بأن العقل هو مفتاح الحكمة والطريق إلى الله. وكان فكرهم هذا هو نتاج الاتجاهات الأصلية للفكر الإسلامي فضلاً عن بعض عناصر الفلسفة الإغريقية. وتدخل المعرفة الإغريقية اليونانية إلى إسلام القرن التاسع من ثلاثة مصادر: الأرسطراطية الفارسية التي تؤدي دوراً كبيراً في الإدارة في العهد العباسي، والأطباء وعلماء اللاهوت المسيحيون الذين يتبعون المنطق الإغريقي، وصابئة حران الوثنيين في الجزء الشمالي من العراق وهي مجموعة سامية قديمة تربطهم ديانتهم التي تقدر الكواكب والنجوم بعلم التنجيم اليوناني وعلم الفلك والهرماتية.

ومن خلال الحضارتين البيزنطية والفارسية بالإضافة إلى حضارات سورية والعراق بدأت الخطوط الرئيسية لأفكار أرسطو وأفلاطون وسقراط وإقليدس وفيثاغورس تُنقل ببطء إلى اللغة العربية من اللغات اللاتينية والإغريقية والسريانية والفارسية.

وفي هذه الفترة المضطربة والممتلئة بالحماسة تضيع التعقيدات العميقة للجدل الإسلامي الفكري اللاهوتي في هذه المرحلة المبكرة ما بين صفحات التاريخ. وسوف يبالغ العلماء الأجانب الذين سيكتبون عن هذه الفترة بعد مرور قرون من الآن في تبسيط الازدهار السياسي الديني وتحجيمه في شكل معركة ما بين «الأرثوذكس» و«أصحاب المذهب العقلي» بينما لا يوجد شيء اسمه الأرثوذكس في الإسلام، كما لا يوجد بطريرك مرشد كما هو الحال في الديانة المسيحية. وأصحاب المذهب العقلي من المسلمين هم علماء في مذهب اللاهوت وليسوا فلاسفة علمانيين. بالإضافة إلى ما تقدم فإن العلماء الأجانب سوف يخلدون وجهة النظر المغلوطة القائلة بأن المذهب العقلي الإسلامي مستمد بالكامل من المصادر الإغريقية وسوف يستمر هذا المفهوم المغلوط حتى القرن الـ 21.

يمكن، في واقع الأمر، أن تعزى الجذور الأصلية للمذهب الفكري والعقلي الإسلامي إلى كتابات المفكرين المسلمين، والتي تعود إلى القرنين السادس والسابع قبل

أن يصل التأثير الإغريقي إليهم . فمفاهيم العلم والعقل قد ورد ذكرها مرارًا وتكرارًا في القرآن وفي الكتابات الإسلامية .

وفي القرنين الثامن والتاسع يتطور الإسلام بدينامية كبيرة ويستوعب عددًا كبيراً من التأثيرات الكوزمولوجية والفلسفية والعرقية وبذلك يدخل الإسلام ما بين طياته عددًا لا حصر له من الرؤى . وتؤدي هذه الموجة من الصدمات الثقافية إلى تشعب الثقافة والفكر الإسلاميين كي يبدوا شبيهين بلوحة من الفسيفساء الثرية بالأفكار .

وفي ذلك الوقت عند بداية خلافة المأمون تتعدد الاتجاهات والمدارس الفكرية بشكل غير مسبوق . وتتداخل مثل هذه المدارس الفكرية بشكل أو بآخر وتثري بعضها بعضاً . وتشمل هذه المدارس الفكرية الأصوليين - الذين سيعرف بعضهم فيما بعد بالسنة أو الشيعة، والذين سوف تؤثر بعض أفكارهم على الأيديولوجية العباسية - والفقهاء - وهم طبقة ناشئة من علماء الشرع والشريعة الإسلامية واسعو العلم والمعرفة - والمتكلمين .

والمجموعة الأخيرة هذه هي عبارة عن علماء في علم اللاهوت يلجئون إلى الفلسفة القديمة كي يعبروا عن أفكارهم ويدعموها . ومن بين تلك المجموعات - والتي تجتذبها دقة المنطق الإغريقي - المعتزلة وهي أشهرها ، وكل مجموعة من هذه المجموعات لديها رؤيتها الخاصة للنظور السياسي والعقدي والفكري للدولة .

وبينما يروج المأمون لرؤياه التي يشاركه فيها المعتزلة يبدأ المنهج التحفظي والأصولي تجاه الإسلام والمجتمع في اكتساب دعم متزايد ، ويقود ذلك الاتجاه مجموعة من علماء الشرع والدين وتسانده شرائح من الطبقات الشعبية بالمجتمع خاصة في بغداد . بيد أن المأمون لا يستطيع أن يتخيل كيف يتأتى لاتجاه هؤلاء أن يؤدي إلى العظمة والسمو . تخيل هذا الموقف: بعض المتحفظين يحاولون أن يشككوا نموذجاً إسلامياً مثالياً لا يرث فيه الخليفة السلطة والنفوذ ولا يستحوذ عليهما بل ينتخبه المؤمنون . ويكون هذا الخليفة مطالباً بإيجاد هذا المجتمع الذي كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يرغب في تأسيسه .

ولسخرية القدر تصبح جماعة المعتزلة العقلانيين هم الحلفاء الفكريين للخلافة العباسية الحاكمة والمستبدة بينما يبحث المتحفظون عن شيء أشبه بالديمقراطية الإسلامية سابقة العهد .

ويجد المأمون في الاختلاف ما بين الرؤيتين أمراً خطيراً ليس بالنسبة له أو لحكمه فحسب ولكن أيضاً بالنسبة للمنظور العقلي والخلافة التي تقودها الصفوة كما أسسها . وحتى يتسنى له مكافحة هذا التأثير الزاحف للأصوليين على إمبراطوريته يقرر أن يعين هيئة تفتيش يطلق عليها اسم المحنة وهي ليست بالطبع

بحجم ولا قسوة هيئة التفتيش الإسبانية الكاثوليكية غير أنها تركز أكثر على استئصال شأفة رجال الدين المعارضين لآراء فرقة المعتزلة من صفوف المجتمع السياسى داخل الإمبراطورية. ومن ثم فعلى كل رموز القيادة أن يمتحنوا فى معتقداتهم وإن ثبت أنهم لا يؤيدون مذهب المأمون الععلى وفكره فإن مطلق النفوذ السياسى والدينى يكمن فى يد الخليفة - فعليهم إما أن يغيروا هذا المعتقد وإما أن يعانوا ويلات الاستمساك برأيهم.

وتعد المدرسة الحنفية إحدى المجموعات الأصولية فى بدايات بغداد، وهى التى تقول إن العقل البشرى يؤدى دوراً رئيسياً فى تطور النظام الشرعى داخل الدولة. وبحلول القرن الـ 21 ستعد مدرستهم من مدارس التفسير الفقهى التحررى فى الإسلام. وفى المستقبل البعيد سيدعى بعض الناس أنهم يتبعون المدرسة الحنفية ويحللون احتساء الفودكا والبيرة.

وتظهر مدرسة أخرى من داخل هذه الحركة الأصولية المتنامية وهى مدرسة فقهية يقودها المفكر الأصولى أحمد بن حنبل الذى ولد فى بغداد لوالدين عربيين، وسافر إلى جميع أرجاء الجزيرة العربية لإعادة إحياء حياة وأفكار ونهج النبى صلوات الله عليه وسلامه. والإمام ابن حنبل - هذا المعارض لأفكار ورؤى المأمون - ليست لديه أغراض فى السلطة ولا هو سياسى. وبالرغم من أنه يؤمن بأن العباسيين لهم الحق فى الخلافة فإنه يقلق مثل كثيرين بخصوص انخراطهم فى الأمور الدينية. ويرى ابن حنبل أن للخليفة السلطة الدنيوية فى إدارة شئون الدولة وينبغى تقليص نفوذه فيما يتعلق بالدين، وأنه فى الأمور الروحية تكون الغلبة لرأى الشعب أو إجماع الشعب. ويرغب ابن حنبل أن يقتصر تأثير الخليفة على الجانب الدنيوى فحسب.

وهذا الرأى أدى إلى حدوث صدام بين المأمون الذى يتنافس للفوز بالسيطرة على مقاليد السلطة وشئون الدين الخاصة بالدولة وابن حنبل. وكى يحقق المأمون السيطرة الكاملة التى يسعى إليها عليه أن يقضى على العلماء المحبوبين بين الناس أمثال ابن حنبل.

وتروق رسالة ابن حنبل هذه للبعض فى بغداد، ربما لمن هم أبعد من الصفوة التابعة لخلافة المأمون، ويدرك المأمون هذا الأمر، فوجود تابعين لابن حنبل أمر يثير قلق الخليفة ولا يرجع ذلك إلى إيمانه بتوافر الحكمة الفطرية لدى الناس، الأمر الذى يستحق الاحترام من تلقاء ذاته ولكن لأن هؤلاء الأتباع يشكلون عقبة فى طريق تحقيق رؤياه الخاصة بالدين والمجتمع.

فهذا القبول الذى يلاقيه ابن حنبل يمثل عقبة فى سبيل الحضارة والنفوذ السياسى الدينى المركزى للفكر والجمال والثروة والتفوق الذى يبين للعالم بأسره أن خليفة

المسلمين يوازي أو حتى يفوق حضارة الرومان والفرس القديمة أو حتى بيزنطة الأيلة للسقوط .

وشأنه كشأن الحكام فى وقتنا الحاضر وفى زمنه لن يعرف المأمون كيف يتعامل مع غريم مثل ابن حنبل ، وسوف يتم استجواب ابن حنبل وسجنه بفعل فرقة التفتيش الملقبة باسم المحنة . كما سيقوم بتعذيب ابن حنبل أملاً أن يجعله يتخلى بذلك عن رؤيته الأصولية للإسلام . وتحت وطأة كل هذه الظروف سيحافظ ابن حنبل على عزته وكرامته وسيقبل بالسجن والتعذيب ولكن لن يقبل أبداً بالمعتزلة . وسيستمر هذا الاضطهاد حتى بعد عهد خليفة المأمون فى عهد المعتصم ، لكن هذا الولاء الجبرى للمذهب العقلى الإسلامى سيأفل نجمه وسيطول عمر ابن حنبل على عمر معذبيه وسوف يعتبره البعض بطلاً .

ولا يعلم المأمون شيئاً عن هذا كله فى العام 830 ، فحلّمه عن أرسطو والحلم الآخر الذى يراوده للخلافة العباسية لا يزال حياً فى مخيلته . وبينما هو يفرض الضغوط على معارضيه وعلى الأصوليين يرى أن هناك خطوة أخرى ينبغى عليه اتخاذها ألا وهى أن يضيف الصبغة المؤسسية على المذهب العقلى عن طريق تأسيس مركز للتعلم وطرح الأسئلة والاختراع وينبغى أن يكون هذا المركز هو الأفضل فى العالم .

وبعد مرور حقبة على العيش والحكم فى بلاد مرو البعيدة ، والتي كانت لا تزال جزءاً من بلاد فارس وبينما المأمون يوحد صفوفه فى بغداد رأى نموذجاً قريباً لما يرغب فى تحقيقه . وبالرغم من أن الأفكار الكلاسيكية للإغريق والرومان والهند والصين هى هدفه الأسمى فإنه سوف يحذو حذو الفرس والبيزنطيين فى إدخال مثل هذه الأفكار داخل التيار العام السائد .

كما أن المأمون لا يؤرقه على الإطلاق أن يتبنى النموذج الفارسى فوالدته كانت أمة فارسية من إماء هارون الرشيد . كما أن بلاد فارس هى مصدر نصف قوته . وبالرغم من أن المأمون كان أكبر ورثة هارون الرشيد فإن كرسى الخلافة ذهب إلى أخى المأمون غير الشقيق «الأمين» بناءً على وصية والده ، ويرجع ذلك إلى أن والده هذا الأخ كانت ذات أصل ملكى . وقد أرسل المأمون فى البداية إلى بلاد فارس كى يتولى إدارة مرو بالنيابة عن والده وأخيه غير أن شأن المأمون ارتفع وسما هناك وبعد أن شن حرباً أهلية شرسة أمر فى نهايتها بقطع رقبة أخيه واستولى على الخلافة بدلاً من أخيه . وبعد مرور عشر سنوات على مقتل أخيه سيشرع المأمون أخيراً بالأمان وبناءً على هذا سيترك مقره فى بلاد فارس ويأتى إلى بغداد ليحكم من هناك .

إذن قلعشر سنوات كانت مرو مدينة الواحة القديمة التى تقع على طرف

صحراء كاراكوم، وتمثل نقطة استراحة على طريق الحرير - هي العاصمة الفعلية للخلافة العباسية والعالم الإسلامي وكانت بيت المأمون. كما كانت هذه البلدة هي معبر كل الغزاة والأديان التي ظهرت في أوراسيا حيث عبرها الإسكندر المقدوني والزرادشتيون والمسيحيون واليهود والبوذيين وأعضاء طوائف ومعتقدات مبهمة قبل المسلمين. ولقد شرب المأمون هذا الدرس الخاص بمدينة مرو حتى الثمالة قبل أن يدخل بغداد. وعند دخوله بغداد لم يبدد وقته وأخذ يعوض ما فاتته من سنوات وهو بعيد عنها.

ويعلم المأمون أن علاقة العرب بالفرس كان يكتنفها الخوف من القوة العسكرية والاقتصادية الفارسية إذا كتب لها أن تلعو مرة أخرى.

وسيكون نموذج المأمون ومركزه المعنى بتعلم المذهب العقلي هو الأكاديمية الفارسية في جنديسابور، والتي تعرف اليوم باسم محافظة خوزستان، والتي تأسست منذ ثلاثة قرون سابقة قبل إصدار المرسوم الإمبراطوري بترجمة المعارف الإغريقية والرومانية والبيزنطية وعلوم الشرق الأقصى إلى اللغة الفارسية، والبناء على أفكار المفكرين والفلاسفة الأجانب. وقد أثرى الأكاديمية الفارسية دخول من كان يطلق عليهم اسم المهرطقين الذين جاءوا من المنفى مثل المسيحيين النسطوريين والعلماء السريانيين والمترجمين من بيزنطة. ولم يبد أن الفرس كانوا يخافون من المهرطقين بل لقد احتضنهم في كثير من الأحيان. وفي جنديسابور أسس الفرس مركزاً للاختراعات.

وربما يكونون قد أسسوا أيضاً أول مستشفى تعليمي فضلاً عن جامعة ومكتبة متميزتين.

وسيقوم المأمون باستخدام هذا النموذج العالمي متعدد اللغات، فضلاً عن اللجوء إلى الكثير من الخريجين والأساتذة العاملين في جنديسابور من أجل تأسيس نموذج محاك له في بغداد. فالخليفة ذاته بشكل أو بآخر ما هو إلا تجسيد للنمط الإسلامي في ذلك الوقت من خلال استيعابه كل أنواع الثقافات والأفكار. ولا يخشى المأمون من الأفكار الجديدة أو الراديكالية. كما أنه لا يهاب التناقض ولا الغموض.

بيد أن ما يخشاه الخليفة هو الجهل ومعاداة المذهب العقلي، كما يؤمن بأنه إن لم تُمنح الفرصة للرجال الموهوبين كي يفكروا بحرية، فلن يستطيعوا أن يخترعوا أو يبدعوا ولن يستطيعوا تنفيذ تكاليفات الله. ومن ثم فسوف تعاني البشرية جمعاء عواقب ذلك.

إن الخليفة رجل يعشق العلم لدرجة أنه عندما يلحق الهزيمة المنكرة بالإمبراطور البيزنطي في معركته معه لا يطلب صناديق من الذهب، بل يطلب نسخة من كتاب

المجسطى وهو عبارة عن خلاصة وافية من أفكار العالم الإغريقي بطليموس حول علوم الفلك . ولقد كتب هذا الكتاب عام 150 بعد الميلاد .

وحتى فى موضوعات الطائفية لا ينتمى المأمون إلى فئة بعينها، فرغم أن الانفصال بين السنة والشيعة لم يكن قد ترسخ بعد - كما سيحدث فى السنوات التالية - فإن المأمون لا يواجه مشكلة فى التآرجح ما بين الطائفتين حتى إنه لم يجد مشكلة فى اتخاذ موقف ضد السننيين الأصوليين والانحياز إلى جانب الشيعة مدعياً أنه قائدهم . وعلى هذا يكون أول وريث يعينه فى الخلافة هو الإمام «على الرضا» الشيعى، الأمر الذى يؤدى إلى تمرد العراقيين مما يضطره إلى التراجع عن هذا القرار .

وسوف يقوم المأمون بالعديد من الأفعال المباشرة الأخرى . فبعد مضى لحظات قصيرة على نهاية فجر يوم رؤيا الخليفة هذه ينادى المأمون على وزيره الفارسى: «أيها الوفى طاهر . . إنى أرغب فى أن أبني مركزاً عظيماً للتعلم فى بغداد لتأييد الفكر والاستفسار الحر والفلسفة والعلوم والرياضيات والفلك . فابعث برسلك كى تأتى إلى بأمهات الكتب الموجودة فى بيزنطة وفارس واجلبها كى أبني مركزى هذا، وأنت لى بأفضل المترجمين كى ينقلوا إلى العربية كل العلوم السابقة . وسوف أطلق على هذا المركز اسم بيت الحكمة» . وينحنى طاهر أمام الخليفة ويستأذن فى الخروج، وينفذ الأمر، ويجلبون لهذا المركز الجديد مجموعة مبهرة من المفكرين من بينهم محمد الخوارزمى وهو غالباً من الفرس الزرادشتيين الذين اعتنقوا الإسلام . وسوف يطلق على هذا العالم فيما بعد اسم أبو الجبر ومؤسس نظام العد العربى . كما جاء إخوان «بنو موسى» وهم الأبناء الصغار للمنجم الخاص بالمأمون كى ينضموا إلى بيت الحكمة هذا، وسوف يصبحون فى المستقبل علماء فى الرياضيات وعلوم الفلك والمخترعات الهندسية . كما سينضم إلى صفوة العلماء هؤلاء حنين بن إسحاق وهو من الأطباء النسطوريين وأكثر رواد الترجمة تأثيراً، والذى سوف ينقل إلى اللغة العربية كتابات الطبيب جالينوس والفلسفة الإغريقية . وهناك الكندى أيضاً الذى يعد أوسع الفلاسفة العرب علماء، والذى سوف يقول فيما بعد:

وينبغى أن لا نستحى من استحسان الحق واقتفاء الحق من أين أتى، من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغى بخس الحق ولا تصغير قائله ولا بالآتى به، ولا أحد بخسه الحق، بل كل يشرفه الحق (7).

وتحت مظلة بيت الحكمة خلال القرنين التاسع والعاشر سوف تصبح بغداد مستقر الخلافة العباسية ومنازة الفكر، وبذلك تحقق حلم المأمون وهارون الرشيد في أن تكون مركز العالم الحقيقي في كل مجال من مجالات الحياة. واستنباعاً لحلم المأمون الذي أتاه قبل الفجر ونتيجة لعشق هذا الرجل للعلم سيرسى المأمون أساس أعظم الاكتشافات التي ستظهر في المستقبل. فعلى أراضي العراق المنبسطة سيتم إنشاء مرصدين للنجوم وليس مرصداً واحداً فحسب، وبذلك يفرض المأمون على علماء الفلك لديه أكثر من تحدٍ؛ فعليهم الآن ألا يفسروا رسائل الفضاء الغامضة فحسب بل أن يرسموا خرائط أفضل ويوثقوا المعلومات بشكل أدق. وبسبب هذه الإسهامات الهائلة التي سوف يقدمها المأمون لعلوم الفلك سيطلق العالم فيما بعد اسمه على إحدى فوهات القمر.

والآن ومع وجود مركز التعلم هذا لرفعة شأن العاصمة السياسية والتجارية والعسكرية؛ ألا وهي بغداد فأبراج مآذنها وقصور تجارها ونبلائها والطرق التي تؤدي إلى غزوها فضلاً عن جدران وبوابات حصونها - طالت حتى بلغت عنان السماء. وحتى مع ظهور أعداء المذهب العقلي والصفوة من المفكرين من بين رجال الدين والشعب فإن بغداد من أعلى ومن بعيد مازال نورها يشع ويتوهج.

وبينما يتحول الفجر إلى شمس ساطعة يمتطي المأمون حصانه وبصحبه حرسه ويذهب كي يحدد مكاناً يبنى فيه بيت الحكمة هذا. واستمع الآن إلى وصف أحد الزوار العرب في عهد المأمون لما يراه كما جاء على لسان أحمد اليعقوبي وهو من علماء الجغرافيا في القرن التاسع في كتابه البلدان:

وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور، وانتقلوا إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وأثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم.

... فليس عالم أعلم من عالمهم، ولا أروى من راويتهم، ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من نحويهم، ولا أصح من قارئهم، ولا أمهر من متطبيهم، ولا أحذق من مغنيهم، ولا ألطف من صانعهم، ولا أكتب من كاتبهم، ولا أبين من منطقيهم، ولا أعبد من عابدهم، ولا أروع من زاهدهم، ولا أفقه من حاكمهم، ولا أخطب من خطيبهم، ولا أشعر من شاعرهم، ولا أفنك من ماجنهم⁽⁸⁾.

ويحمل السطر الأخير الكثير من المعانى، فرغم أن بغداد هي عاصمة الخلافة العباسية الإسلامية فإنها الآن أيضاً تُعد موطناً لأساليب الحياة الماجنة المتزايدة للصفوة من الأثرياء المتميزين. فالحانات مفتوحة للعامّة، والحفلات الخاصة تمتع الأثرياء وذوى النفوذ، وتستهلك كميات كبيرة من النبيذ، وتتواصل المغامرات الجنسية داخل الغرف المحتجبة. وتتسم الحفلات التى تنظم داخل البيوت والقصور الخاصة بالبذخ الشديد والمجون وكأنها تحدث فى حضارتى روما أو بيزنطة القديمتين.

بيد أن كل هذا يتم فى الخفاء بعيداً عن الأنظار ولكن المأمون يعرف تماماً ما يحدث. ترى ما الذى يراه المأمون وهو يجوب بحصانه أرجاء المدينة؟ يرى حوله أرض الخلافة التى أسسها وبنّاها جده المنصور وأبوه هارون الرشيد فى نفس موقع بلدة حضارة بابل القديمة باكدادو بالقرب من النهر. إن آثار الحضارة البابلية مدفونة هنا على الضفة الغربية لنهر دجلة بين الكاظمية فى الشمال والشالجية فى الجنوب. كما أن أصداء حضارة بابل هذه مازالت تتردد فى المباني المشيدة حديثاً، ويرجع ذلك إلى أن أجداد الخليفة العباسى المأمون قد حافظوا على الشكل الكلاسيكى للمعمار البابلى ألا وهو شكل الدائرة. إن أرض الخلافة يطلق عليها الآن اسم المدينة المدورة، يحيط بها سور خارجى وسوران داخليان لحماية قلب الخلافة. وكان العباسيون الأوائل يرون أن هذا هو أفضل تصميم لحماية المدينة من أى هجوم عليها.

وفى هذا السياق أيضاً تم تشييد أربع بوابات ضخمة لكل حى من أحياء الدولة العباسية فى اتجاه البصرة والكوفة وسورية وخراسان. وتخرق تلك البوابات السور الخارجى، وفى الداخل توجد أربع بوابات أخرى محاكية للبوابات الأوليات تفتح على سورين دائريين وهما بدورهما يؤديان إلى أربعة شوارع متعامدة تنطلق من مركز المدينة ويبلغ قطر المركز هذا ميلاً واحداً. وداخل هذا المركز يقع قصر المنصور المعروف باسم البوابة الذهبية والمسجد الجامع. ويعد القصر فى حد ذاته تحفة معمارية بقبته الخضراء الهائلة التى يعلوها تمثال لفارس، وتتحرك هذه القبة مع تغير اتجاه الرياح.

بيد أنه مع مرور الوقت وجد المأمون والكثير من مواطنيه هذا الحصن المدور مُقيداً إلى حد كبير. وبناءً على هذا بدأت عمليات هجرة جماعية ضخمة إلى البلدة الجديدة المسماة الرصافة على الضفة الشرقية لنهر دجلة حيث بنى المهدي - ابن المنصور - مسجداً أكبر من المسجد المشيد داخل المدينة المسورة. وترتبط المدينة الجديدة بالضفة الغربية للنهر من خلال جسر عائم. ويفتح هذا الجسر وجسور أخرى عائمة مشيدة على نهر دجلة كى تسمح بمرور السفن المنجبهة نحو المحيط وعندما تعود الجسور إلى مواقعها تعد عوائق فى وجه أى هجوم قادم من اتجاه النهر.

وتصبح بغداد المدينة الواقعة على النهر، والتي ترتبط بالمحيط من خلال عدة قنوات، ميناء بحرياً عالمياً. وتستمد أهميتها من التجارة البحرية التي تصل حتى الهند والصين وإفريقيا وجنوب أوروبا. وداخل هذه المنطقة الحضرية الضخمة التي تضم مدينتين هما بغداد والرصافة يرى المأمون كل أشكال التقدم المتميز لعاصمة الإمبراطورية الواقعة على نهر دجلة.

ويرى مصانع الورق تستخدم التكنولوجيا التي جلبتها من الصين منذ عدة عقود سابقة حيث كانت صناعة الورق في الصين من الفنون الراقية، والذي تستخدمه الطبقة المتعلمة فقط. والآن أخذ المسلمون هذه التكنولوجيا واستطاعوا أن يصلوا إلى مستوى مناسب من الإنتاج الكبير لا يمكن تطبيقه مع نوعية الورق البرشمان ولا الرقي المستخدم في أوروبا. وهذا الأمر يشجع على تعلم العامة فنون القراءة والكتابة، ويصاحب هذا انتشار كتابة الملاحم التي تحدد ثقافات بعينها شأن ملحمة ألف ليلة وليلة.

كما يرى الخليفة أوائل المكتبات العامة والخاصة الرئيسة والتي لم تشاهد منذ عهد مكتبة روما والإسكندرية. وتشمل تلك المكتبات مكتبة ضخمة يمتلكها تاجر ثرى وتقول أحد المصادر إن نقل محتويات تلك المكتبة من الكتب من مكان إلى آخر يستلزم استخدام 140 ناقة. كما توجد مكتبة أخرى يمتلكها أحد علماء بلاط الخليفة الذي يرفض أن يقبل بوظيفة أخرى أفضل من وظيفته الحالية؛ لأن فهرس المحتويات يتكون من عشرة مجلدات، ومن ثم فسوف يحتاج إلى 400 ناقة لنقل الكتب.

ويرى المأمون دور الكتب المتعددة ومراكز عامة لسرد القصص مقسمة ما بين حكايات أخلاقية لاستخلاص العبر منها و«قصص ليلية» أو مسرحيات شعبية لتسلية الناس في فترة الليل. ويرى الخليفة أيضاً المدارس الأولى، والتي ستتطور كي تصبح أولى الجامعات لتقدم نموذجاً للتعليم العالي الذي يظهر أشباه له في أوروبا إبان العصور الوسطى.

وبين كل هذا وذاك يرى المكان الذي سوف يؤسس فيه بيت الحكمة؛ مؤسسته الرائدة، والتي ستمثل لبنة المجتمع الذي سوف يقوم على أساس العقل والاختراع لتكوين إمبراطورية دينية منقحة من خلال عدسات العقلانية. وسيشمل مركز المأمون هذا مرصداً ومستشفى ومكتبة وبرامج بحثية في علوم البلاغة والمنطق والميتافيزيقا واللاهوت والجبر والمثلثات والهندسة والفيزياء والأحياء والطب والصيدلة.

وبينما يعلو شأن بيت الحكمة هذا، فلن يبحث في هذه العلوم المتخصصون فحسب - داخل أقسام منفصلة للمعرفة - بل رجال آخرون متفوقون في علوم

اللاهوت يقومون بالمساهمة فى أعمال الترجمة وعلوم الرياضيات والطب وهلم جراً. ففي تلك الأزمان المنصرمة كان العلماء يرون هذه الدراسات والظواهر أشبه بنوافذ من الفسيفساء تأخذهم إلى عالم مترابط هو كون الله. وأهم من ذلك أن هؤلاء العلماء لم يعتبروا أن هدفهم هو محاولة إجبار بحوثهم العلمية على إثبات فكرة مسبقة عن الكون كما يملئها عليهم دينهم بل كانوا يرون أن مهمتهم تتلخص فى فهم أسرار الخلق مهما بدت تلك المهمة صعبة أو حتى مستحيلة. وهذا الهدف فى حد ذاته قد أشعل شرارة جدل ونقاش علمى لا نهاية له. فهؤلاء العلماء لم يكونوا يخشون شيئاً.

وعبر القرون الأربعة التالية فى بغداد وعلى أساس التقليد الذى أرسى قواعده المأمون وأسلافه سوف تنشأ مؤسسات جديدة لتكمل مجهودات بيت الحكمة أو حتى لتحل محله. كما سيتم إنشاء أول مستشفى حضرى فى القرن العاشر. كما سيتم بناء مدرستين تتطوران حتى تصبحا جامعتين عالميتين؛ هما الجامعة النظامية فى القرن الـ 11 والمستنصرية فى القرن الـ 13. وسوف توفر المستنصرية التعليم المجانى فضلاً عن الرعاية الطبية والسكن والطعام. وستشيد المراصد الشمسية التابعة لبيت الحكمة فى المنازل الخاصة بعلماء الفلك مثل الحسن وإخوان بنى موسى. وبحلول القرن الـ 13 سوف يكون فى بغداد 36 مكتبة عامة و100 محل لبيع الكتب.

وفى بداية عام 900 سوف تصبح بغداد أكثر مدن الأرض ثقافةً وحدثاً، ويصفها مؤرخ القرن الثانى عشر ياقوت بالآتى:

مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مثنى الخلفاء، ومقر العلماء، وقال أبو الحسن بن جبير رضى الله عنه: وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية، فقد ذهب رسمها. ولم يبق إلا اسمها. وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النواصب إليها كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعى من المستوفز الغفلة والنظر، إلا دجلتها التى هى بين شريقيها وغربيها كالمرأة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبنتين. فهى تردها ولا تظماً وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحرىمى بين هوائها ومائها ينشأ.

ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة، والناس يعبرونهما ليلاً ونهاراً، رجالاً ونساء فهم فى ذلك

فى نزهة متصلة ببغداد من المساجد التى يخطب فيها، وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدًا، منها بالجانب الغربى ثمانية، وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدًا، وكذلك المدارس إلا أنها خربت. وحمامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمامات، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل لرائيه أنه رخام أسود، وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تتبع أبدًا به، ويصير فى جوانبها كالصلصال، فيجرف منها، ويجلب إلى بغداد. وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض به، والنصف الأعلى مطلى بالحص الأبيض الناصع، فالضدان بها مجتمعان، متقابل حسنهما وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الإنسان الخلوة منها منفردًا لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك وفى زاوية كل خلوة أيضًا حوض آخر للاغتسال فيه أيضًا أنبوبان يجرىان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثًا من الفوط إحدهما يتزر بها عند دخوله والآخرى يتزر بها عند خروجه، والآخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الإتقان كله فى مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك⁽⁹⁾.

وتتأتى إحدى أهم ثمار المدينة فى المجال الأدبى، فبخلاف قصص ألف ليلة وليلة التى تستمد الكثير والكثير من أحداثها من الحكايات الفارسية والهندوسية، ستصبح بغداد أيضًا عاصمة العالم فى مجال الشعر. ولا ينتج هذا عن ثروة المدينة وتنوعها وابتكاراتها وإبداعاتها فحسب، بل سيحدث من جراء الالتحام ما بين أكثر حضارات العالم تفوقًا فى المجال الشعرى واللغوى؛ أى الحضارتين الفارسية والعربية. ولكلنا الحضارتين باع طويل فى تأليف أبيات الشعر، والتى تعد من أرقى وسائل الاتصال الأدبى. أما بالنسبة لبغداد فسيحل الشعر محل الصحافة والرواية لفترة تالية تصل إلى 1300 عام. وسيشمل رواد الشعر فى بغداد بشار بن برد الذى سوف ينظم الشعر الجنسى مستغلًا الوصف الحسى الذى كان شائعًا فى الجزيرة العربية وبلاد فارس قبل الإسلام. أما ابن إياس وأبو نواس فسوف يصوران الجانب المظلم لبغداد وينقلان أسلوب الحياة ويكتبان قصائد مشبعة بالجانب الجنسى واحتساء الخمر وبعض التجديف. ثم هناك ابن الأحنف وابن داود اللذان يرتقيان فى شعرهما ولا يذكران الجانب الجنسى ويكتبان نوعًا ساميًا من شعر الحب الرومانسى، والذى يقيمه الخبراء على أنه ذلك النوع من الشعر الذى مهد الطريق لشعر الحب العذرى والغنائى.

لَوْ لَمْ يَكُنْ قَمَرٌ إِذَا مَا زُرْتُكُمْ يَهْدِي إِلَى نَهْجِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ
لَتَوَقَّدَ الشُّوقُ الْمَبْرُحُ مَهْجَتِي حَتَّى تُضِيءَ الْأَرْضَ بَيْنَ جَوَانِحِي (10)

وتحمل الخلاقات الأدبية في بغداد في طياتها شيئاً من التوتر ما بين المعسكر المؤيد للغة الفارسية ومحبي العربية الفصحى، وفي بعض الأحيان تشتد حدة التوتر لتنتقل إلى جدال حول الدين والدنيا، ثم لا يلبث أن يتحول إلى حرب. وحتى الشاعر الأرستقراطي ابن المعتز، والذي يترقى حتى يصل إلى الخلافة بعد المأمون بعدة أجيال سوف يغتال خلال أدائه واجبه.

وهكذا ستستمر تلك الدائرة المتمركزة حول الفكر والخيال وتتواصل حتى ليخيل للمرء أنها لن تنتهي أبداً. وكما هو الحال مع جميع الكائنات والحضارات حتى ولو كانت بضخامة الحضارة العباسية كما نراها من فوق ومن بعيد حيث ستحمل هذه الحضارة في رحمها بذور تدميرها وانهارها. فعلى المستوى الفكري والديني يؤدي نهم المأمون للنهل من المعرفة الصافية إلى تجرؤ أعدائه عليه. أما في قضايا الدين فيشعر المأمون بذلك الاتجاه الذي يغذيه التنافس المتصاعد ما بينه وبين ابن حنبل وكل المنشقين عنه والأصوليين بالرغم من أن للمأمون الآن اليد العليا. وبعد ذلك بعدة عقود سيتبنى خليفته الخليفة المتوكل وجهة النظر الأصولية ويطيح بالمعتزلة، وبذلك يموت الإمام ابن حنبل وهو بطل في نظر البعض ويحضر جنازته الآلاف. وفي مجال السياسة سيؤدي ولع المأمون بالفرس واعتماده عليهم إلى بذور الثورة، وذلك عندما يمنح السيطرة الفاعلة على أجزاء كبيرة من بلاد فارس إلى العائلة الطاهرية وهي أسرة قائد الجيش ووزيره السابق طاهر كي يضمن ولاءه. وسوف يقوم خلفاؤه بأن يحذوا حذوه في هذا الاتجاه حتى ليصبح الخلفاء مجرد ظلل أو عرائس وتحولت القوة الفعلية إلى المحافظات.

ولن يستطيع المأمون أن يضيفي الصبغة المؤسسية على إيمانه المتقد بالمذهب العقلي، كما لن يستطيع أن يدفع الموت عنه. ويموت المأمون في أثناء حربه الأخيرة ضد البيزنطيين. وفيما يلي سرد عن موته يرويه أبو الحسن على المسعودي:

في سنة ثمانى عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم وقد كان شرع في بناء الطوانة مدينة من مدنهم على فم الدرب مما يلي طرسوس. وجلس تحت الكنيسة التي عقدت له والماء تحته وطرح في الماء درهماً

صحيحاً فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفائه ولم يقدر أحد أن يدخل يده في الماء من شدة البرد، فبينما هو كذلك إذ لاحظ سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة، فجعل لمن يخرجها سيفاً فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجر فنضح الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته وابتل ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب فقال المأمون: تقلى الساعة. ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسفة ويصيح: البرد البرد. ثم حول إلى الغرب ودثر وأوقدت النيران حوله وهو يصيح: البرد البرد. ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قلبها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها.

ولما اشتد به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفائه، فتقدم ابن ماسويه فأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأخرى وأخذ المجسة من كلتا يديه فوجد نبضه خارجاً عن الاعتدال منذراً بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر منه من سائر جسمه كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعى، فأخبر المعتصم بذلك فسألها عن ذلك فأنكرت معرفته وأنه لم يجدها في شيء من الكتب وأنه دال على انحلال الجسد، وأفاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقده، فأمر بإحضار أناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع فأحضر له عدة من الأسارى والأدلة وقيل لهم فسروا هذا الاسم «القشيرة» فقيل له تفسيرها مد رجلك فلما سمعها اضطرب من هذا القول وتطير به وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية فقالوا الرقة وكان فيما علم منذ مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فرقاً من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وعد فيه فيما تقدم من مولده وأنه فيه وفاته وقيل إن اسم «البيدون» تفسيره مد رجلك والله أعلم بكيفية ذلك فأحضر المعتصم الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه.

فلما ثقل قال أخرجوني أشرف على عسكري وأنظر إلى رجالي وأتبين ملكي، وذلك في الليل، فأخرج فأشرف على الخيل والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقد من النيران فقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه. ثم رد إلى مرقدته، وأجلس المعتصم رجلاً يشهد

لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها. فقال له ابن ماسويه لا تصح فوالله ما يفرق بين ربه وبين ماني في هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن ذلك فرمى بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعاً فنطق لسانه من ساعته وقال: يامن لا يموت ارحم من يموت. وقضى من ساعته وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين وحمل إلى طرسوس فدفن بها على حسب ما قدمنا في أول هذا الكتاب (11).

وبالرغم من موت المأمون فالعصر الذهبى لبغداد على وشك أن يبدأ لتوه وسوف يدوم هذا العصر من أوله وحتى آخره، فترة 500 عام.

قرطبة، الإمارة الأموية (إسبانيا) العام 756 بعد الميلاد. يقف أمير شاب، تسفع صدره الذكرى الأليمة لليلة مذبحه دمشق، منتصراً على قمة جبل يطل على المدينة الرومانية القديمة «كردبه» التي أعاد العرب تسميتها، ومن ثم أصبح اسمها قرطبة وهو يبعد عن موطنه 2300 ميل.

فبعد تلك الليلة المشثومة التي سمع فيها صوت أهله وبقيّة أفراد عائلته برمتها وهى تذبح استطاع هو الهرب وهو لا يحمل فى جيبه أثراً لأى نقود وبصحبتة أخوه يحيى وخادمه بدر. وهكذا تفكك عالمهم من ورائهم ورحل الناجون الثلاثة إلى فلسطين ومنها إلى مصر وهم يتساءلون عما يخبئه لهم الدهر.

وبينما كان العباسيون المنتصرون يحقرون من شأن دمشق الأموية وينقلون عاصمتهم إلى بغداد كان على هذين الصغيرين اللذين حرمتها المذبحة من الميراث أن يجدا سبيلاً كى يتمكنوا به من الحياة فى هذا العالم الوحشى.

ولم يكن الأمير لىستطيع أن يفصح عن هويته حيث إن العلم العباسى الأسود يرفرف فى كل مكان ويحل محل العلم الأموى الأبيض. كما كان رجال الخليفة المنصور ومؤيدوه ينتشرون فى كل مكان أما مؤيدو الخلافة الأموية، إن وجدوا، فكانوا يختبئون فى الظلال. وفى فلسطين استطاعت مجموعة من القتلة التابعين للخلافة العباسية أن يقتلوا أثرهم ويقتلوا يحيى. أما عبد الرحمن وبدر فقد غافلا القتلة وهربا وانطلقا للسفر وحدهم.

أما القلة القليلة ممن يعرفون الأمير ويتعاطفون معه فقد نصحوه بأن ينسى الماضى وأن يغير من هويته ويستقر فى مكان بعيد ويجد له عملاً كجندى أو مدرس أو تاجر. ولقد لاحظ هؤلاء رصانة لسانه مما ينم عن أصله الكريم وحياته المرفهة وتعليمه

الراقى ، وكل ذلك لا يحصل عليه إلا من كان داخل بلاط الملوك . فربما فى مكان بعيد بمعزل عن مؤامرات ومكائد سورية والعراق يستطيع أن يعمل لدى شخص له مكانة فى المجتمع ويعيد تشكيل هويته بقوله إنه أحد الغزاة الفاتحين الذين يرغبون فى أن ينشروا الدين .

ولقد استمع الأمير إلى كل هذا الحديث غير أنه كان فتى واثقاً من نفسه رغم أنه لا يزال يعانى الصدمة من هول ما رآه فى تلك الليلة . وقد عاهد نفسه أن يرد على ما حدث تلك الليلة ولكن بأسلوبه هو . وفوق كل هذا كان ما يدفع الأمير دفعاً هو تلك النبوءة القديمة التى قالها له عمه العظيم مسلمة ذات يوم حيث أخبره أنه فى يوم من الأيام بعد أن تمر على الأمويين فترة طويلة من المعاناة والعذاب سيأتى هو ويستعيد أمجاد الأمويين . وهكذا دفعه هذا الحلم الصغير المخفى بين ضلوعه والأشبه بطاقة النور أن يواصل المضى إلى الأمام وأن يشعل رغبته فى الحياة فاستمر ماشياً تجاه الغرب هو وخادمه بدر .

وقررروا الذهاب إلى شمال إفريقيا حيث إن مكاناً بعيداً مثل هذا يمثل أفضل مأوى بالنسبة لهم بين فوضى تغيير الأسر الحاكمة هذه . بيد أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن؛ حيث إن الأمراء فى شمال إفريقيا الذين كانوا فى يوم من الأيام يدينون بالوفاء للأمويين - استغلوا حالة الفوضى السائدة كى ينفصلوا بإماراتهم ويعلموها ممالك قائمة بذاتها . ولم يمنح أمير شمال إفريقيا عبد الرحمن أى مأوى أو مستقر آمن ، بل على العكس فقد حاول أن يقتله . ولم تثبط همة عبد الرحمن من جراء ذلك فقد سمع عن خلاف نشب فى الأندلس الإسلامية فبعث بخادمه بدر عبر مضيق جبل طارق كى يتحقق من الأمر فى مهمة استطلاعية . وعرف بدر بعض الأخبار المهمة من بعض اليمنيين الساخطين . فقد أخبروه أن الأمير يوسف الفهرى هو الآن حاكم الأندلس بالتحالف مع قبيلة عربية شمالية هى القيسية وأن الأرض ممهدة لحدوث انقلاب . فاليمينيون الذين كانوا نعم العضد داخل قوة طارق ابن زياد منذ أربعة عقود فحسب قد عزلوا من السلطة داخل الأرض التى ساعدوا الجيش فى إخضاعها .

ويجد عبد الرحمن 20 مؤيداً له ويبحرون عبر مضيق جبل طارق فى عام 755 وبينما هم يمضون نحو الشمال ينضم إلى صفوفهم المزيد والمزيد من الأندلسيين الساخطين ويطلقون عليه من الآن اسم الأمير . وتتسم بعض دوافعهم بالشرف فهم يدينون بالولاء للناجى الوحيد من الخلفاء المعزولين ، أو بعدم رضاهم عن الأمير الحالى . أما بالنسبة لمجموعة اليمنيين فتحركهم المطامع والرغبة فى إعادة الاستحواذ على الثروات والغنائم ، والتى كانوا يستمتعون بها فى أولى فترات الغزو . وقد منح طارق بن زياد الأراضى للكثير من اليمنيين مكافأة لهم على ولائهم . بيد أنه فى ظل حكم يوسف الفهرى وقبيلة القيسية سارت الأمور على غير ما يرام بالنسبة لليمنيين .

وانتهت تلك المنحة التي كانت قد أعطيت لهم على هيئة مزارع في شمال إسبانيا وعاد بعضهم إلى شمال إفريقيا .

واستناداً على هذه الخلفية لا يشعر الأمير الحالى الفهرى بالارتياح لوجود الناجى الوحيد من المذبحة والوريث الوحيد للخلافة الأموية على عتبة بابه ومعه عصابة من اليمينيين المتمردين بلا شك ، ويحاول أن يقوض تهديدهم بأن يقدم لهم عرضاً غاية في السخاء والكرم . فبالنسبة للوريث المعزول يعرض الفهرى عليه أن يزوجه ابنته وأن يمنحه أرضاً وملاً آمناً . وبالرغم من أن هذا العرض يبدو مغرباً خاصة بالنسبة لمن عانى الأمرين في السنوات الخمس الماضية ، فإن عبدالرحمن يرفض هذا العرض .

ويزداد عدد جيشه ويكبر حتى العام التالى 756 حيث يلتقى بالأمير فى معركة خارج قرطبة .

و ضد كل الظروف والتوقعات يفوز هذا الجيش المهلهل الذى يقوده عبد الرحمن الشجاع الذى لا يهاب شيئاً ، وبذلك يُنصَّب عبد الرحمن الأول أميراً على الأندلس ويستعيد الحكم الأموى حتى إن كان ذلك فى هذا المكان البعيد . ولا يحوز هذا الأمير البالغ من العمر 25 عاماً علماً يدخل به البلاد غير أن أحدهم يعلق عمامته الخضراء على رمح .

وتتلخص أولى مهام هذا الأمير الصغير فى كبح جماح حلفائه اليمينيين الانتهازيين الذين هم على وشك أن يشرعوا فى حملة طال انتظارها من الانتقام والسلب والنهب . ولا يستطيع عبد الرحمن الذى يرى نفسه حاكماً عادلاً أن يسمح بذلك غير أنه يوقف ثورتهم هذه مضحياً بفقدان تأييدهم له فى هذه اللحظة .

ليس هذا إلا أول تحدٍّ سياسى يواجهه . وإن اختار هذا السبيل فسوف يقضى الثلاثين عاماً القادمة فى حكمه فى إخماد الثورات والمكائد والمنافسات . وفى أول خطبة دينية يلقيها فى المسجد سيشرح بالضعف الشديد لدرجة أنه سيتملق الخليفة العباسى فى بغداد الذى ذبح عائلته كلها ودفع به إلى هنا . أما بالقرب من الأندلس فسوف يحاول الحاكم المعزول الفهرى أن يثير عاصفة من السخط على الأمير الصغير ويقسم إنه سوف يقتله أو يطرده . وسيرسل أعداء عبد الرحمن فرقة تابعة للخلافة العباسية كى تغتال عبد الرحمن وبالفعل تصل هذه الفرقة إلى بوابات قرطبة فى عام 763 حيث سيلحق بهم الأمير الجديد الهزيمة المنكرة ويقطع رؤوس قادتهم ويحبطها باستخدام الكافور ويشحنها إلى الخلافة فى الشرق . ومنذ ذلك اليوم فصاعداً لن يذكر اسم الخلفاء العباسيين فى المسجد . وبعد مضى 200 عام سيشرح أحد أحفاده أنه من القوة بحيث يعلن نفسه الخليفة الحقيقى للإسلام .

ولكن الآن في العام 756 ياترى ماذا يفعل؟ فالبيت الملكى والرؤيا التى كانت قد ماتت تقريباً فى دمشق قد عادا إلى الحياة مرة أخرى بالرغم مما يحيط بها من المخاطر فى هذه الأرض التى تبعد كل البعد عن الوطن. بيد أن هذه الأرض ليست بالغربية تماماً. فهناك شىء مألوف فى هذا المكان يردد أصداء أيبيريا الرومانية وسورية الرومانية أكثر من المناطق الإفريقية وتلك الشرقية التى مر عليها فى أثناء ترحاله. فانتشار أشجار الأرز على تلك السهول الصخرية وهذا الضوء ولون التربة كلها ترداد أصداء الوطن.

ويبدو كأن حملته التى بدأها منذ خمس سنوات للبقاء على قيد الحياة بعد زوال كل شىء واستعادته لمكانته السياسية ومهمته المستقبلية فى البقاء حياً والحفاظ على سلطته ليست كلها بالمهام الكافية. فعبد الرحمن لديه رؤية أكبر بكثير. فعند إلقائه نظرة فاحصة إلى تلك البلدة الثانوية التى أسسها الرومان، والتى استخدمها القوط الغربيون فى أثناء حروبهم ثم باتت بعد ذلك عاصمة لا يميزها شىء فى عهد الفهرى - يقرر عبدالرحمن أن يفعل شيئاً مختلفاً.

وهنا فوق السهول الصخرية والوديان الجافة لجنوب إسبانيا سيعيد عبد الرحمن إنشاء دمشق المفقودة وكأنما بذلك يعيد عائلته الحبيبة إلى الحياة. وسوف يعيد أمجاد تلك المدينة الأموية التى ركنت إلى حالة من الركود بعد كل التنمية والتطور الذى مرت به بكل وسائل الرى الحديثة التى تم اختراعها والمعمار الرومانسكى المختلط والمميز ومساحاتها المدنية الرحبة، والقصور والقيلات شبه الرومانية. لكن عبدالرحمن لن يعيد إحياء العاصمة الدمشقية السابقة فحسب، بل سيواصل تنفيذ برنامجه الكامل للتنمية الذى كان مقدراً له أن يتم فى دمشق وسورية وأرض الخلافة برمتها لو كان قد أصبح خليفة هناك. وسينشئ عبد الرحمن مركزاً منافساً للعلم والاختراع. ففى هذه البلد القوطية العتيقة فى شبه الجزيرة التى طالما كانت أشبه بالمياه الراكدة سوف يخلق مدينة وحضارة عالميتين.

وإنها لدعاة للسخرية أنه بالنظر من مكان بعيد إلى هاتين العائلتين المتحاربتين ألا وهما الأموية والعباسية نجدهما تتشابهان أكثر مما تختلفان. وبالرغم من أنهما قد تختلفان حول التشكيل العرقى للبلاط الملكى أو ربما فى بعض التفاصيل الدقيقة حول العقيدة مثل هل ترفعان علماً أسود فى دمشق أم أبيض لكنهما مهتمتين اهتماماً شديداً بالفكر والفخامة. فهما تعشقان الأفكار والاختراعات ولا تهابان كسر القواعد وخرق الحدود.

وتتجلى المهمة الأولى من مهام عبد الرحمن كما سبقها إليه سلفه معاوية إبان أيام دمشق القديمة فى بناء البنية التحتية لدعم مثل هذا المجتمع. فهو يحتاج إلى طرق وجسور ومساجد ومدارس ويحتاج إلى مياه.

وسوف يقوم بغرس الأساليب الدمشقية والسورية فى إسبانيا . فالسكان سوريو المولد سوف يزرعون ويرعون مزارع الزيتون وبساتين البرتقال والليمون على الطريقة السورية وسوف يروون الأراضى باستخدام الآلات الشبيهة بتلك المستخدمة فى سوريا . وستحرك الآلات المائية السورية مياه الرى . وستضحى مدينة إشبيلية شبيهة كل الشبه بمدينة حمص السورية ، وسيطلق الشعراء العرب على مدينة المدينة اسم «حمص الأندلسية» . وفيما بعد سيعلق المسافرون الأندلسيون إلى الشرق قائلين إنها إشبيلية الوحيدة من بين كل مدن المسلمين التى تذكرهم بموطنهم المدن السورية .

وفى العاصمة سوف يشيد عبد الرحمن حديقة شاسعة ورائعة يطلق عليها اسم الرصافة، وفى هذه الحديقة سيبنى قصرأ له أصداء الماضى ويسميه قصر دمشق . وفى العام 786 سيبدأ فى بناء مسجد قرطبة العظيم وستمتد جهود البناء هذه لتصل إلى 62 عاماً .

وفى قصيدة له يصف الأمير الذى بدأ الشيب يغزو رأسه - قائلًا:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تئات بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى	وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبية	فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى	يسح ويستمرى السماكين بالويل

بيد أنه من هذه البداية التى يشوبها الكثير من الحنين إلى ذكرى الوطن والإحساس العميق بالوحدة فى عام 756 ستنتقل رؤيا عبد الرحمن إلى أخلافه عبر القرون الثلاثة التالية وسوف تكون النتائج باهرة . فبنفس القدر الذى ينظر به عبد الرحمن تجاه الشرق إلى الماضى كى يكون مصدر إلهامه لن يعرف خلفاؤه شيئاً عن هذا الوطن الضائع بشكل مباشر فالأندلس ستصبح هى أرض أجدادهم . ومع مرور الزمن وبشكل حتمى ستأخذ الأندلس الأموية الجديدة شكلاً خاصاً بها بالرغم من أنها مستوحاة أساساً من روما وبيزنطة وسورية والجزيرة العربية . وسيحكم المسلمون كل أو معظم أجزاء إسبانيا لقرابة 800 عام تقريباً .

وخلال عصر إسبانيا الإسلامية سيتطور هيكل السلطة فى الأندلس وتتحول من إمارة أموية (929-756) إلى خلافة أموية (1031-929) ثم تدخل فى فترة طويلة من الدويلات يطلق عليها اسم الطوائف وتخضع للسيطرة الإسلامية والمسيحية .

وفى مرحلة متأخرة من مراحل الخلافة الأموية فى إسبانيا يتم توسعة وزخرفة مسجد قرطبة العظيم الذى بدأه عبد الرحمن الأول. كما يتم تشييد منطقة ملكية أخرى خارج قرطبة يطلق عليها اسم مدينة الزهراء. وتصل قرطبة إلى أوج مجدها وتصبح أكثر المدن حداثة فى أوروبا ويبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة ويشيد بها 300 حمام عام و300 مسجد و50 مستشفى ونسبة عالية من المتعلمين يتجلى أثرهم فى المكتبات العامة والخاصة التى يزيد عددها على عدد كل الكتب الموجودة بأوروبا.

وفىما بعد عندما تبلغ قرطبة قمة السلطة والنفوذ والثروة فى العام 1090 ستسقط قرطبة فى يد مجموعة من الغزاة الأصوليين من شمال إفريقيا يعرفون باسم «المرابطون» يسعون إلى تطهير الفكر الحر ومجتمع الأمويين الذى يحيا بقدر كبير من الانطلاق والحرية. وسوف تؤدى صدمة سقوط الخلافة إلى حدوث حركة من التصدع البطيء فى بنىان الدولة الإسلامية وتتحول إلى دويلات صغيرة. وفىما بعد ستضم الغارات القادمة من شمال إفريقيا مجموعة أشد من الأصوليين يطلق عليهم اسم «الموحدون» (1145-1232) ويخلفهم النصريون أو بنو نصر (1232-1492) وكانت هذه هى آخر الأسر الحاكمة لغرناطة والمرية ومالقة.

وبالرغم من أن كل جماعة غازية ستدخل إسبانيا ولها وجهة نظر أكثر تعصباً عن أسلافها حول النموذج الأموى المتنوع والمتسامح والمبكر فإن حدة هذا التعصب ستخف من جراء التجربة ذاتها وبذلك سيظهر مزيج جديد.

لم ينته، بشكل شبه إعجازى، زمن الإبداعات أو الاختراعات الإسلامية عند هذا الحد فى الأندلس، فسقوط الخلافة وصعود الدويلات سيؤذن بدخول آخر عصور الإبداع الإسلامى. فكل ملك من ملوك الدويلات سوف يشعر بأنه مسئول عن التنافس مع غرمانه من الطوائف الأخرى، وبذلك سيتنافس كل بلاط على التفوق على نظرائه فى مجالات المعرفة والتميز. فطوائف مثل مدريد وإشبيلية وسرقسطة وطليلة سوف تضيف المزيد من العظمة على الإنجازات الإسلامية.

وسيمتزج هذا التحول فى شكل الفسيفساء السياسى من الإمارة إلى الخلافة إلى الطوائف مع النسيج السياسى والاجتماعى والدينى المتميز لإسبانيا. ومن خلال وجهة النظر المنقحة والشاملة للأمويين ومن خلفهم ستمتزج قوى المجتمع المسيحية والمسلمة وتتمخض عن مجتمع ثلاثى الديانة يتميز بالتعايش مع بعضه البعض فهو عبارة عن شكل فريد للتعايش الاجتماعى والتعاون ما بين المسلمين والمسيحيين واليهود. ويتمتع أهل الكتاب أو أهل الذمة بمكانة ثانية وأمنة فى المجتمع ماداموا لا يبشرون بدينهم ولا يقوضون الإسلام.

أما المسيحيون الأيبيريون القدامى الذين لا يزالون يخضعون لروما فسيتعلمون

أن يتحدثوا ويكتبوا باللغة العربية وسيطلق عليهم اسم المستعربين . كما سوف تساعد مهاراتهم اللغوية، شأن النسطوريين في بغداد، الأمويين في ترجمة الكلاسيكات اللاتينية والإغريقية والعبرية إلى العربية، كما أن هذا سيؤدي إلى ازدهار متواز في الأفكار والعلوم والآداب كي تتنافس مع بغداد وأماكن أخرى داخل الدولة الإسلامية.

أما اليهود الذين كانوا يعيشون في أيبيريا قبل أزمان الرومان والذين تعرضوا للكثير من الظلم والاضطهاد من جانب القوط الغربيين فعند دخول طارق بن زياد سيجدون في المسلمين حماة أفضل من سابقهم خاصة عهد القوط الغربيين المنصرم . وسيتعلم هؤلاء أيضاً اللغة العربية إلى جانب معرفتهم بالعبرية واللاتينية . وسيرتقى أحد اليهود حتى يصل إلى ثاني أكبر منصب سياسي في الدولة حيث سيصبح الحاخام أبو يوسف بن إسحاق بن عزرا الوزير الفعلي ووزير الشؤون الخارجية للخليفة عبدالرحمن الثالث . وسيتفوق اليهود في أمور التجارة والعلوم وبذلك يساهمون في إثراء الإنجازات الفكرية المستقبلية في الأندلس . وبينما يزداد عدد المهاجرين اليهود قادمين من أجزاء أخرى من المهجر يصبح هذا المجتمع أهم المجتمعات على الإطلاق في خضم المجتمعات الأخرى المتناثرة . وسيطلق على اسم هذا الوطن اليهودي الجديد اسم سفرديم بالعبرية وسيبقى هذا المجتمع اليهودي أيضاً مدة 800 عام .

بيد أن هذا لا يعني أن مثل هذا التعايش لن يتفكك في يوم من الأيام وبالتدريج ، وذلك في المذبحة التي قتل فيها 150 عائلة يهودية في غرناطة في العام 1066 أو في القرن التاسع عندما قتل 48 مسيحياً وأطلق عليهم اسم شهداء قرطبة بسبب سبهم الديانة الإسلامية وتعددهم على الرسول صلوات الله عليه وسلامه . كما أن هذا لن يعني أيضاً أن المسلمين المتشددون في شمال إفريقيا لن ينقلبوا على ما أطلقوا عليه «نجاسة» الوسائل الأندلسية ويسعون إلى «تطهيرهم» . وهذا لن يعني أيضاً أن المسيحيين المتعصبين لن يحاولوا أن يقوموا بإعادة غزو المكان .

وبالرغم من بعض الاختلافات والصراعات بينهم فإن هذه المجموعات الثلاث ستنجح في التعايش وفي تغذية بعضها واحترام وإجلال البعض في الكثير من الأحيان . وحتى الكاثوليكية المخلصة الملكة إيزابيلا التي تربت في بلاط متنوع الأجناس والأديان مع أصدقاء يهود منذ الصغر سترتدي رداءً إسلامياً عندما تطلب رؤية آخر أمراء غرناطة، كما أن أحد أسلافها الكاثوليكيين وهو ألفونسو الحكيم سوف يتبنى نموذج الديانات الثلاث المتعدد هذا الذي ابتدعه الأمويون وسيسمح بوجود المستشارين المسلمين واليهود على جانبه . وستستمر الكلمات العربية المنقوشة تزين الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية حتى بعد مرور فترة طويلة من سقوط حكم الأمويين . وسيردد المعمار المدجن في إسبانيا أصداء سورية والجزيرة



مسجد قرطبة العظيم في إسبانيا الذي كان في يوم من الأيام ثالث أكبر المساجد الإسلامية وقد تم تحويله إلى كاتدرائية في عام 1236 عام الغزو المسيحي لقرطبة.

العربية حتى عندما تفرع أجراس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بصوت أعلى. كما سيعبر مزيج اللغات ما بين اللاتينية القديمة والعربية عن التراث المزدوج وعن التاريخ الضائع.

وخلال الفترة التاريخية الطويلة ما بين فتح طارق بن زياد للأندلس في العام 711 ودخول الملكة إيزابيلا في العام 1492 سيتمخض هذا المزيج المتميز في الأندلس عن إبداعات رائعة في العمارة والموسيقى والآداب والفلسفة والطب والعلوم. ولكن مع الأسف سقط كل هذا من سجلات التاريخ في طي النسيان، ويضيع الجزء الأكبر بسبب الرعب الذي خلفته محاكم التفتيش الإسبانية وهروب اليهود والمسلمين من موطنهم القديم بإسبانيا إبان عمليات إجبار الناس على تغيير دياناتهم وفرض الضرائب واستئصال شأفة اللغات المختلفة وحرق المتطرفين للمكتبات التي تحوى كتباً قيمة لا تقدر بثمن. وبعد مضي 500 عام على ظهور محاكم التفتيش الإسبانية يتم استرجاع التاريخ الضائع ببطء. ولكن هذا التاريخ يظل مجهولاً للكثيرين حتى هؤلاء الذين يحملون نفس الجينات أو ألقاب العائلات أو يتحدثون نفس اللغة فكلهم بمثابة تجسيد حي لهذا التاريخ الضائع.

واقراً قصيدة القرن الـ 16 هذه التي كتبها الإسباني المسلم محمد رابضان أيام محاكم التفتيش الإسبانية:

أراد الله جل جلاله
لمور^(*) هذه المملكة
العذاب والاضطهاد والعبودية
لقد فقدوا كتبهم القيمة
دون أثر
واختفى علماؤهم
بعضهم مات والآخر سجن
وأطلقت محاكم التفتيش يدها في المكان
تبطش بلا رحمة
تقسو وتبالغ في القسوة
تنتشر في كل مكان
وتهتز الأرض تحت الأقدام
يبعثون الرعب في كل الأركان
إنهم من عمدوا حديثاً
يفرضون عليهم يوماً بعد يوم
ألواناً من العذاب
سجن وعذاب وحرق
وفواجع أخرى وبؤس
ويعلم الله وحده حكمة كل ذلك

القاهرة وسمرقند وأصفهان ودلهي: بينما ينتشر نتاج هذه الدائرة الإسلامية المركزة من الارتجال والابتكار خارج دمشق وبغداد وقرطبة في القرون التالية - تظهر مراكز أخرى للإبداع لتتنافس مع أمهات المراكز. وينتشر الأسلوب الإسلامي الذي ظهر في وقت مبكر، والذي يتميز بالارتجال والإبداع والسعي للنهل من بحور العلم والمعرفة والحكمة إلى أماكن جديدة. وتتميز تلك الأماكن، أكثرها، بحضارتها العتيقة، ومن ثم لا يكون الاختراع والنبوغ فيها أمورا مستغربة.

(*) المور: لفظة تُطلق على مسلمي الأندلس.

وسيظهر أحد هذه المراكز في مكان لم يكن له وجود تقريباً حتى تجتاحه الجيوش العربية القادمة من الجزيرة العربية والنتيجة إلى مصر. فمنذ عهد الإسكندر والرومان كانت الإسكندرية هي المدينة الرئيسية بمصر، فهي موطن كليوباترا ومدينة إغريقية تقع على فم نهر النيل. وعند أعالي النهر كانت توجد مستوطنة رومانية لا تبعد كثيراً عن المدينة الفرعونية هي ممفيس أو منف، غير أن هذه المدينة لم تكن ذات أهمية كبيرة حتى جاء العرب في العام 642. ويطلقون على البلدة التي يحيط بها حصن ضخم اسم مدينة الفسطاط بمعنى آخر المخيم، ويحولونها إلى موقع عسكري للقوات العربية.

ويقع الحصن على الضفة الشرقية للنهر، وبعد مضي أكثر من قرنين بعد فتح العرب للمكان يظل أشبه بالجزيرة التي فقدت في محيط من الرمال المتدفقة تجاه جميع الآفاق. وتوجد الفسطاط في مقر سهل فيضان النهر على رقعة ضيقة من الأرض تُزرع منذ عهد الفراعنة وتروى وقت الفيضانات السنوية التي تحدث بفعل ذوبان ثلوج الجبال والأمطار الشتوية التي تنهمر على إفريقيا. وعلى طول النهر وفي عدد محدود من الواحات تظهر أشجار نخيل البلح فوق الرمال الملتهبة.

بيد أن هذا الحصن الإسلامي المشيد على نهر النيل سيعرف فيما بعد باسم القاهرة وذلك عند وصول جماعة غازية في العام 969 من طائفة الإسماعيليين الشيعية التي تأتي من تونس عاقدة العزم على تأسيس إمبراطوريتها العالمية. ويستغلون إحدى فترات التاريخ التي تتسم بالتشتت والضعف السياسي في بغداد العباسية وعلى هذا يثبون وثبتهم. ويطلق على الإسماعيليين الغزاة اسم الفاطميين حيث يدعون أنهم من نسل إحدى بنات الرسول صلوات الله عليه وسلامه وهي السيدة فاطمة رضی الله عنها. وبالرغم من أقليتهم داخل المسلمين ينجحون في غزو المكان. الأمر الذي يبدو غربياً مثل غزو الأمير الأموي الوحيد لعالمه الجديد في الأندلس.

وفي أوج مجدها في القرن الـ 11 تستحوذ الدولة الفاطمية على أجزاء من شمال إفريقيا شاملة مصر وفلسطين وسورية وصقلية وأجزاء من الجزيرة العربية واليمن.

إن الفاطميين هم من وضع أساس معمار القاهرة في العصور الوسطى وهي مدينة عالمية رئيسية ومركز عالمي للتعلم. ويتبع الفاطميون، بالطبع مع وجود بعض الاستثناءات، سياسة لإدماج المسلمين السنين والمسيحيين واليهود في المجتمع وفي اعتلاء المناصب حسب كفاءاتهم. كما ينضم الفاطميون إلى ركب العباسيين والأمويين في النهل من العلوم الدنيوية والروحية. وفي العام 972 يؤسسون مسجداً رائعاً وجامعة ملاصقة له تعرف باسم الأزهر ستجذب إليها عبر قرون تالية العلماء من كل مكان وستصبح إحدى أكبر الجامعات الرائدة في العالم. فعلماء مثل عالم الفلك ابن يونس والفيزيائي العراقي ابن الهيثم يأتون إليها حيث يغريهم الحاكم الفاطمي الحاكم

بأمر الله في بداية القرن الـ 11 ليجد طريقة لوقف الفيضان السنوى لنهر النيل ، غير أن ابن الهيثم يفشل فى إيجاد حل لهذه المعضلة ولكنه يطور فيما بعد نظريات الضوء وعلم البصريات بشكل غير مسبوق ، الأمر الذى يمهد الطرق لعلماء مثل أنطوان فان ليونيهوك فى أوربا بعد قرون من الآن .

تم تأسيس جامعة الأزهر فى الأساس كى تصبح مدرسة للطائفة الإسماعيلية ، ولكن مع مجيء الأسرة الأيوبية السنية وتحت حكم صلاح الدين فى عام 1171 سيعاد تنظيم الأزهر كمركز سنى للتعليم ، ومن ثم فسيواصل تأدية دوره كرائد فى المجال الفكرى .

وعلى الرغم من أن الأيوبيين سيعقدون العزم على تغيير كل جوانب الحكم الفاطمى وفكرهم الدينى ، فإنهم لن يتخلوا عن المسعى الذى سبقهم إليه الفاطميون وهو النهل من بحور العلم والمعرفة والإنجازات المدنية . وسيحرص الأيوبيون وصلاح الدين فى إطار هدفهم لتعليم المسلمين إلى جعل الأزهر أكثر مراكز التعلم تطوراً وإبداعاً فى العالم الإسلامى . كما سيشتهر صلاح الدين بقدرته على قلب مجريات الأمور كما حدث إبان الحملات الصليبية حيث استطاع أن يعزز المقاومة الإسلامية المتهاوية فى نهاية القرن 12 . ولن يغير صلاح الدين الأوضاع بالنسبة للمسلمين فحسب بل إنه أيضاً سيصبح رمزاً لروح الشهامة الإسلامية بالنسبة للأوروبيين بسبب رحمته فى التعامل مع المسيحيين عندما يستعيدون أورشليم ومن خلال علاقته التى تتميز بالاحترام المتبادل مع ريتشارد قلب الأسد .

وسيؤدى سقوط بغداد على يد المغول فى القرن الـ 13 إلى جعل القاهرة مركز العالم الإسلامى السياسى والفكرى الرائد أمام العالم . كما ستنتقل مجموعة متنوعة من المفكرين والمخترعين حياتها إلى القاهرة . وفى بداية القرن الـ 13 سيثبت العالم السورى ابن النفيس الذى يعمل ويدرس فى المستشفى المنصورى بالقاهرة أن الطبيب الإغريقى جالينوس قد أخطأ فى فهمه لحركة الدماء فى الجسم . كما سيشرح ابن النفيس كيف يتدفق الدم من القلب إلى الرئتين إلى الجسم ثم يعود مرة أخرى .

وفى عام 1250 ستسقط عائلة صلاح الدين الأيوبية لمجموعة من العبيد السابقين يعرفون باسم المماليك وسيحكم هؤلاء القاهرة حتى عام 1517 عندما يأتى العثمانيون الأتراك ويطيحون بهم . وبالرغم من كل تلك الأحداث والتغيرات السياسية المزلزلة التى تحدث ما بين الأعوام 1000 و1500 فإن القاهرة تظل خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة هى الرائدة فى المجال الفكرى فى العالم الإسلامى .

وفى الوقت نفسه ستقوم بلاد فارس وهى الرافد الرئيس المغذى للتفوق العباسى فى بغداد بتطوير مراكز إسلامية متميزة كى تنافس وتتفوق على مدن مرحلة ما قبل

الإسلام مثل مدينة إصطخر وجنديسابور. وعندما يصل المسلمون إلى بلاد فارس تكون هذه الأخيرة تمر بمرحلة من الركود والانهايار السياسى ولكن بطريقة غريبة. وبالرغم من سقوط بلاد فارس بسرعة في يد الفاتحين العرب فإن هذا الفتح سوف يثبت فيه روح ثقافة جديدة. فمدن فارس القديمة مثل خراسان وقزوين وتبريز ستعقبها نشأة أعظم مدن إيران الإسلامية ألا وهى أصفهان. وتزدهر أصفهان تحت حكم السلاجقة الأتراك فى القرن الـ 11. ويجتذب الحاكم السلجوقى مالك شاه وخلفاؤه السنيون العلماء والشعراء إلى بلاطهم.

وسيرتفع شأن السلاجقة، وهم قبيلة من قبائل الغز الأتراك، لإدارة إمبراطورية تمتد من حيث توجد تركيا فى العصر الحديث إلى باكستان ما بين القرن الـ 11 والـ 14. وبالرغم من أصدائها التركية يتبنون وينشرون ثقافة فارسية لها طابع جمالى تتردد أصدائها خلال مجموعات من خلفائهم من بينهم الأتراك العثمانيون. وتصبح مدنهم شأن نيسابور وأصفهان مواطن شعراء مثل العالم عمر الخيام وراعيه نظام الملك التى سميت المدارس النظامية - التى بنيت فى جميع أرجاء الشرق الأوسط - باسمه. كما تصبح العاصمة السلجوقية قونية فى الأناضول موطن الشاعر والفيلسوف الصوفى جلال الدين الرومى فى القرن الـ 13 والذى سيجله كل من المسيحيين والمسلمين وتجتذب كتاباته أتباعاً جديداً حول العالم حتى بعد مضى 800 عام على وفاته إلى وقتنا الحاضر.

وبعد تراجع السلاجقة أمام الغزوات المغولية فى القرن الـ 13 ستهدها مدينة أصفهان حتى ظهور الشيعة الصفويين وشاه عباس (1629-1587) بعدها تحدث أعظم وأفخم التحسينات المعمارية والمدنية التى تحت الرحالة البريطانى روبرت بيرون على أن يقول إنه عندما جاب المدينة لم ير لإبداعات أصفهان المعمارية شبيهاً فى أوروبا برمتها ولا حتى فى بازيليك القديس بطرس أو قصر فرساي. فأقواس أصفهان المدببة ستتزين بقباب من البلاط الأزرق المتألق كما أن المساحات الخضراء الشاسعة التى تميز ميدان الإمام يحيط بها مساجد وقصور تبدو لامعة ببريق زجاجى.

وبينما تملو وترتفع المدن الإسلامية العظيمة فى آسيا تخلف الثقافة والأسلوب الفارسى الحضري أثراً أقوى من أى ثقافة وطنية أخرى حتى وإن ظل الأثر الفارسى السياسى ثانوياً. فمنذ سمو شأن العباسيين وحتى انهيار المغول الكبار فى الهند والعثمانيين فى تركيا تقوم الثقافة الفارسية بأسمى الأدوار فى الشرق الأوسط ووسط وجنوب آسيا شأنها فى ذلك شأن الدور الذى أدته فرنسا من أول الغزو النورماندى لإنجلترا وحتى القرن الـ 21. فيستخدم بلاط الملوك من أول العثمانيين فى إسطنبول والتيموريين فى سمرقند والمغول الكبار فى الهند - الكتابة واللغة الفارسية وسينسخون التصميمات الفارسية الموجودة على السجاجيد ويكتبون تاريخ رجال البلاط كى يبدو

شبيهاً بأسفار بلاد فارس المنيرة بالعلم والمعرفة وبينون آثاراً أسطورية تردد أصداء بلاد فارس .

ويصل الإسلام إلى وسط آسيا مصطحباً ثقافته معه في القرن الثامن ويدخل مدناً مثل كابول وبخارى وغزنة وكلها ستساهم في ظهور مراكز ومفكرين واختراعات إسلامية جديدة . بيد أن هذه المدن التي تقع على سهل واسع ، والتي تتأثر كثيراً ببلاد فارس وتتحدث اللغات الفارسية سيجتاحها المغول وچنكيز خان وحفيده هولاقو ، والذي سيأتي بالاضطراب والخراب إلى وسط آسيا وجزء كبير من الشرق الأوسط وهو يؤسس إمبراطورية المغول مترامية الأطراف التي وصلت في ذروتها حين امتدت من الصين حتى العراق وشمالاً حتى شرق أوروبا وروسيا . وبالرغم من أن المغول يتعاملون بوحشية وبقسوة لا مثيل لها مع من يقاومهم فإن من يذعنون لهم فسيدخلون في طيات ثقافة وإمبراطورية مختلطة جديدة تعكس بالتدريج الإسلام الذي تشربته وتدعم الإنجازات الفكرية والعلمية .

وفي عام 1406 والمغول يمرون بحالة ضعف ووهن ستظهر شخصية لها أصول مغولية من مكان بالقرب من سمرقند يدعى تيمور ويعرف أيضاً باسم تيمورلنك أو لنك الأعرج . ويطلق على اسم أسرته الحاكمة التي ستقتصر فترة حكمها على الفترة من 1336 حتى 1506 اسم الإمبراطورية التيمورية . وتصل هذه الإمبراطورية إلى أوجها عندما تمتد جنبتها من أعماق روسيا إلى شمال الهند وغرباً في الأناضول . وبالرغم من أن تاريخ سمرقند يرجع إلى ما قبل فترة الإسكندر الأكبر فإن تفوقها وتألقها سيتحقق خلال حكم تيمورلنك وتصبح مركزاً للعالم . كما يساعد تدفق غنائم وثروات الحروب في تطور وازدهار معمارها بشكل استثنائي ، ويشمل ذلك تأسيس مجمع ريجستان للمراكز الدينية والتعليمية . وبالرغم من أن التيموريين كانوا من أصل مغولي فإنهم جددوا الولع بالثقافة والإبداع الفارسي مرة أخرى .

وبخلاف التمزق والتشرذم الذي أحدثته الغزوات المغولية والتيمورية ستبدي بعض الآثار الإيجابية للحرائق الهائلة التي أشعلوها في أماكن عدة . فعبر أجيال وأجيال تشبع الآلاف والآلاف من سكان وسط آسيا بالاختراعات التي ابتكرها المسلمون وسيهرب هؤلاء فيما بعد تجاه الغرب وبذلك يثرون الكثير من الأماكن فكراً مثل الأناضول ومصر والأندلس . أما بالنسبة للمغول فلن يقضوا على بغداد عن بكرة أبيها فحسب ، بل سيعتقون الإسلام ، في نهاية الأمر ، وهو أفضل ما في الثقافة الإسلامية . وينشئ هولاقو خان الذي دمر بغداد في القرن الـ 13 أعظم مرصد فلكي في العالم في مراغة . ويحذو تيمورلنك حذو هؤلاء حيث سيأخذ الفنون والكنوز الإسلامية التي استولى عليها إلى بلده الحبيب سمرقند كي يجعل منه مركز الاختراعات في وسط آسيا .

ويعتبر العثمانيون هم الخلفاء الثقافيين للسلاجقة الأتراك حيث أسس أسرتهم الحاكمة في عام 1299 بالأناضول عثمان . وبالرغم من أن العثمانيين سيفقدون الكثير من أراضيهم بفعل غزو التيموريين في منتصف 1300 فإن العثمانيين سيصمدون أكثر من التيموريين ويعلو شأنهم مرة أخرى ويستولون على كثير من أراضي حضارة بيزنطة القديمة . وفي عام 1453 تحت حكم محمد الفاتح يغزو الأتراك العثمانيون القسطنطينية ويعيدون تسمية العاصمة باسم إسطنبول . وتغزو الإمبراطورية العثمانية أجزاء كبيرة من الخلافة الإسلامية باستثناء الأندلس ولكن بإضافة اليونان والبلقان . وتصل الإمبراطورية إلى أوج تألقها السياسي والفكري تحت حكم سليمان القانوني ، والذي يحكم الإمبراطورية من 1520 وحتى 1566 ويشتهر عصره بالسماحة الدينية وتطبيق مبدأ الكفاءة في إسناد الوظائف للغير عن مبدأ الانتماء إلى النبلاء . كما جدد الضغوط الإسلامية العسكرية على أوروبا وقام بحملات عسكرية على المجر وفرض حصاراً على فيينا .

أما بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي يمر المسلمون على بلاد السند شمالي الهند في القرن الثامن ويمارسون أعمال التجارة عبر البحر العربي ، وبهذا تصل الثقافة الإسلامية إلى الموانئ الهندوسية . وبحلول القرن الـ 12 تؤدي سلسلة من موجات الغزاة قادمة من وسط آسيا إلى تأسيس الوجود الإسلامي في مدن مثل لاهور ودلهي . وتصل السلطنة الدلهية إلى قمته ما بين الأعوام 1206 و 1526 وتتحكم في كل أجزاء شمال الهند من الحدود الأفغانية وحتى البنغال .

ويبرز فجر العصر الذهبي الإسلامي في الهند مع قدوم المغول من وسط آسيا في القرن الـ 16 وتأسيس الإمبراطورية المغولية في الفترة ما بين 1526 و 1857 . أول الغزاة المغول هو بابر ، وهو من نسل تيمورلنك المباشر . وبالرغم من تفكك وزوال الإمبراطورية التيمورية يستطيع بابر من مركزه الرئيس وهو أوزبكستان في وقتنا الحاضر أن يكون قوة عسكرية كافية وبأسلة كي يعيد تأسيس الإمبراطورية التيمورية . ويتحول بابر بقوته العسكرية نحو الجنوب ، وبعد مرور سنوات طوال عليه في تحقيق الانتصارات وتلقى الهزائم في الحروب وخسارة سمرقند مجموعة من الغزاة من الشرق والغرب - يقرر بابر أن يجرب حظ جنوب منطقة الهيمالايا ، وبهذا يواجه سلطان دلهي ويهزمه ويتوسع فيما بعد تجاه إقليم الدكن . ويتسم بابر بتعليمه المتميز فضلاً عن كونه محارباً مرهف الحس ويترك وراءه سيرة ذاتية مفصلة يطلق عليها اسم بابرنام .

ورغم أن مدن دلهي و لاهور ستأخذان نصيبهما من المجد والثراء فإن أعظم العواصم المغولية ستكون «أجرا» في الفترة ما بين 1526 و 1658 .

أما حفيد بابر جلال الدين أكبر فسوف يكون أكثر ملوك المغول المحبوبين من جانب الهنود من غير المسلمين . وقد اشتهر بتعميق التسامح ما بين الأديان وإدماجهم



المسجد الأموي بدمشق الذي بنى عام 715 بعد الميلاد
ويعد أحد أقدم وأكبر المساجد في العالم.

داخل المجتمع ، كما حاول أن يوجد ديناً جديداً عن طريق الدمج ما بين الإسلام والهندوسية . وسيؤسس سليله شاه جهان «تاج محل» في أجرا والقلعة الحمراء بدلهي والكثير من التحف المعمارية الأخرى . وسيتزوج شاه جهان الأميرة الفارسية نور جهان ، والتي ستدعو بدورها المهندسين المعماريين والفنانين والشعراء والمفكرين الفارسيين كي يحيوا ويثروا بلاطهم الملكي . وبالرغم من أن نتيجة ذلك ستجلى في ظهور صالون فكري وثقافي متميز وستظهر اتهامات بالفساد والانحطاط . كما سيؤدي رفض الهنود من السكان الأصليين لهؤلاء الأجانب إلى الإطاحة بحكم جهان بواسطة ابنه .

وفي أوج إمبراطورية الهند المغولية في العام 1700 ستمتلك تلك الحضارة 25 % من الثروة المادية في العالم وسيبلغ عدد سكانها 140 مليون نسمة ، الأمر الذي سيجعل أي أمة أخرى تبدو أشبه بالقزم بجوارها باستثناء الصين .

ويستمر تبادل الأفكار ما بين الشعوب والحضارات لآلاف السنين ، خاصة بين الشرق والغرب بفضل تلك المراكز البعيدة وذلك بالرغم من الحروب والطاعون ومشقة السفر . وسيُثرى المهاجرون من وسط آسيا وبلاد فارس والجزيرة العربية وبخارى وغزنة أماكن مثل الأندلس والعراق وشمال إفريقيا . كما سيتواصل الحوار ما بين بغداد وقرطبة ودلهي والقاهرة .

يزور الرحالة ابن بطوطة في القرن الـ 14 معظم هذه المراكز من نقطة انطلاقه من شمال إفريقيا. ورغم الاختلافات بين الأجناس والأماكن واللغات سيُشعر بوجود وعى مشترك بين تلك الشعوب في مجال الاختراعات والإبداعات.

واستناداً على هذه الخلفية المتكاملة للعالم الإسلامي، والتي اختفت في وقتنا الحاضر سجد العلماء والمفكرون والفنانون دوراً يؤديونه رغم أن هذا الدور سيسقط بين طيات التاريخ الضائع. وسيرسى هؤلاء أسس العالم الحديث. ويعى الأوربيون الأوائل من غير المسلمين كما يعى الناس في كل مكان هذا الدور الكبير، بل تبهرهم تلك الإنجازات حتى ليحفظوا عن ظهر قلب أسماء هؤلاء العلماء والمفكرين وأسماء اختراعاتهم وإبداعاتهم. ولكن مع مرور الزمن ينسونها ويعزون التقدم الذي يشهدونه في العالم الحديث إلى أنفسهم وحدهم.



تجلى عظمة الله فى الأرقام

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

[سورة الجدر 28]

بنجالور، الهند 2007: من فوق ومن بعيد تبدو بنجالور عاصمة ولاية كارنتكا على هيئة شبكة حديثة تقطع جنبات أعشاب وأشجار السافانا الخضراء التى تكسو هضبة الدكن الفسيحة. ويبدو تصميم المدينة غير معتاد بالنسبة لهذا الجزء من العالم، ويرجع ذلك إلى تموجه المنتظم. وخلال موسم الرياح الموسمية يتجمع ركام ضخم من السحب مما يؤدي إلى وقوع العواصف الرعدية فى فترة ما بعد الظهر ويتبع ذلك انهماج الأمطار الغزيرة على النخيل والشجيرات الخفيضة والمباني المربعة والربعيات المخططة التى تنم عن عصر حديث. وتتعلق طبقة من العوادم ضاربة إلى الزرقة وسط درجات الحرارة الاستوائية شاهدة على صخب وضجيج الحركة المرورية داخل وخارج المراكز المختلفة.

وتتم هذه الشبكة عن مدينة لها خصائص غير تقليدية بالنسبة لشبه القارة هذه. ويعود تاريخ بنجالور إلى 500 عام مضت داخل بلد له آلاف السنين من الحضارة غير أن النمو الذى لحق بينجالور حدث فى الثلاثين عاماً الماضية فحسب. ويحتوى المتنزّه العام فسيح الأرجاء على مبنى المحكمة العليا المصنوع على الطراز النيوكلاسيكى من الطوب الأحمر، فضلاً عن الهيئة التشريعية للدولة والمكتبة. تنتشعب شبكة الطرق الحديثة حتى تصل إلى الضواحي المكتظة بسكانها وحركتها وأبراجها التى تتخذ شكل الصناديق، ثم إلى الحدائق المحيطة بالشركات الموحية بعصر الرأسمالية العالمية.

وفى أحد هذه المكاتب التى تطل على متنزه من المتنزهات تكتب فاهميدا خان اللوغاريتم الخاص ببرامج الكمبيوتر المعنية بالبضائع التى تسافر حول العالم وعبر أسعار صرف مختلفة شاملة شيكاغو وسنغافورة. واللوغاريتم عبارة عن مجموعة أرقام حسابية وعمليات إن تمت بشكل منظم تؤدي إلى النتيجة المرغوب فيها. ويعد

اللوجاريتم ضرورياً بالنسبة لتصميم البرمجيات ، كما أنه هام للكثير من العلوم الحديثة والهندسية ، وتسمح للكمبيوتر والإلكترونيات الذكية أن تبحث داخل كم رهيب من البيانات والنصوص الرقمية ، وتحسب العلاقات المكانية كما تشفر وتفك شفرة المعلومات السرية وتقوم بكل عمليات الحساب والتكنولوجيا والتجارة والعلوم الحديثة .

وقد قامت فاهميديا بتأسيس محل البرمجيات الخاص بها ، ويعد من أكبر عملاتها كبار صناع تكنولوجيا المعلومات في العصر الحديث في الهند شأن إنفوسيز ووايبرو ، كما أنها بدأت تحصل على عقود من الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات أيضاً . وقد بدأت تلك الأعمال الهندية أساساً معتمدة على أعمال المقاوله من الباطن التي تقوم بها أمريكا الشمالية وأوربا ، بيد أنه بدأت تتطلع اليوم كى ترتفع لتصل إلى مستوى العمل لتصميم نظام حسابات سلاسل المطاعم العالمية وكتابة البرمجيات وتصميم الأجهزة والدوائر الكهربائية التي ستأتى بالموجة الجديدة من نظام الحسابات العالمى .

واللوجاريتم التي تعمل عليها فاهميديا تحول البيانات المالية إلى لغة تقنية عند نقلها ، كما أنها تعمل على الجانب الآخر ، ألا وهو فك شفرة هذه المعلومات . ويبدو اللوجاريتم غاية في التعقيد بالنسبة للقراصنة واللصوص حتى إن الأمر ليستغرق الآلاف من أجهزة الكمبيوتر الضخمة التي تعمل لسنوات وسنوات كى تجرب كل عملية من عمليات تبديل اللوجاريتم حتى لتصل إلى مكان الرقم العشرى رقم 132 حتى تتبين الكود . إذن فالمحاولة لا تجدى في هذا السياق .

تعلمت فاهميديا مهاراتها في السليكون قالى حيث عملت بعد أن أتمت دراستها في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا . عملت أولاً في هيوليت باكارد جد شركات السليكون قالى ، ثم التحقت بالعمل بعد ذلك في أنظمة أوراكيل . وربما لو قدر لها أن تبقى في أوراكيل لأصبحت الآن نائب مدير أو ربما اعتلت منصباً أعلى من ذلك ، ووفقاً للمدة التي قضتها في الشركة ربما كانت الآن من أصحاب الملايين .

في عام 1998 اتخذت قراراً مصيرياً . فلقد تربت منذ نعومة أظافرها على أن تنظر تجاه الشمال والغرب حيث الدول الغنية في أوربا وأمريكا ، وإلى مراكز التعليم الأجنبية أمثال كال تيك ، غير أنها قررت في نهاية الأمر أن تعود إلى موطنها مضحية بدخلها الكبير ومكانتها المتميزة في المجتمع وفرصها للالتحاق بشركات أخرى ، وقررت العودة إلى الوطن حيث تؤسس شركتها الخاصة .

وقد اتخذ قرار العودة إلى الوطن آلاف من الهنود الآخرين ممن هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، خاصة قرار العودة إلى بنجالور بالتحديد . وبالرغم من أن موجة المهاجرين العائدين هؤلاء كانت تتمثل بوجه أكبر في العاملين في مجال الأنظمة الحسابية والبرمجيات فإن آخرين من الأطباء وأصحاب المشروعات تشجعوا للقيام بنفس الخطوة . وعلى الرغم من أنهم جميعاً قد ضحوا بدخولهم المرتفعة حيث إن أجور العمالة في الهند تنخفض كثيراً وينخفض مستوى الحياة أيضاً فإنهم حظوا بسبل ترفيه أخرى مثل الاحتفاظ بالخدم وهو أمر شبه

مستحيل في أمريكا وأوروبا. وبهذا يستطيعون الحياة على قمة المجتمع الهندي بينما لم يكونوا في المهجر إلا مجموعة من الطبقة الوسطى التي تعيش في مستوى مناسب من الحياة. وبالنسبة لدولة غرقت كثيراً في بحار الاحتلال والاستعمار وتعرضت لفترات مطولة من الركود بفعل الشيوعية، تأتي هذه الطبقة الجديدة بشيء أشبه بثورة اقتصادية لم يتخيلها أحد من الشيوعيين من قبل، ولا يعلم أحد أيضاً إلى أين ستأخذهم.

وأسرة فاهميذا كما يبدو الاسم من الأسر المسلمة بالرغم من أن تفاصيل مكان وزمان اعتناقهم لهذا الدين منسية. ولقد كان أجداد فاهميذا من الموظفين الذين عملوا لدى المغول الكبار ثم البريطانيين. واستقر أجدادها بعد ذلك في بنجالور في عهد الهند البريطانية. وبوصفهم أناساً متعلمين ممن يحيون داخل المدن الكبيرة في أقصى الجنوب فقد كانوا بعيدين نسبياً عن حركات الهجرة الداخلية والصراعات بين الأديان التي تحدثت في الشمال. ولقد وعوا خلال فترة الانقسام في عام 1947؛ قلباً وقالباً فكر غاندى في إحداث التناغم بين الأديان ولم يفكروا أبداً في الانتقال للعيش في باكستان أو بنجلاديش بخلاف عشرات الملايين الذين فعلوا ذلك.

كما أنهم شعروا أن قرارهم هذا له ما يبرره؛ فرويتهم للمسلمين من الهنود وهم ينهضون لاعتلاء أعلى مناصب النجاح والسلطة في بوليوود وفي رئاسة البلاد وفي مجال الأعمال التجارية والترفيه قد جعلهم جد فخورين. كما أسعدهم أكثر كونهم هنوداً في الأساس، وهو أمر يتلج صدورهم.

كما ازداد فخر عائلة فاهميذا عندما رأوها تنتقل إلى كاليفورنيا للدراسة وعندما سمعوا عن النجاح الذي حققته في العمل. وعلى الرغم من أن القلق التقليدي كان يساورهم حول كونها فتاة وحيدة تحيا في بلاد أمريكا البعيدة، وكانوا دوماً يحاولون أن يجدوا لها الزوج المناسب غير أنهم أعطوها منذ البداية حرية اختيار الشخص المناسب.

أما عن بنجالور فقد استولى عليها المغول الكبار في القرن الـ 17 ويعكس معمار ميسور وبيجاپور لب الرؤية الإسلامية بقبابها ومآذنها وأقواسها المدببة التي ترداد أصداء العباسيين والفرس ووسط آسيا، لكن شكل مدينة بنجالور ذاتها لا يبدو إسلامياً ولا حتى ولاية كارناتاكا. ويشكل المسلمون في الهند أقلية رغم أنهم كانوا من الصفوة السياسية الحاكمة لقرون طويلة. كما أنهم لا يمثلون سوى جزء فحسب من النسيج الثقافي والديني لجنوب آسيا. ويمثل الهندوس السواد الأعظم لولاية كارناتاكا وأماكن أخرى. ويحيط بالمكان المعابد الهندوسية مثل بيلور وهامبي، أضف إلى ذلك تأثير البرتغال الذين تاجروا على طول السواحل الهندية لمدة 500 عام، كما أن مستعمرتهم القديمة «جوا» كانت تبعد بضع مئات الأميال غرباً. وتظهر آثار وأساليب الإنجليز حيث كانوا يعتبرون الهند الحجر النفيس الذي يزين تاجهم الاستعماري.

وبينما تتميز بنجالور بالثراء والازدهار فإن اقتصاد دولة مثل الهند ما هو إلا مزيج من الفقر العتيق والرأسمالية العالمية. وعلى الرغم من أن 600 مليون هندي لم تمسهم العولمة بعد ويعيشون على الكفاف بشكل لا يتخيله أى من الغربيين ، فإنك عندما تصل إلى الـ 400 مليون المتبقين أو ما هو أكثر من ذلك تتدرج مستويات الثراء شاملة طبقة وسطى تعد الأكبر على مستوى العالم بأسره .

وقد ساعدت المدارس الفنية الهندية التى ترقى إلى المستويات العالمية فى إيجاد طبقة من الصفوة فى مجال التكنولوجيا تغذى الشركات الضخمة الجديدة مما يساعد فى تحويل هذه الدولة صاحبة الحضارة القديمة إلى رائدة عالمية فى تكنولوجيا المعلومات .

وقد شكل قرار العودة إلى الوطن مشكلة كبيرة بالنسبة لفاهميذا وعائلتها الكبيرة . فبالرغم من أن هذه العائلات تشتاق كثيراً إلى من هاجروا من ذويهم وتنتظر يوم عودتهم بفارغ الصبر فإن آل خان من ناحية أخرى وفيهم والدة فاهميذا أحسوا بمشاعر مختلطة عندما واجهتهم بواقع عودتها إلى أرض الوطن حيث إنهم تشربوا من داخلهم إحساس أن الهند ليست بالمكان المناسب بفعل فترة محدودة فى تاريخهم الأ وهو فترة الاحتلال الإنجليزي التى عززت لديهم الإحساس بأن الأجانب أفضل منهم . فبالنسبة لهم كان الإنجليزي جيدين ، أما الأمريكان فكانوا أفضل منهم . وهكذا دار بين العائلة وابنتهم التاجحة جدل ساخن ومناقشات يعترىها اللبس والحيرة حول سبب عودة ابنتهم ، وتركها كل النجاح الذى حققته .

وبالرغم من أن فاهميذا نفسها قد فكرت فى نفس هذا الكلام وأحست ذات المشاعر ، فإنها لم تبح لهم بذلك . لقد كانت تشعر بالفخر بسبب الدرجة العلمية التى حصلت عليها من معهد كال تك ومن عملها فى هيوليت باكارد وأوراكل ، غير أنها أدركت أنها تحمل فى داخلها نفس مشاعر التحامل بخصوص التعليم ، ولكنها لم تكن تحب أى شىء له أصل بريطانى . كانت تحترم حداثة الحضارة الأمريكية ومدى التقدم الذى أحرزته هذه البلاد عبر فترة زمنية قصيرة ، كما كانت توفى أن أفضل الجامعات ، بشكل مجمل ، هناك بلا منازع .

ولكن عندما رأت فاهميذا لمحة مماثلة من الحداثة فى بنجالور خلال زيارتها ، ورأت المال المتدفق فيها وحدائق المكاتب ، واستنشقت نفس الرائحة المألوفة لديها ، والتقت بالكثيرين من السليكون قالى ، هنالك غيرت رأيها ، حتى إنها اقتنعت أنها بعودتها إلى موطنها والمساعدة فى بناء بنجالور ، قد تساعد فى بناء الهند برمتها بل بناء نفسها أيضاً .

يبقى لفاهميذا ساعة حتى تلتقى بعميلها التالى فى أحد فنادق وسط البلاد . لقد جاءها هذا العميل من بوسطن وقد أبلت شركته بلاءً حسناً . وتنتظر فاهميذا من خلال نافذتها وتتوقع أن تسقط الأمطار قبل أن يحل الظلام ، وهذا مما لاشك فيه سوف يؤثر بالسلب على حركة المرور .

ولا يزال يتبقى أمامها مشكلة حسابية خفية ما إن تحلها حتى تشعر أنها تستطيع أن تترك مكتبها اليوم، وتتنظر أعلى إلى الأرفف وهي تبحث بعينها عن أحد كتبها القديمة التي تعود إلى أيام الجامعة. يحمل الكتاب اسم عناصر اللوغاريتم ويظهر على غلافه الخارجي صورة أحد علماء الرياضيات العرب أو الفرس القدماء ويعرف باسم الخوارزمي وهو عبقرى اللوغاريتم. تعرف فاهميذا أن هذا الكتاب قد ظل على رف مكتبها لفترة طويلة من الزمن ولكنها لاتجده الآن، فهل أخذه أحد زملائها معه وهو يتناول غداءه بالخارج.

تدرك فاهميذا أنها بحاجة إلى هذا الكتاب وتعرف بالضبط الفصل الذي تحتاج إلى قراءته ونادراً ما تلجأ إلى قراءة أجزاء أخرى. وهي لا تتذكر أى شيء عن الخوارزمي ولا يبدو أن للأمر أهمية في اللحظة الحالية. كانت مقدمة الكتاب تحكي عنه شيئاً ربما قرأته هي منذ عشرين عاماً قبل التخرج، ولكنها لا تتذكر بالضبط شيئاً سوى اسمه. ولكن الأمر لا يهم فالتاريخ ذو الصلة في عالم تكنولوجيا المعلومات يعود إلى عامين من الآن فحسب.

ولكن ترى هل فقدت هذا الكتاب؟

بغداد عام 832 بعد الميلاد - هناك خيط من خيوط نسيج التاريخ الضائع مصنوع من الأرقام والحسابات، وتلك الأرقام التي ولدت من محض الخيال سوف تساعد الخيوط الأخرى داخل النسيج على التحول إلى شيء مادي.

إن القوة المحورية التي أوجدت هذه الأرقام والمعادلات تكمن في بلاد فارس وتتجلى مع ولادة رجل فارسي في عام 780 في البلدة القاصية خوارزم في محافظة خراسان بوسط آسيا ويطلق عليه اسم محمد الخوارزمي وتعني أن محمداً من بلدة خوارزم.

كان مسقط رأسه في القرن الثامن على سهل فسيح؛ محطة على طريق الحرير الذي يبدأ أحد طرفيه من الصين ويمتد حتى يصل إلى روما. وبالرغم من أن طرفي هذا الطريق لم يلتقيا في يوم من الأيام بشكل مباشر، فإنه يحدث عبر القرون قدر مناسب من التبادل ما بين العالمين. ويمر كل هذا على خراسان، وفي بعض الفترات يخف هذا التبادل حتى ليضحى مجرد نسمة هواء أو فراشة غريبة تائهة تتعلق في الهواء ليضع ثوانٍ ثم تقذفها الرياح في مكان آخر.

وتقع واحة خيوة (خوارزم) التجارية القديمة جنوب بحر آرال، ويمثل كل من الواحة والبحر ملاذيين من الماء تحيط بهما صحراء كاراكوم التي تمتد أطرافها إلى ما لا نهاية. وتأتي مجموعات مختلفة من أديان ومعتقدات متعددة وتمر عبر الواحة أو تبقى أو تنتهي حتى تدب جذور الإسلام فيها. وتمر قوافل الجمال والخيول وجموع البشر وتخرج من الفراغ اللامتناهي كي تضع بضائعها وتعقد صفقاتها ثم تشرب وتستريح

وتروى قصصها وتتطلع إلى النجوم فى السماء. وتبتلع المساحات الشاسعة البلدة الصغيرة عندما يحل الظلام، أما فى النهار فتبدو كالنقطة الخضراء على وجه كيان أصفر ضخم. وبالرغم من أن خوارزم ستصبح فى يوم من الأيام جزءاً من دول أخرى وإمبراطوريات، فإن جذورها تعود إلى بلاد فارس القديمة. ويحمل الرجل النحيل ذو اللحية والشعر الأسود الطويل روح بلاد فارس بين ضلوعه. وبالرغم من أنه قد سُمى على اسم أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثل الكثير من أبناء المسلمين الذكور، فإن بعض العرب يطلقون عليه اسم المجوسى بمعنى الساحر مما يجعل البعض يعتقد أن ديانتة السابقة أو ديانة أهله كانت الزرادشتية أو عبادة النار. كما أنه بسبب رجوعه إلى نصوص الرياضيات والفلك العبرية القديمة يعتقد البعض أن عائلته كانت من أصل يهودى.

بيد أن من أطلق على الخوارزمى اسم الساحر لم يجانبه الصواب حتى وإن لم يعرف كم كان على حق فى اختيار مثل هذا الاسم. فهذا الرجل داكن الشعر ذو العينين البنيتين الثاقبتين المستقرتين داخل تجويف عميق، والخدين اللذين أضنتهما النحافة والظروف الجوية - هو بالفعل ساحر ولكن فى مجالات أخرى. وحيث إنه تربي فى مكان تمسك فيه الناس بالدين وتقاليد السحر بدأ يبحث فى أسرار الكون ولكن بالأرقام. ويكتب الخوارزمى المسائل الحسابية ويحلم بالأرقام ويحول كل حركة من حركات اليوم إلى رقم حتى عدد خطواته إلى الحمام وزاوية انعكاس شعاع الشمس على الأرض والمثلث الذى يراه هناك ومنحنيات طريق الحرير الذى يمتد حتى منتصف الكرة الأرضية.

ويشعر الخوارزمى أن فى الأرقام والمعادلات والحسابات وفى تسلسلها شفرات الكون المختبئة، وأن هذا التمثيل الرقمى ما هو إلا تعبير عن مدى تعقد الخليفة وإبداع الله عز وجل. وكمسلم وفى وقت يؤمن فيه الناس بأنه يمكن الوصول إلى الله بالعقل والمعرفة سيساعد الخوارزمى فى إحداث ثورة فى عالم الرياضيات، وبذلك يرسل أول إشارة؛ إنه فى يوم ما فى المستقبل عندما يظهر عصر الحاسوب لسوف يتفوق هذا الجهاز على البشر فى سرعته وقدراته مهما كان هذا العقل بارعاً.

وعند تأسيس بيت الحكمة فى عام 832 فى بغداد يرسل الخليفة المأمون بنفسه فى طلب الخوارزمى؛ وذلك للمساعدة فى اكتشاف قدرة الله وإبداعه فى الأرقام. وعندما يصل الخوارزمى إلى بغداد يلتقى بمترجمين بارعين مثل حنين بن إسحاق الذى كان تدريجياً يفك شفرة صيغ إقليدس المعنونة العناصر، والتى تأسست على علم الهندسة الذى طوره فيثاغورس وبطليموس وأفكار أرسطو وسقراط. ويقوم مترجمون آخرون بترجمة أعمال أرشميدس مثل الكرة والأسطوانة ومقياس الدائرة واتزان الأسطح والأجساد الطافية، وكل تلك الأعمال تؤثر على علماء الرياضيات المسلمين بشكل كبير. ويساعد الخوارزمى فى هذا المجهود المبذول حيث إنه يستطيع أن يقرأ اللغة الإغريقية ويحولها إلى العربية.

ويرى هذا الرجل القادم من وسط آسيا علماء في الرياضيات وعلوم الفلك يرتدون العمامات العربية، يعملون في غرف يستخدمون الخرائط والرسوم البيانية التي توضح النجوم والأسطرلاب وأدوات القياس الأخرى ويفكرون في حل المشكلات معاً ويفحصون عمل بعضهم ويتأملون ترجمات بعضهم ويناقشون الأمور بلا نهاية. وبالنسبة لرجل اعتاد العمل وحده حيث إنه ما التقى بعلماء كانوا على مستوى ذكائه إلا نادراً، يفاجأ الآن بكل هذا القدر من الذكاء والتنافس من مجتمع في مكان واحد، الأمر الذي يبهجه ويخيفه في آن واحد. ويتأكد الخوارزمي أن هذه الفرصة لا مثيل لها ومن ثم يقرر أن يستفيد منها أقصى استفادة.

وحتى مع تكشف معارف الإغريق شيئاً فشيئاً وبالتفصيل يوماً بعد يوم، يصمم الخوارزمي على البحث عن علوم الرياضيات أينما وجدها. ولقد سمع عن علوم الرياضيات التي تفوق فيها الهندوس. وإبان تأسيس بلاط الخليفة المنصور كان هناك عالم فلك هندي اسمه كانكا ويقال إن هذا العالم لجأ إلى نصوص هندوسية كتبها عالم رياضيات متوفى هو براهماجوبتا الذي كان يحسب موقع الشمس ومواقع الكواكب ويتوقع حدوث الخسوف وغيرها من الأمور. سمع الخوارزمي الكثير من الكلام عن هذا الكتاب والأسلوب المتبع فيه لكنه لم يستطع العثور عليه. ويقضى أياماً وأياماً يبحث في الأرشيف محاولاً أن يعثر على النص الأصلي ويطلب من أمناء الأرشيف والمكتبة بإلحاح وبلا كلل أو ملل أن يجدوا الأوراق السنسكريتية التي كتبها براهماجوبتا، والتي استخدمها كانكا في يوم من الأيام.

وعندما يعود أمناء الأرشيف إليه مرة أخرى يجلبون معهم الكثير من كنوز الهند، ومن ضمن هذه الكنوز يجد الخوارزمي والخليفة الكتب التي كانا يتوقان إليها وهي عبارة عن المعارف والأفكار المجمعَة لشعوب وحضارات أخرى. كما يجد من بين تلك الكنوز أيضاً كتاباً يعود عمره إلى 200 عام بعنوان بداية الكون. وبالرغم من أن الخوارزمي لا يفقه إلا القليل من اللغة السنسكريتية، فإنه يشعر أن هذا الكتاب هو بغيته ويرسله إلى المترجمين كي يبدءوا أعمالهم على الفور.

ويصبح الاسم العربي لهذا العمل الهندوسي هو السندهند. وتضيع النسخة الهندوسية في يوم من الأيام كما تضيع النسخة العربية لأعمال الخوارزمي غير أن الترجمة اللاتينية لعمل الخوارزمي تبقى.

وبينما كان المترجمون يفكرون شفرة العمل الهندي القديم والأحرف السنسكريتية التي تبدو كالتعويذة السحرية وأسرارها الكائنة في قرار مكنون واحد تلو الآخر حتى تأخذ شكل اللغة العربية المؤلف، يبدو الخوارزمي في البداية كالمصعوق ثم يشعر بالرهبة من تجلي هذه المعرفة وأخيراً الامتنان لعمق إحساسه وروحه. وفي كل مساء ينتظر كشفاً جديداً من كشوف علم الرياضيات. ويستلقى على سطح بيته الكائن فوق بيت الحكمة ليلة بعد ليلة كما كان يفعل وهو صبي صغير في خراسان يشاهد نصف الكرة الأرضية والنجم القطبي والسماء

الوسطى والجنوبية وهي تنحدر نحو أقصى الجنوب. وفي منتصف قاعدة نصف الكرة الأرضية في السماء يفكر فيما قد تعلمه اليوم السابق ويهرب النوم من بين جفونه وهو يترقب كشف الغد.

وبينما تتكشف له أمور لا حصر لها بفعل أقلام المترجمين يجد ما يبهره ويهز جنباته هو ذلك الشكل الهندى الذى يبدو أشبه بالنقطة السوداء أو رأس الدبوس الأسود أو النجم السالب. وتعد هذه النقطة السوداء هي أساس رؤية جديدة برمتها في علم الرياضيات وفي العلوم وفي الكون. فتلك النقطة السوداء، والتي في الأساس تعنى العدم، هي مصدر بناء علوم الرياضيات العليا التي ستنشأ لتوها الآن. إن العدم الذي توحى به هذه النقطة سيصبح مركز مصدر الكون المادى حولنا.

ويشعر الخوارزمى بالوهن من كل هذه المعرفة المتفجرة في رأسه وينهل منها حتى الثمالة ويتأكد من أن الرياضيات ما هي في النهاية إلا إبداع الخالق في هذا الكون. فمن أول اكتشاف النقطة الهندية، والتي ستظهر في عالمنا الحديث على شكل الدائرة المعروفة بالصفير، يرى عدداً غير محدود من المسارات والاحتمالات تتفتح في كل الاتجاهات.

بيد أن كل تلك الأفكار لا تشغل بال الخوارزمى وحده؛ حيث إنه - في بيت الحكمة ومراكز الرياضيات الأخرى التي ستظهر في البلاطات الملكية الأخرى - يحاول العشرات وفي النهاية المئات من علماء الرياضيات والفلك ترتيب الكثير من الأمور والقضايا في أذهانهم، وكل منهم ينظر إلى لغز الرياضيات هذا من زاوية مختلفة. وبلا وعى وبشكل حدسى يخلق رواد علم الرياضيات المسلمون نوعاً من الذكاء الجماعى وهم يتغذون على معلومات بعضهم ويقتبسون ويسرقون من بعضهم ويتنافسون حتى يحصلوا على امتيازات رعاتهم ويقعون في أخطاء جسيمة ويحققون اكتشافات بدیعة.

وبشكل أو بآخر يشبه بيت الحكمة في بغداد والمراكز الإسلامية المماثلة له أول بيوت خبرة في العالم، وهم أشبه بشبكة من الحسابات تستخدم مجموعة منسقة ومتشابكة من العقول البشرية بدلاً من الأجهزة.

ولا يقف الخوارزمى وزملاؤه وحدهم في هذا الزمان أو الحقبة التاريخية، فبجانب الاختراع يستوعبون ويجمعون الكثير من العبقريات التي سبقتهم من البابليين وعبر الإغريق يرثون الكسر الستينى وهو مقياس الوقت الذى يقسم الوقت إلى 60 ثانية و60 دقيقة. ويترجم علماء الفلك المسلمون والعلماء الآخرون تلك الأرقام إلى أجزاء على البوصلة ثم إلى اتجاهات للكرة الأرضية والسماء تظل باقية حتى القرن الـ21. ويأخذون عن الهنود الدلالات الفلكية للأرقام، ومن خلال الفرس ومن الهنود يستوقفهم الصفير ويلي ذلك الوصول إلى علم الرياضيات العشرية وأول دلالات تمثيل الأرقام باستخدام الرموز وليس بالكلمات.

ويلاحظ الخوارزمي من ضمن أمور أخرى أن عملية كتابة الرياضيات تحتاج إلى المراجعة. وفي ذلك العصر كانت هناك ثلاث وسائل لحساب الرياضيات في عالم الخلافة العباسية وضواحيها. فهناك وسيلة العد باستخدام الأصابع وهي وسيلة عالمية وتخدم أغراضاً بعينها مثل المعاملات المالية الصغيرة في عالم الأعمال التجارية. كما أن هناك وسيلة عربية أكثر تعقيداً باستخدام أحرف الهجاء العربية وهي وسيلة أفضل غير أنها لا تلبى الغرض بالكامل.

ثم هناك الأسلوب الهندوسي وهو نظام عشري به رموز تمثل الكميات من 0 إلى 9 ثم تعود لتنظم في تركيبات تزيد وتقل في العالم اللامتناهي من الموجب والسالب من المصدر ألا وهو النقطة السوداء أو الصفر. وتعد الأرقام الهندوسية هي الأفضل على الإطلاق وهي الوحيدة الأنسب لكل الاحتمالات التي يراها الخوارزمي وأقرانه وخلفاؤه تتراقص في أذهانهم، فمثلاً احتياجهم إلى حساب مساحة غير منتظمة الشكل أو إيجاد الكميات الناقصة باستخدام العلاقات ما بين تلك المعروفة واحتساب العلاقة ما بين الأرض إلى الشمس والنجوم، وذلك لتحديد التقويم بشكل أفضل والأيام الدينية كما أمرنا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه بالإضافة إلى معرفة موقع مكة المكرمة حتى يصلى المؤمنون في اتجاه القبلة وهم واثقون أنهم على صواب وليست مسألة تخمين للقبلة فحسب. ويصبح نظام الأرقام الهندوسي الإسلامي التراكمي ضرورياً للخروج بنظرية جديدة حول درجات الانحناء تبين كيفية حل مسألة وجود زوايا مختلفة أو منحنيات في كونين مختلفين. ويساعد النظام الرقمي الجديد في الإجابة عن المسائل الرياضية المتضمنة في المساحات أو المساط مخروطية الشكل. كما تصبح الأرقام العربية الهندوسية ضرورية للإجابة عن الأسئلة التي تظهر في القرن الـ21 بخصوص سلوك الضوء وخصائص الأجسام الصلبة. ولن يتسنى للتكنولوجيا والحضارة الحديثتين أن تنهضا وتتطورا بدون تلك الأرقام.

وفي عقل الخوارزمي وفي النظام الهندوسي يدور الكل في مدار نقطة العدم. لقد اكتشف براهما جوبتا الصفر وحاول أن يدل على خوائه وأن يكشف غموض المعادلة المكتوبة، كان أول عالم رياضيات على الإطلاق يحاول استخدام الصفر في القسمة. وكتب الحقيقة المطلقة عن الصفر، ألا وهي أن صفراً مقسوماً على صفر يساوي صفراً. وبالرغم من أن فكرة هذه القسمة فكرة خاطئة فإنها غير مستحيلة. لقد كانت دائماً لدى براهما جوبتا الرغبة في التفكير بطريقة جديدة، الأمر الذي أطلق شرارة من العبقرية إلى العلماء المسلمين وأوقدت شعلة الفكر.

وبعد مرور 200 عام على إبداعات براهما جوبتا يستلقى الخوارزمي على سطح بيته ويضحك في نفسه، ففكرة قسمة الصفر على الصفر تبدو غريبة ولا تثبت أي شيء وتنطلق ضحكته عالية على ذلك حتى تكاد توقظ النائمين. وتنادى عليه إحدى فتيات الليل متسائلة إن كان يريد صحبة في هذا المساء، فهي لم تعند سماع مثل هذه

الضحكات العالية تصدر عن ذلك الرجل الأسمر الوسيم ، غير أنه يتوه في أفكاره ولا يرد عليها .

ويدرك الخوارزمي أن الصفر واقع لابد من قبوله والإيمان بوجوده ، غير أنه لا يمكن إثباته ويرى في ذلك كله سخرية لاذعة ، ومن ثم يقرر أن يشرك راعيه المأمون في أفكاره هذه ، ويعتقد الخوارزمي أن القيمة النهائية لعلم الرياضيات العقلية هي من وحى إلهام بحت من الله - جل جلاله - الذي يتكشف لك وجوده بالوحى وليس بشيء يمكن عدده واحتسابه .

وبمعنى آخر ، فإن علم الرياضيات المبني على كمية مستوحاة غير مثبتة يعنى أن أرسطو كان على صواب كما ظهر في حلم الخليفة . إذن فالوحى والعقل هما نفس الشيء وهما يبدأان من نفس النقطة ، وكل شيء آخر في الكون يدور حول هذا المدار .

ومنذ يوم انكشاف الأسرار الهندوسية وحتى نهاية حياة الخوارزمي يعمل هو وزملاؤه وأتباعه على رفع مستوى علم الرياضيات حتى يصل إلى المستوى الذي كان عليه أيام الإغريق والهندوس ثم يرتفع إلى ما هو أعلى من ذلك . فكما قام العباسيون والأمويون باستيعاب كل الهندسة المعمارية واللغات والفنون والأساليب التي أتت بها الشعوب المختلفة التي خضعت لحكمهم ، يقوم الخوارزمي باتباع نفس المنهج في مجال الرياضيات؛ حيث يشرع في عملية متواصلة من استيعاب علوم الإغريق والبيزنطيين والهنود ويدمج هذا العلم داخل مستوى جديد أكثر تقدماً ورقياً .

وتأثراً بكتابات هؤلاء الذين سبقوه إلى هذا العلم وبدءاً من أعمال براهماجوبتا يشرع الخوارزمي في كتابة أعماله هو . وبوفاته في عام 850 يكون قد كتب كتاباً

عن الحسابات الجبرية وآخر عن الفلك وثالثاً عن الجداول الفلكية كما يكون قد صحح نظريات بطليموس وخرائط العالم . أما عمله الأساسي في مجال الجغرافيا ، والذي ارتكز على أعمال بطليموس فيقدم خطوط العرض وخطوط الطول لأكثر من 2400 مكان في العالم شاملة المدن والأقاليم والمحيطات والأنهار وسلاسل الجبال؛ وبذلك يرسي أساس خريطة العالم . ويتميز عمله عن عمل بطليموس بالدقة



طابع سوفيتي لإحياء ذكرى الخوارزمي عالم الرياضيات في القرن التاسع ، والذي يعود أصله إلى خوارزم (خيوه) وهي أوزبكستان في وقتنا الحاضر .

الشديدة، خاصة داخل الأراضى الإسلامية وإفريقيا وآسيا. كما يكتب الخوارزمى كتابين آخرين؛ أحدهما عن الأسطرلاب والآخر عن الساعة الشمسية، إضافة إلى كتاب عن التقويم العبرى.

وكما جرت العادة فى تلك الأيام، فالدليل على عبقرية هذا الرجل يضيع على المستوى العالمى. ولكن عندما تبدأ ترجمة أعماله إلى اللغة اللاتينية كى يستفيد منها الأوربيون يكون قد مر على وفاة هذا العالم 300 عام. وبالرغم من هذه الفترة الطويلة التى تمر على كتابة كتبه، فإن الأوربيين لم يروا لها مثيلاً فى مجال الاستفادة من القدماء بل والبناء على أفكارهم أيضاً. وتدهشهم اكتشافات هذا العالم الفارسى الذى مضى على وفاته وقت طويل، كما أدهشت هذا العالم من قبل إنجازات الهندوس السابقين.

وحتى حلول القرن الـ 16؛ أى بعد مضى 700 عام على وفاة الخوارزمى، يحترم الأوربيون ويقدرّون كل ما كتبه هذا العالم ويعتبرونه من المسلمات حتى الحواشى السفلية لكتاباتهم تحتوى على ملحوظة «كما قال الخوارزمى»؛ أى أن كل حساباتهم قد تأسست على إيمانهم بكل علوم هذا العالم الفارسى. وتصبح الأعمال المترجمة للخوارزمى أساس كتب الرياضيات والفلك فى الجامعة فى أوروبا والعالم الإسلامى.

ورغم كل ما سبق تصبح أهم إنجازات الخوارزمى هى وضع الصفر فى مركز عالم الرياضيات حيث تحيط بها القيم الحسابية بالموجب والسالب فضلاً عن تعزيز دور الأرقام الهندوسية كحل وحيد لتمثيل أكثر القيم الحسابية تعقيداً وأكبر العمليات التجريدية. ومن ثم تضحى تلك الإنجازات الكبيرة والأساسية أمراً شائعاً مسلماً به لدرجة اختفاء أصوله. وفيما بعد يتذكر الناس هذا الرجل بعمله المتميز فى علم الجبر وهى الكلمة التى اقتبست من كتاب هذا الرجل المعنون «الجبر والمقابلة».

وفى كتابه هذا يكتب الخوارزمى أنه يرغب فى أن يعبر للقارئ عن:

... لطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه فى مواردتهم ووصاياهم وفى مقاسماتهم وأحكامهم وتجارتهم، وفى جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه.

وقال أيضاً:

وقد شجعنى ما فضل الله به الإمام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التى حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها، من الرغبة فى الأدب وتقريب أهله وأدناهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستتبهما

وتسهيل ما كان مستوعراً، على أن ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً حاصراً للطيف الحساب وجليله (12).

وتعنى كلمة «الجبر» «التعويض» أى الإشارة إلى نقل القيمة المطروحة إلى الناحية الأخرى من المعادلة، أما المقابلة فتعنى «المقارنة» وتعنى طرح كميات متساوية على ناحيتى المعادلة.

ولكن يبقى السؤال عن سبب ربط ذلك الاكتشاف باسمه بالرغم من أن أساس الصفر والأرقام المتطورة لم يتم ربطها باسمه؟ يرجع ذلك إلى أن الجبر سيكون أول وأعظم خطوة فى فصل مصدر الرياضيات عن كل ما هو مادى ومتحرك إلى كل ما هو تجريدى بحت.

وحتى هذا الزمان كان الكل يبجل الإغريق بسبب إنجازاتهم فى مجال الهندسة، وتعنى كلمة الهندسة باللغة الإغريقية «قياس الأرض» ولكن الهندسة كانت أرضية ومادية، فهى تعنى المساحات التى توصف فى بعض الأحيان باستخدام بعض المصطلحات التجريدية، غير أنه كان من الممكن دائماً اختصارها فى الواقع المادى سواء كان قطعة من الأرض أو كان جانباً من جوانب البيت أو شكل نصف الدائرة الذى اشتهر به المدرج الإغريقى.

أما عالم الرياضيات الخوارزمى فيؤسس نظاماً يقدم المفتاح الذى يبدأ فى فتح كل أسرار الكون. فأرقامه وطرقه الجديدة فى الحساب ستساعد على بناء الأبراج التى ترتفع إلى مائة طابق فضلاً عن الجسور التى تمتد على مسافة الميل وحساب النقطة التى يلتقى فيها مسبار الفضاء مع مدارات أحد أقمار كوكب المشترى وتفاعلات الفيزياء النووية والعملية الخلوية للتكنولوجيا الحيوية والبحوث الدوائية والتسويقية وحساب التفاضل والتكامل للاقتصاد العالمى ولغة وذكاء البرمجيات وسرية المحادثات على الهواتف المحمولة.

ولكن فى يوم من الأيام ينسى الأوروبيون - ويليهم العالم - هذا الرجل أو إنجازاته رغم أنهم لا يزالون يستخدمون اسمه فى كلمة لوغاريتم. ويتوقفون عن الاعتراف بفضل هذا الرجل عليهم، بل ما هو أشد من ذلك هو أن بعض مؤرخى علم الرياضيات الأوروبيين الذين يتذكرون اسمه ينكرون مقدار عظمتة.

إن تاريخاً ضائعاً يستطيع أن يقوم بأشياء غريبة حتى فى علم الرياضيات، فيستطيع أن يحرم المخترع حقه ويجرئ المستفيد عليه فيبدو الأمر أشبه بالصيغة الحسابية التى تبنى على افتراض مغلوط، ومن ثم يصبح التاريخ الذى يمتلئ رداؤه بالثقوب أشبه بالخلطة التى يعثرها اللبس وتملؤها الأخطاء.

بيد أن الجانب المشرق لهذه القصة هي أنه بعد وفاة الخوارزمي تشع دائرة الاختراعات الإسلامية حتى يمتد نورها خارج مركز بغداد وتلمس حياة العشرات وفي النهاية المليارات. ويتوافد علماء الرياضيات العرب والمسلمون من العراق ومن بلاد فارس ومن الشرق من مصر وسوريا والأندلس، كلهم يسعون إلى فك شفرة لغز هذا الكون باستخدام الأرقام. وكما هو الحال مع أعمال الخوارزمي وعلماء الرياضيات بالهند، فعلم الرياضيات المتقدمة للمسلمين لن تنفصل في أغلب تاريخها عن علوم الفلك وتحديات قياس المكان والزمن باستخدام مواقع الأرض والقمر والنجوم؛ مما يؤدي إلى الخلوص إلى صيغ رياضية أكثر تعقيداً.

وحتى عندما يسعى المفكرون المتطورون في شرح حركة مواقع وأشكال الكرة الأرضية والسماء يبحثون أيضاً عن الإجابات الخفية والإشارات الخاصة بالألغاز والألعاب الرقمية وعن صيغ متماثلة تكشف عن متقابلات ومركبات من الأرقام التي حين يتم تربيعها وتكعيبها تكشف عن أنماط وقابلية للتنبؤ.

وتعد إحدى الأسر المؤثرة في حساب علم الفلك هي «آل ثابت» فقد أنجبت هذه الأسرة ثلاثة أجيال من علماء الرياضيات والفلك. ويعود تاريخ هذه العائلة إلى البلدة القديمة حران ثم تنتقل إلى العراق ويجيدون تحدث الإغريقية والسريانية. أما مؤسس هذه الأسرة فهو ثابت بن قرة وهو ليس بمسلم، فهو على مذهب الصابئة الذين يعبدون النجوم على اعتقاد أنها تمثل للأسماء اللامتناهية لله سبحانه وتعالى. كما استوعبت هذه الأسرة الكثير من الثقافة واللغة الإغريقية ومن ثم يؤدون دوراً كبيراً في ترجمة الكلاسيكيات الإغريقية.

وفي حديث يرويهِ الببليوغرافي النديم بعد مرور قرن من الزمان على وفاة المأمون يصف فيه دخول الصابئة إلى بيت الحكمة بالغريب. وفي القرن التاسع بينما يزحف الخليفة المأمون وجيشه شمالاً نحو بيزنطة يمر بالصابئة في المكان الذي نعرفه في وقتنا الحاضر باسم تركيا. ويعقد مناظرة مع كبار حكماء هذه الطائفة كي يحدد ما إذا كانوا من «أهل الكتاب» الذين تحق لهم الحماية أم ديانتهم من الأديان التي لا تجوز لها الحماية، وعلى هذا ينبغي أن تعتنق الدين الحق. ولكن ما يثير الكثير من اللبس هو أن تلك الطائفة تتبع بعض العناصر الموجودة في الدين اليهودي وعناصر أخرى من الدين المسيحي ويقرءون من كتاب مقدس. وفي نهاية الأمر يخبرهم المأمون أنهم ليسوا ممن تجوز لهم الحماية، ومن ثم عليهم أن يتحولوا إلى الدين الإسلامي أو يواجهوا الموت، ويمهلهم فترة من الزمن حتى يعود من حملته الشمالية ضد البيزنطيين كي يقرروا ما هم فاعلون.

وبينما يحارب المأمون في الشمال يتشاور الصابئة بكل ما أوتوا من قوة مع المحامين ورجال الدين . ويستغرقون في قراءة القرآن حيث يجدون عدة آيات تشير إلى مجموعة محمية من الناس يعرفون باسم «الصابئون» . وبالرغم من أن مجموعة لاحقة من العلماء ستخلص إلى أن الرسول نوه إلى جماعة أخرى في الجزيرة العربية تحمل نفس الاسم ، فإن الصابئة يتبنون بسرعة نفس الاسم ويزعمون أن لهم حق الحماية .

وهكذا بعودة المأمون إليهم يقدمون حجتهم ويمنحهم هو الحماية ويدعو مفكريهم إلى بيت الحكمة .

ومن بين المجموعة التي يدعوها المأمون لزيارة بغداد ثابت بن قرة . كان ثابت يعمل كصراف في شبابه ، غير أنه تلقى تعليمه فيما بعد في مجال علوم الرياضيات المتقدمة . ويعمل في مجال القطع المكافئ وتقسيم الزاوية إلى ثلاث قطع متساوية والمربعات السحرية وهي عبارة عن سلسلة من الأرقام مثبتة في مربع بحيث يكون مجموعها واحداً سواء أجمعت عمودياً أو أفقياً أو قطرياً .

ومن المشكلات التقليدية التي يواجهها العلماء - الذين يساندتهم المفكرون المسلمون مثل ثابت بن قرة هي تلك المشكلة المعروفة باسم رقعة الشطرنج ، وتظهر هذه المشكلة في كتب المسلمين كمثال على التسلسل الآسي . فالرجل الذي اخترع لعبة الشطرنج يطلب من حاكمه أن يسدى له خدمة ألا وهي أن يضع في أول مربع من مربعات رقعة الشطرنج حبة قمح ، ويضاعف هذا الرقم في المربع التالي؛ أي يضع حبتين فيه وأربع حبات في المربع الثالث وثمانية في المربع الرابع ، وهكذا حتى يملأ المربعات البالغ عددها 64 مربعاً . وتكون النتيجة النهائية رقم لا يُسَبَرُ غَوْرُهُ . وهكذا تصبح النتيجة المستنزفة للعقل كما حسبها البيروني كالاتي:

18 ، 446 ، 744 ، 073 ، 709 ، 551 ، 615

ويعمل إبراهيم حفيد ثابت بن قرة في مجالات مثل الحركة الظاهرية للشمس والقياس الهندسي للظل ، ويؤدي به هذا إلى بلوغ أهم أعماله في مجال القطع المكافئ استناداً على كتابات جده وكتابات الآخرين ، ويستطيع أن يخلص إلى وسيلة تمثل المساحات المنحنية كمربعات لها نفس المساحة المكافئة .

ويظهر عالم آخر في الرياضيات من منطقة الصابئة وهي تركيا في عهدنا الحديث ويطلق عليه اسم البتاني . ويعكس اسمه المسلم اعتناق الصابئة للإسلام في نهاية المطاف . يعمل والد البتاني في صناعة الأدوات الفلكية في حران ، وهكذا يحذو الابن حذوه ويعمل في مجال مشابه لوالده .

وقبل ظهور التليسكوب وأجهزة الحاسوب بفترة طويلة يقوم البتاني ببعض

الحسابات الفلكية الهامة، فجانب كتابته قائمة عن 489 نجماً، بحسب البتاني طول السنة ويحددها بـ 365 يوماً و 5 ساعات و 48 دقيقة و 24 ثانية، وتختلف دقة حساباته مجرد عدة دقائق فحسب عن طول السنة التي تحسبها الساعات الذرية والتلسكوبات فيما بعد.

ويحدد البتاني أيضاً مواعيد الاعتدال الربيعي أو الخريفي وهي عبارة عن حركة غربية لمراكز خط الاستواء تتسبب فيه الجاذبية الأقوى للشمس والقمر على الكتلة المادية لخط الاستواء، وبذلك تقل الفترات التي تلتقي بها الشمس مع خط الاستواء عن فترات أخرى بالعام. وبحسب هذا العالم مقدار ميل الدائرة الظاهرية لمسير الشمس وميل محور دوران الأرض المتناسب مع المجال الذي يقطعه مدار الشمس مع الكرة السماوية. وبدلاً من أن يستخدم الوسائل الهندسية مثل بطليموس في حساب هذه الأرقام يخترع علم المثلثات.

وهناك عالم آخر في علوم الرياضيات هو النيريزي الذي ولد في القرن التاسع في وسط بلاد فارس. وبناءً على عمل أسلافه ومعاصريه يكتب النيريزي كتاباً حول كيفية استخدام علم المثلثات في حساب اتجاه الحرم المكي؛ أي الكعبة، حتى يتسنى للمؤمنين معرفة اتجاه القبلة التي يستقبلونها خمس مرات في اليوم أثناء صلاتهم. ويلغى استخدام علوم الرياضيات المتقدمة أي تخمين في تحديد موقع القبلة خاصة في أثناء السفر. وأهم من ذلك أن هذا الاكتشاف يفتح الباب لاستخدام علم المثلثات في عمليات أكثر تعقيداً خاصة بتحديد المواقع الجغرافية.

ويبدو أن عالم الرياضيات السورى الإقليديسى الذى يعمل فى دمشق هو أول من تحدث عن الكسور العشرية فى علم الرياضيات الإسلامى، الأمر الذى مهد الطريق لمجموعة أكثر تعقيداً ودقة من الحسابات الرقمية ومعالجة المعلومات بالكمبيوتر. وتستكمل الكسور العشرية تحديث وانسيابية الرياضيات الإسلامية التى تبدأ بالصفير والأرقام الهندوسية حيث كانت أرقام الخوارزمى غير العشرية تبدو بائدة؛ وذلك لأنها كانت تعود إلى أيام البابليين والقدماء المصريين وثقافات أخرى. وكانت هذه الأرقام غير العشرية مناسبة لوقتها. ولكن بعد أعمال الإقليديسى تنتهى الأرقام غير العشرية من علوم الرياضيات المتقدمة وتترك بذلك وراءها نظاماً أكثر وضوحاً ودقة.

وعلى نفس القدر من الأهمية الذى تحدثه اكتشافات المسلمين فى علوم الرياضيات والهندسة المتقدمة وترسى حجر الزاوية الفكرى بالنسبة لمجالات أخرى ذات صلة مثل الفلك والعلوم التجريبية - تضع أيضاً لبنة لمنهج هندسى متميز يتجلى فى الفن والمعمار الإسلامى. وحيث إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يحبذ الفن التصويرى، فقد كانت نزعة المسلمين التجميلية تميل إلى العلوم الشرعية

والمدعومة من جانب العائلة المالكة مثل الحساب والفلك . تُستبدل بالزخارف السابقة شبه البيزنطية والرومانية للأمويين في دمشق المثلثات المتداخلة والشكل المسدس وتساعى الأضلاع والنجمة التي تمثل الفن الإسلامي الكلاسيكي الذي يظهر فيما بعد في بغداد وتدرجياً ينتشر في بقية مراكز التميز . ويعقد علماء الرياضيات المسلمون في بغداد وأماكن أخرى في العالم ورش عمل مع الحرفيين والمعماريين موضحين فيها كيف يمكن عمل الأشكال الهندسية وتحويلها إلى رسومات بارزة من البلاط تزين المساجد والقصور والفيلات والمباني الأخرى .

ويوفر رجل فارسي يدعى أبو الوفا يعيش في بغداد في القرن العاشر أدلة كى تساعد الحرفيين والمعماريين في رسم الأشكال الهندسية على المباني التي يشيدونها . كما يبدأ أبو الوفا أيضاً في تحديد معالم عالم جديد من التعبير من خلال ترجمة الوقائع الرياضية، خاصة الهندسية، داخل وسط جديد من التعبير الفني والزخرفي .

بيد أن ما سبق لا يعدو كونه إسهاماً بسيطاً لرجل اشتهر بكونه أفضل عالم رياضيات مسلم في القرن العاشر . ويكتب أبو الوفا شروحاتاً لمؤلفات الخوارزمي وعالم الهندسة الإغريقي إقليدس وعالم الرياضيات البيزنطي ديوفانتوس . كما يؤلف كتاباً عن علم الحساب العملي ويخلص بحلول للمشكلات الهندسية بفتحة واحدة من فتحات البرجل . كما سيبين كيفية بناء مربع مساو لمربعات أخرى وكيفية عمل أشكال متعددة الجوانب . وأهم من ذلك يرسى أساس علم المثلثات ويقدم وسيلة أكثر كفاءة في حساب جداول جيوب الزاوية . ويبدو أيضاً أنه أول من حسب القاطع ، والذي سيطلق عليه فيما بعد اسم «قطر الظل» وهو إبداع تضيع تفاصيله ما بين صفحات التاريخ وربما يعزى إلى كوبرنيكوس بعدها بـ 600 عام .

وكل هؤلاء الرجال متعاونون في أغلب الأحيان ومتنافسون في بعض الأحيان ، ومرات أخرى في شبه عزلة يعملون كى يكتشفوا الشفرات الخاصة بمصدر الرياضيات التي تضع اللبنة لحسابات الأرض المستقبلية . ويبدل العشرات منهم بل المئات الجهود الحثيثة ، ومعظمهم ليسوا أفضل من غيرهم ، والكل يسعى ويأمل في أن يحصل على عباءة الخوارزمي رغم أن قلة منهم يستحقونها ، غير أن النتيجة النهائية تتمخض عن ظهور عمل ضخم في مجال الرياضيات بعضه مغلوط والآخر مشتق عن أعمال أخرى والجزء الأكبر منه إبداعي .

ويعد علم الرياضيات ركيزة الفكر في العصور الذهبية الإسلامية ويليه في ذلك عصر النهضة الأوروبية . وعلم الرياضيات هو علم عقلى بحث تدفعه الرغبة في كشف أسرار النجوم . ويليه الإبداع في مجالات أخرى عديدة .

ويمر الآن أكثر من قرن على وفاة الخوارزمي ويقول البعض إنه كان الأعظم وإنه لا نظير له .

بيد أنه في نهاية القرن العاشر يظهر شاب في البصرة المدينة العراقية الجنوبية، وهو في البداية لا يختار العمل في مجال الرياضيات بل يذهب للعمل في حكومة الخلافة، والتي تكون قد انتقلت في هذا العصر إلى يد أسرة البويهيين الحاكمة التي امتد حكمها لفترة قصيرة من الزمن حيث سيعلو شأنهم في بغداد من عام 945 حتى 1055 .

يطلق على هذا الشاب اسم ابن الهيثم وفي يوم من الأيام سينافس سلفه الخوارزمي . ويستفيد ابن الهيثم من كل اكتشافات من سبقوه ويؤلف قرابة الـ 200 كتاب في موضوعات مختلفة كما سيضع حجر الزاوية للنظريات الرياضية والبصرية التي ستمكن علماء مثل جاليليو وكوبرنيكوس من فهم العلاقة الحقيقية بين الأرض والنجوم السماوية الأخرى فضلاً عن حجم الكوكب نفسه .

بيد أن كل ذلك لم يحدث بعد ولسوف يحدث عندما يبلغ ابن الهيثم سن الرشد .

يقع مسقط رأس ابن الهيثم في البلدة المستنقعية التي تطل على نهري دجلة والفرات، وتعد هذه البلدة ملتقى للعرب وكل هؤلاء الذين يبحرون إلى المدينة التي تطل على الميناء . وترتفع أشجار النخيل على ضفاف النهر وتلقى بظلالها على أفنية الدور المخفية . وكحال الموانئ بصفة عامة تعتبر البصرة مكاناً تختلط فيه الأجناس؛ مكاناً يصعب فيه التمسك بكل ما هو مطلق أو جامد، فالارتجال والاختلاط هما القاعدة السائدة . ولكن بالنسبة لصبي يشاهد المدينة المترامية من حوله وخلف غموض الحياة في البصرة تكمن الشفرات والقواعد الرياضية .

وفي هذا الملتقى الذي يأخذ شكل الصحراء ويبدو نهره كالمرآة وتنعكس أشعة الضوء فيه خلال الضباب والسحب وشمس الصحراء الساطعة، يلاحظ ابن الهيثم التفاعلات المرئية ويتساءل بينه وبين نفسه . وتأسر لبه تلك الزوايا والمساحات التي توجد في الفضاء الواسع والقواعد التي تحكم انكسار الضوء وانعكاسه .

ويجذبه أكثر من أي شيء آخر الضوء وتدفعه الرغبة في اكتشاف المزيد عن أسرار هذا الضوء . ولكن ترى ما هذا الضوء؟ وفقاً لبحوث بطليموس الفلكية وكتاب المجسطى فالضوء هو شعاع يخرج من عين الرائي ويرتطم بالشئ المرئي . ولكن ترى هل هذا صحيح؟ وهل لنا أن نسلم بكل ما يقوله الإغريق القدماء؟ هل أفكارهم هي أفضل ما تم التوصل إليه بخصوص الحقيقة العقلية أم أنهم يخطئون أحياناً؟

ويقرر أن ينحى هذه الأفكار جانباً ليوم آخر . وبعد أن ينتهي ابن الهيثم من

تعليمه الحكومى وينجح مع مرتبة الشرف، يرتقى المناصب بسرعة فى السلم الحكومى. وفى نهاية المطاف يتولى منصب كبير وزراء البصرة وهو منصب غاية فى الأهمية يسعى إلى اعتلائه الكثيرون ويقع بين مستوى وظيفة المحافظ والعمدة. ويترتب على ذلك ضرورة مراجعته لكل جانب من جوانب مركز التجارة هذا. وحتى يتسنى لابن الهيثم التوافق مع الطبيعة الدينية للخلافة فى عصره عليه الانغماس فى القراءات الخاصة بعلوم الدين والمناظرات والخلافات الدينية وأن يواصل المراوغة فى قضية الوحي. ويقوم بذلك كجزء من واجباته لفترة من الزمان.

بيد أنه فى لحظة من اللحظات يشعر وكأنه قد أخذ كفايته من ذلك كله. وكما يحدث مع الكثير من العلماء التجريبيين يستنتج أن كل هذه الأنواع من الشقاق والحوار بين الفلاسفة الدينيين ليس بالضرورة صحيحاً. فكيف ندرك وجود الله العلى الكبير المتكبر جل جلاله بالعقل البشرى وحده؟ وكيف يمكن أن نثبت نظريات الخبراء حول الألوهية والإيمان؟ ومع الأسف فالرسول، صلى الله عليه وسلم، غير موجود للرد على كل تلك الاختلافات، ومن ثم يبدو الجدل عقيماً بالنسبة له. وفى مرحلة ما يقرر الانسحاب من مجلس مناقشة علوم اللاهوت.

وبدلاً من كل ذلك يقرر وزير حكومة الخليفة، العبقري ابن الهيثم أن يجد ملاذه مثل الخليفة المأمون والكثيرين من العلماء ممن يراعاهم الخليفة - فى أفكار أرسطو. ويجد فى المذهب العقلى السبيل إلى الله. ويحول ابن الهيثم اهتماماته إلى العلوم التجريبية ويقرر الاستقالة من منصبه الحكومى. وبالرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنه بذلك قد ارتكب خطأ فادحاً بتنازله عن موقع القوة والنفوذ الذى كان يتمتع به ولكنه لا ينظر إلى ما فاته أبداً. وعبر السنوات التالية تزداد مهاراته العلمية ويذيع صيته خارج البصرة إلى بغداد فالعراق.

بل إن شهرة ابن الهيثم تسبقة إلى خارج الخلافة فى بغداد. وإبان هذه الفترة تكون أراضى الخلافة قد تقلصت كثيراً على المستوى الجغرافى حيث أصبح الأمويون يحكمون الأندلس والفاطميون يحكمون شمال إفريقيا. وتصل شهرة ابن الهيثم وبعده عن مجالس الشقاق والاختلاف الدينى التقليدى إلى القاهرة عاصمة جماعة الإسماعيليين الفاطميين والخليفة هناك هو الحاكم بأمر الله الذى اعتلى العرش منذ أن كان عمره 13 عاماً.

ومن بعيد يبدو الحاكم بأمر الله أشبه بهارون الرشيد والمأمون. وللحاكم بأمر الله رؤية ضخمة وعظيمة فهو يحكم الجزء الأكبر من الخلافة العباسية القديمة ولديه نهم كبير لجمع أعظم المفكرين والمخترعين إلى القاهرة. وينوى الحاكم بأمر الله أن يحكم العالم بأسره فى يوم من الأيام ويجعل القاهرة أعظم المدن.

ولكن من قريب يشكل الحاكم بأمر الله معضلة ويتجادل عليه المؤرخون لآلاف السنين ، بعضهم يرى أنه قد أسىء فهمه وهو حاكم غريب الأطوار بعض الشيء كرس نفسه لتحقيق التفوق الفكرى والتسامح الدينى ، أما البعض الآخر فيرى أنه كان حاكماً ضالاً ، وفى أغلب الأحيان مختلاً عقلياً بسبب نوبات القسوة وعدم التسامح التى كانت تنتابه . ويغيم على التاريخ الضائع التنافس الشديد وغياب الثقة بين أصحاب المذهب الرئيس وهم السنيون الذين يتجسدون فى الحكم العباسى برؤيته العالمية ، وأصحاب الرويا البديلة الإسماعيليين الفاطميين الشيعة . ويقف الحاكم بأمر الله ذو الشخصية المبهمة فى منتصف الخلاف بينهما . وخلال الجزء الأكبر من التاريخ يقبل الناس برأى السنيين فى الحاكم بأمر الله ويعتبرونه هو الرأى الصواب ، بل ويشتهر باسم الحاكم المجنون .

وبالرغم من أن منتقدى الحاكم بأمر الله يؤكدون أنه كان حريصاً كل الحرص على حب العلم والمعرفة ، فإنه كان فى ذات الوقت طاغية يدخل فى نوبات شديدة من الغضب لدرجة أنه يصبح متعصباً فى الدين . ويحكون عنه أنه فى إحدى المرات يستفزه نباح الكلاب فى قرية الفسطاط التى تقع فى ضواحي القاهرة حتى إنه يدمر القرية ويقتل كل الكلاب . ويزعم المؤرخون أيضاً أنه كان يأمر بلاطه بالنوم نهاراً والعمل ليلاً . ولأسباب لا يعلمها إلا هو يحرم الشعب من تناول أنواع معينة من الخضراوات والطبق المصرى الرئيس ، ألا وهو الملوخية .

كان الحاكم بأمر الله يقوم بجولات ليلية وحده وهو يمتطى ظهر حصانه ويجوب الصحراء خارج مدينة القاهرة معرضاً بذلك حياته للخطر فى عصر تهزه الخلافات السياسية ، ولا يعرف أحد سبباً لذلك ؛ فهل كانت شياطينه تدفعه للقيام بمثل هذه الجولات أم حبه لمراقبة النجوم فى السماء؟ ويقول عنه نقاده أيضاً إنه كان يذبح أعداءه دون أن تهتز شعرة فى جسده ولا تطراً على باله أبداً فكرة العفو أو المصالحة كما كان يعذب أعداءه قبل أن يعدمهم . ورغم أنه يبدأ حكمه كصديق للمسيحيين واليهود فإنه بعد فترة ينقلب ضدهم . وأكبر دليل على ذلك أنه يدمر كنيسة القيامة وترمز الكنيسة للمكان الذى دفن فيه المسيح ومن ثم فلها قدسية كبيرة بالنسبة لمسيحيى أورشليم .

ويقولون عنه إنه حرم لعب الشطرنج - غالباً - لأنه لم يكن يجيد لعبها . ويصبح بلاطه مكاناً يخشاه الجميع ويتوقف وزراء الخليفة عن الذهاب إلى العمل حيث يخافون أن يشعلوا فتيل غضبه وانتقامه .

وبالرغم مما سبق سرده فإن رؤية جديدة للحاكم بأمر الله تبدأ فى التجلى فى منتصف القرن العشرين . فاستناداً على روايات إسماعيلية ويهودية ومسيحية وشيعية يقدم المؤرخون صورة أفضل عن هذا الخليفة الفاطمى ، بل إن إحدى صور المديح

اليهودى سوف تجعل الحاكم بأمر الله يبدو قائداً كريماً ومتسامحاً . ويصور المسيحيون الحاكم بأمر الله أيضاً فى صور المحسن والحامى لهم .

وتذكر تلك الروايات أن الحاكم بأمر الله صاحب المزاج المتقلب هو ابن لأم مسيحية . ومنذ بداية 1005 يشترك الخليفة الفاطمى هذا فى بناء أحد أهم مؤسسات التعليم العالى فى العالم الإسلامى ألا وهى دار الحكمة بالقاهرة . أما المسجد الذى يؤسسه فيطلق عليه اسم جامع الحاكم بأمر الله . ويعبر بناء هذا الجامع عن مفهوم النور فضلاً عن رمزه الخفى للمعرفة الإلهية والبشرية . ويرى المؤرخون أنه تحت الحكم الفاطمى تتطور الفلسفة الإسماعيلية إلى تركيبة قوية من المذهب العقلى والعلوم الخفية المتأثرة بالفلسفة الأفلاطونية الإغريقية والأفلاطونية المحدثة والفاهيم الإسلامية والعلمية والصوفية . ويبدو أن الحاكم بأمر الله نفسه فضل أسلوب حياة الزاهد المتقشف عن الانغماس فى ملذات بلاط الحكام .

ويشير المؤرخون إلى أن الحاكم بأمر الله يضع اليهود والمسيحيين فى حكومته فى مناصب متخذى القرار خلال فترة حكمه برمتها ، الأمر الذى يسبب ذعر المجتمعات الإسلامية . ويصور مصدر يهودى بعنوان «مقتطفات مصرية» الحاكم فى صورة إيجابية كالآتى :

كانت مملكته قوية وسامية بالأمجاد وكان عرشه أعلى من عرش أبيه وأجداده . بدأ حكمه وعمره 13 عاماً وواصل عمله بسعة من الصدر وفهم جيد لذا فلم يكن بحاجة إلى وزير أو مستشار . حكمت الكثير من المؤامرات ضده واجتمع الكثير من الأعداء عليه ولكن الله أتى بهم جاثين أمامه ؛ لأنه كان يحب الاستقامة ويكره الخطيئة ، وقد أرسل القضاة فى جميع أرجاء البلاد ليحكموا بالعدل والحق . كما قضى على الرجال القساة وعزل الحمقى ورفض وجود كل من ضل عن طريق الصواب وأكثر فى الفساد . ولكنه أحب أهل العلم وأحب العدالة واتباع الصراط المستقيم .

وسواء كان حاكم صوفى أسىء فهمه أم طاغية يعانى عقدة الاضطهاد ، فإن الجانب المشرق فى شخصيته لا يمكن أن يغفله رجل علم مثل ابن الهيثم . والأهم من ذلك كله أن أى شخص متقد الذهن يستطيع أن يتقدم للدراسة فى دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله كان مهماً يكن فقيراً أو مجهولاً بالنسبة للناس . فهذا المكان لا يقتصر فحسب على ذوى النفوذ والسلطة . كما أن الحاكم بأمر الله كان حريصاً أشد الحرص على الحفاظ على مركز المذهب العقلى تماماً مثلما كان حريصاً على ذاته

وشخصه. وقد أصاب من أطلق على هذه المؤسسة العلمية دار الحكمة، فهي أشبه بالشعاع الذى يجتذب الكثير من المفكرين الواعدين إلى القاهرة، ولولاه لدفع غموض شخصية الحاكم بأمر الله بعيداً عنها.

وتضحى القاهرة فى القرن الـ 11 - بالجامع الأزهر الشامخ الذى يضم المسجد والدرسة الجامعة والقصور والحدائق الغناء التى تطل على النهر والمحافل الفكرية - مركزاً للإبداع موازياً لمراكز بغداد، بل إنه ليفوقها فى يوم من الأيام أيضاً. فالرجال الذين كانوا يتوافدون على بغداد منذ قرن مضى يحولون قبلتهم إلى القاهرة الآن.

وينمو إلى علم الخليفة الحاكم بأمر الله أن ابن الهيثم الذى كان لا يزال مقيماً فى البصرة قد توصل إلى وسيلة لتنظيم فيضان النيل، ويسترعى انتباهه منصب ابن الهيثم الكبير فيأمره بتنفيذ خطته هذه.

وبالرغم من أن فيضان النيل ضرورة لتجديد خصوبة هذا الشريط الضيق من الأراضي الزراعية الذى يمتد حتى الإسكندرية، ويمثل شريان حياة مصر منذ فجر التاريخ، فإن هذا الفيضان له آثاره المدمرة أيضاً، ومن ثم تبدو فكرة التحكم فيه أو فى مدته مسألة تسلب لب الحاكم بأمر الله.

ويقبل ابن الهيثم المهمة التى يسندها له الخليفة، ويسافر مع مجموعة من المهندسين الذين عينهم بلاط الخليفة على نهر النيل لتحديد أنسب نقطة للتحكم فى الفيضان. وبالرغم من أن الرحلة النيلية هذه تبدو ساحرة، حيث تأخذ هؤلاء المهندسين المسلمين إلى آثار الفراعنة الخالدة فى الأقصر و«أبوسمبل»، فإنه فى مرحلة ما بعد أسوان يدرك العالم القادم من البصرة أن خطته لا يمكن تطبيقها، فالنهر شاسع الاتساع، كما أن درجة انحداره طفيفة وتدفق المياه كبير وموارده محدودة.

وعلى ابن الهيثم أن يعود الآن إلى الخليفة ويخبره بأن خطته لن تنجح. وعند هذه المرحلة يخبرنا التاريخ التقليدى أن ابن الهيثم يرتعش من الخوف من فكرة الذهاب إلى الخليفة وإخباره بفشله فى التحكم فى فيضان النهر، وحتى يتسنى له أن ينقذ حياته يقرر ابن الهيثم أن يدعى الجنون ويتصرف بجنون أكبر من جنون راعيه. ويخاطر ابن الهيثم كثيراً بهذا السلوك، بيد أن هذا يبدو أفضل من قول الحقيقة. وتنتاب ابن الهيثم حالة من الهذيان فى كلامه ثم تصيبه حالات من الإغماء التخشبى.

ولا يستطيع التاريخ أن يجزم بأن ابن الهيثم يمثل هذا الدور بالفعل أم لا. فالقصة تناقلتها المصادر الكثيرة التى غالباً ما اعتراها التحيز، كما أن تاريخ هذه القصة يعود إلى 200 عام. ولكن ما هو معروف هو أن ابن الهيثم لا يكمل خطته ولا يظهر فى

بلاط الخليفة بل يبقى في القاهرة ويواصل بحوثه العلمية والحسابية وتدعمه في ذلك راعية خفية؛ غالباً ما تكون أخت الخليفة ست الملك، وتشتهر هذه السيدة بكونها من أثرى النساء المسلمات، ويواصل ابن الهيثم عمله من بيته، ربما بسبب حبسه لفشله أو لغير ذلك من الأسباب.

ويستأنف ابن الهيثم بحوثه الخاصة ولكن في هذه المرة عن الضوء وهو الموضوع الذي بهره منذ أن كان شاباً. وهكذا يبدأ أعظم مشروعاته طوال تاريخه الطويل المثمر.

وبينما يشرع ابن الهيثم في استكشاف قدره في هذه الحياة ينتهي الخليفة من رحلته في الحياة الدنيا. ففي عام 1061 يعلن الحاكم بأمر الله أنه تجسيد الله في شكل أرضى (حاشا لله). ويحيط نفسه بمجموعة من عباده الذين يؤمنون بأنه المنقذ الحقيقي للإسلام، وأنه الخليفة الذي يرشده الوحي الإلهي الذي سيطهر الإسلام. وعندما يختفى الحاكم بأمر الله في إحدى الليالي وهو يجوب وحده أحد السهول يدعى تابعوه أنه دخل في حالة من الاحتجاب وأنه سوف يعود يوم القيامة في صورة المهدي حسب منظور الشيعة؛ وذلك لوضع الإنسانية جمعاء على الطريق الصحيح.

وتملأ أخبار اختفاء الخليفة واحتمال وفاته نفس ابن الهيثم بالارتياح والريبة في ذات الوقت، فقد تحرر أخيراً من الخوف من عدم القدرة على التنبؤ بأحوال الحاكم بأمر الله ويستطيع الآن أن يواصل عمله على المستوى العام. كما يبدو أن ست الملك التي تراث العرش الفاطمي من أخيها وتحكم البلاد لمدة عامين تواصل رعايتها لابن الهيثم. على أي حال تفرض الظروف الجديدة بعض التغييرات على حياة ابن الهيثم، حيث يترك المنزل الذي أعطاه له الخليفة وينتقل إلى القبة وهي عبارة عن مبنى صغير له قبة يقع عند بوابة مسجد الأزهر الكبير. ويُدرّس هناك علم الرياضيات ويعيد ترجمة الكتابات اليونانية باستخدام معرفته بعلم الرياضيات ويترجمه بعمق أكبر من كثير من المترجمين، كما يبنى مؤلفات على المؤلفات المستنيرة التي جمعها من 200 عام السابقة.

ويبدو بيته الجديد في الأزهر كالجوهرة المشعة في معمار القاهرة الفاطمية، بيد أنه بالنسبة لابن الهيثم يعني ما هو أكثر من ذلك. ففي مآذنه وقبابه وأقواسه العباسية وصفوف أعمدته وأقواسه المصفرة التي يفيض عليها ضوء النهار والظل يراقب حركة الضوء عن كثب، فهندسة القبة والضوء الخافت الذي يسقط على المؤمنين وهم يصلون من النوافذ العالية وظلال الصباح وما بعد الظهر والشمس تتحرك من الفجر المتلألئ الأبيض الوضاء إلى اللون الأصفر في ذروة النهار فالقرنفل الضارب إلى الزرقة ساعة المغيب. ويعلو إلى مسامعه صوت همس المصلين وضحكات طلابه.

وأى مكان أفضل من هذا المكان في البحث وراء نظريات الضوء وسط معبد
النور هذا فوق أرض الصحراء المصرية!

فطوال السنوات التى كان يدخل فيها الحاكم بأمر الله فى نوباته الغريبة، والتى
كان ابن الهيثم أيضاً فيها يدعى أنه أكثر جنوناً من راعيه، كان ابن الهيثم يكتب أجزاء
من كتابه الكبير ويخفيها. بيد أنه كان يعرف أنه إن جاءه عدو يبحث قد يفقد كل
ما كتبه، ولكنه نجا كما نجت مؤلفاته.

وبالرغم من أن ابن الهيثم ألف 200 كتاب وضاع الكثير منها فى نهاية الأمر،
فإن مجلداته السبعة حول علم البصريات ستبقى وربما تكون تلك هى أهم أعماله.
وتعد أهم الدروس المستفادة من أعماله أن العلوم ينبغى أن تقوم على أساس التجربة.
وعلى حد علمنا بابن الهيثم فإنه أول عالم طبق مبدأ التجربة بلا تنازل على الإطلاق.
وبينما وعى الإغريق أهمية الاختبار العلمى والتجربة كانوا يميلون إلى إثبات
نظرياتهم من خلال التحليل الفكرى.

بيد أن ابن الهيثم كان على دراية وعلم أكبر من ذلك؛ حيث وعى تماماً أنه مهما
كان العقل البشرى بارعاً وعبقرياً، فإنه لا يستطيع أن يدرك العالم المادى من خلال
النظريات العقلية فحسب. فالعالم المادى يحتاج إلى القياس والملاحظة. ومن خلال
كل مؤلفاته يتضح أنه يتشكك فى كل الافتراضات العلمية حتى يثبت صحتها من خلال
الاختبار. وكغيره من العلماء الذين سبقوه بألاف السنين لم يقبل أى عبارات علمية
تتحدث عن الدين.

ويُعد من أعظم اكتشافات ابن الهيثم - الذى قد يبدو غير ذى قيمة لأول وهلة
- إثباته أن أشعة الضوء لا تتبع من مقلى عين الرائي. وتبدو نظريات بطليموس
المضادة لهذه الفكرة أشبه بالهزل الآن. وتبدو افتراضات ابن الهيثم حول مبادئ
الفيزياء متطرفة فى عصره. وبهذا ينبغى أن يسبح ضد تيار المعرفة التقليدية السائدة
فى هذا العصر كى يثبت عدم صحتها.

وانطلاقاً من نقطة البداية الأساسية هذه، ينخرط ابن الهيثم فى أعماق الخصائص
المتنوعة للضوء التى أسرته منذ أن كان صبياً يحيا فى البصرة. ويركز فى كيفية مرور
الضوء داخل الأوساط المختلفة كالمياه والزجاج والورق والدخان. وبينما هو يقوم
بذلك يبدأ يتلاعب بفكره انقسام الضوء إلى مجموعة من الألوان المكونة له. وبالرغم
من أن ملاحظته سوف تختلف عن المفهوم الحديث لنظرية انكسار الضوء، فإنه يبدأ
فى طرح الأسئلة الصحيحة. ويأخذ ابن الهيثم نظرياته من داخل المعامل إلى الخارج
ويبدأ فى ملاحظة ألوان السماء والأفق الجنوبى ساعة غروب الشمس والغسق.
ويقضى سنوات محتاراً فى التفاعل بين الضوء والظل وسلوك المرايا وتأثير المرايا
المحدبة على حركة الضوء.

ويتأمل كسوف الشمس وخسوف القمر محاولاً فهم هاتين الظاهرتين الطبيعيتين الرهيبتين آخذاً في الاعتبار وجهة نظر بطليموس حول الشمس والنجوم التي تدور حول الأرض. ولكن هذا لا يضيف إليه الكثير من المعلومات ولا يعلم سبب ذلك. وكما يكتشف أن الضوء هو طاقة مستقلة منفصلة عن مقلة العين - وتعارض نظريته هذه نظرية بطليموس تماماً - يشعر أن منظور بطليموس حول السماء يحتاج إلى إعادة تقييم جذرية. ويحذره البعض أنه على وشك أن يقع تحت مخالب الهرطقة الفكرية.

ولا يعنى هذا التحذير أى شىء بالنسبة له، فدافعه الوحيد هو نهمة الشديد لنهل المزيد من العلم ولفهم مقدار تعقد الكون الذى خلقه الله جل جلاله، ورغبته فى أن يعثر على مفاتيح شفرة هذه الصيغة الحسابية وأن يكتشف الحقيقة أينما كانت ومهما كانت اللغة والمعرفة التقليدية أو المبادئ السائدة.

ينتشر شعاع قوس قزح الضخم بعد يوم مطير من أيام ربيع القاهرة ويرى نفس الطيف الذى سبق أن رآه فى المعمل مع وجود الزجاج والمنشور وزجاجات المياه. ويعيد هذا الانفصال الواضح للضوء الأبيض إلى عدد كبير من الأطياف الصغيرة ابن الهيثم إلى جدول حساباته.

وينبهر ابن الهيثم بطبيعة مقلة العين البشرية ويبدأ فى دراسة تشريحها محاولاً فهم كيفية دخول الضوء فى القرنية وما يحدث بين العدسة وظهر مقلة العين. ويعطى شرحاً وافياً حول كيفية عمل مقلة العين، وفيما بعد يستفيد العلماء من منظوره هذا فى تطوير شرح الحديث حول الرؤية البصرية البشرية. وتأثراً بمقلة العين يبدأ ابن الهيثم فى عمل ما يطلق عليه فيما بعد الحجرة المظلمة. وقبل ظهور ليوناردو دافينشى بخمسة قرون يخوض ابن الهيثم فى أمور يعزى الفضل فيها فيما بعد لهذا الإيطالى العظيم ولكبرلر وديكارت بينما هم مثل مفكرى عصر النهضة وما بعد عصر النهضة يحاكون أو يبنون على ما أسسه هذا العالم المسلم العظيم منذ زمن بعيد.

وباستخدام الحجرة المظلمة هذه يقرر ابن الهيثم أن الضوء يسافر فى خطوط مستقيمة، وهذا مفهوم أساسى لأى دراسات عليا حول الضوء غير أنه لم يثبت قبل ظهور ابن الهيثم. وفى كتاب المناظر لابن الهيثم يقول:

وإن اعتمد معتمد جسمًا كثيفًا فتقرب فيه تقبًا دقيقًا وقابل به جرم الشمس وجد الضوء ينفذ فيه ويمتد على سمت مستقيم. وإن اعتبر المسافة التى يمتد عليها الضوء الذى بهذه الصفة وقاسها بمسطرة وجدها فى غاية الاستقامة. فيتبين من جميع ذلك أن ضوء الشمس ليس يمتد إلا على المسافات المستقيمة⁽¹³⁾.

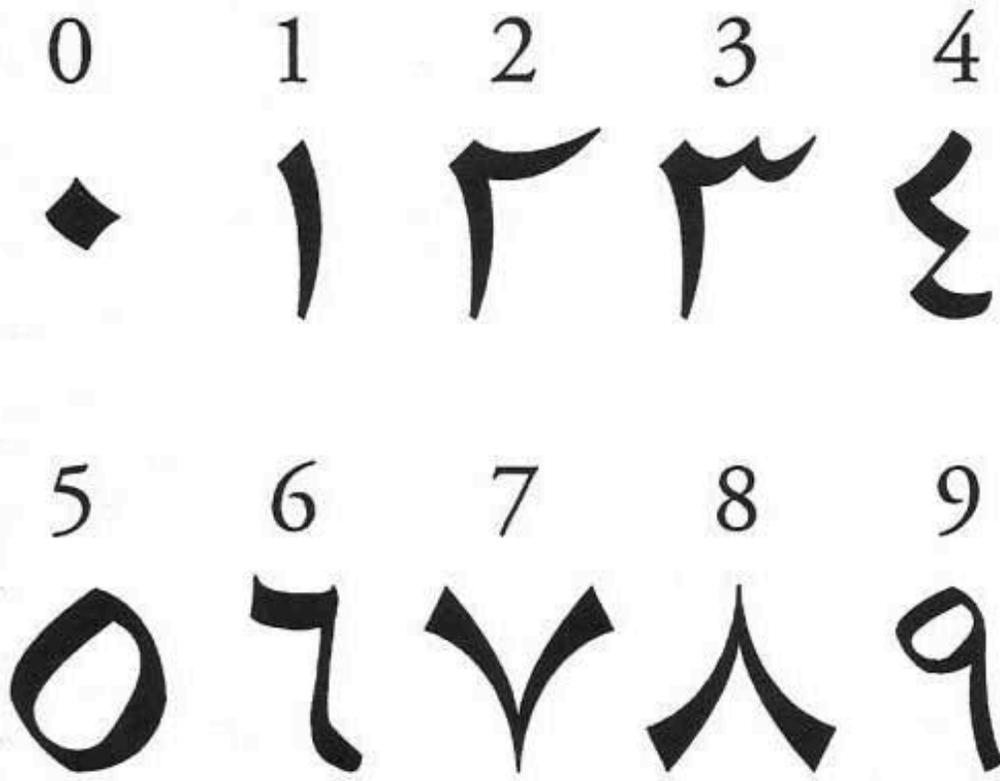
ويحاول ابن الهيثم أن يكتشف ميكانيكيات الرؤية البصرية للبشر . ويتساءل لماذا تبدو الشمس والقمر أكبر من حجمهما في الأفق عن حجمهما وهما أعلى السماء؟ ويقدم التفسير الصحيح لذلك . وينخرط في المضامين الحسابية للمرايا الكروية والقطعية المكافئة، وتأخذ كل تلك المسائل إلى آفاق جديدة من الحسابات الرياضية. ويبدأ في فهم قدرة العدسات على التكبير، وهو اكتشاف خطير مكن جاليليو وكوبرنيكوس وأنطوان فان ليفنهوك من اكتشاف النجوم والميكروبات .

ويمهد عمل ابن الهيثم لظهور الشكل الأولى لحساب التفاضل والتكامل . ويكون لهذا العمل الأثر الكبير في تشكيل علم الرياضيات حتى يبلغ الهند . وفي أحد أعظم انتصارات ابن الهيثم العلمية وأجرئها على الإطلاق يكتشف أن الشفق الذي يبدو للرائي العادي أشبه باللحظة السحرية له العديد من التفسيرات الحسابية والفيزيائية . ويحسب أن ظاهرة الشفق تحدث عندما تنخفض الشمس بدرجة 19 أسفل الأفق . وبناءً على هذا الكشف يقترب كثيراً من قياس عمق الغلاف الجوي، وهو أمر لم يتم التحقق منه حتى القرن العشرين وهو عصر رحلات الفضاء .

ووصولاً إلى حدود الفيزياء المتقدمة يعي ابن الهيثم وجود الجاذبية نفسها ويكتب عن انجذاب الكتل قبل جاليليو والسير إسحق نيوتن بـ 600 عام .

وفي إحدى لحظاته الشاعرية يحاول أن يقيس من خلال نظرياته البصرية الحسن والجمال يقول:

فأما الحسن المدرك بحاسة البصر فإن البصر يدركه من إدراكه للمعاني
الجزئية التي قد تبين كيفية إدراك البصر لها . وذلك أن كل واحد من المعاني
الجزئية التي تقدم بيانها يفعل نوعاً من الحسن بانفراده، وتعمل المعاني أنواعاً
من الحسن باقتران بعضها ببعض . . . والوضع قد يفعل الحسن، وكثير من
المعاني المستحسنة إنما تستحسن من أجل الترتيب والوضع فقط، وذلك أن
النقوش كلها إنما تستحسن من أجل الترتيب . والكتابة المستحسنة إنما تستحسن
من أجل الترتيب؛ لأن حسن الخط إنما هو من تقويم أشكال الحروف ومن
تأليف بعضها ببعض . . . والتفرق يفعل الحسن، ولذلك صارت الكواكب
المتفرقة أحسن من اللطخات وأحسن من المجرى . . . ولذلك أيضاً توجد الأنوار
والأزهار المتفرقة في الرياض أحسن من المجتمع منها والمتراص . والاتصال
يفعل الحسن، ولذلك صارت الرياض المتصلة النبات المتكاثفة أحسن من
المتقطع منها والمتفرق . وإن كانت الرياض مستحسنة من أجل ألوانها فالمتصل
منها أحسن (14).



تشق الأرقام في العصر الحديث من نظام الأرقام العربي الهندي الذي ظهر في القرون الوسطى. ويمكن تبين أوجه الشبه حتى يومنا هذا.

ويظل الكثير من هذه الأسئلة بلا إجابات لآلاف السنوات على الأقل حتى يظهر عبقرى آخر مهووس بعلم الحساب والضوء، ألا وهو ألبرت أينشتاين في زيورخ. وأخذاً في الاعتبار ريادة عمل ابن الهيثم ومحدودية الموارد في هذا الزمن، فيجب أن يقف ابن الهيثم على قدم المساواة مع أينشتاين بالرغم من أن الجزء الأكبر من اكتشافاته قد سقط في طي النسيان.

ويخبو ضوء حياة ابن الهيثم في القاهرة في العام 1040 وهو يناهز الـ 75 من عمره مع تدهور بصره وصحته. ويكون الضوء الذي يراه دارس الضوء هذه المرة هو ضوء العالم الروحي. وتنقضى عدة قرون قبل أن تتم ترجمة المجلدات التي كتبها ابن الهيثم إلى اللغة اللاتينية أولاً في عام 1270 ويطلعها فريدريش ريزنر في عام 1572. ويشتهر ابن الهيثم لدى الأوربيين باسم الحسن. ولفترة طويلة يعتبرونه عملاقاً في علمه، حيث يسبق أوربا في العصور الوسطى بأشواط وأشواط. ثم مع حلول عصر النهضة يطمسون - من يحاكونه أو يتوسعون في أعماله - شخصيته.

بيد أن كل هذا لم يكن ليعنى ابن الهيثم؛ فقد كان شغله الشاغل الإجابة عن أسئلة

الكون ولم يدر بخَلده أن يكرمه أحد عن عمله ، فقد كان يسعده فقط أن يكتب ويدرس ويعزل نفسه في ملاذ الخاص .

ولو كان قد قدر له أن يرى المستقبل بعد رحيله لامتلأت نفسه بالحماسة ، ويرجع ذلك إلى أنه في مكان بعيد في وسط آسيا وبلاد فارس .

ومع مرور الأحداث وتطورها يولد عملاق مسلم آخر في مجال علم الرياضيات ، رجل يتذكره الغرب فيما بعد ليس لحساباته الرياضية بل لشعره .

في العام 1048م يولد غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم خيام النيسابوري في نيسابور ، وهي مدينة فارسية تقع داخل وادٍ خصب تحيط به سلسلة جبال بينالود الوعرة . وكانت هذه المدينة هي عاصمة السلاجقة لمدة 10 سنوات .

أما هذا الصبي الذي يشب كى يصبح عبقرياً في الرياضيات والفلك ربما يعد متميزاً من بين مجموعة علماء الرياضيات؛ لكونه يحمل بين ضلوعه روح الشاعر . كما يضحى هذا الرجل فيلسوفاً يتحدث عن الأمور اليومية في حياة البشر ، ويعشق كل ما هو حسي وصوفي ويتجرأ على طرح أسئلة في لب الدين .

ويوازن كل ذلك بحس من الشجن حول مأساة هذه الحياة وعدم جدواها أو جدوى العمل أو الإنجاز . وحتى عندما يكذب بالنيابة عن حكامه ورعاته لفك شفرة الأرقام وأسرار النجوم ، يغامر بقوله إنه كان يفضل أن يقضى وقته في احتساء النبيذ في الحانات أو الاسترخاء بين أحضان الحبيبة . ويشتهر هذا الرجل أمام العالم باسم عمر الخيام ، ويشتق لقب عائلته من صناعة الخيم ، فقد كان أفراد عائلته يكتسبون رزقهم من هذا العمل .

بعد السلاجقة الأتراك أول مجموعة من غزاة وسط آسيا الذين يبدؤون تدريجياً بهز استقرار الخلافة العباسية ثم اجتياحها هي والثقافة العربية الفارسية . ويبدأ القادمون من وسط آسيا بتحديد معالم العالم الإسلامي . ولم يكن هؤلاء من البربر الأميين؛ لذلك فقد بنوا على القواعد التي أرسنها الحضارات القديمة التي التقوا بها في طريقهم ، وبذلك حصدوا ثمار العديد من العصور الذهبية التي صادفت سبيلهم .

يبدأ السلاجقة في تأسيس الحضارة التركية الفارسية التي ستدوم لـ 900 عام بأشكال مختلفة وتحت أنظمة متعددة متمثلة في أسرة السلاجقة الحاكمة وفروعها في بلاد فارس والأناضول وسوريا من القرن 11 وحتى أوائل القرن الـ 14 ، وفي الحكم المغولي في القرنين 13 و14 في عهد تيمورلنك والمعروف باسم تامرلان وورثته من عام 1336 حتى عام 1405 ، وفي حكم العثمانيين الأتراك من عام 1299 و1922 وفي الحكم المغولي من عام 1483 و1857 .

وقبل ولادة عمر الخيام بزمان تمتعت مدينته بالثراء بسبب مناجم أحجار الفيروز النفيسة بالقرب من نيسابور وتجارة القواقل وصناعة البلاط والسيراميك. ويتخلل اللون الأزرق جنبات نيسابور ويبدو مهيمناً على المدينة ليس من أعلى ومن بعيد فحسب، ولكن أيضاً في قباب المساجد والقصور المبلطة وفي صفوف الأقواس وفي محيطات الأضرحة وفي الأشكال الهندسية البارزة الناتجة عن الصيغ الهندسية للإغريق والعرب. وقبل زمن عمر الخيام ربما توازي ثراء نيسابور مع ذلك الذي في بغداد أو القاهرة.

بيد أن طعم الثراء لم يذقه كل أبناء نيسابور فقد كانت عائلة الخيام فقيرة. أما بالنسبة لعمر الخيام فأثرى لياليه قضاها على سطح منزله ليلاً وهو يتطلع إلى السماء التي لا تعكر صفوها سوى بعض السحب المترامية والغبار المنبعث من الصحراء البعيدة. وفي مدينة نيسابور في القرن الـ 11 وبخلاف بعض الدخان الناشئ عن احتراق حطب نيران الشتاء ومصابيح الزيت لم تكن لدى الإنسان أية وسائل لحجب ضوء النجوم. وينظر عمر الخيام إلى أعلى حيث يرى بحراً من النجوم ومجموعات النجوم المعروفة فضلاً عن ضبابية درب اللبانة التي تبدو واضحة لعالم هذه الفترة من الزمان. وتعد سماء الليل أشبه بالبانوراما البديعة، أكثر سبل الترفيه تسلية خاصة لشخص ذي موارد محدودة.

وبالرغم من أن النجوم تنادى عليه فهو لا يستطيع الهروب من واقع حياته على الأرض. وفي مرحلة ما يموت أبو عمر الخيام وتنتقل إلى عاتق عمر ووالدته تحمّل مسئولية إخوته الصغار. بيد أن والدته تعلم أن لابنها مواهب متميزة وأن أمامه مستقبلاً رائعاً ينتظره غير إصلاح الخيام لإطعام إخوانه وأخواته.

وفي تلك الأيام في نيسابور كان الشخص الذي يتمتع بالذكاء والطموح يذهب ليتلمذ على يد الإمام موفق. وتروى الأسطورة أن أى شخص يتعلم على يد هذا الإمام يطرق الحظ باب حياته في يوم من الأيام مهما كانت مهنة هذا الشخص. وكرجل كريم ومسلم من أصحاب المذهب العقلي للخليفة المأمون يعد الإمام موفق الباب الوحيد لفرص حياة أفضل لشباب محافظة خراسان.

في بداية الأمر يبدو الإمام متشككاً في أمر عمر الخيام، ولكن بعد أن يحقق هذا الأخير نجاحاً باهراً في اختبار الحساب الذي يعده له الإمام يقبله بعده كتلميذ عنده، تبدأ واحدة من أكثر قصص النجاح البشرية في تاريخ العالم الإسلامي الضائع.

وبالرغم من عدم معرفة الخيام لهذا الأمر، فإنه في مدرسة الإمام قد رسم شكلاً غير معتاد لمثلث من العلاقات، تصبح فيما بعد رمزاً للاضطراب في العالم الإسلامي فيما بعد لآلاف الأعوام المقبلة وتجسد ثلاثة أنواع من الحياة المختلفة عند أطرافها.

ويضيق الدليل الوثائقي لهذه العلاقة المثلثية بين صفحات التاريخ، ومن ثم يتم التعامل معها على أساس أنها خرافة وليست واقعا، غير أنه سيتوافر اتساق درامى فى هذه القصة يجذب الكتاب والمؤرخين بشكل يجعل الكثير منهم يدخلها فى نسج قصصه.

وفى مدرسة الإمام موفق ينضم إلى الخيام ابن غنى لأب يشتهر بأنه غريب الأطوار ومتعصب، ويطلق على هذا الابن اسم حسن بن الصباح. ومن خلال الإمام موفق يتعرف الخيام على المعلم الموقر نظام الملك.

وتحكى الرواية أيضا أنه فى نيسابور كانت هناك جارية تدعى دريا وأن كلاً من حسن بن الصباح وعمر الخيام يتنافس على حبها غير أن الخيام يفوز بحبها فى النهاية.

بعد ذلك ينطلق كل منهما فى طريقه وتفرق بينهما الأيام. يستكمل عمر الخيام دراسته فى مدن وسط آسيا مثل بلخ مسقط رأس زرادشت وقلب المركز الثقافى الذى يطلق عليه فيما بعد اسم أفغانستان وسمرقند وهى مركز تجارى آخر تأسس على طريق الحرير على السهل الذى انضم فيما بعد إلى أوزبكستان. وفى تلك السنوات يركز على بعض الصيغ الحسابية وقد ألف عملاً عن القواعد التى تتحكم فى الجذور الموجبة للأرقام، وكتب ذلك الكتاب المعروف باسم فى «شرح ما أشكل من كتاب الموسيقى»، حيث يتحدث عن الهيكل الحسابى للموسيقى.

ولقرون عديدة قبل زمن الخيام وبعده ينظر الناس إلى الموسيقى على أنها ليست فناً بقدر ما هى امتداد لعلوم الرياضيات والعلوم التجريبية، وذلك استناداً إلى النظريات البيزنطية والعربية الفارسية للسلم الموسيقى الذى يتكون من 8 درجات والعناصر الجزئية لصنع الآلات الموسيقية وما شابه ذلك من الأمور، فالموسيقى تعتبر التمثيل الصوتى للصيغ الحسابية، وهى الحساب والفلك تتقاطع فى مفاهيمها مع موسيقى الكرة الأرضية التى وضع نظرياتها فيثاغورس، حيث تنبأ فيها أن المسافة ما بين الأرض و«الكرة السماوية» هى أفضل مثال على التناغم الموجود فى العالم. وبناءً على هذه النظرية فسر المسلمون أن الأجرام السماوية التى تدور فى الفضاء لها تمثيل موسيقى فى حركتها، ويمكن تصغيرها باستخدام الحسابات إلى صيغ تعبر عن مداراتها ودرجات ميلها وسرعاتها وكتلتها وأحجامها.

وفى فترة مبكرة من رحلته العقلية يدرك الخيام الصراعات النظرية الفكرية بين أصحاب المذهب العقلى من المسلمين ومفسرى نصوص اللاهوت والفلسفة والعلوم، والصراع السياسى على السلطة بين السنة والشيعة. وبذلك يبدأ الخيام فى تشكيل فلسفته الخاصة التى تشبه إلى حد كبير فلسفة التنوير التى تظهر فى أوروبا بعدها بـ 700

عام ، فبينما يؤمن بالله العزيز الجليل يؤمن في ذات الوقت أن الكون الذى ندرکه بحواسنا تتحكم فيه القواعد العلمية التى يمكن اكتشافها بالدراسة والبحث فحسب . ويغامر بطرح المفهوم المتبجح المستقبلى القائل بأن الله جل جلاله لا يتدخل فى العالم المادى (حاشا لله) (*).

ويتأثر الجميع بذلك الجدل الفاسد بين الحرفية النصية والمذهب العقلى . ولحسن حظ رجل مثل الخيام يكون الحكام من السلاجقة الأتراك فضلاً عن الخلافة العباسية ممن يميلون نحو المذهب العقلى . ومن دواعى السخرية أيضاً أن الإسماعيليين الشيعة يميلون تجاه المذهب العقلى أيضاً . ففى كثير من الأحيان يجد الحكام المسلمون المختلفون بشكل غريزى أن المجتمع لا يمكنه الإبداع والوصول إلى العظمة إن لم يتحرر عقله . وبالرغم من أنه فى زمن عمر الخيام كانت الخلافة العباسية فى حالة ضعف شديد وكان الأمويون يحكمون بلاد الأندلس البعيدة ، فإن وسيلتهم المشتركة فى دعم المخترعات والبحوث وتوفير الهبات المناسبة لها يلاحظها ويتبناها الكثيرون من خلفائهم بدءاً من الفاطميين بمصر ووصولاً للغزاة المختلفين فى بلاد فارس وأسيا .

وإبان عمله فى بلخ وسمرقند ونيسابور ، يضع الخيام منهجاً لحل المعادلات التكعيبية التى لن يفهمها إلا الطلاب المتفوقون فى الرياضيات حتى ألف سنة تالية . والمعادلة التكعيبية هى معادلة متعددة الحدود حيث الأس الأعلى للرقم المجهول هو الأس الثالث ويوضح المثال التالى هذه النظرية:

$$\chi^3 + 20\chi^2 = 2000 .$$

وتنجح طرق الخيام من خلال تحقيق تقاطع بين القطع المكافئ والدائرة . بالإضافة إلى ذلك يكتشف الخيام المعادلة ذات الحدين وهى صيغة بالغة الأهمية تعطى مفكوك الأس المرفوع له الأعداد . وينتقد نظريات إقليدس فى التوازى . وتبدأ كتاباته فى هذا المجال تجد لها طريقاً نحو أوروبا؛ حيث تساعد فى التطور التدريجى لعلوم الهندسة خارج أطر نظريات إقليدس . كما أن عمله أيضاً فى مجال الفلك له نفس مقدار الأهمية والتعقيد . وتحمل طرقه العملية بين طياتها تطبيقات محتملة فى مجال ضبط التقويم مما يؤدى إلى الوصول إلى مستوى أعلى من الكفاءة فى العمل داخل الحكومة والتجارة .

بيد أن الحياة تبدو غير مضمونة العواقب بالنسبة لعمر الخيام ، فبالرغم من المهام

(*) المترجم .

المنتظمة التي يوكلها إليه الأغنياء وذوو النفوذ، فإنه لا يزال يعتمد على رعاته في توفير احتياجات الحياة وطلبات المعيشة. وفي أثناء إقامته في سمرقند يساعده على الحياة أبو طاهر القاضي الشهير، حيث يسمح له بأن يقوم بالكثير من الأعمال في مجال علم الجبر، غير أن هذا العمل يضحى عملاً مؤقتاً كما يكتب ابن الخيام فيما بعد قائلاً:

لم أستطع أن أكرس نفسي لتعلم الجبر ومواصلة التركيز عليه بسبب العقبات التي ترميها أمامي تقلبات الزمان، والتي عاقتني عن ذلك؛ لقد حرمتنا من كل أهل العلم إلا مجموعة صغيرة العدد تعاني الكثير من المشكلات، وكل همها في الحياة هو أن تقتنص الفرصة في غفوة من الزمان لتكرس نفسها للبحث وإكمال علم من العلوم؛ ذلك أن غالبية من يقلدون الفلاسفة يخلطون الحقيقة بالزيف؛ وهم لا يفعلون شيئاً سوى الغش وادعاء العلم، كما أنهم لا يستخدمون ما يعرفونه من علوم إلا لأغراض دنيئة ومادية، وإذا ما رأى هؤلاء إنساناً ما يسعى وراء الصحيح ويتحرى الحقيقة ويفعل ما بوسعها؛ لدحض كل ما هو زائف وغير صحيح تاركاً النفاق والغش جانباً، فإنهم يسخرون منه (15).

وأخيراً تسترعى انتباهه بلاط السلاجقة الأتراك كتب الخيام الأسرة وينتقل الآن إلى المدينة الفارسية أصفهان. ولكن الخيام ليس بالقروى الذي لا يعرفه البلاط، فمن حسن الطالع أن نظام الملك صديق أستاذ ومعلم الخيام السابق الإمام موفق قد أصبح من كبار وزراء الحاكم السلجوقي ملكشاه. وهكذا في عام 1073 بسبب إنجازات الخيام واتصالاته يُدعى إلى بلاط السلطان في أصفهان كي يصبح عالماً في الرياضيات والفلك هناك.

وفي أثناء رحلته إلى المدينة الفخمة أصفهان يرى الخيام القباب الزرقاء لمساجدها وقصورها التي تلمع تحت أشعة شمس بلاد فارس، وفجأة تفتح أبواب الدنيا على مصاريعها أمامه. كم هو محظوظ لمجيئه كل هذه المسافة إلى هنا! فهو في الأصل ابن صانع خيام، ولكنه الآن قد أمر أن يأتي ليعمل في بلاط ملك يحكم نصف الدنيا.

وفي أصفهان توكل إلى الخيام مهمة بناء مرصد وإعادة حساب التقويم السنوي. وبالرغم من أن ملكشاه هو راعي المفكرين، فما كان منهم. ويكمن هدفه الرئيس من ذلك المشروع في الوصول إلى علم التنجيم وليس الفلك. فكغاز وحاكم يرغب في أن يعرف ما الذي تبشر به النجوم فيما يتعلق بمستقبله وعالمه، ومن ثم فعلى الخيام أن يعلم السلطان بحرص ويوجه انتباهه إلى أن النجوم لا تتنبأ بالمستقبل.

بيد أنه بدلاً من كل ذلك يتّراس الخيام مجموعة من علماء الرياضيات والفلكيين ويبدأ في بذل الجهد لإيجاد تقويم سنوي جديد أكثر دقة. وهو يؤمن أنه بهذا التقويم الدقيق سوف يسمح للمؤمنين أن يحددوا الأعياد الدينية بدقة أكبر بالإضافة إلى حفظ السجلات بشكل أفضل وتحسين نظام جباية الضرائب.

ولمدة 19 عاماً يتمتع الخيام بأكثر فترات حياته أمناً واستقراراً، وحتى عندما تتحد القوى التي تعارض راعيه على بعد ذراع واحد من المملكة يكون هو في قمة مراحل إنتاجه.

وفي عام 1079 في أحد إنجازات العقل البشري الباهر في مجال الحساب بدون أجهزة الكمبيوتر بحسب الخيام طول السنة ليكون 24219858156، 365 يوماً. وفي القرن 21 وباستخدام تلسكوب هابل والساعات الذرية وأجهزة الكمبيوتر بحسب طول السنة على أنه 242190، 365 يوماً، فخطأ الخيام في وضع العلامة العشرية سوف يؤدي إلى خطأ في أجزاء الثانية.

وفي إنجاز آخر يوضح الخيام أمام جمهوره المندهب أن الأرض تدور حول نفسها وليست الكواكب هي التي تدور حولها. وسوف يثبت هذه الحقيقة للجمهور الذي يقال إن من بينهم الفيلسوف البارز الغزالي. ويقوم الخيام بعرض هذه الحقيقة من خلال بناء شكل محاك لمجموعة من النجوم وكوكب الأرض الذي يدور حول نفسه ويستخدم الشموع لتمثل النجوم والشمس.

بيد أنه على أرض الواقع تبدأ أمور ما في الحدوث تقوض العقدين اللذين تمتع فيهما الخيام بالأمن والأمان. ويعد أحد الأطراف الرئيسية فيما سوف يحدث زميل دراسته الحسن بن الصباح الذي يتولى منصباً في حكومة السلاجقة؛ غالباً منصب الوزير.

ولكن أجزاء التاريخ الضائعة والروايات المختلفة التي يرويها كل من المؤرخين السنة والإسماعيلية سوف تلقى بظلال من الغموض على أجزاء كبيرة من هذه القصة. ووفقاً لما جاء في الروايات التقليدية يحاول الحسن بن الصباح أن يقتل نظام الملك الذي كان راعيه في يوم من الأيام، غير أن محاولته تبوء بالفشل، ويهرب إلى منفاه وينضم إلى مجموعة فارسية من الطائفة الإسماعيلية باستخدام نفق تحت الأرض. وتمثل هذه المجموعة نوعاً من المقاومة السياسية للسنة ويتهمم البعض بارتكاب بعض الاغتيالات السياسية المستهدفة. وبجانب مقاومة السلاجقة والعباسيين يقوم ابن الصباح بمهمة أخرى موازية، ألا وهي الحفاظ على الطائفة الإسماعيلية في مواجهة العداة المتنامي الذي يقوده السلاجقة.

ولسخرية القدر ورغم تعارض دين ابن الصباح مع المنظور السياسي والعقائدي

للسنة، فإنه يستوعب ذلك المزيج من المذهب العقلي الإغريقي والهدى القرآني ومعتقدات العلوم الخفية، ويصل إلى حد أن يعلن أن العقل الإنساني يقف على قدم المساواة مع الورع الديني. ولكن هذا الجسر الفلسفي لا يرأب صدع الاختلاف العقائدي ما بين السنة والشيعة.

ويتحول نظام الملك لدى طائفة السنة وتحت نفوذ السلاجقة إلى ألد أعداء ابن الصباح. فالسلاجقة يعتبرون الإسماعيليين غرماً لهم وأعداءهم فضلاً عن كونهم مهرطقين. وعلى سبيل الدفاع عن النفس أو ربما لتعزيز الانفصال، يؤسس ابن الصباح شبكة من القصور الجبلية شمال بلاد فارس بالقرب من حصون الجبال المنيع، حيث يتسنى لقادة وتابعي الطائفة الإسماعيلية مجابهة موجة عداة السنة لطائفتهم الدينية. وبذلك تعمل معاقل ابن الصباح على توفير الملاذ الآمن لعقيدة الطائفة الإسماعيلية كي تزدهر وتتطور على مدار القرن والنصف القادمين. وكي يحمي الإسماعيليون مجتمعاتهم الجبلية من تهديد السلاجقة الدائم تلجأ «الكتيبة السرية» المكونة من صفوف الجنود إلى استخدام استراتيجيات متعددة كي تصد جيوش السلاجقة الأكبر عدداً. ويُعد الحد من سفك الدماء ودوافع الانتقام؛ أحد التكتيكات المستخدمة وذلك بتخويف قادة الجيش والمحافظين حتى ينزكروا الأراضي الإسماعيلية وشأنها.

ويؤثر هذا الصراع السياسي العقائدي الكبير على الخيام تأثيراً مباشراً، الأمر الذي يضعه على السنان مع صديق طفولته الحسن بن الصباح. ويبدأ هذا القدر مثلثي الشكل في الكشف عن أنيابه. ففي عام 1092 يُغتال الصديق والراعي الرائع والوزير الحكيم ومؤسس جامعات النظامية التي تنتشر عبر أرجاء العالم الإسلامي نظام الملك. وقبل ذلك الحدث بشهر واحد يسقط ملكشاه صريع المعركة. وبالرغم من أن زوجته هي التي تولت شؤون الحكم لفترة قصيرة، فإنها لم تكن يوماً من أصدقاء نظام الملك، ونتيجة لذلك لم يكن الخيام أيضاً من المفضلين لديها، وعلى هذا يتم إجباره على ترك بلاط أصفهان.

بيد أن الإهانة التي يواجهها الخيام لا تتوقف عند هذا الحد. فانزعاجاً من وجهات نظره غير التقليدية التي لا تتسم بالوقار يتم استجواب الخيام من جانب مجموعة من رجال الدين السنيين حول عقيدته. وتذكرنا هذه الواقعة بالحاكمات التي تعرض لها جاليليو بعد 500 عام من الآن وهكذا يبدأ استجواب عمر الخيام في مسائل الدين.

ويبدأ المعسكران الجدل على مستويات مختلفة، فعمر الخيام عالم الرياضيات والعلوم التجريبية لا يعتنق الأمور التقليدية للدين، ويحاول قدر الاستطاعة أن يشرح وجهة نظره، غير أن الشروح توجع المزيد من النيران وتدفع بأمواج

الاضطراب أكثر من تسكين أو تلطيف الأجواء . وأخيراً كي يثبت إيمانه يتم إجباره على الحج إلى مكة المكرمة ، ويساعد هذا في الإبقاء على حياته ، ولكن لا يعيده إلى منصبه السابق .

وخلال هذه المرحلة المظلمة تبدو رحلة حياة الخيام الطويلة على وشك الانتهاء ولكن مع ضربة أخرى من ضربات الحظ لا يحدث ذلك . فى عام 1118 وبعد بضع زوابع يتولى الابن الثالث للملكشاه الحكم - وقد كان أحد رعاة الخيام - وينقل عاصمته إلى «مرو» المدينة الفارسية التى حكمها المأمون فى أثناء الخلافة العباسية ثم أصبح خليفة فيها منذ 300 عام . ومن ثم فى السنوات الأربع الأخيرة من حياته ومع وجود راع جديد له فضلاً عن اقتناعه بالعلم والبحوث ، يستأنف عمر الخيام عمله .

ويخبر الخيام أحد الأشخاص فى أواخر حياته أنه سوف يُدفن فى نيسابور وأن الأزهار سوف تغطى مقبرته . ويزعم أحد الزوار بعد موت الخيام بقرون أن مقبرته فى نيسابور تغطيها الزهور لدرجة يصعب معها رؤية الكتابة الموجودة عليها .

وبالرغم من عبقرية الخيام فى علم الرياضيات والفلك فإنه يشتهر لدى غير المسلمين «بنتيجان الزهور» التى ذكرها فى شعره . ولا يزال الجدل مشتتاً حول المعانى الأصيلة والنية الحقيقية من وراء كلمات شعره . وتمتلى ترجمة رباعيات الخيام التى قام بها إدوارد فيتزجيرالد فى القرن الـ 19 رغم إلهامها بالكثير من الأخطاء . وفى رباعياته يتحدث الخيام عن الوجود البشرى فى الترجمة التى أتمها عمر على شاه وروبرت جريفز فى القرن الـ 20 كالتالى:

كل شيء مسطر ، مكتوب ؛
ذاك لوح عن الورى محبوب ،
فيه يمن لنا ، وفيه الخطوب ؛
والمواضى ، كما كتبتين ، سطور ؛
والأوتى مقدرات تصير ؛ (16)

وحوالى عام 1120؛ أى عامين قبل موته ، كتب الخيام قصائد أطلق عليها «الشهادة»:

أمس أبصرتُ جارنا الخزافا
يجبلُ الطينَ كيف شاء اعتسافا

ويكيلُ المقدارَ منه جُزافًا
وكأني أسمعُهُ ملءَ فيه
صوتَ ذاتِ مظلومةٍ تشتكيه
آه رققًا فأنت طينٌ وماءُ
أيها المرءُ لا تسمنى العذابا
فيقايا الأسلافِ ما أنت منه
صانعٌ ما يحيرُ الألبابا (17)



أشكال النجوم

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

[يس: 40]

معمل الدفع النفاث لوكالة ناسا الفضائية بياسادينا كاليفورنيا 2007 يقف روبرت بيلي في موقع عمله في لوس أنجلوس يراقب أحدث المعلومات التي يرسلها الرادار من سفينة كاسيني الفضائية وهي تمر عبر أحد أقمار كوكب زحل الضخمة الملقب باسم تيتان . ويحرق روبرت في الغلاف الجوي الذي يسوده الضباب الدخاني المكون من الهيدروكربونات المفرطة التبريد حيث اكتشفت سفينة الفضاء كاسيني بحيرات واسعة من الميثان السائل في القطب الشمالي للكوكب ولا يختلف ذلك كثيراً عن جغرافية البحيرة والسهول الجرداء في المنطقة القطبية الشمالية لكوكب الأرض ، بالرغم من الاختلاف الكبير في التكوين الكيميائي والحرارة . وكل مرة تحلق فيها سفينة الفضاء كاسيني بشكل منخفض فوق أحد الأهداف المعينة مسبقاً تأتي بتفاصيل أفضل من سابقاتها للصورة الضبابية لقمر التيتان حتى هذه اللحظة .

وفي مكان آخر على قمر التيتان توجد قارة - بحجم قارة أستراليا - يطلق عليها اسم زانادو . ويشكل سطح هذه القارة وتنحته براكين المياه الثلجية ورياح الإيثان وأمطار وأنهار الميثان . ويضئ القمر بلون أزرق يشبه الغسق ويعترض انعكاسات أشعة الشمس التي تأتي من كوكب زحل الضباب والسحب الثلجية .

ويعشق بيلي عمله ، وهو يعمل الآن في مشروع كاسيني لأكثر من عام بعد أن قضى بعض الوقت في مقر وكالة الفضاء ناسا في واشنطن العاصمة . وبالرغم من أنه لم يكن سعيداً بتلك الفترة التي قضاها في واشنطن العاصمة فقد كانت خطوة مهمة في مساره المهني ، حيث كان يساعد الإداريين في إعداد الرسائل التي توجه إلى الكونجرس . وبالرغم من أن ساعات العمل الطويلة والضغوط الكبيرة جعلته يحصد العديد من الترقيات ، فقد راح يفضل التعامل مع ضباب قمر

التيان عن التعامل مع ضباب العاصمة. بالإضافة إلى ما تقدم فالحياة في المدينة مكلفة والحركة المرورية فظيعة. ورغم أنه كان سعيداً لقضاء أبنائه بعض الوقت في مدينة تتقبل كل الأجناس وتتسم بالتنوع الكبير إلا أنه رجل علم وليس رجل سياسة أو صياغة سياسات.

ولكن تجربة واشنطن العاصمة باتت مرهقة بشدة، لدرجة أنه فكر في أن يلتحق بالعمل في إحدى الشركات الخاصة، وذلك قبل أن تتاح له فرصة العمل في مشروع ناسا الجديد هذا.

ويعود أصل بيلي إلى ولاية جورجيا وهو من الجيل الثاني - على التوالي لعائلته - الذي حصل على تعليم جامعي. وقد نال درجة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية من معهد جورجيا للتكنولوجيا بأطلانطا. ولقد كان والدا روبرت يعملان في إحدى المدارس العامة على ساحل ولاية جورجيا، أما أجداده فقد كانوا من المزارعين، أما أجداد أجداده فكانوا من الأسرى الذين تم إحضارهم من إفريقيا من منطقة يوروبا بنيجيريا إلى ساحل جورجيا حيث أجبروا على العبودية. ولحسن حظ هذه العائلة فهي لم تعان من تشتت أفرادها، حيث ظلت تحيا مع بعضها البعض - بالقرب من المكان الذي رست فيه في أمريكا - قرابة القرنين.

وكان على بيلي أن يتعامل مع واقع الأسرة العرقي والقبلي طوال حياته. أما زوجته فتنتمي إلى جنس آخر. ولقد التقيا وتزوجا وهما في معهد جورجيا للتكنولوجيا. ولهذه الأسباب كان يقدر أن الوقت الذي قضاه في واشنطن على الأقل كان مفيداً لأبنائه. وبالرغم من أنه قد قضى بعض الوقت في أطلانطا وهي مدينة أخرى تتسم بالتنوع والتسامح مع الأجناس المختلفة فإنه مع ولادة أبنائه كان يقيم مع زوجته في كيب كانافيرال ثم هيوستن. وقد تم إيقاف ابنه الكبير عدة مرات من جانب شرطة تكساس بدون أي سبب واضح، أما ابنته الصغيرة فقد رأت لافتات عنصرية مكتوبة على الجدران في فلوريدا.

ولكن بيلي يشعر بأنه محظوظ، فبعد أن قضى 20 عاماً في ناسا يحقق دخلاً مكوناً من ستة أرقام كما أنه كون مدخرات واستثمارات وفتح حساباً للتقاعد كما احتفظ ببيئته في فلوريدا وتكساس بعد أن انتقل من الولايتين وحولهما إلى عقارات تدر دخلاً من خلال تأجيرهما. أما زوجته فقد اكتسبت خبرة في مجال العقارات والاثنان لديهما ثروة تتخطى المليون دولار.

وبينما يدرك بيلي أنه كدح كثيراً في حياته حتى يصل إلى ما هو عليه الآن يعي في ذات الوقت أهمية الحظ في حياته. فقد كان محظوظاً منذ البداية أن ولد لأبوين يقدران أهمية التعليم، كما كان محظوظاً إذ توافر لديه الوقت والمال للدراسة طوال هذه السنوات.

يوصل النظر بتمعن في الصور التي التقطها الرادار لهذا القمر البعيد ذى اللون الأزرق الثلجى الذى يدور داخل إحدى حلقات واحد من أبدع الكواكب داخل المجموعة الشمسية. أطلق على هذا القمر التابع المتجمد اسم أحد الآلهة الرومان الذى رعى جوبيتر وكل آلهة الرومان. فقمر كوكب زحل المسمى تيتان قد سمي خلفاً لأول موجة من العملاقة وجدت على ظهر هذا الكوكب. وكى يريح بصره ينظر إلى غيوم الهيدروكربون الباهتة لباسادينا بأشجار الحور وأشجار الأوكالبتوس والنخيل وطرقها الحرة وسياراتها وهى تدور عند مخرج معمل الدفع النفاثى. ويدرك فى هذه اللحظة مدى سعادته بتحرره فى عمله من القيود التى تربطه بالأرض. فعالم السياسة والشئون البشرية اليومية يجلب الكثير من اللبس والحيرة. الدين والعرقية والقبيلة والذات.. كل تلك الأشياء يتمنى لو ينحيتها الناس جانباً حتى يكون الناس أناساً فحسب وليسوا مجرد أداة فى يد القدر.

وعندما يكون عقل بيلى سارحاً فى الفضاء يبدو الانقسام والاختلاف ما بين البشر غير ذى قيمة بجانب هذا الكون المنتظم المتناغم البديع العظيم.

وفى الفضاء الخارجى بين المجرات الأكبر والأصغر حجماً ووسط هذا السواد الأعظم الذى يحيط بالمساحات التى تفصل ما بين النجوم والكواكب يصبح الإنسان مجرد مصدر للطاقة أو هوية أخرى تظهر على موجات الراديو أو الرادار أو نغمة موسيقية داخل سيمفونية مجرات الفضاء وترنيمات الكواكب وانفجارات الشمس وضجيج النجوم والزئير المتلاشى لنجم بعيد يسقط فى مكان مجهول.

وبالعودة إلى الأرض مرة أخرى وداخل غرفته فى وكالة ناسا الفضائية يجد قصاصة من جريدة «أتلانطا جورنال كونستيتيوشن» بعثتها إليه أمه البالغة من العمر 80 عاماً الآن، والتى لاتزال تقيم على ساحل ولاية جورجيا. وفى غرفة نومه توجد صور لوالديه وزوجته وأبنائه ممتزجة بملصقات ملونة كبيرة لكواكب المريخ وزحل والمشتري.

أما المقالة فتحدث عن مجموعة من الخبراء فى علم الإنسان كانوا يعكفون على دراسة جزيرة جورجيا الصغيرة التى عاش فيها آل بيلى لـ 200 عام. وقد ركز الباحثون على الأصول الإفريقية للبلدة، حتى عائلته، فاكتشفوا أن الجد الأكبر الإفريقى لآل بيلى هو رجل من يوروبا يطلق عليه اسم بيلالى وغالباً هو مسلم الديانة. وعلى الأقل ثلث العبيد الذين جاءوا إلى أمريكا كانوا من المسلمين ومعظمهم انتهى بهم الأمر على جزيرة آل بيلى ذاتها.

وبحث علماء الأنثروبولوجيا أيضاً فى أصول الكنيسة المعمدانية الإفريقية القديمة حيث تم دفن معظم أفراد عائلة بيلى واكتشفوا أن هذه الكنيسة، فضلاً عن الكنائس الأخرى على الجزيرة التى يعود تاريخها إلى أيام العبودية كلها تتجه نحو الشرق

إلى قبلة مكة المكرمة. كما أن أهل المدينة من كبار السن يواجهون اتجاه الشرق عندما يتلون صلاتهم المعدانية، مما يعنى أن الأفارقة المعدانيين الذين يستقبلون الشرق عند أدائهم لصلاتهم هم من المسلمين الذين تم تنصيرهم، غير أنهم نسوا من كانوا في يوم من الأيام.

وفوق كل ذلك تم تحويل مسمى عائلة بيلالى إلى الإنجليزية وتسميتهم آل بيللى قبل نشوب الحرب الأهلية بزمان. ويرجع أصلهم إلى الإفريقي بلال فى القرن السابع، وهو من أول الناس الذين اعتنقوا الإسلام وكانوا من أتباع الرسول صلوات الله عليه وسلامه. كما كان أول من رفع الأذان فى صحراء الجزيرة العربية منذ 1400 عام. وبالرغم من ضعف هذا الاحتمال، فقد يكون آل بيللى الذين يعيشون فى ولاية جورجيا من سلالة أول مؤذن مسلم يرفع الأذان ويشق صوته عنان سماء الصحراء وقت الفجر.

وقد قرأ بيللى كل هذا، بيد أنه لم يرد على والدته بعد. ترى ما هو الرد الذى تنتظره منه؟ هل ينبغى عليه أن يعبر عن فرحته لكونه الآن سليل أسمى نظام للعبودية تأسس فى العالم، وقد أصبح الآن منحدرًا من سلالة تابعى إحدى الديانات التى يهاجمها الوعاظ المعدانيون صباح كل أحد فى الكنيسة.

هل يخبر أبناءه بهذا أيضًا؟ هل يصددهم بحقيقة أخرى؟ لقد كان شاقًا فى يوم من الأيام أن يخبر هؤلاء الصغار الأبرياء أن هناك أنواعًا معينة من البشر تناهضهم بسبب لون بشرتهم فقط. لا لن يخبرهم بأخر الأخبار التى توصلت إليها أمه، فالأمر يخصها هى وحدها إن رغبت أن تصبح مسلمة تنتمى إلى أسرة بلال فى سن الثمانين فلها ذلك.

ولن يعير الأمر اهتمامًا، فهو أحد الأشياء التى تجذبه إلى الماضى بعيدًا عن النجوم. ثم ما صلة كل ذلك به فى النهاية؟

بغداد عام 780 بعد الميلاد - ومثلها مثل الرياضيات حفزت علوم الفلك تدفقًا علميًا هائلًا خلال جميع العصور الذهبية الإسلامية. وفى واقع الأمر لا يمكن التفريق بين عبقرية علماء الرياضيات وعلماء الفلك المسلمين. ويعلو شأن علماء الفلك فى بغداد حتى قبل تأسيس بيت الحكمة إبان عصر مؤسس المدينة الخليفة المنصور ثم عهد الخليفة هارون الرشيد. ويعتبر هؤلاء العلماء أنفسهم علماء فى الرياضيات وفلاسفة كما أنهم عشاق للنجوم.

وتدفع التساؤلات الخاصة بالسماء والكواكب الكثير من البحوث الحسابية خلال عصر الخلافة العباسية. ويحسب العلماء حركات النجوم ومراحل وتوقيت السنة القمرية، ويشرحون ويتنبئون بخسوف القمر، ويحاولون قياس ومعرفة طبيعة الوقت ذاتها عن طريق تتبعها من خلال المواقع المؤقتة للشمس والقمر والنجوم.

ولكن لماذا كل هذا؟ يعود الجزء الأكبر في ذلك إلى وحى وتعاليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم حول أمور الدين الرئيسية فقد بلغ المؤمنين أن الصلاة كتبت عليهم خمس مرات يومياً بدءاً من صلاة الفجر فالظهر والعصر والمغرب حتى العشاء، كما أوضح صلى الله عليه وسلم أن المسلمين يجب أن يستقبلوا اتجاه الكعبة في مكة المكرمة عند إقامة الصلاة. وعلمهم أن السنة تتكون من 12 شهراً منها أربعة أشهر حرم، والشهر التاسع شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.

وحتى العصر الإسلامي تنافست مجموعة من التقويمات السنوية لاسترعاء انتباه الشرق الأوسط ووسط آسيا. وتعد أقرب ديانتين للإسلام هما اليهودية والمسيحية من حيث استخدام تقويمات سنوية مشابهة ولكن بها الكثير من القصور وعدم الدقة أدى إلى إضافة شهر 13 كل 19 عاماً لإحداث التناغم بين التواريخ ومواضع الشمس.

ولكن القرآن يوضح بجلاء أن في السنة 12 شهراً:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. [التوبة: 36].

بالإضافة إلى ذلك، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قرر المسلمون أن التقويم الإسلامي سيحسب باستخدام السنة القمرية وهي أقصر من السنة الشمسية بنحو 11 يوماً. وفوق كل ذلك ستوكل إلى علماء الفلك المسلمين مهمة تنطوي على الكثير من التحدي فالشهور الإسلامية لن تبدأ مع اكتمال القمر، بل ستبدأ عندما يكون القمر على شكل الهلال.

ومن ثم تفرض مسألة استطلاع الهلال تحدياً آخر على علماء الفلك المسلمين. وفي البداية عندما لا يتوافر للمجتمع الإسلامي منهج فلكي رياضى مطور لمعرفة وقياس مرور الوقت يستخدم الناس مراحل اكتمال القمر لوضع التقويم، ويعتمدون في ذلك على رؤية القمر، وبهذا يعتبر أول هلال مرئى علامة على بداية الشهر. وفيما بعد عندما تصبح المناهج الرياضية الفلكية مقبولة بشكل أكبر لدى الناس، سوف يعتمدون عليها بشكل أكبر من اعتمادهم على رؤية القمر. وبحلول القرن الـ 21 تعتمد بعض الدول على الأسلوب التقليدي لرؤية الهلال، بينما تتبع دول أخرى الحسابات الرياضية.

وفي حسابات أخرى ولمعرفة توقيت اليوم يكون التحدى الحسابى فى هذه الحالة هو تحديد الجوانب والزوايا غير المعروفة لمثلث ضخم يتكون من الكرة الأرضية

والكرة السماوية باستخدام الجوانب والزوايا المعروفة. وينبغي على علماء الفلك المسلمين أن يرسموا مثلثاً تمثل نقاطه الثلاث الرئيسية موضع الشمس وسمت السماء والقطب الشمالي السماوى. أما النسب المعروفة فهي موضع الشمس والقطب السماوى الشمالي والوقت هو زاوية التقاطع للقوسين: أحدهما قوس سمت السماء والقطب والآخر قوس الشمس والقطب.

وبينما كان الإغريق الأوائل يستخدمون وسيلة مرهقة من الحسابات المكررة لقياس الوقت لم يكن أسلوبهم عملياً، حتى إنهم عند وصولهم للإجابة يكون الوقت الذى حسبوه قد مر ودخلوا فى ميقات آخر. وعبر عدة قرون يستطيع المسلمون أن يبسطوا هذه العملية باستخدام صيغ أكثر عملية لعلم المثلثات، فعلى الرغم من أن إحدى دالات علم المثلثات قد أتت إليهم من الهند مثل جيب الزاوية يستطيع علماء الفلك فى بغداد أن يحددوا الدالات الخمس المتبقية وأن يطلقوا العنان للقوة الكاملة لعلم المثلثات. والدالات هى جيب التمام وظل الزاوية وظل التمام ومعكوس جيب التمام وقاطع التمام.

ويساعد تحديد اتجاه قبلة الصلاة وتكوين التقويم الإسلامى بشكل كامل فى الدخول فى علم الهندسة الكروية ودراسة الأجسام الكروية، والتي تذهب إلى ما وراء الهندسة المستوية إلى قمم أخرى تمثل قاطرة دفع الكثير من عمل علماء الفلك والرياضيات.

بيد أن الرسول - صلوات الله عليه وسلامه عليه - والدين لم يكونا الدافع الوحيد للبحوث الفلكية الإسلامية. وعلى المستوى الإدارى اليومى توجد أسباب وجيهة تجعل الإمبراطورية التى تمتد جنبتها من المحيط الأطلنطى إلى إفريقيا فوسط آسيا وعلى سواحل الجزيرة العربية والهند تبحث فى علم النجوم، فالخلافة تحتاج إلى ممارسة الملاحة كى تجد طريقها من مكان إلى آخر.

وأخيراً فهناك علم التنجيم الباقى على استحياء وقد راجت ممارسته فى عصور ما قبل الإسلام عند الزرادشتيين والهندوس واليهود وغيرهم من الطوائف والأديان عبر الألفيات التالية. ويتهم علم التنجيم بأنه يخالف الشريعة الإسلامية، بيد أنه لن يخفى تماماً من الوجود، فبينما يرفض بعض علماء الفلك علم التنجيم كليةً يبقى عليه آخرون.

ويتأثر أوائل علماء الفلك المسلمين بكتاب براهماجويتا الذى جاء من الهند تحت عنوان «بداية الكون». ويستخدم هذا الكتاب ذو العلوم الفلكية فى حساب التقويم الهندوسى. وبالرغم من أن أصوله وأساليبه الحسابية تركز على الافتراضات أكثر من الشروح العلمية لا يقدر الكتاب - لدى المسلمين الأوائل الذين يواجهون تحديات فى تحديد الوقت المرتبط بالأحداث السماوية - بثمن.

بيد أن أبعد المصادر الأجنبية يتجلى في أعمال بطليموس الفلكية وكتابه الذى أطلق عليه اسم المجسطى بمعنى الأعظم على الإطلاق . وعندما تتم ترجمة هذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية من خلال المترجمين الكاثوليك واليهود يحتفظون بهذا الاسم .

ورغم أن هذا الكتاب يشوبه الكثير من الأخطاء بما فيها مركز الأرض بالنسبة للكون ، حيث يزعم الكتاب أن الأرض هي مركز الكون فسوف تصمد تلك النظريات حتى ظهور حسابات كوبرنيكوس . ويعتبر المسلمون أعمال بطليموس أفضل نظرة عامة لشرح وظائف السماء ، ويكرسون الكثير من الوقت والجهد لفحص وتحقق ونقد وتحسين صيغ بطليموس . ويبدأ البعض منهم فى اكتشاف أخطاء وتناقضات وحتى إن بعضهم يتشكك فى نظرية أن الأرض هي مركز الكون .

وتزداد الأدلة الخاصة بوجود مناقشات دائرة حول حركة الكرة الأرضية ما بين الفلاسفة وعلماء الفلك المسلمين . ويشمل هذا الجدل علماء مثل البيرونى فى القرن الـ 11 والطوسى فى القرن الـ 13 . ويتشكك البيرونى ومصدر إلهامه فى ذلك النظريات الهندية التى ترى أن الشمس هي مركز الكون فى نموذج بطليموس ، الذى يرى أن الأرض لا تتحرك . أما حجة البيرونى فى ذلك فهي أن الأرض ربما تكون تدور حول نفسها . وبحلول القرن الـ 13 يعترض علماء الفلك المسلمون على الأدلة التى يقدمها بطليموس ويرون أن حجج بطليموس لا تقطع بأن الأرض ثابتة بلا حراك .

وعلى هذا يصبح العمل على إيضاح الإشارات التى تنوه إلى دوران الأرض وتقديم الأدلة القاطعة على حركة الأرض من أكثر الأمور الجدلية فى علم الفلك الإسلامى بعد القرن الـ 13 وصولاً إلى فترة كوبرنيكوس ، بل ربما يغذى هذا الجدل هذه الفترة أيضاً .

ويدور جدل مواز للجدل السابق ذكره فى أوروبا ما بين علماء اللاهوت أشباه الفرنسى نيكول دوارسيم وجان بيوريدان . وبينما تتفتح عقول العلماء المسلمين لفكرة دوران الأرض يرفضون أن يجزموا بذلك حتى تظهر أدلة قاطعة عليه . وتنتشر المناقشات الخاصة بدوران الأرض فى أماكن أخرى فى أوروبا بالرغم أن مثل هذه القضايا تظل داخل إطار علوم اللاهوت بينما هي فى العالم الإسلامى تضحى جزءاً من الخطاب العلمى البحت .

وهناك بعض الأدلة تشير إلى أن كوبرنيكوس يأخذ هذه المسائل الفلكية الهامة من علوم الفلك العربية . ويستخدم كوبرنيكوس حججاً مماثلة لدحض أدلة بطليموس الزاعمة بأن الأرض ثابتة . ويحاول فى ذات الوقت إيجاد صرح حسابى يتناول حركة الكواكب . ويشبه هذا الصرح الحسابى النموذج الذى صممه الطوسى وعلماء الفلك المسلمون الآخرون . وتكمن عبقرية كوبرنيكوس فى إثباته أن الأرض تدور حول نفسها كما أنها تدور حول الشمس . ويبين المؤرخ العلمى توماس كوهن فى

كتابه ثورة كوبرنيكوس - دور علوم فلك الكواكب في تطور الفكر الغربي أن هذه «الثورة الفلكية» تحدث نتيجة للعديد من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية وليس مجرد مراجعة للفكر العلمي الناتج عن أدلة علمية واضحة.

وفي القرن 15 يكون عالم الفلك المسلم القشجى أكثر انفتاحاً لفكرة دوران الأرض. ووفقاً لما جاء على لسان الأستاذ جميل رجب من جامعة ماكجيل قال القشجى إنه في حالة ظهور فيزياء أكثر إقناعاً قائمة على أساس مقدمات منطقية معينة والدليل المبني على الملاحظة فهو علي أتم استعداد لأن يقبل بفكرة دوران الأرض. وتجعل هذه العبارة «القشجى متميزاً بين علماء فلك وفلاسفة القرون الوسطى».

وتعد إحدى النقاط التي يصيب فيها بطليموس، والتي يقبلها أيضاً المفكرون المسلمون فكرة أن الأرض كروية. وبحلول العصور الوسطى يكون الدليل المادي على أن الأرض كروية موجوداً لدى بعض الناس، وذلك بالرغم من أن الخرائط الأوربية تظهر الأرض على أنها مسطحة. كما كانوا يكتبون عند الحواف العبارة التالية: «بعد هذا الحد توجد تنانين». ولكن منذ العصور القديمة لاحظ البحارة أن للأرض شكلاً كروياً. واعتمد حسابات خطوط الطول على أن الأرض دائرية وبدون ذلك لم يكن للهندسة الكروية أن تتطور.

ويستفيد المسلمون أيضاً من خرائط النجوم الساسانية (الفارسية) التي يطلق عليها اسم «الزيج» وهو عبارة عن نظام متميز لمراقبة ورسم السماوات. ويعد ما شاء الله بن آثار الذي أطلق عليه المترجمون اللاتينيون اسم Messahala عالم فلك يهودياً من أصل فارسي ويعمل مع نوبخت في بغداد داخل بلاط الخليفة المنصور وهارون الرشيد. ويستشير هارون الرشيد هؤلاء الرجال في أمور فلكية خاصة باختيار موقع بغداد الجديد وذلك بخلاف أمور أخرى.

ويُستدعى إبراهيم الفزاري، وهو فارسي، من قندوز (المكان الذي يطلق عليه الآن اسم أفغانستان) إلى بلاط هارون الرشيد. وهناك يكتب بحثاً عن الأسطرلاب وهي عبارة عن آلة فلكية قديمة ترجع أصولها إلى الإغريق وعهد بطليموس غير أن هذه الآلة تصل إلى أعلى مراحل تطورها أيام المسلمين. والأسطرلاب عبارة عن جهاز مناظر للكمبيوتر يتسم بتعدد تركيبه وبنائه ويسمح للمستخدم المتمرس على استخدامه بتحديد خطوط العرض عن طريق التنويه إلى أقرب مجموعة من النجوم الثابتة إلى الشمس ساعة بزوغ النهار، ثم عند الظهر يقوم بقياس درجة الاختلاف بين الشمس والأفق باستخدام إبرة متحركة. ومن خلال مقارنة هذه القياسات بخريطة يستطيع المستخدم أن يحسب خطوط العرض. ويعد الأسطرلاب أساس عمل الملاحة حتى القرن الـ 18 عندما يتم استبدال الآلة السدسية به. ويساعد الأسطرلاب في تحديد المواقع فضلاً عن مواقيت الصلاة.

وتصل أجهزة الأسطرلاب الإسلامية إلى قمة تطورها في القرنين التاسع والعاشر وتجد طريقها إلى الأندلس، ومن الأندلس إلى إنجلترا في القرنين 13 و14. أما الكاتب والشاعر الإنجليزي جيفرى تشوسر صاحب حكايات كانتربري فتجذبه قوة الأسطرلاب ويكتب مقالة عنه. وينبهر العلماء في جامعة أكسفورد بهذا الجهاز ويبدؤون في تطوير أدواتهم الخاصة ويدمجون النصوص العربية القديمة وأسماء النجوم العربية داخل تصميماتهم.

أما أسماء تلك النجوم التي سوف تدوم حتى وقت رحلات الفضاء وما بعد ذلك فستردد أصداء بيت الحكمة، حتى عندما تواصل مسابير الفضاء الغوص أكثر فأكثر في أعماق الكون ويوجهون وجهتها إلى النجوم ذات الأسماء العربية التي أطلقها عليهم فلكيون مسلمون منسيون. فأسماء مثل سمت وسموت تُشقق أساساً من اللغة العربية، كما أن أسماء النجوم تبدو وكأنها نابعة من لغة الشعر العربية الصحراوية مثال فيجا (النسر الواقع) والطير (النسر الطائر) وذنب (ذنب الدجاجة) بيت الجوزاء والرجل والدبران وفم الحوت والجوزاء وكوكبة الإكليل الشمالي والفرس والمراق.

ويواصل الفزارى ووليه ابنه محمد بحثهما، وذلك بأن يبدأ في ترجمة النصوص الهندية الرقمية إلى اللغة العربية وهي مهمة يستكملها الخوارزمي في القرن التاسع.

ويحدث العالم الأندلسي المجريطى فى مدريد الجداول الفلكية التي صممها الخوارزمي بعد مرور 200 عام ثم تتم ترجمة هذه الجداول إلى اللغة اللاتينية بواسطة أبلار في عام 1126. وتشكل جداول الخوارزمي والمجريطى أساس علوم الفلك الأوربية والآسيوية لمئات السنوات التالية.

وبالرغم من كل الاكتشافات الفلكية التي تحققت فى ظل خلافة المنصور وهارون الرشيد فإن العصر الذهبى لعلوم الفلك الإسلامية لن يحدث إلا فى القرن التاسع تحت حكم المأمون وبرعاية بيت الحكمة. فالمأمون لن يجذب علماء الفلك ليأتوا إلى بغداد فحسب، بل سيدعم إنشاء شبكة من المراصد الإسلامية. ويتم تأسيس أحد هذه المراصد فى جنديسابور مقر مركز التعلم الفارسى القديم. وفى أثناء العمل فى هذه المراصد يطور علماء الفلك المسلمون مقياس دائرة خط الزوال بشكل أكثر دقة من الإغريق وهو الخط الشمالى الجنوبى النظرى على سطح الأرض.

ويؤسس المأمون مراصد أخرى أحدها على البوابة الشمسية فى بغداد وآخر على جبل قيسون الذى يطل على دمشق. ويدير مرصد الشمسية اليهودى الذى اعتنق الإسلام سيد بن آل. وتُشيد مراصد أخرى فى واسط بالعراق والأفاميا فى سورية.

وفى كل هذه المراكز يكرس علماء الفلك والرياضيات جهودهم لترجمة وإثبات وتحليل نظريات بطليموس. ويحاولون قياس درجة طول دائرة خط الزوال ويحسبون أبعاد الكرة الأرضية ويفهمون ظواهر الخسوف والكسوف والاعتدال الربيعى أو الخريفى والمذنبات.

ويقومون بكل هذا بدون استخدام التلسكوبات وبتطبيق علم المثلثات المتطور لديهم على الهندسة الكروية. ويحسب علماء الفلك العباسيون أن قطر الأرض يبلغ 7909 أميال (وهو فى واقع الأمر 7932 ميلاً) وأن المسافة حول خط الاستواء هى 24835 ميلاً (وهى فى الواقع 24906 أميال). كما يحسبون متوسط درجة طول دائرة خط الزوال على سطح الأرض وتختلف تلك الحسابات بمقدار 2800 قدم فحسب فى دقتها عن الأصل؛ أى أكثر بقليل من نصف الميل. ويقوم علماء الفلك المسلمون بحساب زاوية ميل الأرض على محورها المعروفة باسم انحراف دائرة البروج وخطوط العرض على سطح القمر الموازية لخط استوائه وتمايل الكرة الأرضية على محورها وهى الظاهرة المشهورة باسم مبادرة الاعتدال الربيعى أو الخريفى. ويعد كل ما سبق من أهم الحسابات التى أجريت فى العصور الوسطى.

ويستدعى للحضور إلى بيت الحكمة أيضاً عالم الرياضيات الفارسى والفلكى الفرغانى من مدينة فرغانة القديمة التى تقع فى منطقة وسط آسيا، والتى تعرف فى وقتنا الحاضر باسم أوزبكستان. ويخرج الفرغانى من قلب أرض الزرادشتيين بالقرب من البوابات الغربية للصين حيث كان الرجال يتطلعون إلى السماء بحثاً عن معنى ورسالة ما منذ أيام الملوك الثلاثة الفارسيين أو المجوس الذين سافروا إلى بيت لحم بعد أن جذبهم إليه حدث كونى باهر. ويتشاك حب الفرس الآسيويين للنجوم مع معرفتهم بالسحر والعلوم الهرماتية ورغبتهم فى تقديس أسرار الحياة والكون. ويفرز هذا المزيج الثرى من علوم الفلك والمدارس القديمة للتنجيم والسحر مجموعة من أعظم علماء الفلك يولدون فى سهل منطقة وسط آسيا. وربما يخبرنا هذا أنه بالرغم من تطور العلوم يبقى حب التنجيم، حتى عندما يشير عدد لا حصر له من المفكرين والحكام أن القرآن الكريم ينفى تماماً ارتباط مقدرات البشر وتأثرها بقوى ما وراء الطبيعة وأن الله وحده جل جلاله هو الذى يتحكم فى تلك الأقدار.

ويكتب الفرغانى موجزاً عربياً جذاباً لكتاب بطليموس الشهير المجسطى فى حدود عام 833. ويوزع هذا الموجز سريعاً داخل أرجاء العالم الإسلامى ثم يترجم إلى اللغة اللاتينية فى صور مختلفة بعد ذلك بنحو 300 عام. ويقوم بأعمال الترجمة هذه كل من جون السيفيلى وجيرارد الكريمنى. ويتحول اسم الفرغانى باللاتينية إلى الفراجانوس ويطلق على أحد فوهات القمر.

وقبل عصر النهضة الأوروبية بزمان بعيد يكتب الشاعر الإيطالى دانتي فى

القرن الـ 13 باستخدام اللغة الإيطالية العامة بدلاً من اللاتينية ويصف في ملحمته الشهيرة الكوميديا الإلهية صعوده إلى درجات مختلفة في السماوات. وتأتى فكرة الكرة السماوية لدانتى من خلال قراءته للترجمة اللاتينية المأخوذة أساساً من الترجمة العربية لكتاب المجسطى فى أثناء دراسته فى الجامعة، فضلاً عن قراءته لبعض الكتب ذات المصادر العربية التى تحكى قصة صعود النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى السموات السبع (أو المعراج).

وفى بيت الحكمة فى القرن الـ 10 يضع عالم الرياضيات البتانى، الذى يشتهر فى أوربا باسم الباتجينيوس، الجداول الحسابية الخاصة به. وتجد الجداول الفلكية المنقحة طريقها إلى اللغة اللاتينية والإسبانية فى القرنين الـ 12 و13. ولأسباب مبهمه تحقق هذه الجداول رد فعل محدوداً فى العالم الإسلامى إلا أن النسخ الأوربية منها تستقبلها الدول الأوربية بالكثير من الحفاوة. وبعد مضى 700 عام على كتابة تلك الجداول يشير كوبرنيكوس إلى جداول البتانى 23 مرة فى كتابه المعنون بـ «ثروة الكرات السماوية». وفيما بعد عندما تمر الخلافة العباسية فى بغداد بمراحل الاضطراب فى القرن الـ 11 ومع بزوغ فجر الأسرة الفاطمية فى مصر ينتقل المشهد الفلكى الإسلامى إلى القاهرة، ويميز مرحلة الانتقال هذه وقوع حدث سماوى نادراً ما يشهده بشر، اللهم إلا المحظوظون، بيد أن هذا الحدث يبدو عظيماً وغريباً لدرجة أن البعض يعتبره شئوماً أكثر من كونه خيراً.

فى عام 1006م عندما يكون الخليفة الفاطمى - المتقلب المزاج غير أنه بعيد النظر - الحاكم بأمر الله فى الـ 21 من عمره وبعد مضى عام على تأسيس دار الحكمة فى مصر يظهر فى السماء نجم جديد ساطع ليلاً فى السماء الجنوبية، ويلمع هذا النجم على جدران جامعة الأزهر ومآذن جامع الحاكم بأمر الله وفوق الشريط النحاسى لنهر النيل وأهرامات الجيزة جنوب المدينة. واستمع إلى الوصف الذى يقدمه عالم الفلك الشاب المغمور ابن رضوان:

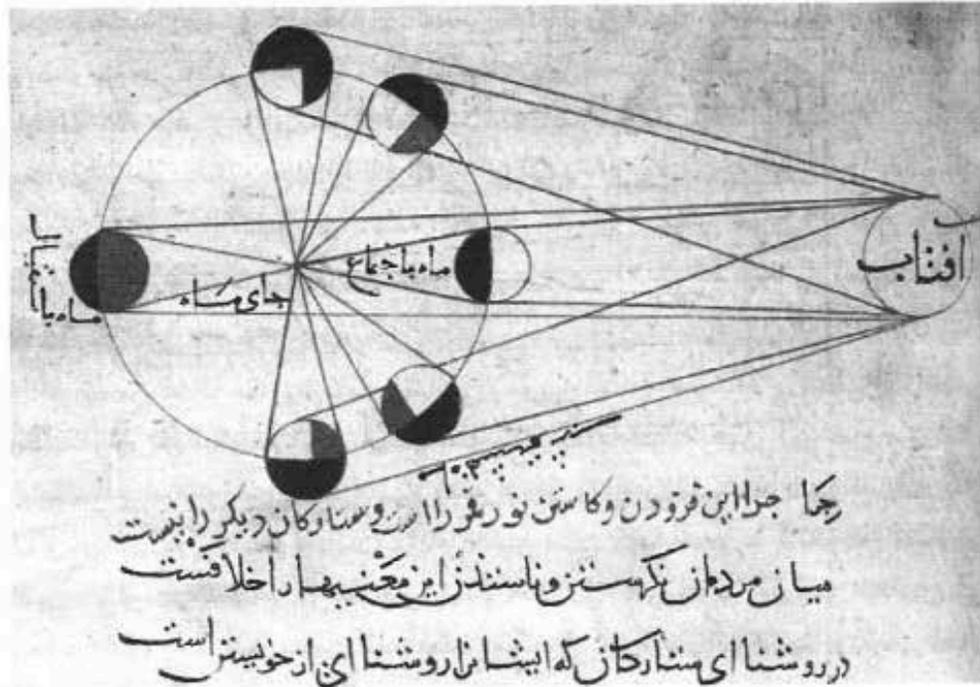
سوف أصف الآن المشهد الذى رأيته عند بداية تعلمى. هذا المشهد ظهر فى برج العقرب فى الاتجاه المعاكس للشمس، كانت الشمس فى ذلك اليوم على بعد 15 درجة فى برج الثور (أى على بعد 15 درجة من بداية برج الثور على الدائرة الكسوفية) وكان المشهد على بعد 15 درجة من برج العقرب. هذا المشهد كان جسماً دائرياً كبيراً قطره ما بين 2.5 إلى 3 مرات قطر كوكب الزهرة. وكانت السماء تشع بسبب ضوئه العالى. حيث كان ضوءه يزيد قليلاً عن ربع إضاءة القمر. وقد ظل فى مكانه إلى أن أصبحت الشمس على بعد ستين درجة منه فى برج العذراء (السنبلة) فاخفى (18).

ويشهد الناس هذا الحدث الجلل ويتم تسجيله من سويسرا حتى الصين فضلاً عن الأقطار التي تقع بينهما غير أن أحداً لن يفهمه . وتتكشف أسرار هذا اللغز بعد مرور ألف عام عندما يهل عصر سفن الفضاء ويدرك علماء الفلك ها هنا أن ما شهده ابن رضوان كان شيئاً خارقاً ، حيث شهد انفجار نجم .

وبالرغم من أن الكثير من المراقبين ينوهون إلى رؤية هذا الحدث السماوي ، فابن رضوان هو الوحيد الذي يقدم وصفاً واضحاً لموقع هذا النجم الساطع ومدة بقائه في السماء وبذلك يستخدم العلماء وصفه هذا بعد مرور ألفية كاملة . وباستخدام هذا الوصف الذي قدمه ابن رضوان للنجم يستطيع العلماء في بلد يطلق عليه اسم الولايات المتحدة فيما بعد أن يحددوا موقع بقايا هذا النجم ، ويطلقون عليه اسم المستعر الأعظم أو الطارف الأعظم لعام 1006 بعد عام من اكتشاف هذه الظاهرة . ويبعد هذا النجم 7000 سنة ضوئية عن الأرض ، كما أن البلازما الداخلية له لا تزال تحترق بدرجة مليون درجة مئوية في القرن الـ 21 . وبحسب العلماء درجة لمعانه ويجدون أنها في عام 1006 كانت 7.5 مما يجعل لـ «المستعر» أكثر وأعظم توهج تم تسجيله في التاريخ كما أنه أكثر لمعانا من كوكب المشتري بمقدار 100 مرة .

وبالرغم من أن ابن رضوان لن يواصل اهتمامه بالنجوم حيث يصبح طبيباً فيما بعد فإنه يكتب وصفه للمستعر الأعظم في عام 1006 وهو في الـ 18 من عمره . ويبين هذا أن القاهرة الفاطمية سوف تفرز العديد من علماء الفلك المسلمين . ويتربع على عرش علماء الفلك هؤلاء أعظمهم على الإطلاق ، ألا وهو ابن الهيثم مؤلف كتاب المناظر ، حيث يمزج ما بين اهتمامه بالعلوم التجريبية والبصريات والضوء والسموات وبذلك يخرج بأكثر نظريات الكون المادى دقة حتى عصر جاليليو وكوبرنيكوس . ويعد أحد الفلكيين البارزين الآخرين «ابن يونس» الذي يصمم جداول للنجوم تحت رعاية الحاكم بأمر الله وتعرف باسم «الزيج الحاكمي» . ويضحى الزيج الشامل الذي يخلص إليه أساس معرفة الوقت بالرجوع إلى السماء لمدة 800 عام في جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وذلك بالرغم من أن الأوربيين لن يعرفوا شيئاً عنه حتى القرن الـ 19 . ولن يتميز الزيج الذي يضعه ابن يونس بسبب دقته فحسب؛ ولكن لكونه يستهله بمائة تعليق يشرح فيها الظاهرة السماوية مثل ظاهرة الاقتران ما بين جرمين سماويين فضلاً عن خسوف القمر وكسوف الشمس .

وفي القرن الـ 10 يفقد العباسيون في بغداد قوتهم أمام البويهيين ، الذين يعود أصلهم إلى المحافظة الفارسية ديلم التي تقع جنوب بحر قزوين . بيد أن أسرة البويهيين التي يستمر سلطانها لفترة قصيرة ستواصل رعايتها لعلم الفلك وبقية العلوم . ويرعى أحد الحكام البويهيين أبو محمود حامد بن الخضر الخجندی الذي يولد في المكان الذي يعرف اليوم باسم طاجكستان وهو سليل إحدى القبائل ذات المنزلة السامية في المنطقة .



رسم بیانی صممه العالم الفارسی البیرونی یوضح أن خسوف القمر يحدث عندما يحجب كوكب الأرض وصول ضوء الشمس إلى القمر.

ويتذكر الناس الخجندی بسبب إنشائه لآلة فلكية ضخمة في القرن العاشر على قمة جبل في مدينة الري في بلاد فارس لا تبعد بكثير عن طهران. وتشبه وظيفة هذا الهيكل الضخم عمل الآلة السدسية وهي اختراع آخر من اختراعات المسلمين. ويستند اختراعه هذا إلى اعتقاد المسلمين الذي له مبرراته في ذلك الوقت بأن كبر حجم جهاز القياس يؤدي إلى دقة أكبر في أخذ القياسات فضلاً عن دقة الحسابات الفلكية الناتجة عنه.

ويبدو هذا الهيكل الذي أسسه أشبه بالحجرة المظلمة الضخمة التي توازي ما وصفه ابن الهيثم، فهو عبارة عن هيكل له فتحة من أعلى تسمح بدخول ضوء الشمس وتتقاطع مع جدار من الخطوط والحسابات. وتسمح عمليات أخذ قياسات زوايا ضوء الشمس إبان انقلاب الشمس الصيفي والشتائي للخجندی بحساب خطوط عرض مدينة الري وزاوية الدائرة الظاهرية لمسیر الشمس، كما أن هيكله الضخم هذا هو أول أداة فلكية قادرة على قياس أجزاء الثانية، وهي عبارة عن وسيلة قياس أكثر دقة للزوايا عن الدرجات وأجزاء الدقيقة.

وتتردد أصداة انتشار المعرفة الفلكية والعلمية من بغداد لدى الخلافة الأموية في قرطبة، وذلك في القرن الـ 11 والأندلس في قمة ثروتها وتطورها. وبالرغم من أن أول قرنين من التطور الفكري في الأندلس كانا عبارة عن محاولة طموح منها للحاق

بمدينة بغداد البعيدة إلا أنه بحلول القرنين الـ 10 و 11 يجذب عدد كاف من العلماء والمفكرين من أقصى أطراف العالم الإسلامي بواسطة الرواتب المغرية التي تضعها الخلافة الأموية كي تجعل من قرطبة مدينة منافسة. ويضم علماء الفلك الذين يأتون بخبرتهم الطويلة في مجال الفلك العالم ابن تيمية من بغداد، بيد أن أول عالم فلك يخرج من تربة الأندلس هو مسلمة المجريطي. ولكن موطن هذا العالم ليس قرطبة بل مدينة إسبانية ذات شمم وإباء تصبح في يوم من الأيام العاصمة الرئيسية للملوك الكاثوليك وهي مجريط أو مدريد.

ويؤسس مدينة مجريط ناسع الخلفاء الأمويين الأمير محمد الأول على الأراضي الجافة والمرتفعة لمنطقة شمال وسط إسبانيا ويحميها جدار جبال البرانس من شتاء الشمال الرطب. ويأمر الأمير بتشييد قصر صغير وجامع بالقرب من نهر مانزاناريس الذي يتدفق من سلسلة جبال جواداراما. وتعنى كلمة مجريط بالعربية «مجرى النهر» وتزدهر مدينة مجريط حتى الغزو المسيحي الذي يقوده ألفونسو السادس في عام 1065. وبعد الغزو يعاد بناء المسجد ويتحول إلى كاتدرائية المدينة ويختفى قصر الأمير في يوم من الأيام تحت القصر الملكي، وبذلك تنتهي آثار المعمار الإسلامي في مدينة مدريد الحديثة بين غيابات التاريخ. بيد أنه حتى حكم الملكة إيزابيلا وتحت الحكم الإسلامي ثم الكاثوليكي تظل إسبانيا مكاناً خصباً للتمازج بين الشعوب. ويعيش في مدريد في القرن العاشر المسيحيون المستعربون من سلالة الرومان والقوط الغربيون ويتعلمون اللغة الجديدة في إسبانيا، فتجد في هذه البلاد اليهود الذين يتحدثون العربية والمسلمين من جميع الأجناس والأعراق. وحتى عهد محاكم التفتيش الإسبانية تعيش كل هذه المجموعات وتعمل في سلام موصول.

وينظر المجريطي كصبي إلى أعلى حيث الهواء الجاف العليل لمدينة قشتالة (كاستيل) ويراقب نفس النجوم والكواكب كما تبدو من السماء الشرقية البعيدة وذلك مع اختلاف البانوراما والحركة الخاصة بموقعه في الغرب. ويهتم المجريطي - الذي يقف وتحيط به بساتين الزيتون والبرتقال والليمون - بكل من السماء والأرض، وينظر إلى الحقول والحدائق الغناء ذات الشكل المنظم والمنتظم وإلى الطرق التي تشير إلى اتجاهات البوصلة وإلى الجدران التي تطوق قطع الأراضي التي يمتلكها الأغنياء والفقراء والنبلاء والعامّة ويفكر في هندسة الأرض. ويكتشف أن مسطح الأراضي في مدينة مجريط ينقسم إلى مربعات ودوائر ومستطيلات. ثم تنتقل عيناه لترصد قطع الأراضي ذات الأشكال غير الاعتيادية شأن متوازي الأضلاع والمعين والمخمس ثم قطع الأراضي الزراعية التي نحتتها الأنهار. ويعمن التفكير في المضامين الحسابية لكل هذه الأشكال.

وفيما بعد في أثناء خدمته للخلفاء الأمويين يدرس ويحلل ترجمة الخوارزمي والترجمات العربية الأخرى لكتاب المجسطي ويضيف إليها المزيد من التعليقات. كما

يصحح الجداول الفلكية للخوارزمي بعد مضي 150 عاماً على وفاة مبدع الأرقام هذا. وفي هذه البلاد البعيدة للعالم الإسلامي يخترع المجريطى وسيلة عبقرية لتحويل التقويم الفارسي القديم إلى تواريخ تعتمد على التقويم الإسلامي، وبذلك يساعد لأول مرة في القيام بحسابات أكثر دقة وتحديداً للتواريخ والأحداث الفارسية التي وقعت في فترة ما قبل الإسلام.

ولعل ما يعد أهم من تلك الابتكارات والإسهامات الشخصية أن المجريطى يساعد من خلال شهرته المتزايدة داخل موطنه وشمال البرانس في واحدة من أعظم عمليات نقل الأفكار عبر الثقافات المختلفة في تاريخ البشرية. وتبدأ تلك العملية على نطاق ضيق من خلال ترجمته لأعماله إلى اللغة اللاتينية. وتغذى هذه الترجمات النهمة الأوربي للحصول على المزيد من الأفكار من كل المعلمين والأسلاف القادمين من البلاد البعيدة بدءاً من بطليموس ومروراً بالخوارزمي فوصولاً إلى البناني. وبعد مرور قرن على وفاته في عام 1006 يشرع القساوسة الكاثوليك والمفكرون في اعتياد السفر إلى إسبانيا الإسلامية. وهناك تشكل أعمال المجريطى نقطة البداية بالنسبة لهم وبذلك تفتح الأبواب إلى عالم أعمال العلماء المسلمين في مجال الفلك والرياضيات والفلسفة، فلن يدرس البابا سلفستر الثاني أول بابا فرنسي في إسبانيا ويعرف الكثير عن المجريطى فحسب، بل كذلك بيير أبيلار وجيرارد الكريموني وروبرت من تشستر وأفلاطون من تيبور، وكثيرون آخرون يدخلون عالم الأسرار هذا من خلال أعمال المجريطى.

وبخلاف نقل التاريخ تكوّن لأفكار المجريطى تأثير مباشر على أرض الواقع، فباستخدام التحسينات العربية الشرقية التي تم إدخالها على الأسطرلاب يستفيد من هذه الآلة في قياس مساحات الأراضي وهي نفس المساحات التي بدت له على غرار الأشكال الهندسية عندما كان صبياً. وباستخدام الأسطرلاب يستطيع المجريطى وزميل له يدعى ابن الصفار أن يدخلوا أول تطور في أسلوب قياس الأراضي الأوربية منذ عهد الرومان، فالأسطرلاب لن يستخدم فحسب في تقسيم بمائتين الزيتون والبرتقال والليمون، بل يستخدم أيضاً في رسم حدود ترع الري سورية التصميم التي سوف تروى المساحات الجافة الشاسعة في أراضي الأندلس.

وتنتشر روح إبداع المجريطى ورؤيته عبر شبه الجزيرة، ولن يتوقف تردد أصدائها إلا في زمان حرق المكتبات والطرده الجبرى للأجناس المختلفة في عام 1492.

وبعد مضي 20 عاماً على وفاة فلكي مجريط يولد صبي جديد يحمل بداخله أسئلة جديدة عن الوقت والنجوم. وهذا الصبي الذي يدعى «أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الزرقالي» ويعرف باللاتينية باسم Arzachel. ويعلو نجم هذا العالم في طليطلة وهي مدينة الصלב الأندلسي التي تقع على ضفاف نهر التاجه.

ويعود تاريخ مدينة طليطلة إلى ما قبل الفتح الإسلامى . ويرى التاريخ أن هذه المدينة قد تأسست فى القرن السادس قبل الميلاد بواسطة مجموعة من المستعمرين اليهود الذين كانوا جزءاً من الحضارة الفينيقية التى تعود أصولها إلى لبنان البعيدة . ويطلق هؤلاء اليهود على هذه المدينة اسم توليدوث التى تعنى «أم الشعوب» . وبحلول عهد الرومان تشتهر المدينة بكونها مدينة الجمال وصناعة الأسلحة . وتزداد أهمية هذه المدينة بحيث تصبح عاصمة القوط الغربيين فى عهد الملك لذريق فى 709 .

أما فى ظل حكم المسلمين بالرغم من أن طليطلة لن تكون العاصمة فسوف تزدهر كثيراً . وتتخذ اسمها العربى طليطلة . تتميز هذه المدينة بالثراء والإنتاجية كما تنتج مسابكها أفضل السيوف فى العالم . أما بالنسبة لشعبها فتعتبر طليطلة القلب الثقافى والروحى والفكرى لإسبانيا . وفى يوم ما فى المستقبل تصبح هذه المدينة هى مدينة ألفونسو الحكيم وميجيل دى ثربانتس وأنجريكو .

هذا هو العالم الذى يولد فيه الزرقالى فى عام 1029 ، ولا ينتمى إلى عائلة من العلماء بل إلى الحرفيين الماهرين . فهم يصنعون الأدوات والأجهزة بناءً على توجيهات العلماء والحكماء . ولا يذهب الزرقالى إلى بيت الحكمة أو أى دار علم بل يمتن مهنة أبيه وأعمامه ويتعلم جوانب كثيرة فى مجال النقش على الحديد والمعادن ، وتعنى كنيته بالعربية «النقاش» .

ويوكل إليه أحد رعاته مهمة عمل جهاز فلكى كى يستخدمه مجموعة من الفلكيين البارزين . ويتميز عمل الزرقالى بالدقة الشديدة ، الأمر الذى يسترعى انتباه الفلكيين فيرسلون فى طلبه ويمتحنونه فى معرفته للعلوم والفلك ، فيضحك ويقول إنه حرفى وليس عالماً ويزعم أنه لم يفتح كتاباً فى حياته .

ويقرر الفلكيون أن عمل هذا الشاب يتسم بمنهجية خاصة وأسلوب ينوهان إلى وجود موهبة دفينية لديه . ويشجعونه على الذهاب إلى المدرسة فيفعل ذلك وهو فى سن الـ 31 . وعندما يعود إليهم بعد مرور عامين يبهرهم التقدم الذى أحرزه ، وبذلك يجعلونه عضواً فى مركز الاختراعات ثم يصبح مديراً لهذا المركز فيما بعد .

يصمم الزرقالى ويبنى أسطراباً متطوراً . وأهم من ذلك أنه يكتب مقالاً عن الأسطراب الذى يؤدى إلى ظهور نوعية معينة من الأدبيات تغوص فى أعماق جهاز الأسطراب . وبعد أكثر من 200 عام من وفاة الزرقالى يقوم ملك قشتالة ألفونسو العاشر بإجراء ترجمتين لمقالاته .

يتحول الزرقالى فيما بعد إلى صناعة آلات الزمن . وفى نفس العام أى عام 1062 يصمم ويبنى ساعة طليطلة المائبة الأسطورية الضخمة . ولا تشير هذه الساعة إلى ساعات الليل والنهار فحسب ، ولكن إلى أيام التقويم القمري أيضاً ، ذلك الضرورى جداً للعالم الإسلامى . ويصف أحد المراقبين الساعة كالتالى :

ومن غرائب الأندلس: البيلتان^(*) اللتان بطليطلة، صنعهما عبد الرحمن [أبو القاسم عبد الرحمن الزرقال]... فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم واللييلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال، فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم واللييلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان فى ليلة خمسة عشر وأخذ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم ولييلة نصف سبع [حتى يتم القمر واحداً وعشرين يوماً فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص فى كل يوم ولييلة نصف سبع] فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء، وإذا تكلف أحد حين تنقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعنا ذلك نم حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما من تلك الساعة، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق فيهما شيئاً ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما فى الحين. (19)

ويعمل هذا الجهاز العجيب حتى القرن الـ 12 عندما يأتي مخترع مسلم أقل إبداعاً فيطلب من الملك ألفونسو السابع ملك طليطلة التى أعاد المسيحيون غزوها بفك أجزاء الساعة كى يفهم كيف تعمل. ويوافق الملك على ذلك، بيد أن هذا العالم يفشل فى فهم ميكانيكيات الساعة، ومما يزيد الطين بلة عجزه عن تركيب أجزائها مرة أخرى.

ويساهم الزرقالى أيضاً فى حساب الأزياج الطليطلية التى تعتبر من أدق حسابات البيانات الفلكية حتى ذلك الوقت. ويكتب واحداً من أوائل الكتب فى مجال المناخ، ويطلق عليه اسم «الصحيفة الزيجية». وقد دخلت كلمة «المناخ» إلى اللغات اللاتينية وأصبحت (almanac) ويحتوى هذا العمل العبقري على مجموعة من الجداول تسمح للمستخدم بمعرفة ميعاد بدء الأشهر الإسلامية والفارسية والرومانية والقبطية. وتتنبأ الجداول أيضاً بخسوف القمر وكسوف الشمس وتسمح للفرد بمعرفة مواقع الكواكب فى أى يوم محدد.

(*) البيلة: حوض النافورة، وترادفها فى الاستعمال أحياناً لفظة «خصة» وهى بالإسبانية والإيطالية "Pila".



صورة عمر الخيام الشاعر الفارسي والفلكي وعالم الرياضيات
الذي عاش في القرن الـ11 وقام بجمع الأزياج الفلكية وضبط التقويم

وحتى عندما يصل الزرقالي إلى أوج نجاحه يضطر إلى الرحيل من مدينته الحبيبة
طليطلة بسبب العنف وعدم الاستقرار الذي يأتي به الغزو المسيحي . وتسقط طليطلة
في يد ألفونسو السادس في عام 1085 وتليها مجريط . وبالرغم من المجموعات الأولية

للدويلات التي يحكمها المسيحيون بنظام التعايش بين الديانات السماوية الثلاث فلن تشبه بأي حال من الأحوال عهد الملكة إيزابيلا التي تتميز بالطهارة العرقية لمدة 400 عام، مما يعنى أن الاختراعات الإسلامية داخل الطوائف المسيحية ستستمر الآن، ولكن تحت الرعاية المسيحية.

وبعد مرور عقود على موت ضابط الوقت الطليطلى يولد في المغرب نور الدين ابن إسحاق البطروجى ويعرف باللاتينية باسم ألبرتراجيوس. وفي نهاية المطاف يجد طريقه إلى مدينة إشبيلية البديعة.

وتعتبر مدينة إشبيلية من المدن العتيقة ذات التاريخ العريض، مثلها في ذلك مثل طليطلة، كما أنها تعد ميناء؛ حيث إنها تطل على نهر الوادى الكبير. وربما يكون قد غزا هذه المدينة الفينيقيون أيضاً وأصبحت فيما بعد موطناً للرومان والإغريق. وتعتبر إشبيلية بالنسبة للأمويين ثم الملوك المسلمين والمسيحيين جوهرة إسبانيا. ويزين المسلمون جنباتها بجامع فخم يدمره المسيحيون فيما بعد كى يؤسسوا كاتدرائية. ويعاد استخدام مئذنة هذا الجامع المرتفعة التي لها لون الرمال، والتي كانت من قبل تقوم أيضاً بوظيفة المرصد فيما بعد كبرج لأجراس الكاتدرائية. ويطلق على هذه الكاتدرائية اسم الجير الدا. أما قصر الموريين، وحوائقه التي أسسها الموحدون كى تواجه الساحة العامة المركزية للمدينة فسيصبح فى يوم من الأيام قصرًا للملوك المسيحيين.

وبالرغم من أن إشبيلية لم تكن العاصمة السياسية لإسبانيا الأموية فقد كانت أغنى وأكبر المدن وأقواها نفوذًا داخل العالم الإسلامى الأيبيرى، وانتعش اقتصادها بفعل محاصيل الزيتون والموايح وتجارة الموانئ.

وينضم البطروجى عبر استخدام التطور الشرقى فى علم المثلثات والهندسة الكروية إلى ابن الهيثم فى انتقاد بعض جوانب عمل بطليموس. وبالرغم من أن البطروجى يركز على المدارات غير الاعتيادية للكواكب والشمس ولا يتناول النموذج المتعلق بمركز الأرض. ويبدل الجهود الحثيثة لإعادة المدارات إلى تسلسلها قبل عهد بطليموس حيث كانت عبارة عن دوائر متحدة المركز. وبالرغم من أن نظريته هذه سيثبت خطأها فيما بعد مثلها فى ذلك مثل عمل بطليموس فإن أساليبه ومناهجه ستزىل بعض الغموض والتعقيد عن منهج بطليموس. وتتم ترجمة أعمال البطروجى إلى اللغة اللاتينية بواسطة الاسكتلندى المقيم فى صقلية والمعروف باسم مايكل سكوت. وتجذب أعمال البطروجى الجالية اليهودية النشطة التي تعيش فى إشبيلية. ويترجم رجالان منهم أعماله إلى العبرية الأول هو موسى بن طيبون والآخر هو يهوذا بن سليمان كوهن.

ويجد عمل البطروجى الذى تم تطويره فى القرن الـ 12 طريقه إلى أوروبا فى القرن الـ 13 حيث تتم دراسته وتكييفه وحتى سرقة مرارًا وتكرارًا. وحتى

كوبرنيكوس الذى خرج على العالم بنظريته الثورية حول مركز الشمس فى القرن الـ16 يقتبس من البطروجى .

ويصبح الآن طابع علم الفلك الأندلسى أكثر تعقيداً. ويمتزج التاريخ الإسلامى فى علم الفلك بالأندلس مع بقية العلوم التجريبية والطب والفلسفة فى ذلك الموقع الغربى للإسلام ويرتبط فى معظم الأحيان بالتاريخ اليهودى . وبحلول القرنين التاسع والعاشر تصل الجاليات اليهودية فى المجال الفكرى والاقتصادى داخل إسبانيا المسلمة إلى قمتها فى مدن مثل قرطبة وإشبيلية وطليلة. فاليهود لم يرتقوا لاحتلال المركز الثانى فى الواقع السياسى فحسب فى عهد حسداى بن شبروت الذى كان يعمل لدى الخليفة عبد الرحمن الثالث فقط، فقد كان لديهم إنتاجهم الخاص من الآداب والموسيقى والفلسفة والفكر العلمى الثرى . وفى بعض الأحيان كان مثل هذا النتاج الفكرى يتم بشكل مستقل وفى أحيان أخرى بالتعاون مع الديانات الأخرى . وتصبح مواقعهم المتميزة داخل المجتمع الأندلسى وتحت الخلافة الأموية وفيما بعد فى عهد المرابطين حديث الجاليات اليهودية الأخرى البعيدة فى شمال إفريقيا وغيرها. وفى القرن العاشر تعزز وتثرى هجرة اليهود إلى إسبانيا مدن الخلافة وتبث فيها روحاً جديدة .

ويعتبر من أعظم المفكرين اليهود الإسبان موسى بن ميمون الذى يشتهر فى أوربا باسم ابن ميمون . ويتذكره الناس أكثر بسبب جهوده فى المجال الطبى وفلسفاته فضلاً عن تركيزه على التسامح والمدنية ويحقق تناغماً ما بين الفكر الأرسطى الذى يحتل مكانة هامة تحت حكم الأمويين والعباسيين والتراث اليهودى . كما يغوص أيضاً فى أعماق علم الفلك . ويولد ابن ميمون لعائلة يهودية من المفكرين فى قرطبة فى عام 1135 ويجيد اللغات العربية والعبرية والإسبانية، ويقضى الجزء الأكبر من شبابه فى عاصمة اليهود الإسبانية التى ازدهرت فى ظل حكم الأمويين . وداخل مركز التسامح الدينى والاختراعات هذا تعيش الديانات الثلاث التى انبثقت عن سيدنا إبراهيم عليه السلام جنباً إلى جنب . بيد أن كل هذا ينتهى عندما يستولى الموحدون الأصوليون على قرطبة عام 1148 . وهذا الإنذار الذى يشبه إلى حد كبير ذلك الإنذار الغربى الذى تنطق به الملكة إيزابيلا فى عام 1492 يضع اليهود بين نارين إما اعتناق الإسلام وإما النفى أو القتل .

وموسى بن ميمون الذى كان يبلغ من العمر ساعتها 13 سنة يهيم على وجهه مع عائلته إلى أقصى شمال إسبانيا لمدة 10 أعوام . وفى النهاية تنتقل العائلة إلى شمال إفريقيا وبعد دراسته للطب فى جامعة فاس بالمغرب ينتقل للعيش فى القاهرة . وهناك يعمل طبيباً فى بلاط الخليفة ثم يصبح كبير الوزراء لدى السلطان صلاح الدين القائد المسلم المستنير المتسامح الذى قاد الجيوش الإسلامية ضد الحملات الصليبية المسيحية .

ولا تعتبر مسألة لجوء ابن ميمون للهرب في شمال إفريقيا من قيود الإسلام الشديدة بدلاً من أوروبا مجرد مصادفة. فابن ميمون لم يلجأ إلى أوروبا المسيحية بل إلى شمال إفريقيا المسلمة حيث يعرف ابن ميمون وعائلته أن الناس في المراكز الحضرية الإسلامية الرئيسية أكثر تسامحاً وتفتحاً عقلياً عن أي أحد في القرن الـ12 في أوروبا.

وينكب ابن ميمون على علوم الفلك مثله في ذلك مثل معاصريه. ويتولى معالجة التناقضات الكامنة في حسابات بطليموس. وبصفة خاصة يتشكك ابن ميمون في نقطة الإيكوانت لكوكب زحل حيث تبدو الحسابات خاطئة؛ لأنها تقع في المسار المداري لكوكب عطارد. والإيكوانت هذا عبارة عن جهاز حسابي اخترعه بطليموس لشرح الحركات غير الاعتيادية للكواكب حول الأرض. وإيكوانت كوكب زحل مثل بقية الأجرام السماوية هو عبارة عن دائرة وفقاً لنموذج ذلك الوقت حول المحيط الذي يتحرك فيه الكوكب.

وابن ميمون ليس فيلسوفاً متعدد المواهب فحسب تجذبه حركات الكواكب والنجوم بل هو أيضاً مفكر أندلسي يؤثر بشدة على العلماء من الديانات السماوية الثلاث على مدار مئات السنوات. ويتساءل حول ماهية مدارات الكواكب هذه.

يولد ابن رشد الذي يعرف في اللاتينية باسم Averroes في القرن الـ12 الملىء بالقلقل في قرطبة ويشتهر بفلسفته أكثر من علوم الفلك. ويرتكز أساس معتقداته على الفكر الحر والنظام غير المتشدد ومرة أخرى يدور محور تفكيره حول المذهب العقلي لأرسطو. ومن ثم لا تختلف فلسفته عن نظيره الشرقي عمر الخيام ويكون لهذه الفلسفة أثر قوى لدرجة أنها تؤثر على المواطنين اليهود وابن ميمون فضلاً عن المفكرين المسيحيين أمثال طوما الأكويني، ويتجسد ابن رشد في اللوحة الجصية المعنونة باسم «مدرسة أثينا» التي يرسمها رسام عصر النهضة رافيل كأحد أعظم فلاسفة زمانه.

ومثل كل المفكرين الشجعان الذين يعارضون التقاليد والأمور المتفق عليها يدخل ابن رشد وسط دائرة الخطر. بيد أن تفكيره الحر وتمسكه بالمذهب العقلي يفزع رجال الدين المتحفظين في قرطبة. بل إن بعض المراقبين لهذا العصر يرون أنه يبدو أقرب إلى البوذيين منه إلى المسلمين. وفي أحد الانتصارات الفكرية لعالم السياسة يتمتع ابن رشد لفترة برعاية أحد الحكام الموحدين الرئيسيين وهي نفس الأسرة المترمنة التي تفرض المذهب التحفظي على إسبانيا. ويتسم ابن رشد بالذكاء الشديد لدرجة تجعله دائماً يفند حجج المتحفظين. ولكن في نهاية الأمر يكثر عدد أعدائه ويتم نفيه في المغرب حيث يمضي بقية حياته في الكتابة والتأمل. وبالرغم من كل الاضطراب الذي يحيط به فما من شيء يمر بدون ملاحظته له وهكذا يغوص ابن رشد في كتابات بطليموس ويكتشف الأخطاء.

وتدريجياً يبدأ في توجيه هجوم شرس على عالم الفلك الإغريقي . ويكتب من الإسكندرية قائلاً:

«... فإن علم الهيئة في وقتنا هذا ليس منه شيء موجود، وإنما الهيئة الموجودة في وقتنا هذه هي هيئة موافقة للحسبان لا للوجود»⁽²⁰⁾.

وينضم ابن رشد إلى البطروجي في رفض الكثير من التركيبات الحسابية لبطليموس ويؤيد النموذج المتحد المركز لمدارات الكواكب حول الأرض .

واستناداً على الخلفية الأندلسية الفكرية والجدل الدائر وعدم الاستقرار السياسي الذي يعززه إثراء الثقافات الفرعية لبعضها البعض تظهر نقاط انتقال العلوم الفلكية الإسلامية والعلوم الأخرى إلى أوروبا وما وراء جبال البرانس . وفي القرن الـ 13 يأمر الملك ألفونسو الحكيم بترجمة أهم أعمال ابن الهيثم إلى لغة قشتالة . كما تتم ترجمة هذا العمل فيما بعد إلى اللغة اللاتينية ويطلب علماء الفلك والرياضيات الأوربيون بإلحاح بأخذ نسخة من أعماله .

ويموت العظماء الثلاثة؛ أعلام الفكر الأندلسي الرفيع وعلوم الفلك في القرن الـ 12 واحداً تلو الآخر يفصل بينهما ثماني سنوات فحسب ، وهم البطروجي وابن رشد وابن ميمون حيث وافت المنية ابن رشد في عام 1198 وابن ميمون في عام 1204 والبطروجي في عام 1206 .

ويقف موتهم شاهداً على مرور فترة من الاضطراب وبدء فترة أخرى مليئة بالمزيد من القلاقل . وبينما تتفكك الأندلس وتنتشر ذم إلى دويلات يطلق عليها اسم الطوائف وتمر بعصور من الصراع بين المسيحيين والقوات الغازية من شمال إفريقيا، يمر الإسلام أيضاً في الشرق الأقصى بصراعاته الخاصة فضلاً عن ظهور موجة جديدة من الإبداع الفلكي .

ويُشكل الاضطراب والقلق في الشرق الأقصى جزءاً من الدراما التي تحركها القوة الآسيوية الغازية القادرة على اجتياح قارات بأكملها وإمبراطوريات وشعوب وهي أشد من غارات المرابطين والموحدين القادمين من شمال إفريقيا .

قلعة الموت، بلاد فارس عام 1256 - هم قادمون وتعود الروايات التي تحكى عن هجومهم وسطوتهم وقوتهم إلى نصف قرن أو جيلين . لقد مر على تحركهم ردحٌ من الزمن الآن لدرجة أن مآثرهم السابقة أصبحت أشبه بالأساطير وتاهت بين غيابات العقود ولكن هاهم يستيقظون مرة أخرى على آخر قصصهم المفزعة . وعبر

فترات منصرمة من الزمن كان الناس يفرون من تقدمهم نحو بلادهم إلى الغرب والجنوب وإلى أى مكان تستطيع أقدامهم ونفوذهم أن تأخذهم إليه. وبيعت المنازل والمزارع والأعمال التجارية وتم هجر الأصدقاء القدامى وتركت المنازل كى ترتع فيها الجرذان والرياح قبل أن تجتاحها موجات الخطر.

فقد سقطت تحت أقدامهم كل مدينة وطئوها سواء فى الصين أو روسيا أو بلاد ما وراء النهر وبلاد فارس. ويحكى الناجون قصصاً عن مهاجميهم فيرون أنهم لا يبدوون كالبشر بل هم عبارة عن كيان قاتل يتكون من رجل وفرس، ويبدوون كأنهم لا حدود لهم، فعددهم رهيب وكأنه محيط من البشر وهم أشبه بالموجة التى لا يصددها شىء تتجه بقوة نحو الغرب. هؤلاء هم المغول الذين ولدوا على الأراضى العشبية شمال الصين ويدفعهم تعطشهم للحرب دفعاً.

وبفعل الدمار الذى لحق بالصين وكوريا ووسط آسيا يتدفق آلاف من اللاجئين إلى القاهرة فموسكو وصولاً إلى مدن مثل تركيا والهند. وفى خضم هذه العملية كان هؤلاء المهاجرون يغذون المجتمعات التى تستقبلهم بثراء فكرى وثقافى عظيم ولكنهم كانوا فى ذات الوقت يستنزفون الآبار الفكرية فى وسط آسيا بفعل هروب الكثير من المفكرين.

ويبقى السؤال هو: ما الذى يبعث كل هذا الخوف داخل النفوس من هؤلاء المغول فهم عبارة عن تحالف من القبائل الآسيوية لا يزيد عددهم على مليونى نسمة بالإضافة إلى بضعة أضعاف العدد من الخيول السيبيرية. ويبدو هؤلاء المغول مجردين من أى شكل من أشكال التحضر أو الهدوء فهم عبارة عن آلة حربية فعالة كما أنهم يأخذون عدداً قليلاً من الأسرى.

وفى هذا المركز الأمن الصغير والحيوى لهذه الإمبراطورية المتنامية يتمركز معسكر جنكيز خان الحربى، والذى يعرفه الصينيون باسم تيموجن هو وعائلته وأتباعه. ويلازمه عدد محدود من المسيحيين النسطوريين والمفكرين.

بالسخرية القدر فالقبائل المغولية لها ميل مسيحي. يبين التاريخ الضائع أن النسطوريين قد واصلوا هجرتهم نحو الشرق عندما كانوا يؤسسون بيوتاً جديدة لهم فى الشرق الأوسط وبلاد فارس. وبحلول القرن السابع يكونون قد وجدوا طريقهم نحو بوابات الصين. ومع مجىء القرن العاشر يكون بعض المغول الأتراك قد اعتنقوا النسطورية كإحدى ديانات دولتهم. وعلى أعتاب القرن الـ 13 يزوج جنكيز المهيب أحد أبنائه إلى أميرة نسطورية لها أصل منغولى تركى وتكون هذه هى والدة هولوكو خان الذى يخرّب بغداد وقوبلاى خان الذى يصبح إمبراطور الصين وابناً ثالثاً.

ويساعد قوبلاى خان النسطوريين فى الدخول إلى قلب الصين حيث يتولون مناصب ذات نفوذ فى بلاط الإمبراطور ويتعايشون مع الطاويين والبوذيين . ويتم إيقاف حملات تبشير الفرنسيين القادمة من أوروبا من خلال القوة السياسية قصيرة الأمد للنسطوريين . ولن يستبعد النسطوريون وتختفى المسيحية تدريجياً من الصين إلا بحلول القرن الـ 19 عندما يسقط الحكم المغولى فى القرن الـ 14 وتقوم أسرة مينج الحاكمة .

ويتشكك بعض المؤرخين فى الصورة الفظيعة التى تم رسمها لقبائل المغول . ويقولون إن المغول كانوا يخيرون غرماهم بين الاستسلام حتى يتركوهم يعيشون فى سلام ودفع إتاوة لآل خان وبين الحرب .

ويقول المدافعون عن المغول إنهم كانوا يفعلون ما يفعلونه كى يبقوا على قيد الحياة فلم يكن لديهم المدن ولا الموانئ ومناجم الحديد والأراضى الزراعية الخصبة والأنهار العذبة والمياه . كان كل ما لديهم هو خيولهم وشجاعتهم لذلك كانوا يغزون البلاد تجنباً للموت جوعاً .

كانت جيوش المغول تنتظم فى شكل صفوف واسعة الانتشار يتكون كل منها من 10000 رجل بخيولهم ويطلق عليهم اسم التيومن أو الوحدة المكونة من 10000 . وكانت الجيوش تتقدم بسرعة الخيل . وبالنسبة لهؤلاء الذين لا يستسلمون فى أثناء تقدم جيوش المغول فلا يتمتعون بأى نوع من الرحمة . وتخيم الصدمة والجزع على أساليب المغول . وتسوى المدن التى تتم مهاجمتها بالتراب وتعرض للحرق . وبخلاف بعض الخونة والحرفيين من أهل المدن وآخرين ممن يستطيعون مساعدة آلة الحرب هذه يقتل المغول الجميع . ويصف الشهود ساحات المعارك بعد انتهاء المعركة بكونها أشبه بأكوام من الجثث والعظام المحترقة ورائحة النتانة التى تمتد لأميال وأميال فضلاً عن أبراج الدخان الناجمة عن الأجساد والملابس المحترقة .

ويكتب المؤرخ ابن الأثير عن عام 1221 المشنوم عندما اجتاح المغول بلاد فارس قائلاً:

لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً
لذكرها فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب
نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه . . . إلا أنى حثنى جماعة من
الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً . . .
وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا
على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا

الأجنة فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد
كالسحاب استدبرته الرياح فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا
بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل
سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة
منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخریباً وقتلاً ونهباً ثم يتجاوزونها
إلى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون
بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد
النادر في أقل من سنة . . . فعلوا هذا في أسرع زمان ولم يلبثوا إلا بمقدار
مسيرهم لا غير (21).

وتهز القرون القادمة من الغزوات المغولية أرجاء العالم الإسلامى وتؤثر فيه ،
الأمر الذى يضع الهنود والأوربيين فى حالة تأهب دائم . ويراقب الأوربيون
تقدم المغول العاصف فى بولندا والمجر ويبحثون بفرق الاستطلاع لديهم حتى
تصل إلى فرنسا . بيد أن الفكر الإسلامى بما فى ذلك علوم الفلك لن يسحق بل
يثرى الحضارة الإسلامية . ولكن ترى كيف يكون ذلك؟ تسقط الإجابة عن
هذا السؤال بين طيات التاريخ الضائع فالجوانب الأخرى للثقافة المغولية تلمس
بفعل آلة الحرب الجبارة لديهم . ومع مجيء المغول إلى الأراضى العربية تكون
لديهم إمبراطوريتهم التى استوعبت ثقافات المدن المتقدمة وأفكار هذا الزمان
شاملة الثقافات الرفيعة للصين والتبت وشمال الهند ووسط آسيا وبلاد فارس .
فعلى سبيل المثال فإن قانونهم الذى طوره جنكيز خان والمعروف باسم الياسق
بالرغم من قسوته فى الكثير من الأحيان فهو يؤيد أفكاراً جميلة مثل التسامح
الدينى والسلام والتجارة وسيادة القانون وذلك لحماية المجتمعات من السرقة
والجريمة .

بالإضافة إلى ذلك فالحملات الحربية المغولية ليست عشوائية كما تروى
القصص . بل هى محسوبة ومخطط لها جيداً من جانب القورولتاي ، وهم
عبارة عن مجموعة من الأرسقراطيين والحكام الذين يحكمون الإمبراطورية
المغولية من مدن الصين . واعتماداً على شبكات التجارة الإسلامية الأقدم حالاً
يطور المغول نظاماً متقدماً للتجارة مع البلاد الأجنبية ويسنون القوانين لحماية
التجار المسافرين . ويقدر المغول العلماء والمفكرين والفنانين ويستوعبونهم داخل
إدارة الحكم . وعلى نفس القدر من الأهمية تكون التحالفات التى يؤسسونها
مع المسيحيين والبوذيين والمسلمين ، والتى تتحقق فى أثناء غزوهم للأراضى
الشاسعة . ومباشرة بعد غزو العالم الإسلامى يشيد المغول مدناً عظيمة فى بلاد

فارس ووسط آسيا والهند مما يؤدي إلى عصر من النهضة الفكرية في هذا الجزء من العالم لقرون تالية.

وبهذا تنصهر الأفكار والثقافات الصينية والإسلامية والأوروبية في بوتقة واحدة دينامية وثرية.

ويعد أحد اللاعبين الرئيسيين في هذه الدراما للغزو المغولي هو المفكر العبقرى محمد بن الحسن الطوسى. يولد هذا العالم في 1201 في خراسان الفارسية في المدينة العتيقة طوس. وتردد أصداء مدينة طوس بذكرى العديد من الرجال العظام حيث يولد فيها نظام الملك وزير السلاجقة المستنير وراعى عمر الخيام. كما أن أعظم شعراء بلاد فارس وأحبهم على الإطلاق في تاريخ الشعراء في هذا الوقت هو الفردوسى الذى يرجع أصله إلى مدينة طوس أيضا في القرن الـ 11. ويقال إن الخليفة العباسى هارون الرشيد دفن في هذه المدينة أيضا.

وينتمى الطوسى إلى التيار الشيعى الرئيس كما أن والده وعمه من المعلمين الشيعة المجلين ومن فقهاء الدين. وفي طوس يتعلم أساس علوم اللاهوت فضلا عن علوم الجبر والهندسة والفيزياء.

ولأول 13 عامًا في حياة الطوسى يكون جنكيز خان مشغولاً بالتهام الصين على مسافة 4000 ميل تجاه الشرق. ولكن في عام 1214 يتجه نحو الغرب مما يدفع بدفق ثابت من هجرة لاجئى وسط آسيا بقصصهم المفزعة عن المغول. وإبان هذه الفترة ينتقل الطوسى إلى نيسابور التى تقع على بعد 50 ميلاً غرب مدينة طوس كى يستكمل دراسته العليا.

وبحلول عام 1220 يكون المغول قد وصلوا إلى طوس حيث تتعرض البلاد لحملات سلبهم ونهبهم هي وأجزاء من خراسان، وذلك بالرغم من تركهم لنيسابور مؤقتاً. وفي هذه المرحلة يقرر جنكيز خان أن يستأنف حملته تجاه الشرق ويترك الغرب لأبنائه وأقاربه. وتكون نتيجة ذلك هجوم مغولى يشوبه اللبس وعدم الانتظام تاركاً بعض أجزاء العالم الإسلامى آمنة نسبياً بينما يقضى على أجزاء أخرى.

وفي هذه الأثناء يكون الطوسى قد ذاع صيته كعالم في الرياضيات بين مفكرى وعلماء نيسابور وتصل شهرته إلى ما هو أبعد من ذلك أيضاً. ومثله مثل سلفه عمر الخيام من قرن مضى يحتاج الطوسى إلى راع يمنحه الاستقرار والأمن كى يواصل عمله. بيد أنه ما من أحد في العالم الإسلامى يستطيع أن يوفر له هذا النوع من الأمن والأمان. فتجاه الغرب تمر الأندلس بفترة من القلاقل والاضطراب. وينتشر المغول

فى بعض أجزاء العراق . وتنعم مصر بالسلام النسبى ولكنها تقع على مقربة من الضربة القادمة لآلة الحرب المغولية .

ويتخذ الطوسى قراراً مصيرياً ويقرر البقاء بالقرب من موطنه وبذلك يقبل رعاية المحافظ الإسماعيلى نصر الدين عبد الرحيم . وكى يبرهن على وفائه يطلب الطوسى أن يدخل فى الطائفة الإسماعيلية ويقبل . ويتهمه البعض فيما بعد بالانتهازية غير أن الحقيقة تسقط فى طى النسيان .

ويقبل عبد الرحيم بوجود هذا المفكر الشاب فى بلاطه داخل قلعة ألموت التى تقع على مفترق الطرق بين بلاد فارس القديمة والأراضى العشبية وصحارى آسيا . ولا يتحكم عبد الرحيم فى قلعة ألموت فحسب بل لديه أيضاً شبكة من القلاع الجبلية تمتد على سلسلة جبال البرز فى بلاد فارس ، والتى توفر الحماية لهم من هجمات المغول الذين يفضلون الحرب على الأراضى المسطحة .

وهكذا وفى تحالف غير معتاد يبرم فى قلعة تقع على قمة جبل - متأثراً بالحلم السيئ عن تقدم المغول - يجد الطوسى الموارد والأمن اللذين يدفعانه إلى تحقيق أهدافه فى مجال الفلسفة والرياضيات والعلوم والطب والفلك ، ويكون نتاج عمله مئات الكتابات التى تتحدث عن تلك الموضوعات . وعلى مدار الـ 25 عاماً القادمة يبقى الطوسى فى قلعة ألموت ويستخدم مكتبته الثرية فى كتابة أحد أهم أعماله العلمية والفلسفية . ويطلق على أحد أعماله اسم مذكرات عن علم الفلك ، والذى يكون له أثر كبير على التاريخ التالى لعلوم الفلك داخل حدود العالم الإسلامى وخارجه . كما أن دراسته لحركة الكواكب تهز أساس نظرية الكون التى يضعها بطليموس ويقرب العالم شيئاً فشيئاً من الثورة التى يحدثها كوبرنيكوس فيما بعد . ويشتهر الطوسى أيضاً بعمله المتميز فى مجال علم المثلثات الكروى والمسطح وجهوده لجعل علم المثلثات مجالاً مستقلاً فى بحوث الرياضيات . فى عام 1232 ينشر كتابه عن الأخلاق ويهديه لراعيه الإسماعيلى .

وبالنظر إلى الوضع الراهن من برجه العاجى يشعر بذلك التوازن المتوتر بين حكم المغول فى سهل بلاد فارس واللاجئين الإسماعيليين فى قمم الجبال . وفى 1228 يرسل الإسماعيليون إلى المغول مقترحين عمل تحالف . وعلى مدار 3 عقود تظل الإجابة هى عبارة عن سلام الوضع الراهن بالرغم من أن بعض الروايات تقول إن جنكيز خان يتشكك كثيراً فى نوايا الإسماعيليين ويعتبرهم عقبة فى طريق تحقيق سيطرته الكاملة على بلاد فارس .

وتأتى الإجابة النهائية فى صباح أحد الأيام من عام 1256 عندما يستيقظ الإسماعيليون وخدمهم فى يوم من الأيام ليروا القوة الكاملة للمغول تنتشر فى الوادى أسفلهم وتحاصر قلعة ألموت . وتواجه تلك القلعة التى لم ينجح أحد فى اختراقها لقرون عديدة - التحدى الفاصل والذى ستكون نتيجته إما الحياة وإما الموت .

وبسماعه لتقارير عن تقدم المغول يرسل الحاكم الإسماعيلي وريثه الصغير إلى بلاد الأناضول البعيدة حيث يقضى خلائفه من الأئمة عدة أجيال في المخبأ. وتمنع هذه الحركة التي يقوم بها الحاكم الإسماعيلي في ذلك الوقت انقراض الطائفة الإسماعيلية.

ويقود هذه القوة المغولية المتقدمة هولالكو حفيد جنكيز خان الذي ورث عن جده رئاسة آل خان. وتعنى كلمة الخان باللغة المغولية نائب الحاكم. وبحلول عام 1256 تتحكم أسرة الخان في أكبر إمبراطورية في تاريخ الإنسانية في هذه المنطقة حيث تشمل ثلثي مساحة الكتلة الأرضية وما يقدر بـ 100 مليون نسمة. ويتسم هولالكو بقلب متحجر مثله في ذلك مثل جده كما يتمتع بربعان شبابه. ومن خلال خبرته في محاربة المسلمين ينمو داخله حب للعلوم بالرغم من كونه بعيداً كل البعد عن اعتناق الإسلام. وتعتنق أسرته الإسلام بعد ذلك بـ 50 عاماً عندما يختار غازان خان أن يعتنق الإسلام. ويتأرجح هولالكو ما بين المسيحية النسطورية والبوذية حيث إن أساس هاتين الديانتين لا يصلح لآلته الحربية.

وسواء كان هولالكو متديناً أو كان غير ذلك فهو يدرك أنه لن يستطيع أن يحكم السيطرة على بلاد فارس إلا عندما يقضى على الطائفة الإسماعيلية من على الجبال. ولقد هوجمت القلاع الإسماعيلية فيما مضى غير أنه في هذه المرة يختلف الأمر كثيراً. فبالرغم من أن المحاربين الإسماعيليين لا يخشون الموت إلا أنهم يشعرون برعشة تسرى في أجسادهم في هذا الصباح المصيرى. ويبدو لهم أن الحصار سيدوم طويلاً ويتساءلون إن كان مخزونهم من المياه والطعام سيكفيهم خلال حصار المغول لهم.

وتلوح في الأفق روايتان للمؤرخين حيث يروى البعض أن الحاكم الإسماعيلي ركن الدين يقرر أن يستسلم ويسلم قلعة الموت. أما القصة الأخرى فتحكى أن أحد الأشخاص يشى بسر الممر المؤدى إلى أعلى الجبل. أياً كانت الحقيقة فالجميع يتفق على ما حدث بعد ذلك حيث تأتي نهاية الإسماعيليين بسرعة وبدون سابق إنذار. ففى إحدى اللحظات يشاهدون العدو المغولي من شرفات القلعة وبعدها يجدون العدو يدخل فى داخل حرمهم.

ويذبح المغول الإسماعيليين بسرعة كبيرة ويقضون عليهم كلية. ويقتل القائد الإسماعيلي ومعظم من فى بلاطه. ولكن كالمعتاد يبقى البعض على قيد الحياة منهم الجواسيس أو من لهم مهارات عالية مفيدة.

ويبقى الطوسى من بين الأحياء بالرغم من أن سبب الإبقاء عليه يصبح نسياً منسياً، وبدأ البعض يتهاوس عليه. كما أن قبوله لعملية إنقاذه واستعداده لمقابلة هولالكو تزيد من همس الشائعات حوله. وفى أثناء هذا اللقاء العظيم تختلف القصص التى تحكى

ما جرى فيه. ويزعم البعض أن الطوسي يتخلى عن الطائفة الإسماعيلية ويُقسم بأنه كان دوماً من التيار الرئيس للشيعية. وفي مرحلة تالية يتزوج الطوسي من امرأة مغولية.

ويبقى السؤال هو: من الطوسي الحقيقي؟ هل هو ذلك الرجل الذي طلب أن ينضم إلى الطائفة الإسماعيلية كي يفوز بالرعاية؟ أم هو ذلك الرجل الذي يقبل بحكم المغول وذلك الأمير الغازي الذي يستطيع أن يبقى على بعض الناس أحياءً ويقضى على آخرين من الملايين؟ وتكون جائزة انضمام الطوسي للمغول عظيمة؛ فهو لاكو الذي يتنامى بداخله حب المعرفة والبحث مثله في ذلك مثل القائد الإسماعيلي الذي اغتاله يعين الطوسي كمستشاره الرئيسي في مجال العلوم والمعارف كما أنه يوليه الشئون الدينية.

ويزعم بعض الناس أن الطوسي يصاحب هولاء في قواته في أثناء تقدمهم نحو الغرب مستهدفين القلب الفكري للإسلام ألا وهي بغداد مدينة الخلافة وبيت الحكمة. وبانضمامه إلى هولاء يكون الطوسي بذلك قد قضى على تراثه الفكري.

وبحلول عام 1258 عندما تحيط قوات المغول بالمدينة العظيمة التي تقع على ضفاف نهر دجلة وتجتمع حاشية هولاء الكبيرة عند الطريق الأخير المؤدى إلى مدينة بغداد؛ تلك المدينة التي حكمت أراضي شاسعة وصاحبة 500 عام من العظمة. فقد بقي فيها العباسيون اسماً فقط بينما ذهب النفوذ الحقيقي إلى البويهيين والسلاجقة ومجموعة من العبيد المعروفين باسم المماليك. وتكثر بها الأسر الحاكمة لدرجة يصعب معها تذكرهم جميعاً. والخليفة الشرفي الذي يرث التراث الرائع للمأمون هو المستعصم وهو رجل أحرق في أخلاقه له نزعة فنية حيث يهوى مرافقة الشعراء والفنانين والمهرجين عن مصاحبة الجنود والذهاب إلى أرض المعارك.

في البداية يرفض المستعصم أن يستسلم أمام جيوش المغول ويقول لهم إن العالم الإسلامي كله سيأتي لنجدته. ولكنه عندما يرى تلك القوة المنتظمة الصفوف تزحف تجاه بغداد يعرض على هولاء أن يصبح سلطان بغداد بيد أن الأوان يكون قد فات في هذه اللحظة.

وتبعث المعركة مع المغول على الشفقة. في البداية تُقتل قوات المستعصم بسرعة فائقة ثم يموت من في بلاطه والمقدر عددهم بنحو 300 شخص ويخنق الخليفة حتى الموت بعد ذلك ببضعة أيام. ويدخل المغول إلى المدينة ويأخذون سكانها البالغ عددهم قرابة 800000 نسمة إلى الصحراء الفسيحة وتحت شمس بغداد الحارقة يذبح الرجال والنساء والأطفال ويتم وضعهم في أكوام فوق بعضهم البعض. ويتم نهب وسلب وتخريب مباني المدينة ثم حرقها في النهاية وهكذا تتحول بغداد إلى مجرد حجارة.

وتُدمر المدينة بشكل رهيب حتى عندما يحاول البعض إعادة بنائها بعد مضي عدة قرون لا تعود أبداً إلى المكانة المتميزة التي كانت تحتلها من قبل إلى أن يتم اكتشاف حقول البترول بها في القرن 20.

ويتوازي سقوط بغداد في خطورته مع هزيمتين أخريين لهما نفس الأثر الثقافي والرمزي ألا وهما ضياع القسطنطينية البيزنطية واستيلاء العثمانيين الأتراك عليها في عام 1453؛ أي بعد مضي 600 عام على هجمات المسلمين المتقطعة وغزو الإسبان للمكسيك في عام 1521.

ولكن ترى ما هو رأي الطوسي في كل هذا الانهيار والمذابح؟ ترى هل يعتقد أنه كان من الأفضل له أن يبقى على قيد الحياة وينضم إلى العدو الغازي؟ هل تصور يوماً لو كان مثل هؤلاء البشر الذين تم ذبحهم ووضعهم في أكوام من الجثث؟

إن الأفكار التي تدور بخلده في هذه اللحظة لن يعرفها أحد، فقد ضاعت بين صفحات التاريخ. ولكن ما نعرفه هو أن قائد المغول هولوكو مبتهج بسبب تدميره لرمز المقاومة الإسلامية وهو سعيد لدرجة تجعله يقبل بأى مشروع يقترحه الطوسي عليه.

وفي هذه اللحظة المأسوية والرمزية يكون الطوسي مستعداً بمشروعه. ويكون لدى عالم الرياضيات والفيلسوف وعالم الفيزياء الطوسي مشروع فلكي عظيم لم ير العالم مثله من قبل. فحتى عندما ينزف العالم الإسلامي تأثيراً بجراحه يبدأ عصر ذهبي جديد للعلوم الإسلامية.

وتكمن خطة الطوسس في بناء أكبر مرصد على الإطلاق. ويتم تشييد هذا المرصد في مدينة مراغة، والتي تعرف في وقتنا الحاضر باسم أذربيجان وهي المدينة التي اختارها هولوكو كي تكون عاصمة لإمبراطوريته. ويتم بناء المرصد على سهل البازلت غرب مراغة. ويؤدي هذا المرصد وظيفة الحصن أيضاً حيث ترتفع جدرانه لتصل إلى 6 أقدام سمكاً و1000 قدم في 400 قدم.

وهذا المرصد الذي يستكمل بناؤه في عام 1262 هو عبارة عن مركز سماوي ضخم يحتوي على أشياء لم يكن لها وجود من قبل. فعلى سبيل المثال في هذا المرصد توجد آلات فلكية ضخمة مثل الربعية المصنوعة من النحاس وربعية زاوية السميت. وزاوية السميت تعنى اتجاه الجرم السماوي، والذي يقاس مع اتجاه عقارب الساعة حول أفق الرائي من الشمال. ومن ثم فأى جرم تجاه الشمال له زاوية سمت تقدر بدرجة 0 والجرم تجاه الشرق له زاوية سمت تقدر بـ 90 درجة والجنوب بـ 180 درجة والغرب 270 درجة.

وكما استفاد المأمون وبيت الحكمة من الثقافات الهندية والفارسية والإغريقية يستفيد الطوسي من الثقافة الفلكية لبلاد الصين البعيدة والمركز الآخر للحضارة العالمية.

وبالرغم من أن الحكمة والمعرفة الصينية قد جاءت من اتجاه الغرب لأفليات فائنة، فقد كانت عملية تناقلها متقطعة على طريق الحرير أو عبر المحيط الهندي ولم يتم الحفاظ عليها في إطار جهود مستمرة أو شاملة.

ولكن حيث إن أبا هولاء قوبلاي خان هو إمبراطور الصين والأرض تبدأ الثروات الفكرية لعلوم الفلك الصينية في التدفق غرباً تجاه بلاد فارس. وكلها الآن داخل نظام واحد حيث إن جميعها جزء من دولة متفوقة.

ويأتي التدفق الفكري من اتجاهين حيث إنه لن يأتي من الصين غرباً فحسب، ولكن ينبع من داخل البلاد الإسلامية تجاه الصين كذلك. وهذا التدفق الفكري يضيع في صفحات التاريخ بالنسبة للكثير من الصينيين. ويبقى المغول على مرصد مراغة مركزاً محورياً لتعلم علوم الفلك الإغريقية العربية الفارسية لقرون قادمة. ويعزز مثل هذا المركز علماء مثل الشيرازي الذي كان أول من أعطى تفسيراً صحيحاً لتشكيل ظاهرة قوس قزح والفلكي السوري الأردني الذي أنشأ نماذج للكواكب والفوطي أمين مكتبة مرصد مراغة الذي كان مسئولاً عن 400000 كتاب. ويأتي هؤلاء العلماء من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي لإثراء ذلك المركز الذي يترأسه الطوسي. ويتم التركيز على الأعمال الفلكية التي تمت في مراكز دمشق وأنطاكية وبغداد والري والقاهرة وفاس وإشبيلية وقرطبة وطليطلة في مرصد مراغة حيث تنتقل قرون من المعارف الإسلامية إلى الصين.

وفي عام 1267 يأتي العالم الإسلامي جمال الدين إلى بلاط قوبلاي خان بتقويم فارسي يغطي 10000 سنة وسبع آلات فلكية وكرة جغرافية خشبية عظيمة غالباً هو الذي صممها (أي الطوسي) وتكون مثل هذه الآلات بمثابة الإلهام الذي يدفع المهندس الملكي كو شو شينج لتطوير آلات شبيهة لها من أجل الخان. وفي السبعينيات من القرن الـ 13 يعين قوبلاي خان مهندسين وفلكيين مسلمين كما يحتفظ بلوحتين فلكيتين إحداهما إسلامية والأخرى صينية. ويحفظ هذا تطوير أساليب جديدة ومرصد أخرى في بكين فضلاً عن تطوير عملية رسم الخرائط، والتي ستؤدي في النهاية إلى تفوق الصين في الملاحة في القرن الـ 15 تحت قيادة الأدميرال المسلم تشينغ خه.

وبعد أقل من 20 عاماً من بناء مرصد مراغة في بلاد فارس يتم بناء المرصد الملكي لبكين. ويخضع هذا المرصد لرئاسة الفلكي الفارسي جمال الدين وتوجد فيه أدوات شبيهة صنعها المهندس كو. ويتحدث بعض المؤرخين عن تأثير المرصد الإسلامية

على الصين خلال القرن الـ 13. وفي هذه الفترة الثرية للتبادل الثقافي بين الأراضى الإسلامية والصين يتراءى جمال الدين أيضاً مسجاً جغرافياً خرائطياً موسعاً لأراضى قوبلاى خان.

ويوجد لدى مرصد الطوسى مكتبات ملاصقة له ومراكز للبحوث كما أنه يسمح للعلماء الصينيين والفارسيين والعرب أن يسعوا وراء أى شىء له صلة من قريب أو بعيد بالعلوم. وبذلك يكون ذلك الشاهد على تدمير بيت الحكمة فى بغداد هو مؤسس لبيت من العلوم خاص به.

ومن داخل مركز الفكر هذا يتدفق نهر من البحوث والاكتشافات. كما يصدر الطوسى بياناً ضخماً بأسماء النجوم ويصمم أدق الأزياج التى تتحدث عن حركة الكواكب. ويطلق عليها اسم الأزياج الخانية وذلك تكريماً لراعيه هولاءكو خان. وتعتبر هذه الأزياج حصاد 12 عاماً من العمل الشاق فى الملاحظة والحساب. وفى بحثه حول علوم الفلك سيعبر عن أكبر معالجة شاملة ومتطورة لنظام كواكب بطليموس، وبذلك يخلص إلى كشف فلكى حسابى يطلق عليه اسم ازدواج الطوسى، والتى سوف تحل الحركة الخطية فى مجموع حركتين دائريتين. ويكرر هذه النظرية كوبرنيكوس بعد مضى 250 عاماً على ظهورها ويدور جدل عما إذا كانت قد تم اقتباسها من الطوسى أو من مصدر وسيط آخر.

ويحسب الطوسى دقة الاعتدال الربيعى أو الخريفى وتمايل محور دوران الأرض عند 50.3 جزء من الثانية أو دورة كاملة فى 25.700 عام ويكتب بحوثاً أعمق فى مجال الأسطرلاب. كما يقدم تعليقات غزيرة ونظريات عن الكرات والأسطوانات وبعض جوانب الرياضيات المتقدمة ويقود العالم فى كونه أول من يفصل ما بين علم المثلثات كمجال مستقل فى علم الرياضيات وليس ملحقاً لعلم الهندسة أو الجبر. وكعلامة من علامات عبقرياته فى علم الحساب المتقدم كان أول من قام بحساب الحالات الستة للمثلث الكروى ذى الزاوية اليمنى. ويقدم مجلدات عن المعادن ونظرية التلون ويكتب عن الطب والأخلاق والفلسفة.

ونتاج كل هذا العمل حتى بعد ضياع بغداد وتخوف القاهرة من هجمة مغولية قادمة وأقول نجم الأندلس بعد الغزو المسيحى وتحول بلاد فارس إلى محافظة مغولية هو اعتراف بعض الناس بفضل الطوسى وبجهوده الكبيرة لإحياء العلوم الإسلامية والحفاظ على استمراريتها أكثر من أى شخص آخر فى زمانه.

ويكبر الطوسى فى السن ويبدو أشبه بذلك النجم المتفجر الذى ظهر فى عام 1006 ورآه العالم الشاب ابن رضوان فنجم الطوسى يلمع ويتوهج بشدة ثم يخرج من دائرة الرؤية.

بيد أنه أشبه بالمستعر الأعظم لعام 1006 الذى مازالت البلازما الداخلية له تحترق بدرجة مليون درجة مئوية. فوهج الطوسى وكل زملائه من العلماء المسلمين يخلد للأبد وحتى وإن كانت أوروبا والصين قد نسيًا أسماءهم، وحتى إن لم يحصل كثير منهم على اسم لاتينى، وحتى وإن تاهوا فى غيابات التاريخ فهم سيبقون دومًا فى مكان مثل مرصد بالومار بكاليفورنيا وتليسكوب هابل الفضائى. فالحسابات الإسلامية الفلكية والرياضية ستساعد فى إجراء كم رهيب من الحسابات فى يوم من الأيام بواسطة الآلات المفكرة. ويبقى السؤال: لو لم يولد هؤلاء هل كان علم الحساب الفلكى سيتطور بنفس هذه الطريقة؟

إن إسهاماتهم فى علوم وتكنولوجيا الفلك الحديثة لا حصر لها فى مجال علم الفلك وحده يساعدون فى تطوير نظرية فلكية حديثة وأدوات جديدة ومراسد دولية ضخمة ومناخ من البحث والاكتشاف يكون نموذجًا لعصر النهضة والتنوير ويؤثرون حتى فى علوم فلك القرن الـ 21.

وفى نظرية النجوم يقدمون تحليلات هامة لأفكار بطليموس كما يطورون أدوات مهمة. ويكتب المؤرخ العلمى ديفيد كينج عنهم فى يوم من الأيام قائلًا:

ما أظهرته آخر البحوث العلمية فى وقتنا الحاضر هو أن كل الابتكارات فى الأجهزة الفلكية فى أوروبا حتى عام 1550 كانت مأخوذة بشكل مباشر أو غير مباشر من الحضارة الإسلامية أو تحدث عنها أحد الفلكيين المسلمين فى مكان ما.

بيد أن هذا لا يخس قدر الإنجازات المستقلة التى حققها الأوربيون فى علم تطوير الآلات وصناعتها ولكنه يبين الدور الهام الذى أدته الآلات الإسلامية فى تاريخ العلوم.

فالمسلمون يطورون مراسد ضخمة تتم بداخلها مشروعات مكلفة. وقد تم توثيق أثر المراسد الإسلامية على الصين والهند وأوروبا بشكل كبير. وفى عام 1576 يحتوى مرصد تايكو براهه فى الدنمارك على آلات شبيهة جدًا بما هو موجود فى مرصد تقى الدين بإسطنبول، والذى يسبقه بعدة سنوات. ويردد مرصد بكين أصداء مرصد المراغة. كما أن مرصد الهند الخمسة المسماة بجنتار منتار، التى بناها المهراجا جاى سينج فى القرن الـ 18 ستعيد جزئيًا عظمة مراسد الحاكم التيمورى أولجه بيغ فى القرن الـ 15 فى سمرقند. وعبر عدة قرون تدفقت المعلومات من الدول الإسلامية إلى أوروبا والصين والهند وتشكل طبيعة مثل هذه المراسد حتى العصر الحديث السابق لاختراع التليسكوبات.

ولقرون طويلة يظل علم الفلك العربى محور المعرفة العالمية، فعلم الفلك التى طورها العلماء المسلمون لم تكن عنصراً أساسياً فى الثقافة الإسلامية فحسب، بل أدت أيضاً دوراً مركزياً فى طريقة قياسنا للأرض فى وقتنا الحاضر ورسم خرائط القارات وأراضيتها وملاحة المحيطات وحساب الزمن وقياس العام وتطوير فن العمارة وتحديد مواقع الصلاة والخروج بأساليب جديدة ووضع معايير حديثة واكتشاف علوم جديدة.

ومن نقاط البداية المتداخلة هذه تتجلى عظمة الله سبحانه وتعالى فى الأرقام ومجموعات النجوم وتخرج العلوم الإسلامية إلى النور. فالهندسة الإسلامية والكيمياء والعمارة والطب تجد أساساً لها فى الأرقام والنجوم. ووراء كل هذا لا يوجد شىء سوى حب العلوم التجريبية الذى يدعمه ابن الهيثم وأمثاله الذين جعلوا هذا العلم أمراً ممكناً.

وما يلى ذلك ضاع مع ما ضاع من التاريخ.



المخترعون والعلماء

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾

[سورة الرحمن: آية 33]

مدينة الدوحة، قطر في 2007؛ عن بُعد تظهر دولة قطر في شكل شبه جزيرة واقعة بين اللون القاتم للصحراء اللانهائية والمزيج الأزرق الفاتح للمحيط والسماء. وفي الأعلى عبر الغمامة البرتقالية التي تغلف بها رطوبة الصيف الجو تقف العاصمة الدوحة في شكل جرف منفصل من أبراج المكاتب ومراكز التسوق والفنادق الفاخرة حيث يسقط طرف شبه الجزيرة العربية في المياه والفرغ.

الدوحة هي واحدة من أحدث المدن في العالم حيث مهدت شبكة شوارعها وطرقها السريعة فقط خلال العقدين الفائتين محاكية بذلك الحس الفني للحدائق التامة والعولمة المحضة. من المتوقع لحديقة العلوم والتكنولوجيا، وهي أحد مشاريع جون هاسدا، والتي على وشك الافتتاح قريباً، أن تضع «قطر» في صدارة الاختراعات التكنولوجية الحديثة وتقف أمام مد استنزاف عقول العمال المهاجرين من ذوى المعرفة ممن تركوا بلادهم حيث تكون الكثير من الدول المتقدمة في حاجة أكثر إلحاحاً لهم. يهدف المشروع إلى دعم القدرات التكنولوجية للدولة بما يقل عن مليون شخص على حافة واحدة من أكثر صحارى الأرض قسوة وعلى بُعد ألف ميل من مكة على الجانب الآخر من شبه الجزيرة حيث تلقى الرسول، صلى الله عليه وسلم، رسالته من الله عز وجل.

جون هاسدا هو المدير الهندسى الإقليمي لواحدة من كبرى شركات المقاولات في العالم ومقرها أوربا. عاش وعمل في الدوحة مدة خمس سنوات أقام فيها العلاقات مع القوى السياسية المتوافرة وكافة الشركات المحلية والدولية التي تعمل في قطر وفي

أعلى شبه الجزيرة العربية وأسفلها. يسافر دوماً مع زملائه من الأجانب من الكويت في الشمال إلى البحرين وأبوظبي ودبي والمدن السعودية الكبرى مثل الرياض وجدة في الجنوب.

يطل مكتب جون على كورنيش مدينة الدوحة عارضاً لساعات الذروة في أثناء غمامة ما بعد الظهر، وحوله تنتشر الصور الكبيرة لكافة مشاريع شركته الجارية تنفيذها في الخليج الفارسي. توجد أيضاً صور له مع رئيس الشركة ورؤساء ووزراء لدول مختلفة، أضف إلى ذلك صوراً مع مجموعة منتقاة من أصحاب المقامات الرفيعة الذين تقابل معهم في كل من الاجتماعات الكبرى والمناسبات الاحتفالية عند التوقيع على اتفاقيات هامة أو عند الانتهاء من مبنى جديد.

كما توجد أيضاً صورة لصديقه السابقة ياسمين، وهي الآن في ماليزيا ولم ير بعضهما البعض منذ عام ونصف، فقد أرادت الزواج والإنجاب بينما لم يكن هو مستعداً لذلك.

إنه لتكليف عظيم لرجل مثله لا يزال في العقد الثالث من العمر ولكن لوجوده في ميدان العمل منذ وقت طويل بدأت تنتابه المخاوف من أن هذا العمل لن يتعدى ما هو عليه الآن. ومع اعتياده على التجول أثارته فرصة الوجود في الدوحة عندما لاحت في الأفق ولكن بعد مرور خمس سنوات بدأ يشعر بالحيرة.

تعتبر الدوحة وغيرها من المدن الساحلية مثل دبي أماكن مثيرة للفضول خلقت تقريباً من لا شيء حيث كانت مدناً عربية تقوم على الصيد وبناء المراكب، والآن يقف قادتتها لمنافسة دول مثل سنغافورة وهونج كونج حيث يريدون لهذه المدن أن تصبح مجمعات للشرق الأوسط وبوابة على العالم ومنه. ولقد نجحوا جزئياً في مسعاهم مخلفين وراءهم مدناً أقدم وأكبر مثل القاهرة ودمشق، مع وجود العشرات من الفنادق «الخمسة نجوم» سواء القائمة بالفعل أو الجارية بناؤها. بدأ السائحون في المجيء إلى تلك الدول من الهند وباكستان والدول العربية وإيران وروسيا وأوروبا للإنفاق على بضائع الأسواق الحرة من مجوهرات وملابس وسيارات، أضف إلى ذلك امتلاك الشقق. تمتد منتجات الشواطئ وملاعب الجولف بمساحاتها الشاسعة نحو الإمارات العربية المتحدة من الشرق أو الخلاء الداخلي للمملكة العربية السعودية نحو الغرب. يستطيع المرء أن يقول إن الدوحة هي مكان رائع لعقد الصفقات، ولكنها تبدو تقريباً خالية من التاريخ. على الرغم من المحافظة على المدينة الصغيرة للدوحة القديمة والاعتناء بها، وهي مكان جميل لاحتساء الشراب أو تناول العشاء، فإنها تقزمت بانجراف عوامل الحداثة المحيطة بها. إن الدوحة تبدو كمزيج من لاس فيجاس وميامي بيتش ولكن مع وجود المزيد من الرجال والنساء في زي عربي وجنوب آسيوي تقليدي وجميعهم يثرثرون عبر الهواتف المحمولة.

إن الدين الواضح تمام الوضوح عبر الحدود والمياه يبدو أكثر هدوءاً في خلفية هذه الدولة، وهذا إنما هو أمر متعمد حيث لم يرد أباء هذه المدينة كبح جماح تدفق الأعمال بالصراعات الدينية السياسية الواقعة على بعد أميال قليلة. من ثم كان جون مرتاحاً مع هذا الوضع حيث إنه لم يكن شخصاً متديناً.

يعتبر كل من السفر والترحال أموراً طبيعية بالنسبة لجون فقد كان جده رجل أعمال هولندياً يعمل في شركة داتش إيست إنديز عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. ثم انتقلت عائلته إلى منطقة الكاريبي في أثناء الحرب، وبعد ذلك توفي جده وجدته وانفصل والداه وماتا في سن الشباب ولم يكن له أى أشقاء. وبعد الحصار في باريس أصبح جون شرق أوسطى بحتاً.

ومثله مثل مدن الخليج الفارسي، لا يمتد إرثه إلى هذا الحد؛ فهو شخص حديث في عمر الزمان. ظهر اسم هاسدا من مكان غير معلوم في أمستردام وچاكرتا في عشرينيات القرن الماضي وحسب علمه، لا عائلة أخرى تتهجى اسمها بنفس الشكل. دائماً ما يتقبل الناس خارج هولندا الاسم على أنه اسم هولندي ولكن لا يوجد هاسدا في هولندا.

أثيرت هذه المسألة مرة مع صديقه ياسمين، وهي شابة جميلة مسلمة من أصل صيني وماليزي. قابلها أول مرة في دبي عندما كانت تأخذ دورة للمضيقات الجوية لدى الخطوط الجوية الإماراتية، وقد كانت في دبي عندئذ منذ عام وارتبطا ببعضهما البعض، ثم انتقلت إلى المقر الإماراتي في كوالا لامبور. قامت بزيارته بعد ذلك بل وجاءت به إلى جزيرة جميلة في ماليزيا بتذكرة مجانية، ولكن عندما لم يبادلها هذه الأحاسيس بدأت العلاقة بينهما يشوبها الفتور. عندها كان والداها بالفعل موصومين بأن ابنتهما تحيا حياة مستقلة وحدها، ومما زاد الأمر سوءاً أن تكون مع رجل أجنبي على جزيرة وحدهما.

في يوم من الأيام في ليلة شتاء موحشة بعد انفصالهما عندما خلت حانات فنادق الدوحة من مرتاديهما اتجه إلى منزله، وبشكل تدريجي انتهى به الأمر أمام الكمبيوتر. إذا ما فكر في تلك الآونة كان ليدخل على أحد مواقع المواعدة ولكنه بدأ في تقصى بعض الأمور الأخرى، ثم وجد نفسه يبحث عن عائلة هاسدا ليرى إذا ما كان هناك أى تاريخ لعائلته أو إذا ما كان بالفعل يتيماً وحيداً في هذا العالم باسم ما هو إلا خطأ مطبعي لموظف ما.

لم يحتج إلى البحث مدة طويلة فقد كان هناك بالفعل «هاسدا» آخرون في العالم. قد كانوا فرعاً من عائلة أكبر وأقدم يتهجون اسمهم هاسداي. كان كل من هاسدا وهاسداي من أصل يهودي سيفردى (يهود شرقيون) من إسبانيا. أقامت مجموعة من عائلة هاسدا اجتماعاً للم شمل الأسرة في أورلاندو بفلوريدا من بضع

سنتين مضت وهذا الاجتماع أتى بأفراد من عائلة هاسدا من نيويورك وساو باولو وبوينوس آيرس وإسطنبول والدار البيضاء والقاهرة وأثينا وطهران ولشبونة ولوس أنجلوس وتل أبيب، وفي أثناء هذا الاجتماع قام أحد الحاضرين بتدوين قصة بطولات العائلة.

بعد مرور ما يزيد عن ألف عام في إسبانيا واجهت العائلات إنذاراً من إزابيلا ألا وهو التحول إلى الكاثوليكية وإلا النفي أو الموت. تخلف بعض أفراد هاسدا وأصبحوا مجرد ذكرى وتحولت أسماؤهم إلى أسماء آبائهم الروحية الكاثوليكية الإسبانية. بينما وافق آخرون على عرض السلطان التركي العثماني وهو أن يأتوا بمهاراتهم وممتلكاتهم التي يستطيعون المجيء بها إلى إسطنبول، ومن ثم أصبحوا جميعاً أتراكاً لأجيال عديدة تلت ذلك. ذهب بعض خلفائهم شرقاً إلى إيران، وغيرهم إلى الأمريكتين، ولا يزال غالبيتهم يعتبرون أنفسهم من السفرديين، وهم يهود سيفارد الذين ظهروا في أثناء الحكم الإسلامي لإسبانيا.

جلس جون ينظر إلى كل هذه التفاصيل في تشكك، ولكن الأمور بدت له منطقية فقد قيل له إن جده نقلهم إلى منطقة الكاريبي هرباً من الحرب، وهذا إنما يعنى هرباً من محرقة اليهود.

وباستثناء الوقت القصير الذي مر في هولندا، فإن أسلافه قد أمضوا 1300 عام يتفاعلون مع المسلمين، وهو نفسه كان على وشك أن يقع في حب واحدة منهم.

أو قد يكون الأمر برمته غلطة، فمن الممكن أن يكون أسلافه قد قاموا بتفريق أسمائهم، أو قد يكون شخص ما عن دون قصد اختلق هذا الاسم عن طريق تهجئة غير صحيحة. هذا لا يهم بعد الآن فهو تاريخ قديم ومضيعة للوقت. إنه مدعو الآن إلى حضور حفل استقبال الليلة في دبي في فندق برج العرب، وهو الفندق الذي يشبه شراع المركب ويطل على مياه الخليج. إنه حفل استقبال لوزراء العلوم والتكنولوجيا من دول الخليج كافة.

فجأة يشعر بافتقاده لياسمين ووالديه وشيء لا يستطيع تحديده. إنه بحاجة إلى الانتقال إلى أوروبا فهو يشعر وكأنه يخسر شيئاً ما.

مدينة قرطبة، الأندلس في 852 م - بينما تبرهن عملية التوثيق على أن الكثير من جوانب العلوم الإسلامية سوف تسقط من التاريخ، إلا أن بعض الروايات التاريخية سوف تظل حديث الناس لآلاف من السنين.

في إحدى القصص الشهيرة تجمع حشد من الناس في الميدان المقابل للمسجد الكبير في قرطبة ليشهدوا رجلاً إما أنه كان ينوي الانتحار وإما أنه كان ينوي فعل أمر سيغير مجرى التاريخ فبالأعلى في شرفة المنذنة، في المنطقة التي تعلو تلك الأسقف المصنوعة من القراميد على الطراز الرومانسكي السوري، تلك الأسقف المثبتة

بالدعوات، ففي تلك الشرفة الصغيرة حيث يقف المؤذن ليؤذن للصلاة خمس مرات يومياً، يقف الآن رجل آخر قطعاً ليس بالمؤذن. تنتشر المهمة بين الزحام وتدوى بعض الصرخات نحو هذا الرجل، البعض بالتشجيع والآخر بالسخرية.

يصرخ أحدهم قائلاً: «انزل أيها المجنون» بينما يقول آخرون: «اقفز!».

وتتساءل إحدى السيدات قائلة: «هل حصل على إذن من الإمام حتى يقوم بذلك؟» وتنتقل الضحكات المتقدة بين الجموع.

ويتجرأ آخر قائلاً: «لقد سمعت أنه رشا الإمام» وتشق الضحكات مرة أخرى جموع الناس.

هذه هي قرطبة، جوهرة إسبانيا الأموية. لقد مضى نحو مائة عام على انتزاع عبدالرحمن الداخل لهذه المدينة من الأمير السابق، وقد توفي هذا الفاتح الأموي الشاب منذ زمن طويل ويحكم المدينة حالياً الأمير عبدالرحمن بن الحكم أو عبدالرحمن الثانى. وبعد ذلك بقرن، سوف يعلن الأمويون قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية.

فى عام 852 أسرع عجلة تقدم الأمويين الإسبانين ليحظوا بمكانة من الأهمية مماثلة لأهل بغداد. فقرطبة الآن تعتبر أكبر المدن الأوربية وأكثرها تقدماً حتى فى ذلك الوقت؛ أى منتصف القرن التاسع، تظهر قرطبة تغمرها آخر صيحات الموضة والموسيقى الجديدة والتألق الحضرى الذى جاء به إلى تلك المدينة الموسيقى العراقى ووسيط الذوق الرفيع أبو الحسن على بن نافع والمعروف بزرياب. هذا الرجل متعدد المواهب تعرض للإغواء حتى يترك بلاط هارون الرشيد من قبل الحاكم الأندلسى بإعطائه راتباً سنوياً 200 دينار ومكافأة سنوية 1000 دينار علاوة على مكافآت إضافية فى أيام الأعياد الإسلامية بجانب قصر «متواضع» وبعض الفيلات فى قرطبة وحولها. مع تحوله من عبد عراقى موسيقى إلى رجل أندلسى ثرى، صار زرياب يعلم الناس كيف يلبسون ويظهون ويؤلفون الموسيقى ويعيشون حياة متأنقة مثلهم مثل منافسيهم؛ أى أهل بغداد. يقوم القرطبيون وغيرهم من الأندلسيين بمحاكاة زرياب فى ثيابه وتصفيقة شعره وطريقة كلامه. وقد جاء زرياب إلى امرأة قرطبة بأول صالون للتجميل كما عرفها أنواعاً جديدة من العطور وأدوات التجميل، أما الرجل فقدم إليه أول معجون للأسنان. علاوة على كل ما تقدم قام زرياب بتطوير أسلوب عزف العود، فقد أضاف إليه وترًا خامساً، وبذلك أصبح يشبه الشكل الحالى للجيتار الإسبانى. كما قام بأول إصلاح للحياة اليومية منذ وصول المسلمين فقد حول العاصمة الغربية للإسلام من مدينة قاسية تتسم بفجاجة الطراز القوطى الغربى إلى مكان يغط بالموضة والأدبيات والتألق.

يصرخ أحد الأشخاص: «اقفز!» وآخر يكمل: «يا جبان!» وتتعج الجموع بالضحك ولكن فى نفس الوقت ينساب إحساس من التوتر والعطف فيما بينهم؛ فإنهم يتعاطفون مع هذا المتهور المسكين الواقف فى الأعلى.

اسمه أرمين فايرمان ويجنى رزقه من خلال القيام بمثل هذه المخاطر، كما أنه يدخل فى رهانات من هذا النمط وأحياناً يحالفه الحظ ويحصل على مقابل. وإذا ما نجا واقترب من تحقيق هدفه، ينتقل بعد ذلك إلى تحدٍّ آخر.

ضمن الحشد المتجمع المكون غالبية من عامة الناس فى قرطبة وقف مراقب غير عادى يلاحظ ما يجرى، اسمه عباس بن فرناس، والذى استقطع بعضاً من وقت عمله العلمى لدى الأمير حتى يرى أحدث أعمال أرمين فايرمان المثيرة.

جاء ابن فرناس فى الأصل إلى البلاط كى يُعلم الموسيقى تحت رئاسة زرياب ولكن عند بلوغه منتصف العمر تفرغ إلى مجالات أخرى. فانجذب إلى الأدوات الميكانيكية والساعات وإلى أنماط الزجاج والبلور. هو أيضاً فلكى وسوف يقوم فى يوم من الأيام ببناء نموذج آلى يمثل النظام الشمسى يحتوى على كواكب دوارة من أجل الأمير.

سوف يقوده اهتمامه بالبلور والمرور والرمل إلى إيجاد طريقة لإذابة الرمل فى الزجاج، الأمر الذى سوف يمكنه من عمل أكواب الشرب الأندلسية وإجراء التجارب بالعدسات واستخدام خصائصها المكبرة علاوة على أى شىء آخر يأتى من الزجاج. حتى ذلك الوقت كانت أنية الشرب مصنوعة من الخشب أو الطفل أو المعدن أو جلد الحيوانات. بالإضافة إلى ذلك فإنه سوف يصل إلى صيغة لعمل البلور صناعياً.

لكن فى عام 852 فاقت اهتماماته هذا وذاك، فقد سمع حينها عن الأسطورة الإغريقية إيكاروس وديدالوس. والآن لمعرفة أن شخصاً ما يحاول بالفعل محاكاة الأسطورة هو أمر بالغ الإثارة.

فى أعلى البرج يقف الرجل المنهور أرمين فايرمان بفكرة جديدة، فالطريق طويل إلى أسفل وسوف تترك الأحجار المحيطة بالبرج ألماً شديدة على جسده. حتى يقوم فايرمان برحلته الطائرة قام بعمل بذلة حريرية بها أعواد تثبيت خشبية وقد صنع هذه البذلة سريعاً معتمداً على دراسة خاطفة لميكانيكية الأشياء الطائرة بطبيعتها مثل الطيور والأغصان والبذور والفراء. من ثم اتسم مجهوده بالتمسرع؛ وذلك لأنه ليس بعالم ولكنه شخص محب لأعمال الإثارة.

يقف ابن فرناس فى الأسفل يلاحظ ما يحدث فى هدوء، يغطى وجهه جزئياً بثوبه، وذلك حتى لا يكتشف أحد هويته. ويلوح السؤال فى الأفق هل سيتشكك علماء قرطبة فى حكم ابن فرناس العظيم إذا ما علموا أنه يقف فى الميدان لمشاهدة الشخص المجنون المحب لأعمال الإثارة؟

أخيراً جاءت اللحظة المنتظرة وبدأ صبر الجموع فى النفاذ، بل وأصبحوا أكثر عداءً. بدأ البعض فى الاندفاع والمراهنون فى التفكير بأن أرمين فايرمان قد خسر.

فليس هناك سبيل للرجعة أمام محب الإثارة ، هذا إذا أراد أن يأتي بقوت يومه . فإما أن ينفذ حركته الآن وإما فقدتها إلى الأبد . الآن مع مد ذراعيه فتح أرمين فايرمان «جناحيه» .

وقفز في الهواء وهبط في شكل عمودى وانتفخت بذلته الغربية بالهواء بما يكفى حتى تبطئ من سقوطه وبذلك يكون ارتطامه بالأرض مسيطراً عليه ولا يكون سقوطه بكامل سرعته . اضطربت أنفاس الجموع وصرخت النساء وصفق الرجال كما قام بعض الأشخاص رفيعو المقام والتجار بقرطبة بفتح نوافذهم لمشاهدة نهاية هذا المنظر .

مع ارتطامه بالأرض تعرض أرمين فايرمان لآلام خفيفة وأصابه الذهول لبعض الوقت ولكنه لم يشل ولم يمت ، فكان لا يزال متمتعاً بحواسه بالشكل الكافى حتى يتسنى له النداء على من راهن ضده فقد فاز حتى الآن .

على الرغم من أن اللفظة التى تصف هذا الموقف لن تظهر إلا بعد ألفية أخرى فإنه من الممكن أن يوصف أرمين فايرمان بأنه أول من قام بأول قفزة باراشوت فى العالم . لم يكن فايرمان ليولى اهتماماً أقل مما فعل فكل ما كان يريد هو المال .

وبرقعة ليست بعيدة عن المكان الذى ارتطم به أرمين فايرمان ، كان ابن فرناس واقفاً يسجل ملاحظاته ، فقد كانت البذلة غير متقنة الصنع واتسمت المحاولة نفسها بالسذاجة ، لكن النتيجة بهرته أكثر مما كان يتوقع ، فقد فتحت هذه التجربة أمامه خطأ جديداً من التفكير . يوجد لديه صورة لحظية لرحلة طيران الطيور؛ أى إيكاروس وديدالوس فوق بحر إيجة ، ومن ثم بدأ فى تخيل رجل فإن مثله يطير فى المملكة الإلهية .

بينما كانت الجموع المبتهجة تلتف حول أرمين فايرمان كان ابن فرناس يتخذ قراراً مهماً . لقد قرر أن عمله فى الزجاج والموسيقى والساعات والكواكب سوف يتسع فهو الآن سوف يلقي نظرة قريبة للغاية إلى علم الطيران .

استغرق الكثير من الوقت مع تشكيلة من المنعطفات والارتباكات ، أضيف إلى ذلك أثر مرور السنوات فهو لم يصغر فى العمر .

ولكن أخيراً فى يوم جميل من أيام قرطبة فى عام 875 أى بعد مرور قرابة 23 عاماً بعد قفزة أرمين فايرمان المثيرة ، قام ابن فرناس بكل ثقة بدعوة أصدقائه وعلماء من البلاط بالإضافة إلى كل من ينتابه الفضول حتى يشهدوا محاولته الخاصة فى الطيران . لقد تخطى زمن الإحراج من كونه شخصاً مولعاً بالإثارة فهو الآن يؤمن تماماً بما يفعل ويريد أن يحاول تحقيق حلمه ما دام يحيا ويقوى على ذلك .

دعا تابعيه إلى نفس سلسلة الجبال المتدنية الواقعة غرب المدينة التى سوف يبدأ الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله أو عبدالرحمن الثالث فى بناء مدينة الزهراء بها يوماً ما . على هذه التلال المكسوة بأشعة الشمس والمتناثرة الغابات تشتد سرعة

الهواء من أسفل الوادى إلى أعلى، ويقف ابن فرناس مشاهداً الطيور محلقة في الجو، تركب التيارات الهوائية الصاعدة، تحملها إلى أعلى فتهبط الطيور بها لترتفع بها التيارات مرة أخرى.

أمضى ابن فرناس كل هذه السنين يدرس بشكل متقطع حركة طيران الطيور والمخلوقات الأكثر قرباً لنموذج الطيران البشرى الذى يتخيله. قام بصناعة جناحين من الحرير والخشب وحاك على الحرير ريشاً حقيقياً بالإضافة إلى هذا المجهود تدرّب قليلاً بدون جمهور، أما الآن فهو يشعر بأنه مستعد أن يقوم بمحاولته على رؤوس الأشهاد.

واقفاً على حافة التل والرياح تتصاعد نحوّه ويقف أصدقاؤه ومعاونوه لمشاهدته، ربما فى ذهول وتشكك مثل الحشد الذى تجمع فى الميدان من سنين عديدة مضت، انتابته لحظة خوف؛ فالיום تبدو رياحه أكثر من المعتاد. على الرغم من أن الرياح قد تساعده فى محاولة الطيران فإنها أيضاً قد تتسبب فى فوضى شديدة. وأخيراً بدأ الهواء هادئاً بالشكل الكافى حتى يبدأ عندها، جرى ببطء وقفز من على الجرف فى هواء الأندلس الصافى الأزرق.

وقف الجموع فى ذهول؛ وذلك لأنه لم يسقط على خلاف أرمين فايرمان متحدياً كافة المعارف والخبرات، حلق ابن فرناس فى الهواء مناسباً فى الأفق مثل الطائر. طار ابن فرناس فى دوائر تشبه حركة الطير فى حركات ملتفة ومنخفضة لمدة بدت للجمهور أقل من عشر دقائق وحلق فوق الوادى الكبير بمزيج من الطائر والإنسان لما بدا له مدة طويلة.

بدا هذا الفاصل من الطيران بالنسبة لابن فرناس وهو محلق فى السماء، والمدينة والبحر والوادى متناثر أسفله وكأنه لا نهائى، وكأنه مرّ فى لمح البصر فى نفس الوقت. لقد حقق حلمه فهو الآن يطير فى الآفاق السماوية للملائكة والجن أو الأرواح متحرراً من قيود الأرض. يتعجب من كم الهدوء الذى يحسه والهواء يتسارع بالقرب من أذنيه ووهج الشمس يقع فوق رأسه منيراً قنوات الرى بين صفوف أشجار الزيتون والبرتقال والليمون مع ظهور مزارع الهليون والبقدونس التى قدمها زرياب لجعل موائد الأندلس أكثر ثراءً وتنوعاً. ودعا عندئذ ابن فرناس قائلاً: حمداً لله عز وجل على السماح لى بهذه التجربة.

عندما بدأ فى النزول إلى الأرض عاد مرة أخرى إلى الواقع، فإنه لم يفكر ملياً فى الهبوط؛ حيث إن تركيزه الأكبر كان منصباً على الإقلاع والطيران. لكن الآن مع الاقتراب السريع من الأرض بطريقة تفوق أى شىء آخر قد يصطدم الإنسان بالأحجار والأغصان وأشجار البساتين، فقد أدرك ابن فرناس عندها أنه ارتكب خطأ قائلاً: يا الله! إننى مجرد فان غبى.

ارتطم بالأرض بشدة بالغة وسريعة حتى نفضت الرياح عنه وسقط سقطة قوية

قلبته رأساً على عقب وعندها لم يشعر بأثر الارتطام على نفس قدر سماع دويه في أذنيه وطققة عظامه وقوة اصطدام جسده وجمجمته بالأرض. كانت الصدمة عظيمة وشديدة للغاية إلى الحد الذي جعله يشعر وكأنه خارج جسده يشاهد ما يحدث وهو يشعر من بعد بالضربات الشديدة واللططات العنيفة التي تعرض لها.

قضى بعض الوقت في مكان مظلم مهيمنة عليه سحابة غضب مظلمة بسبب غيابه، وعندما أفاق وجد مجموعة من الناس حوله، بعضهم لاحقوه على ظهور الخيل وغيرهم ممن تجمعوا عند سفح الجبل لتقديم المساعدة في حالة الحاجة إليها.

نادى عليه أحد الأشخاص: «أبو العباس» هل أنت حي؟

فرد قائلاً: «نعم إنني حي» ولكن بدا صوته بعيداً ومشمئزاً.

ثم سأله أحدهم: «هل أنت مصاب؟».

فأوما برأسه قائلاً نعم، إنني مصاب إصابة شديدة.

تركز الألم لديه في ظهره وسوف يستمر معه طوال حياته؛ أي 12 عاماً من التعاسة وسيكون تذكر هذا الوقت بالنسبة له بمثابة عقاب وانتقام لتلك اللحظات القليلة من البهجة المقتنصة.

كانت آلامه ومعاناته عظيمة إلى الحد الذي سوف يجعل البعض يتهامسون حتماً بأنه وصل إلى ارتفاع كبير وأن الله هو الذي دنا به من هذا الارتفاع فما هي إلا خطوات كتبت على المرء، وقد كتب على ابن فرناس أن تتوقف رحلته عند بلوغه هذا الحد.

ظل ابن فرناس يسمع هذه الهمسات والدمدمات ما تبقى له من الوقت. وعلى الرغم من أنه سوف يشفى بالشكل الكافي الذي سيسمح له ببناء النموذج المتحرك للكواكب من أجل الأمير وينتهي من محاكاة الرعد والبرق وساعات المياه وماكينات الوقت، وعلى الرغم من أنه سوف يذيب الرمال في الزجاج ويصل إلى صيغة للبلور الصناعي، فإنه سوف تغويه بعض الأمور غير المشروعة مثل الخمر والمخدرات وذلك للتخفيف من آلامه.

كان يصلح أحياناً كثيرة من أجل التحرر ولإيجاد أي شيء يوقف الألم، وطوال الوقت يفكر ويفكر في الخطأ الذي فعله. ينتهي به التفكير إلى أن خطأه لم يكن الإساءة إلى الذات الإلهية بوصوله لهذا الارتفاع بالطبع لا، ولكنه توصل إلى أن الخطأ الغبي الذي ارتكبه أنه ألغى شيئاً ما يبطن من عملية الهبوط ويصل به إلى سيطرة الطائر على الهبوط، حيث إن الطائر لا ينزل على الأرض بسرعة طيرانه. يتمتع الطائر بعنصر أساسي يُطلق عليه الذيل وهو الأمر الذي يعطى للطائر التوازن والسيطرة؛ فالطائر يستخدم جناحيه وذيله وقدميه في تناغم حتى يبطن من سرعته ويوقفها فوق الأرض مباشرة وذلك حتى يستطيع الهبوط بأقل سرعة ممكنة.

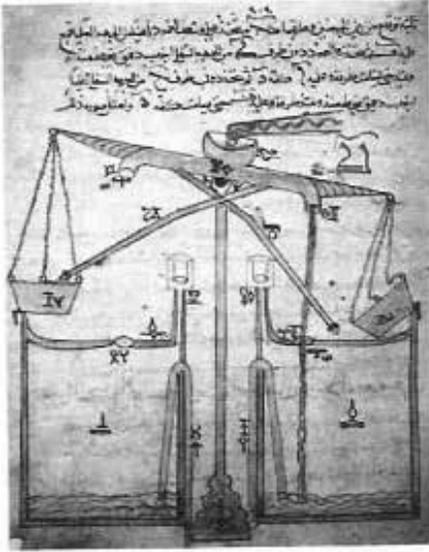
«لقد نسيت تصميم الذيل». سوف يظل يفكر في هذا الأمر حتى يوم مماته «لقد

نسيت بغباء تصميم الذيل».

مدينة بغداد، الخلافة العباسية في 805 - في مدينة الكوفة العراقية على بعد 90 ميلاً من العاصمة يوجد رجل عجوز يجلس في معمله محاطاً بأكوام من المخطوطات، وتكتظ الطاولة بالأدوات المختلفة والأطباق والآلات المعدنية والقارورات وحاويات البودرة والمستخرجات والأصباغ والمحاليل. كل هذه الأشياء معنونة بخط يده المعقد بكلمات هو الوحيد القادر على فك رموزها وهو في حقيقة الأمر ليس بحاجة إلى قراءة تلك العناوين فهو يعرف بالذاكرة أماكن الأشياء المختلفة الموجودة في مكان عمله في خضم هذه الفوضى.

تلطخ يده الألوان وتملؤها الندبات بسبب كثرة ما فيها من الحروق والجروح الناتجة عن المواد الكيماوية، بالإضافة إلى ذلك فهو دائم السعال بسبب أنواع الغازات والخلطات والبخار التي استنشقتها سواء عن قصد أو دون قصد. تتسم عيناه بالإرهاق ورموشه في طريقها للظهور مرة أخرى بعد حرائق الانفجارات المتعددة. ومرة أخرى نراه يسعل.

في الخارج على الشارع يقف مجموعة من الجنود العباسيين لحراسة مدخل بيته



مضخة المياه الموضحة أعلاه هي واحدة من الماكينات العديدة التي رسمها مخترع القرن 13 الجزري في كتابه الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل

ومجرد رؤيتهم تشعره بالأمان. لكنهم في حقيقة الأمر ليسوا هناك لحمايته بل لتحديد إقامته. فقط احتراماً للإنجازات التي قام بها على مدار حياته وإلضاعت حياته هباءً.

يبلغ من العمر 81 عاماً وهو من المعتقلين السياسيين حيث يقع تحت الإقامة الجبرية بأمر من الخليفة هارون الرشيد، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يهتم بهذا الأمر. فإنه ما عاد في حاجة إلى عظمة البلاط والتذلل له فهو سعيد لكونه حياً وأمناً نوعاً ما. وما دام يتنفس ولديه مكان للعمل فإنه سيظل يلهو بأنواع البودرة والأمزجة المختلفة الخاصة به فهذا هو هدفه الأساسي في الحياة.

اسم هذا الرجل دائم السعال هو جابر بن حيان، وسوف يُعرف لدى صفوف الكيميائيين الأوروبيين باسم جيبير أبو الخيمياء والكيمياء. كلتا الكلمتين؛ أي خيمياء وكيمياء

مشتقتان من اللغة العربية، ولكن هاتين السلالتين الفكريتين التابعتين لفن المزج القديم في الكوفة سوف تتخذان طريقين مختلفين؛ فأحدهما سوف تتعرض للفساد وتضل

طريقها ضمن وسائل السحر والتنجيم بينما الأخرى تصبح درباً محترماً من دروب العلوم تطلق العنان للتطور العالمى فى مجالات الاختراع والابتكار. بالنسبة لجابر فإن الكيمياء والكيمياء أمر واحد فقط، وفيما بعد سوف يقوم المفكرون بالوصول إلى تمييز اصطناعى بينهما.

واجه هذا الرجل العجوز حياةً طويلةً ومليئةً بالتحديات. كان عربياً من أصل يمنى، وُلد فى أعماق فارس فى مدينة طوس فى خراسان، وكان والده عالماً صيدلياً، ورغم أنه كان يقوم باستخراج بودرة وأكثر من ذلك لعلاج الصداع؛ فقد كان يشتغل أيضاً بالسياسة. على الرغم من أن الأمويين كانوا لا يزالون يحكمون من دمشق عندما وُلد جابر فى عام 722 فإنهم سوف يظلون فقط مدة ثلاثة عقود بعد ذلك. فى غضون ذلك وفى خضم مراكز الفكر شديدة الحماس فى فارس حديثة الإسلام قام الفرس بالوصول إلى هدف مشترك مع العباسيين الساخطين فى مكة. ومعاً استطاعوا التدبير والترصد والإعراب عن عدم الرضا عن المجموعة الصغيرة للأمويين علاوة على بعض التحالفات السورية ممن كانوا يحكمون قبضتهم على كافة السلطات. وبالرغم من أن الفارسيين هم الذين كانوا يوفرون الكثير من السلطات الفكرية والمالية للخلافة الجديدة، فإنهم كانوا يعاملون على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وعى العباسيون موقع المستقبل الحقيقى للخلافة ولم يكن ذلك إلا باستثناء الجميع فيما عدا قبائل مكة.

تحالف والد جابر مع الفرس على وجه الخصوص مع عائلة يطلق عليها البرامكة. وفى يوم من الأيام عندما يتم عزل الأمويين عندئذ سيكون كل من العباسيين والبرامكة هم المنتصرين. سيكون العباسيون هم الخلفاء والبرامكة وزراءهم، وعندها ستجد عائلة جابر نفسها تنتقل من الضواحي إلى بلاط عائلة الخلافة الجديدة.

بذاهبه إلى بلاط هارون الرشيد كطبيب، سوف يصبح جابر فيما بعد الكيمياء الخاص بالبلاط. تعتبر السياسة ضرورة دنيوية للمفكرين الشباب من ذوى الطموح مثل جابر، ولكونه كيميائياً فإن قلبه ووجهه مغلفان بطبقات من الغموض والأسرار. إنه مثل أول علماء الرياضة والفلك المسلمين يعتقد أن أسرار الكون مدفونة بعمق فى العالم المادى المحيط به وأنها مسألة فك لشفرات الكون حتى يعرف الحقيقة. ومثله مثل غيره من المفكرين المسلمين فإنه يعتقد أن هذه الأسرار التى خلقها الله عز وجل من الممكن فك غموضها فقط من خلال قلة ممن هم على استعداد للبحث الطويل ومن ثم يستحقون عند الله عز وجل أن ينجحوا.

هذا الابن العربى لوالد صيدلى تربي فى فارس ونهل بعمق من الولوج الفارسى القديم بالسحر ناهلاً من بئر زاخرة بالمعرفة السحرية ترجع أصلها إلى السحرة الزرادشتيين والطبقة المنغلقة الكهنوتية بالإضافة إلى مفكرى السحر المصريين مثل

هيرميس تريسميجيستوس . خلال حياته سوف يجذب جابر إلى قطبين؛ إلى السحر والتصوف من جانب وإلى العلم المنطقي من جانب آخر . سوف يضع كتاباته بشكل مشفر تفصيلي ومتعدد الطبقات؛ وذلك لأنه يريد تغطية المعرفة التي يكشف عنها حتى لا يستطيع إلا قلة مختارة الحصول عليها ، وهي الفئة القليلة المقصودة بتلقى هذه المعرفة السرية والقادرة على إدارتها .

لن يجذب جابر إلى العامل الروحي الصوفي للأموال والعمليات المادية فحسب ، ولكنه سوف يجذب أيضاً إلى الصوفية . تتبنى هذه الحركة المتجهة نحو الانجذاب الصوفي الرفيع فكرة أن الحقائق المطلقة ليست بالضرورة موجودة في العقل ولكن بالأحرى في طمس الذات .

سوف يجد الجانب العلمي الصوفي لدى جابر ضالته في الخيمياء ، ووفقاً للبعض فإن الهدف الأقصى لجابر لم يكن تحويل الصفيح إلى ذهب لكن البحث عن التكوين ، وهذا إنما يعني حرفياً خلق الحياة الاصطناعية في المعمل . سوف يجد بحثه الجريء صدى خفياً بين الأوربيين بعد مرور قرون لاحقة وذلك في أسطورة فاوست الخاصة بالباحث الوحيد الذي يعيد الحياة إلى القزم التابع له في أنبوب اختبار بمدينة براغ في القرون الوسطى ، ثم بعد ذلك في الشكل الأكثر صراحة وشعبية ، أي قصة فرانكشتاين للكاتبة ماري شيلي . ودارت أحداث أسطورة فاوست إبان العصور الوسطى بوسط أوروبا ، وقد احتلت أهمية بالغة في الأدب القصصي والمسرحي والفلسفة ، وكانت محفلاً للآراء العالمية ، وقد عبر عنها كل من كريستوفر ماركو ويوهان وفجانج فون جوتيه ، إلا أنه من عجائب سخرية التاريخ ألا تكون هذه الأسطورة من أصل أوروبي ، إنما أتى بها رجل من بغداد القديمة وكان أساسها الممارسات القديمة للسحر في فارس ومصر .

ما من أحد سيعرف بشكل مؤكد ما إذا كان جابر ينوي بالفعل خلق حياة عضوية في تجاربه أم أن كلامه مجرد مجاز صوفي للتقرب من المعرفة الإلهية .

سوف تكون اللغة العربية نفسها هي العامل المساعد له في بحثه الغامض الخفي؛ حيث إنه في الشعر الصوفي والكتابات المقدسة ترتبط الحروف والكلمات العربية التي تُعرف الأشياء والعمليات والمفاهيم بالأرقام ، ومن ثم ترتبط بالشفرة الأساسية للوجود التي توجه هذا الكون المعقد والموحد .

سوف يكون لمنهج جابر الخاص بفك شفرات مفاهيمه استخدام ذو طابع أكثر عملية ، وذلك لأنه يدفع بالمفاهيم العلمية والفلسفية إلى ما بعد الحدود اليومية ، والبعض يقول إنه يكتب بأسلوب خاص به حتى يحمي نفسه من عقوبات الهرطقة . وفي أحد الأيام سوف يتم اشتقاق كلمة جابري من اسم جابر .

فى الآونة التى عاش فيها جابر عندما لم يتم الفصل بين أى من الفروع الفكرية بشكل فعلى والدراسة الأساسية للأرقام والنجوم فإن انجذابه للمكون الروحى والصوفى فى الكيمياء سوف يمثل على نحو ملائم التفكير المتكامل والشامل لليوم . كل الأمور تتناسب مع بعضها البعض فى كون الله عز وجل ، فما من شىء يحدث عشوائياً أو بدون غرض ، ومن ثم تتناسب تماماً كل من الكيمياء الروحىة وشبيبتها الفاسدة الأوربية الكيمياء .

لكن حدة الذهن والفوارق هذه ، والتى ترجع إلى القرن التاسع ، سوف تصير نسبياً منسياً وتضيع أكثر معالمها فى الترجمة ، وفى يوم ما بعد مرور حوالى ألف عام ، هؤلاء ممن يسعون لتشويه سمعة الفكر العلمى الإسلامى سوف يرجعون «الكيمياء» الإسلامىة إلى درب من دروب النصب والاحتيال بينما تنصب أوربا كمكان مولد «الكيمياء» الحديثة التجريبىة . كما أنهم سيتجاهلون حقيقة أن آباء العلوم الأوربية مثل العالم إسحاق نيوتن إنما سيكون من فخر الكيمياءويين . بالإضافة إلى ذلك لن يساعد التاريخ العلمى الأمين هؤلاء ممن يقفون عند نهاية النطاق الفكرى الصريح ممن يسيئون استخدام الممارسات الكيمياءىة العليا فى مسائل ذاتية حتى يصبحوا أثرياء على سبيل المثال فى تحويل الصفيح إلى ذهب .

ما أكثر أخطاء وتشوش كتابات التاريخ الفكرى ! فإن جابر ليس فقط باحثاً روحياً وصوفياً ، بل هو أول كيمياءى حقيقى فى العالم . وبينما ستتذكره مجموعة بجانبه الصوفى سوف يتذكره آخرون من كبار المفكرين لقائمه الكبيرة من الإنجازات العلمىة .

مثله مثل ابن الهيثم الذى سيقوم فى يوم من الأيام بالاحتفاظ بالمنهج التجريبى إلى جانب الإيمان والنظرىة غير الدلائلىة ، سوف يقوم جابر بتمهيد الطريق قبل 200 عام من القيام بذلك . من المنقول عن جابر حديثه التالى :

فمن كان درباً كان عاملاً حقاً ، ومن لم يكن درباً لم يكن يعلم ،
وحسبك بالدربة فى جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق ، وغير
الدرب يعطل⁽²²⁾ .

هل يوجد أى تعبير أكثر توضيحاً للمنهج التجريبى من ذلك؟ مع هذه المقدمة المنطقىة كمنهج لعمله وفلسفته فسوف يفتح جابر سبلاً من الاكتشافات الكيمياءىة والعلمىة ذات الأهمية لهذا المجال مثل رؤى الكشميرى فيما يخص ولادة الرياضيات الحديثة . فى أثناء سنوات خدمته للخلفاء العباسيين والوزراء البرامكة سوف يكتب جابر أكثر من

200 كتاب ويخوض تجارب، ويقوم بابتكارات لا حصر لها، والتي سوف تمهد الطريق للكيمياء الحديثة.

سوف يخترع أول إمبيق؛ وهو أداة بسيطة سوف يتم استخدامها بعد 1.200 عام لتقطير الكحول. كما أنه سيكتشف الحمض الهيدروكلوريدي وهو أحد أقوى الأحماض ومكون رئيسي للجهاز الهضمي البشري، بالإضافة إلى اكتشافه لحمض النترات وهو حامض آخر سام وقوي، ثم سيمزج هاتين المادتين الكيماويتين ليخرج بمادة تعرف فيما بعد بأوا ريجيا أو المياه الملكية، والتي على الرغم من عدم استقرارها تستطيع بعد مزجها بوقت قصير إذابة عدد من المعادن الثمينة مثل الذهب والبلاتين. علاوة على ما تقدم سوف يكتشف أيضاً الأحماض الثلاثة المختلفة الموجودة في الموالح والخل والخمر.

لن تكون تجاربه مجرد ألعاب عديمة الجدوى؛ وذلك لأنه سيظل دوماً يبحث عن طرق لتحويل اكتشافاته إلى تطبيقات عملية. نتيجة لاكتشافاته سوف يتنكر طرق لجعل الحديد والصلب مقاومين للصدأ، وإزالة الآثار الخضراء من المنتجات الزجاجية، وصباغة الأقمشة ومعالجتها كي تكون ضد المياه، بالإضافة إلى الحفر على الذهب. وسوف يتعثر في بخار قابل للاحتراق نتج عن خمر مغلي وهو اكتشاف سيتناوله بالتفصيل خليفته الرازي، والذي سيرفقه العالم في يوم من الأيام بالإيثانول، وهو نوع بديل للوقود مشتق من السكر من الممكن له إحلال المنتجات البترولية.

فضلاً عن ذلك سوف يخترع كلمة ومفهوم «قلوى» وهي مادة قاعدية إذا ما امتزجت بمادة حمضية تبطل مفعول الحمض.

سوف ينشر كتباً حول الخصائص الكيميائية والأوزان والمقاييس والمعادلات الكيميائية والصبغات. كما سيقوم ببناء ميزان معلمي دقيق، والذي سيكون أكثر الموازين دقة في ذلك الوقت. وفي لمحة بديهية للذرات والجزئيات سوف يضع نظرية تشير إلى أنه عندما يتم مزج الكيماويات تختلط مكونات صغيرة مع بعضها البعض على المستوى المجهرى، ولكن تظل كل منها تحتفظ بخصائصها الأصلية. وسيقوم أيضاً باختراع ورق ضد اللهب ونوع من الحبر يشبه الفلوروسنت للقراءة في الظلام.

لن يقف جابر عند هذا الحد ولكنه سيخترع صبغات للشعر وسيجد طريقة لاستخدام معدن بيريت الحديد للكتابة بالأحرف الذهبية. وسيلقى نظرة ثاقبة على المغناطيس ويصنف الشحوم والدهانات والأملاح، وسيتم استخدام تقدمه المعرفي فيما بعد في أول مسبوكات للمعادن وصقل للخزف.

محاطاً بالذكريات والسجلات لكافة تلك الاكتشافات والاختراعات يتقدم في العمر ولكنه يستمر ما دامت عيناه ورثاه تسمح له بذلك. مثل نظرائه؛ على الرغم من كل إنجازاته فإنه يشعر وكأنه فقط خدش سطح ما يريد الوصول إليه. وخلال فترة الشيخوخة القاسية يتساءل ما إذا كان هناك من سيستكمل عمله، وينظر إلى الحراس

الذين يحتجزونه ويدرك أنه ما من مفكرين عظام في الخارج ويتساءل من سيكون؟ هل سيكون أحد تلاميذى؟ هل سيكون شخصاً وجد منفعة مع العباسيين في بغداد، أحدًا لم يُلطخه البرامكة؟ هل سيكون أحدًا من خراسان البعيدة؟

لم يمر الكثير من الوقت وهو على فراش الموت تحت الإقامة الجبرية حتى يظهر خلف له ولكنه غير معلوم له. ولم تكن الإجابة ضمن ما جال بخاطره، فخلفه ليس بتلميذ له وليس من بلاد فارس إنما هو عربى مثله.

إنه صبى صغير يبدأ لتوه تعلم القراءة والكتابة ولكنه ليس بعيداً تمام البعد، فهو في الكوفة وهو من أسرة قد تستعفف التحدث للكيميائى الطوسى العجوز حتى لا تطلب معروفًا. سوف يعرف خلف جابر بالكندى ووالده حاكم عباسى. هذا الصبى الخلف هو الكندى، ابن أحد الحكام العباسيين.

من حظه الكافى أن يحيا ويعمل لوقت طويل من عمره فى زمن المأمون وخلفه الحكيم، فسوف يستطيع الكندى بكل تأكيد البناء على عمل جابر، بل وسوف يدخل فى مجالات أكثر من سلفه، فسيعمل فى الموسيقى والطب والفلسفة والرياضيات والفلك، أضف إلى ذلك الكيمياء. وسوف يكتب 361 كتاباً رائعاً فى كافة هذه المجالات. سوف يستطيع الكندى أن يواجه الطعنات الأولى لإجابته عن بعض الأسئلة الجادة ذات الأهمية والمتعلقة بالفيزياء والكون، وهى التى سوف تشغل بال الكثير من العقول العظيمة لمدة 1.200 عام قادمة.

والسخرية الغربية فى ذلك الوقت أن هذا العالم خلف جابر سيكون معادياً شديداً للكيمياء حيث لم يستهدف - بشكل كبير مثل جابر - الدجالين المضللين ممن ذهبوا للبحث عن الإكسير لصناعة الذهب.

سوف يحصل الكندى على جائزة الانضمام إلى عضوية بيت الحكمة فى عصر المأمون. وكتاب متقان لأرسطو سوف يتقلد منصباً سياسياً وفكرياً، وهو الأمر الذى لم يفعله جابر فى سنواته الأخيرة. لكن كما سيرهاها الكندى فيما بعد كمنظريه ومعرفة أولية أنه ما من شىء مطلق أو دائم إلى الأبد ولا حتى الوقت أو الحظ السعيد.

فى مجال الكيمياء سوف يتعرض الكندى لكل من الأمور الدنيوية والمطلقة. فيما يتعلق بالأشياء الدنيوية فإنه سيكتب مجلداً ضخماً عن الروائح وغيرها من مكونات العطور والزيوت والمرام والمربطات. سوف يعمل بكد واجتهاد فيما سيعرف فى يوم من الأيام بعلم العقاقير ودراسة العناصر المختلفة وتفاعلاتها مع الكائنات الحية. بالنسبة للنتيجة الكبرى لهذا الأمر فإنه سيخلص إلى نظام رقمى معقد من أجل عمل الأدوية وتنظيمها، وبالنسبة للنتيجة الدنيا فإنه سيخرج بأول بدائل منخفضة التكلفة للعلاجات الهامة، والتى كانت باهظة التكاليف فى نفس الوقت.

بمشاهدة أشياء لا تُحصى تسقط على الأرض مثل الأغصان والبلح والطوب من مشاريع البناء والقلم من على المكتب فإنه سيتساءل عن الجاذبية الأرضية.

لكن على ما يبدو، فإن أكثر أعماله عمقاً ونفاذاً للبصيرة سوف تأتي في شكل أفكار حول النسبية والعلاقات بين الأمور والزمان والمكان. كما أنه سيستخدم النسخة العربية لكلمة "نسبية" والتي بعد مرور ألف عام فيما بعد سوف تشتهر على يد شاب هو عالم رياضيات يهودي يعمل بشكل مغمور في مدينة زيوريخ. بينما يبدو هذا الاستخدام المشترك للكلمة التي تفصل بينهما لغة مختلفة وألفية من الزمن مصادفة بحتة، إلا أن السؤال هو: هل يوجد رابط خفي للفكرة يشرح التطور المتوازي لهذه العقول العظيمة؟ يقول الكندي:

فإن كانت حركة كان زمان، وإن لم تكن حركة لم يكن زمان. والحركة إنما هي حركة الجرم، فإن كان جرم كانت حركة، وإن لم تكن حركة...
إن كانت حركة كان جرم اضطراراً، وإن كان جرم وجب أن تكون حركة اضطراراً⁽²³⁾.

إن هذا الرأي المقابل القائم على الحدس والخاص بالزمان والمكان والأمر المتعلقة بهما قد يكون بمحض المصادفة في سياق مدينة بغداد في القرن التاسع. إن هذه الفكرة قد يتجاهلها أو يعارضها الكثير ممن يتبعونه، ليس فقط من المسلمين ولكن أيضاً أمثال إسحاق نيوتن ورينيه ديكارت. فليس لدى الكندي أية طريقة رياضية تبرهن على نظريته.

سوف يغامر الكندي أيضاً في المجال المحدد للكتابة بالشفرة. على الرغم من وجود أشكال بسيطة من الكتابة السرية منذ قرون فإنه مع وصول الرياضيات الجديدة بعد الخوارزمي سوف تصبح الكتابة بالشفرة أكثر تعقيداً، وسوف تكون لها أهمية خاصة لدى القادة والحكومات والجواسيس منذ زمن المأمون وبعده.
سيكون الكندي أول من يشرح تحليل التكرار في الكتابة بالشفرة:

فمما نحتال به لاستنباط الكتاب المعنى إذا عرف بأي لسان هو أن يوجد من ذلك اللسان كتاب قدر ما يقع في جلد أو ما أشبهه فنعد ما فيه من كل نوع من أنواع حروفه، فنكتب على أكثرها عدداً الأول، والذي يليه في الكثرة الثاني، والذي يلي ذلك في الكثرة الثالث، وكذلك حتى تأتي على جميع أنواع الحروف، ثم ننظر في الكتاب الذي نريد استخراجَه فنصنف أيضاً

أنواع صورته، فننظر إلى أكثرها عددًا، فنسمه بسمه الحرف الأول، والذي يليه في الكثرة فنسمه بسمه الحرف الثاني، والذي يليه في الكثرة فنسمه بسمه الحرف الثالث، ثم كذلك حتى تنفذ أنواع صور حروف الكتاب المعماة التي قصدَ لاستنباطه (24).

كل شيء نسبي، فسوف يسقط التأييد عن الكندي في فترة ظهور التحفظ ومعاداة العقل تحت ولاية الخليفة المتوكل في أربعينيات القرن التاسع. فالبعض من عائلة «بنو موسى»، الذين من المفترض أنهم يستشيطنون غيظًا من الكندي، سيشيرون إلى أن بعض علماء بيت الحكمة يشوهون سمعة الخليفة ويخونونه، ومن ثم سوف يتعرض الكندي للضرب وتتم مصادرة مكتبته بشكل مؤقت. فيما بعد سيحدث تحول سياسي آخر؛ والذي سينال فيه الاستحسان مرة أخرى وذلك تحت حكم الخليفة المعتمد.

لكن الحظ في العالم المادي ليس بدائم على حال ويعتبر نسبيًا تمامًا ولا يعيره الفيلسوف العالم الكندي أى اهتمام. فبعد أن يضربه القدر عدة لطمات تنتابه حالة من الانكسار، حيث شعر أن الشر أمسى هو السيد المسيطر، وخيبة الأمل أصبحت الملاذ والمنتهى، فهو يرى أن الثروة الحقّة تكمن في قلب الرجال، والفخر يخالج أرواحهم؛ لذا فالثروات تتبع ممن يملك القليل ويتعفف، بينما من يسعى وراء الثروة المادية ينتهى به المطاف مفلس اليدين.

تقريبًا في عام 1017 يتجه جيش المسلمين الفاتح عبر الممرات الشاهقة لجبال الهيمالايا قاصدًا مدن الهند الهندوسية الثرية القديمة. وعلى الرغم من تركيز بعض المسلمين على الثروة والمتعة والغنائم فقد كان بينهم أبو ریحان البيروني الذي كان يبحث عن كنز من نوع مختلف.

فهو هناك شبيه بالسجين، فلو أن هناك مكانًا أفضل يستطيع أن يكون فيه، أو فاتحًا أفضل يمكنه خدمته، أو حتى مكانًا يشعر فيه بحريته، لرجل إليه. لكن لا يهم، فعلى الرغم من أنه لا يتمتع بحريته فإنه حصل على لحظات وفرص كهذه وإنه سوف يغتنمها إلى أقصى حد ممكن.

يجلس أبو ریحان يحتسى الشراب بين الجبال الشاهقة الضاربة في السماء فوق وادي كشمير الحلو كما تقف أعلى قمم الأرض متوجةً بالثلج مخترقةً السماء الزرقاء والسحب المكتظة بالعواصف. ينظر ليرى كيف تقف الجبال والسماء في شكل حائط وسقف فوق حديقة ضخمة بالإضافة إلى الغابات والأراضي والمزارع المزهرة الواقعة على قمة العالم.

تنسكب المياه من الثلوج والسحب لتضفي اخضراراً وحياءً ورائحةً ونعومةً للمشهد. تلك هي العتبة الفاخرة إلى مقر كنز الهند فهي قارة وحضارة يرجع تاريخها إلى بداية البشرية.

ينظر البيروني لجدار الدفع العلوى للجبال الممتدة شرقاً وغرباً، والمكونة من صفوف بعضها فوق بعض متجهةً نحو ظلال باهتة، كل منها أعلى وأبعد من تلك الواقعة في الطبيعة. كما يرى الأنهار تنتشر من منابعها الباردة وتهوى إلى الأسفل مارةً بالشقوق والوديان تجمع في طريقها المياه والقوة.

يرى تلك الأنهار العظيمة تصب من أرض الجبل الرئيسية في السهول الساخنة وتسير الآن على نطاق أوسع وبحركة أبطأ لتتجمع في السهول وأراضى الدلتا الواسعة حيث يعيش عشرات الملايين من الرجال والنساء يحرثون الأراضي المستوية ويوفرون الغذاء والقوت لواحدة من أقدم الحضارات على وجه الأرض.

ما التفسير الطبيعي العلمى، والذي يتم بيد الله عز وجل لينتج عنه هذا المنظر؟ ما الذى يؤدي إلى عملية الدفع العلوى بالجبال الشمالية؟ ما الذى يوجه السهول النهرية المنتشرة والساخنة نحو الجنوب؟ وكيف شكلت العقل والحياة الهندية؟

وُلد البيروني في مدينة خيوة وهي إحدى بلاد فارس، والتي ستُعرف في يوم من الأيام بأوزبكستان. وهو مثل الكثير في زمنه يحاول البقاء والتعبير عن المكنون الضخم للاختراع وفهم الأشياء الموجودة داخله، ومن هنا جاءت الرحلة الجديدة إلى الهند للبدء في مرحلة جديدة من الرؤى.

على قمة جبل يقع على بُعد من البحر يجد البيروني قواقع بحرية مقصورةً ومكسورةً ومُتكلسةً ولكن من الواضح أنها لم توجد هناك بفعل الإنسان. فكيف استقرت هذه القواقع على قمة الجبل هذه؟

ثم يرى بعد ذلك أرض الهند القديمة والناطقة بالحياة والباعثة للحيرة وشعبها وأديانها وتقاليدها الكثيرة في مزيج من الثراء الظاهري والفقير المدقع. أدرك أن الكوكب الذى يعيش عليه والجنس الحاكم له مثير للدهشة والاستغراب في آن واحد، وما من مكان أفضل من الهند لدراسة هذه الأمور؟

على الرغم من أن البيروني سوف يخدم العديد من السادة والأسر الحاكمة خلال سنى عمره الخمس والسبعين، والتي يواجه صعوبة في تذكرها جميعاً، فإن تلك الحملات إلى الهند في عام 1017 والتي كانت في خدمة السلطان محمود الغزنى هي التى سيكون لها عظيم الأثر عليه.

مما يدعو للسخرية أن راعى هذه الحملات الاستكشافية إلى الهند التى لا تُقدّر بثمن إنما هو حاكم قاس وفاسد. فى الأيام السيئة كان السلطان محمود يقوم بتعذيب

البيرونى بلا رحمة، وهو الذى جاء فى هذه الرحلات كمعلم ومستشار ملكى. قام السلطان محمود بتعيين البيرونى بسبب حكمته العلمية وفى أغلب الظن بسبب معرفته بعلم التنجيم.

فى أعماق قلبه كان البيرونى لا يؤمن بعلم التنجيم؛ فمن وجهة نظره لا يُعد التنجيم علماً إنما هو نزعة صوفية. إنه يؤمن بشدة بالعلوم التجريبية مثل الكندى وابن الهيثم وبالنسبة له مهما كانت النظرية إلزامية فإنها يجب أن تخضع للملاحظة والاختبار.

مثل الكثير من المفكرين المسلمين ممن تاهوا فى غيابات التاريخ من زمن لا يوجد فيه اتجاهات فكرية، يأتى البيرونى كرياضى وفلكى متمرس، يأتى على نفس مرتبة الكندى وغيره من فلكيي بيت الحكمة. كما أنه أحد أفضل مختبرى الطب والصيدلة ويتشابه مع عملاق الطب الإسلامى ابن سينا.

علاوة على ذلك فإنه أحد أفضل المؤرخين المسلمين والمراقبين الثقافيين للأزمة كافة. سوف ينغمس بعمق فى الفلسفة الهندوسية والدين الهندوسى، وفى المقابل سيقوم بتعليم علماء الهندوس حكمة الإسلام والمفكرين الإغريق. لكن فى خضم نهمة للعلم وطموحاته فإنه أيضاً جغرافى وجيولوجى ذو ريادة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يقات من التنجيم؛ فزبائنه من الأثرياء وأصحاب السلطة يحبون التنجيم ويؤمنون به وسوف يدفعون من أجله ومن ثم يعطيهم ما يريدون.

الآن هو المُستخدَم السجين لدى السلطان محمود حاكم الإمبراطورية العظمى والكبرى الغزنوية، وعاصمتها مدينة غزنة الواقعة فى المنطقة التى ستعرف فيما بعد بأفغانستان. فى يوم من الأيام بعد مرور ألف عام سوف تصير مدينة غزنة أطلالاً مهجورة تمتزج بالوحل فى دولة مزقتها الحرب. لكن فى زمن البيرونى والسلطان محمود والأسرة الغزنوية سوف تتمتع مدينة غزنة بسلطة هامة وسيقع الكثير ممن هم فى مراكز السلطة، وأكثر ثراءً وقوة تحت رحمتهم؛ حيث ستصل جيوش السلطان محمود إلى عمق البلاد إلى مناطق هى اليوم فى كل من باكستان والهند.

لكن يخلص البيرونى إلى أن كافة الأمور ما هى إلا مد وجزر بدءاً بحياته وقيام الأسر الحاكمة وسقوطها وحتى تشكيل الأرض. فى إحدى رحلاته سوف يتتبع نهر الجانج المقدس من منبعه البارد وحتى مصبه فى خليج البنغال. ومنه سيأتى باكتشاف هام؛ فسوف يلاحظ أن حجم جسيمات ترسيب النهر ترتبط بشكل مباشر بسرعة تيار النهر. هذا إنما يعنى أنه فى أعلى النهر وبالقرب من قمته حيث يتدفق النهر إلى الأسفل مسرعاً تكون الترسيمات أكبر حجماً، تتراوح ما بين الصخور والحصى حتى حبيبات الرمل الكبيرة، ومن ثم تكون الترسيمات عند أعلى مصب النهر أقل خصوبة. ولكن عند أسفل النهر بالقرب من المحيط حيث تتباطأ حركة النهر سوف تستقر الجزيئات الصغيرة مكونة الطمي الداكن والغنى لحقول

الوادي الخاصة بأراضى الدلتا، حيث يكون من أفضل الأماكن لزراعة الأرز وغيره من أنواع الغذاء.

سوف يبين كيف تقوم عوامل التعرية بتشكيل الأرض بدءاً بالتكوينات العريضة للأرض وحتى الصخور المستديرة المتدفقة نحو الاستقرار بفعل المياه الجارية من الجبال إلى البحر.

في إحدى هذه الرحلات سوف يتعثر في النظرية الهندية التي تقول بأن عمليات جزر المحيط ترتبط بالمراحل المختلفة التي يمر بها القمر. هذه النظرية بهرته على الرغم من أنه لن يستطيع تفسير السبب وراء ذلك، من اكتشافه القواقع البحرية أعلى قمم الجبال، سوف يخرج بنظريته التي تقول بأن وادي الجانج كان في وقت من الأوقات يقع تحت المحيط.

ثم سيتحول انتباهه إلى العناصر اللامتناهية التي يجدها في الأرض وتحتها. أما بالنسبة لعمله المتعلق بالأحجار الكريمة، والذي سيكتبه في وقت لاحق من عمره تحت ولاية سلطان آخر من سلاطين الغزنوية، فسوف يركز على كل من الأحجار والمعادن الثمينة. سيقوم بوضع بيان مصور لمائة نوع من الأحجار الكريمة والمعادن علاوة على تحليلها متفحصاً قيمتها وكيفية صنعها أو صقلها ومدى صلابتها وألوانها. والجدير بالذكر أن قياسات الكثافة المعدنية التي توصل إليها سوف تكون أكثر القياسات دقة لقراءة 700 عام، حتى تأتي عمليات التقدم الأوربية كي تبنى عليها.

سوف يفسر كيفية خروج المياه من الآبار المتدفقة والينابيع الطبيعية عبر نظرية أطلق عليها الاتصال الهيدروستاتي للمراكب. بالإضافة إلى ذلك سوف يُسلم بأن الأرض تدور على محورها وسوف يحسب خط العرض وخط الطول لمئات المدن، موضحاً التشابه الفكري بينه وبين ابن الهيثم، وهو الذي كان أيضاً منبهراً بخصائص الضوء والأطياف، والذي من الواضح أنه لن يقابله أبداً، سوف يقوم البيروني بتفحص المساحات السلبية التي تسفر عن غياب الضوء. وبالتالي سوف يطلق على أحد أعماله التي بلغت ما فوق المائة عمل «الظلال»، فمثل انجذاب ابن الهيثم إلى الضوء فالبيروني سوف ينجذب إلى الجوانب الرياضية والزمنية للظلام. كما سيقوم بحساب مواقيت صلوات المسلمين من زوايا الظلال، وسوف يقوم أيضاً في كتابه الظلال بتقديم أسلوب جديد لإيجاد نقطة الالتقاء في مكان ثلاثي الأبعاد.

من رحمة الله، في سنواته الأخيرة عندما بدأت صحته تضعف وبصره ينزوي، فقد كان في خدمة حاكم كريم تركه يحيا في راحة وأمان سعيداً بوجود مفكر عظيم مثل البيروني في نهاية أيامه.

على خلاف الكثير من نظرائه فى العصور الوسطى لن تتم ترجمة أعماله إلى اللغة اللاتينية أو إعطاؤه اسماً لاتينياً. وسيظل اسمه غير معلوم لدى الأوربيين حتى القرن العشرين حتى عندما يشير إليه المؤرخ جورج سارتون إليه بأنه «سيد من يعلم».

جنوب شرق الأناضول - المسورة بالجمال المنخفضة من الجنوب وجبل أرات
من الشرق هى مكان دائم التغيير للحدود السياسية. رثيت إمبراطوريات واعتقد أمراء وخلفاء أنها ملك لهم على الرغم من أنها لم تنتسب لأى شخص لمدة طويلة من الزمن. جاء عليها وذهب البيزنطيون والأتراك والفرس والعرب. رأى البيزنطيون والعباسيون والسوريون والفارسيون أنها تتبعهم فى وقت من الأوقات. فقط وتحت خط بصرهم ومع مرور الوقت لاح فى الأفق ظل مملكة كوردستان التى تريد أن تولد ولكن لا تتسنى لها القدرة على أن تتحرر.

العاصمة غير الرسمية لهذه الأراضى هى مدينة ديار بكر، وهى مكان مسكون بالصخور السمكية والجدران المبنية التى تحجز السهول الأناضولية الصخرية الجافة، وتحتوى على حدائق داخلية تروىها جداول المياه ومساجد صلبة تعتلها المآذن السلجوقية وخانات لإيواء من يسافر على طريق الحرير شرقاً وغرباً. ما من قباب بصلية الشكل هنا، فهذا المكان له حس جمالى مختلف بعض الشيء فهو مكان الحاجة فيه أعظم إلى حصن متين عنها إلى معبد جميل الشكل. ترى أستحول ديار بكر هذه يوماً إلى مركز للعبقرية؟

سوف يعرف العالم الإجابة عن هذا السؤال فى يوم من الأيام، عندما تخبو قوة السلاجقة زمن عمر الخيام لتتحول من سلطة مطلقة إلى منافسة بائسة بها العشرات من الفاعلين، حيث ستحرر مدينة ديار بكر لبعض الوقت. وعندها فى الوقت الذى يطرد الصليبيون أحد الجنرالات السلجوقية فى الجيش المتفكك للملك شاه من القدس فى عام 1098 يبحث هذا الجنرال عن مكان ليستقر فيه وعندئذ ينتقى هذه المدينة كقاعدة له.

اسم هذا الجنرال العاقل عن العمل هو أرتوك وسوف يطلق على عائلته الحاكمة، وهى من العائلات التركية قصيرة الأمد، اسم العائلة الأرتوكية. فى خدمتهم ستكون أسرة من الحرفيين والمصممين المهرة ممن بحثوا عن طرق جديدة لقياس الوقت ولحراسة المياه النفيسة وتنظيمها ونقلها لغسل الأشياء ولتيسير الحياة. فتحب هذه الأسرة بناء الأشياء وأعمال الصفيح؛ لأنها ليست أسرة من الرياضيين أو العلماء.

فى القرن الثانى عشر جاء وليد صبى لهذه الأسرة، وهو أفضل من فى أهله. فهو طفل عمل كحرفى لدى والده وأعمامه فى ورش العمل الأرتوكية حيث تعرف على الأدوات المختلفة وكيفية تقدير الأشياء وأصبح من المؤلف له كافة الأشياء والآلات صغيرة الحجم شديدة البراعة، والتى إذا اجتمعت مع غيرها أصبحت أكثر قوة من إجمالى أجزائها وحدها.

اسم هذا الطفل هو الجزرى ، ولكن بالنسبة للتاريخ الضائع فسوف يُعرف أيضاً للعالم باسم ليوناردو دافينشى .

وبالنظر إلى تلك الأمور الصغيرة ومكوناتها المركبة والموجودة فى ورش العمل بالقصر ، يرى ذكاءٌ يختلف عن ذكاء الإنسان ، فهو ذكاء بكل تأكيد يقل عن مستوى الذكاء البشرى فى مدها ومرونته حيث يفتقر إلى الإبداع والوعى الذاتى . لكن مما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذا النمط من الذكاء إنما هو أكثر استدامة بسبب قوته البحتة وقدرته على اتباع صيغة معينة والالتزام بها على مرور الأيام والسنين فى الوقت الذى يكون فيه العقل البشرى مع مرور الزمن قد وهن من الخرف . يرى أن الأنابيب والآنية والقوارير المعدنية والقواديس والأوتاد والإطارات الخشبية والأطواق والأحزمة الجلدية عندما تجتمع كل هذه الأشياء بأسلوب ما فإنها تستطيع أن تحمل بين طياتها المعرفة .

فى فترة ما بين الطفولة والمراهقة الناضجة تشتعل جذوة فى ذهن الجزرى ويعى أن عنصر الذكاء الميكانيكى هذا إنما يسيطر على كافة العهود والتطبيقات . وعندما تتحول هذه الجذوة إلى لهب تام فسوف يتضح ليس بالكثير من النظريات والصيغ مثل التصميمات والنماذج والأشياء الحقيقية التى تقوم بمهام حقيقية أحياناً ما تحدث بقليل من الذكاء حيث لا تحتاج إلى العقل البشرى ليوجهها ولكن تحتاج إليه فقط لصونها وفتحها أو غلقها .

ما يدعو للسخرية عند الكثير من المخترعين والحرفيين المسلمين هو أنهم لا يتسمون بالأمانة عند كتابة ما قاموا به أو عند التسجيل الدقيق للمواصفات والقياسات الهامة الخاصة بأدواتهم واختراعاتهم . بينما رأى مخترعون آخرون أن اختراعاتهم ستكون السجل الأوحى على وجودهم؛ فلن يكون هناك رسومات أو نسخ مصورة لمن يتبعهم . أما الجزرى فقد كان مختلفاً فسوف يستخدم بصيرته النافذة وجدسه بالإضافة إلى عوامل التجربة والخطأ حتى يبنى اختراعاته وسوف يسجلهم جميعاً .

سيحاول الجزرى أن يترك ولو كتاباً واحداً فقط وهو الذى أطلق عليه كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل المنشور فى عام 1206 ويكتمل هذا الكتاب بالرسومات والنسخ المصورة . لم تتم ترجمة هذا الكتاب للغة الإنجليزية إلا فى القرن العشرين غير أن قطعاً وأجزاء من هذا الكتاب سوف تخرج من ديار بكر إلى أوروبا عبر الصليبيين فى المشرق أو المسلمين فى صقلية وإسبانيا .

إن هذا الكتاب ليس بعمل أدبى مثل كتب الفلاسفة أو علماء الرياضة أو الفلك لكنه كتاب يحوى توضيحات وتصميمات ، تصميمات لأشياء فى يوم من الأيام سيتم التعامل معها على أنها مسلمات تخيلىة فى غرف آلات الضغط ومحال الماكينات وأماكن الأجهزة . لكن هذه التصميمات تعتبر غاية فى الأهمية لإضفاء الطابع الحضارى على الحياة ، والتى عندما تظهر لأول مرة ستبدو وكأنها عجائب شبه إلهية وقد يراها البعض على أنها تحوى لمحات شيطانية .

اخترع الجزرى العمود المرفقى المنخفض، والذي بالكاد فكر فيه غالبية البشر اليوم ولكنه أمر أساسى للكثير من الماكينات التى تساعد فى الحياة الحديثة. كما أنه اخترع مضخة عبقرية لنقل المياه مستقلة عن دوالب المياه والجواميس المحركة للمياه، والتى تدور بشكل عجيب. تقوم كل من الأنابيب النحاسية والتروس المشتبكة بدقة والأعمدة المرفقية وصمامات المسرب بالعمل الموكل لها. ومن ثم سينبهر المهندسون والمفكرون بهذه المضخة لقرون قادمة.

سوف تستطيع مضخة المياه الضخمة الخاصة بالجزرى بما فيها من كباسات ومجاديف وعمود للحدبات باستغلال تدفق النهر حتى توجه عمل المضخة بدفع المياه إلى أعلى عبر الأنابيب ثم إلى الخارج حتى شوارع المدينة أو حقول الفلاحين.

تتسم مضخة المياه الثالثة له بالتصميم الفريد وتتصف بأناقة تجعلها قطعة من التكنولوجيا الدقيقة بشكل يتوازى مع الأسطرلاب والتليسكوب. أما بالنسبة "لساعة الفيل" الخاصة به ذات التفاصيل الرائعة والبالغ عرضها أربعة أقدام وارتفاعها ستة أقدام فتستخدم مجموعة معقدة من المنبهات التى تقودها الجاذبية والتروس وتدفق المياه حتى يقوم طائر مسقسق فوق رأس الفيل بإصدار صوت بعدد الساعات. وإحدى ساعات المياه المحمولة الخاصة به هى ساعة على شكل كاتب يجلس على طاولة يشير إلى الوقت باستخدام قلم الكاتب كعقرب للساعة.

سوف يبدأ هذا النوع من التكنولوجيا فى الظهور فى أوربا بشكل سريع للغاية. بيد أنه سوف يدور جدال بين المؤرخين فيما إذا كان تطور مثل هذه التكنولوجيا بشكل متساو وبالمصادفة أم هو مأخوذ عن الجزرى، ولكن الإجابة لن تكون واضحة للكثيرين بعد أن صارت الماكينات جزءاً من الحياة الأوربية والعالمية، فإن الإجابة عن مثل هذا السؤال لم تعد هامة. ما كان فى يوم من الأيام مهارة رفيعة وبراعة فنية سوف يصير الاتجاه السائد فى العمل اليومى غير أن روح الجزرى ستظل فى كل ترس وعمود مرفقى.

وبمجرد نزول المغول غرباً على أراضى المسلمين بترسانة رعبهم العجيبة، وهو الأمر الذى لم تره هذه الأماكن من قبل، بأنابيب النيران الصارخة مقابل الأسهم المشتعلة، والتى توجد منذ وجود الأسهم. انطلقت هذه الأدوات الجديدة من الأرض فى اندفاع صارخ من الدخان واللهب يشق عنان السماء؛ ليجلب الرعب والدمار على العدو.

تلك كانت الصواريخ الأولى، وما من أحد يعرف اسم مخترعها على الرغم من أنه أو أنها كانت فى الصين القديمة وقام بهذا العمل لتبجيل الآلهة الصينية فى

أوقات الاحتفالات. من ثم فإن الصواريخ الصينية أول ما ظهرت كانت مجرد وسائل زخرفة و متعة دينية ، حتى أدرك أحد الأشخاص إمكانية استخدامها لأغراض الحرب . بمرور الوقت صار الصينيون قبل تحولهم للمغول يعتمدون عليها أكثر فأكثر لصد المغول حتى خسروا أخيراً واستطاع العدو التعامل مع هذا السلاح الجديد ضمن ترسانة الأسلحة الخاصة به . واستمر الصاروخ المغولي ليصبح فى شكل وقود صلب من البارود معلق بإحكام ليكون أول آلة حرب . بالاعتماد على حجم الصاروخ من الممكن سماع دوى الاصطدام من على بُعد عشرات الأميال ويحرق الأرض ويدمرها لعدة ياردات حول منطقة الاصطدام .

فى عام 1241 على ضواحي مدينة بودابست حطمت الصواريخ المغولية المدافعين الهنغاريين المرتعدين . من أقصى الجنوب يرى سكان مدينة بغداد صواريخ المغول تمطر عليهم منذرة بالقضاء الوشيك .

لكن كما حدث بعد هزيمة عبدالرحمن الغافقى عندما جرد شارل مارتيل الفرسان المسلمين من ركابهم فى مدينة تور عام 732 ، سوف تترك بعض الهجمات المغولية أموراً للأذكىاء من الناس لبحثها ودراستها واستيعابها .

إن البارود الموجود فى الآلات ليس بمجهول على الكيمائيين المسلمين؛ فإنهم كانوا يصوغون أنواعاً من البارود لقرون من الزمان ويشاهدون المسحوق وهو يشتعل . الآن يرون استخداماً جديداً للمسحوق القابل للاشتعال غير حرق الرموش والإصابات الرئوية .

فى القرن الـ 13 يستوعب سورى «باسم الرماح» الأسلوب المغولى لخلط الملح الصخرى والفحم النباتى والكبريت لصناعة الصواريخ ثم يكتب نصاً سيتم تداوله ليس فقط لأسباب علمية محضة . فى تلك الآونة من غزو للقبايل والحدود التى تسقط بين ليلة وضحاها كان الحكام والقادة العسكريون مهتمين بهذه الأداة الجديدة بغرض الحماية .

ولم يتفحص الرماح علمياً فقط البارود المغلف لكنه سيقوم أيضاً برسم ووصف «بيضة» نفائة لها رأس حربى ينطلق على سطح المياه فى مقابل سفن الأعداء . سوف يخلص المحللون فيما بعد إلى أنها أول قذيفة طوربيد ، ومن ثم سينطلق هذا النص بسرعة كبيرة إلى أوروبا .

أحد تطبيقات البارود الأخرى هو قذف الرصاص والقنابل وعلى الرغم من وجود بعض الدلائل على وجود أسلحة شبيهة بالمدافع فى الصين فإنها تظهر بوضوح أكبر فى العالم الإسلامى وغالباً فى الصراعات مع مسيحيى أوروبا . كما توجد دلائل على استخدام المسلمين للمدافع ضد الصليبيين .

فقط قبل ثماني سنوات من سقوط بغداد في عام 1250 أشارت بعض روايات الحملة الصليبية السابعة إلى استخدام المسلمين للصواريخ ضد الجيش الأوربي للملك الفرنسي لويس التاسع في معركة المنصورة .

سوف تنتهي الفترة الطويلة من الحرب ضد الصليبيين ، والتي استمرت من القرن الـ 11 وحتى نهاية القرن الـ 13 بفوز المسلمين .

كما استخدم المسلمون الإسبان المدافع ضد المسيحيين في معاركهم العديدة الخاسرة في أثناء إعادة الغزو الكاثوليكي في القرن الـ 13 . سوف يأخذ المسيحيون الفائزون أسلحة المسلمين ويحتفظون بها .

سوف يأخذ الأتراك العثمانيون كلاً من المدافع والصواريخ التي أخذها العرب من المغول وسوف يستخدمونها في حصارهم المنتصر لمدينة القسطنطينية في عام 1453 وأيضاً في هجومهم على النمسا وهنغاريا في القرنين الـ 16 والـ 17 .

مع سقوط القسطنطينية وميلاد إسطنبول سيكون الأتراك هم من سيحقق الحلم المنسى منذ زمن بعيد للعباسيين بمحو مدينة بيزنطة من على وجه البسيطة . بحلول عام 1453 في عشية معركة القسطنطينية تضاءلت الإمبراطورية البيزنطية التي حكمت في وقت من الأوقات كلاً من الأناضول وبلاد المشرق والشرق الأوسط لتضم العاصمة القديمة وضواحيها الغربية، بالإضافة إلى العديد من الأقاليم الصغيرة في اليونان وعلى الساحل الأناضولي . بالرغم من مقاومة آخر البيزنطيين ببسالة فإن العدد الذي كانوا في مواجهته فاقهم بجدارة فقد كانوا 10,000 مقابل 100,000 أو أكثر تحت العلم العثماني . لم يجد استجادهم بالبابا نيكولاس الخامس أى شيء في المقابل ، كما أن ملوك أوروبا لم يكن لديهم الرغبة في محاربة الأتراك ، فقد كانت إسبانيا محاصرة في المحاولة الأخيرة لإعادة فتحها، أما فرنسا وإنجلترا فكانتا في حالة إنهاك بعد حرب المائة عام . لاحت في الأفق كافة النذر المشيرة إلى نهاية بيزنطة، والتي شملت خسوفاً للقمر وضوءاً أحمر غريباً يتراقص على قبة آيا صوفيا، وفيما وراء الغزاة الأتراك وهو ما يرمز عند المسيحيين إلى رحيل الروح المقدسة من الكنيسة القديمة . يا لها من فرحة تغمر قلوب الأتراك ويا له من حزن يملأ قلوب الأوربيين حيث تحقق الحلم القديم للمأمون وكافة الخلفاء والسلاطين في امتلاك بيزنطة عبر سيمفونية وهج النار والصواريخ . ستمائة عام من العمل هل هو انتصار للعرب أم السلاجقة . أخيراً فوز أخير على بيزنطة يأتي على يد خلفاء عثمان مؤسس الأتراك العثمانيين .

لا يهم أن يفقد هذا الصراع الألفى من أجل القسطنطينية مغزاه الأصلي وأهميته ، أو أن قسطنطينية ظلت تحتضر لقرون ، أو أن مجدها وعظمتها يرقدان في زمن ماض حتى إنها أصبحت أشبه بإحدى الأساطير الإغريقية . ولا يهم انتظار المسلمين المهاجمين

لوقت طويل على البوابات ماضين في تهديدهم حتى أصبحوا أشبه بجيران بغضيين مضى عليهم زمن طويل فضلاً عن كونهم أغراباً جاءوا عليهم من الصحراء .

لا يهم إذا ما شارف عصر المسلمين الذهبى على النهاية ، لا يفكر حتى أبناء عثمان فى ذلك ولا ينظرون إلى الظلال التاريخية العميقة المتجهة نحو الغروب ، إنه غروب الرؤية ، بل غروب أسلوب حياة . أضاءوا الظلال بوهج الصواريخ فوق البروج البيزنطية وغطوا همسات الشك بانفجارات المدافع المدوية .

وأثناء عودة الصليبيين وتقدم الأتراك وتقهقر المسلمين من إسبانيا ، سوف تتسرب تلك الأسلحة الخطيرة والعجيبة إلى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا لتصبح يوماً من الأيام أساس البارود والعناد الذى سيزود عصر الإمبريالية الذى سيبدأ تقريباً فى عام 1860 . لكن حتى مع مرور قرون عدة فى أثناء غزو الأوربيين لضم الكثير من أنحاء العالم سوف تنهض تلك الأسلحة الآتية من بغداد والقسطنطينية لتردد أصداء التاريخ . أحد هذه الأحداث الأخيرة هى المعركة البريطانية الهندية عند حصن سرنجاباتام فى مدينة ميسور الواقعة جنوب الهند فى عام 1799 . فى ذلك الوقت استسلم الهنود للغزاة البريطانيين ولكن تحت قيادة الحاكم المسلم تيبو سلطان كانوا لا يزالون يحاربون . إحدى الخطط التى وضعها والد سلطان وهو حيدر على هى استخدام قوة صاروخية رائعة . كان لكل كتيبة هندية 200 من مطلقى الصواريخ مسلحين بإمدادات وفيرة من الصواريخ القادرة على قطع ألف ياردة وتعتلى أطرافها رءوس حربية مميتة ، منها الأطراف المدببة المحشوة بالبارود ونوع من الشفرات الملفوفة التى تمزق أى نقطة اصطدام وكأنها مفرمة لحوم . على الرغم من أن أوربا فى تلك الأحيان كان لديها صواريخ ، لكن لم يكن لديها مثل هذه الأنواع المميتة من الصواريخ . وفى أثناء المعركة ضربت الآلاف من القذائف الهندية القوات المعادية بشكل بطأ من تقدمها ، وأخيراً عند سقوط الحصن استحوذ البريطانيون على مئات من قاذفات الصواريخ محشوة وآلاف من دون حشو . تم تعبئة بعض هذه الأسلحة وتم شحنها إلى بريطانيا من أجل الدراسة وقد جذبت انتباه شخص يدعى ويليام كونجريف وهو خبير فى الأسلحة فى خدمة الإعداد السريع لمواجهة العدو حيث رأى أهمية إدخال التصميمات الهندية فى القوات البريطانية .

ثم بعد مرور 14 عاماً عندما تعرضت الولايات المتحدة لهجوم من نفس الإمبراطورية البريطانية سالفة الذكر تم إطلاق الصواريخ المعروفة باسم كونجريف ، والتى تم تصميمها وفقاً للصواريخ الهندية ، على الأمريكين غير المتعاونين على وجه الخصوص من سفن فى خليج شيسابيك فى اتجاه حصن ماكنزى مما أدى إلى التخلي عن المدينة الأمريكية بالتمور .

سيشهد أسير أمريكى لدى البريطانيين فى أثناء الليل إطلاق معتقله وإبلاً وراءه وإبل من صواريخ كونجريف فى اتجاه الحصن الأمريكى . فى صباح اليوم التالى

عندما يرى العلم الأمريكي الممزق وهو يرفرف فوق الحصن سوف يلهمه كتابة أغنية وطنية اسمها «العلم المرصع بالنجوم».

يعرف معظم الأمريكيين فرانسيس سكوت كى ونشيدهم الوطنى ولكن بسبب ضياع التفاصيل بين صفحات التاريخ لا يعرفون أن أساس الصواريخ الملمم للأغنية ظهر أول ما ظهر فى أقصى بلاد الصين، ثم جاء إلى الغرب عبر المغول لإحداث مثل الهجوم على بغداد، ثم تحول من خلال المسلمين إلى أسلحة حرب متعددة الجوانب ثم نال من الأوربيين على يد الصليبيين عبر إعادة فتح إسبانيا من خلال الهجوم التركى على بوابات قينا وبعد ذلك على يد المقاومة الإسلامية الهندية الأخيرة ضد البريطانيين.

كما أنهم ما علموا أنه فى يوم من الأيام سيقوم خلفاء جدد لتلك الصواريخ والقائمين عليها بإحياء ذكرى إراقة الدماء فى القرن 21 فيما سيطلق عليه صدام الحضارات مثل المعارك التى تاهت فى غيابات التاريخ فى الكثير من الأماكن السابقة أى بغداد وإسرائيل وأفغانستان.

إنها إحدى أشكال سخرية التاريخ الضائع، إنها شفرة تقطع فى الاتجاهين.

إلى عام 1630، حيث يقف عالم تركى فى أعلى برج جالاتا المطل على نهر اليوسفور. تم بناء هذا البرج البالغ من العمر 282 عاماً على يد الجنوى لإحكام قبضتهم على القسطنطينية. يقف فى الأسفل مجموعة من المراقبين وغيرهم فى قواربهم فى نهر اليوسفور وحتى آخرون من المتفائلين فى الجانب الآسيوى عند أوزكودار.

مر حتى هذه اللحظة 755 عاماً على وقوف ابن فرناس فى أعلى الجرف فوق مدينة قرطبة وقيامه بمحاولة الطيران التى غيرت حياته. اسم هذا الرجل التركى هو أحمد سيلبى وهو من إحدى تلك العائلات المنغمسة فى العلوم واللغات والأفكار والآراء. مثل ابن فرناس؛ كان دائماً مولعاً بالطيران وتناول التفسيرات الأندلسية ونظر إلى تصميمات ليوناردو دافينشى للماكينات الطائرة وشاهد النسور وهى تحلق فى السماء. فقام بعمل اصطناعى لجناحين وذيل.

انتابه شعور الخوف الذى أحس به ابن فرناس لكنه فكر فى أنه إذا سقط، فعلى أسوأ الحالات سيقع فى المياه على الرغم من أنه سيكون على ارتفاع كبير وسيسقط بسرعة هائلة وهو الأمر الذى سيجعل المياه تبدو فى صلابة الجرانيت. أحمد سيلبى ليس برجل عجوز فهو فى أواخر العشرينيات من العمر ويتمتع بالقوة الجسدية والصحة الجيدة، فبخلاف تقدم العلم كان يتمتع بميزة أخرى عن الطيار الإسبانى القديم.

إما الآن وإما فلا، ويسقط من أعلى البرج وتلتقطه الرياح ويحلق منحدرًا من أوروبا إلى آسيا ويرى أصدقاءه فى المراكب والسفن المتجهة إلى البحر الأسود والبحر المتوسط والسفن الحربية والتجارية وأبراج قصر توبكابى ومآذن مسجد السلیمانى

والعشرات من المساجد الأخرى في هذه العاصمة للإمبراطورية العثمانية. تلك هي الإمبراطورية التي حبست كل ما تبقى من الخلافة العباسية القديمة.

انطلق من أوروبا إلى آسيا قاطعاً مسافة ميلين وعند نزوله كان مستعداً للهبوط الذى أخطأ فيه ابن فرناس. استقر ببطء ودون جروح على أرض تركيا الآسيوية، وهلل مشاهدوه، وزُفت الأخبار إلى السلطان مورات الرابع وصدر قرار من أحدهم بإعطاء لقب هيزارفين، والذى يعنى «ألف علم» إلى سيلبي.

انبهر السلطان بشدة حتى إنه أعطى هيزارفين ألف قطعة ذهب ورغم صغر سنه بدا وأن الطيار الجسور من المقدر له أمر أكثر عظمة. من ثم يبدو ما حدث له فيما بعد عكس ما هو مقدر له؛ حيث إنه بعد مرور وقت قصير وصممه رجال الدين بالكفر لأعماله وتعرض للنفي إلى تونس حيث مات هناك وعمره واحد وثلاثون عاماً.

غير أن تلك المحاولة لم تكن برحلة الطيران الأخيرة عند الأتراك، فبعد مرور عامين على عمل سيلبي البطولى قام أحد أعضاء أسرته واسمه لاجارى حسن سيلبي بتصميم ماكينة طائرة نفثة تتكون من حجيرة ذات سلوك معدنية تعلوها صواريخ، إحياءً لذكرى ميلاد ملكية، وسوف ينطلق فى ظلمة الليل فوق بحر مرمرية ويجار عبر المياه فاصلاً القارتين. وفقاً لبعض الحسابات قام بهبوط هادئ على مياه البوسفور وكافأه السلطان بأن ولاه منصباً عسكرياً فى الجيش العثمانى.



المعالجون والمستشفيات

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

[سورة الشعراء: آية 80]

مدينة قرطبة، في 2007 - تقع مدينة قرطبة ضمن مقاطعة الأندلس الإسبانية الواقعة على جانبي نهر جوادالكيفير، هذا النهر العتيق والمعروف بالعربية باسم الوادي الكبير. تلك المدينة التي كانت من أكبر المدن في العالم أصبحت الآن محدودة النطاق بمساحة تبلغ 350,000. تتمتع المدينة بالهدوء والرخاء وتنعم بخلوها من الحروب والصراعات التي تزحم شتى أرجاء العالم. بهذه النظرة الخاطفة على الوقت الحاضر يتضح أن قرطبة هي مدينة محلية وليست بعاصمة ولا بمركز عالمي. وعلى شاكلة باقى أوروبا تبدو وكأنها دائماً تتسم بروعة الجمال وهدوء السلام.

بالنظر إلى ما يجاورها قد يبدو أيضاً أنه ما من شيء هام قد حدث في هذه المدينة يزيد على غيرها من المدن المتشابهة الأوضاع والمنسوجة أحداثها بثناء على طول البحر المتوسط العظيم في أوروبا.

ويبدو جوهرها القديم ذو الطابع الروماني والعربي والمتعلق بالقرون الوسطى من خلال شوارعها التي تبدو متضاربة الأسماء مثل شوارع «كايي دامسكو» أو شارع دمشق و«أبينيدا الناصر» أو طريق الناصر. كما يوجد جسر من زمن الرومان وقلعة ملكية من طراز المدجن يطلق عليها اسم الكاثار (القصر) أضف إلى ذلك كاتدرائية كاثوليكية وردية وترابية الألوان ولقد تم بناؤها على هيكل عبادة لدين قديم. تكتنف كل هذه المعالم مدينة تقليدية لإسبانيا الحديثة بها ضواح ذات سمة نفعية، من العسير وصفها، من الطراز الذي يحيط الآن بمعظم مدن أوروبا.

على أطراف المدينة القديمة يوجد مستشفى ملحق بجامعة الملكة صوفيا وهو مستشفى كبير وحديث، وعلى الرغم من أن طرازه المعماري عموماً لا يتصف بالتميز لكنه

مستشفى مزدهر ومنتام ويكنظ بالسيارات كغيره من مستشفيات القرن الـ 21. وإذا ما نظرنا إليه من كافة الجوانب فربما وجد في أى مكان آخر بخلاف قرطبة مثل مدينة كانزاس أو سنغافورة فهو يبدو غير مرتبط بالشكل العام أو بتاريخ المدينة الواقع فيها باستثناء الاسم.

ويرجع اسمها إلى ملكة إسبانيا، التي لانزال على قيد الحياة، ويمتد أصلها إلى أسرة ملكية إغريقية تنتمى إلى كافة أقارب الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا الراحلة. أما زوجها الملك خوان كارلوس فقد استطاع أن يخرج بإسبانيا من فترة الدكتاتورية العسكرية الشرسة. الجدير بالذكر أن الزوجين الملكيين يحظيان بقدر كبير من الحب والاحترام على المستوى العالمى.

فى مستشفى الجامعة تقوم الدكتورة باتريشيا جونثاليس دى مدينة بإجراء رابع عملية ولادة فى ذلك اليوم. تبدو الدكتورة منهكة نوعاً ما؛ إذ قامت بالعمل لمدة ستة أيام متواصلة دون توقف، حيث تغطى غياب زميلتها التي ذهبت لحضور مؤتمر فى المكسيك وقد اضطرت لتأجيل إجازتها مرتين وإنها لتتساءل لماذا تقوم بكل هذا العمل الشاق فى هذه السن.

تتذكر سنوات دراستها للطب بجامعة ستانفورد وخدمتها بمستشفى بالو ألتو. زاخرة بطاقة الشباب، فى ذلك الوقت كانت تعمل لمدة 60 ساعة متواصلة وتقوم بمهام لمدة 48 ساعة وزادها طيلة هذه المدة هو القهوة والسجائر فى الوقت الذى كان فيه تناول تلك الأشياء غير لائق كمظهر سياسى. ظلت مولعة بهذه الوتيرة المحمومة لمدة من الوقت؛ لأنها تحب مهنة الطب وتشعر بالفخر لانضمامها لواحدة من أفضل كليات الطب فى العالم. وعلى الرغم من أنها تشعر بفتور دائم تجاه الثقافة الأمريكية مثل معظم الإسبان على خلاف الأوربيين الآخرين فقد كانت على وعى بوضع البحوث الطبية هناك، فالأمريكيون سواء أحببهم أو لا كانوا هم القادة فى هذا المجال ولطالما أرادت الارتباط بهذا الأمر.

لكن الإحساس بالفتور لازمها طيلة الوقت وكانت على دراية بأنها لن تظل فى أمريكا بمجرد الانتهاء من فترة تدريبها، فإنها سترجع إما لوطنها إسبانيا أو ستذهب إلى أمريكا اللاتينية سواء بوينوس آيرس أو مونتيفيدو.

كانت مدينة كاليفورنيا محتملة بالنسبة لها بسبب شمسها ومناخها، كما أنها تمتعت بأصدقاء تذكرها بموطنها، غير أنها تلاشت مع مرور السنين. فقد أضفت عليها الواجهات الإسبانية الطراز لقر استانفورد والأقواس والأسطح ذات القرميد الأحمر إحساساً يشعرها نوعاً ما بأنها فى وطنها. كانت أسماء الأماكن كلها إسبانية وهو الأمر الذى منحها إحساساً بالراحة بالرغم من أنها تتحدث بالكاد مع أى شخص هناك اللغة الإسبانية.

يا له من يوم! فكل حالة ولادة كانت أشدَّ صعوبة من التي قبلها خاصة الحالة الأخيرة لوجود الجنين فى وضع خطأ وكون الأم فى حالة خطيرة من النزيف، ولم تكن إحدى مريضات باتريشيا، ولكنها جاءت إليها من خلال قرعة الاختيار، هى أمور أضفت جواً من الرعب على الجميع. أُجبر وضع الأم الصحى باتريشيا على تجنب الولادة القيصرية الأكثر يسراً واستخدام الكلاب لتعديل وضع الجنين. دائماً ما ارتأت باتريشيا الكلاب ملجأً أخيراً لها، فطالما رغبت فى وضع أفضل ولكن فى هذا الموقف ما من وضع أفضل.

تستريح باتريشيا فى مكان استراحة الدور الرابع تشرب القهوة وتتنظر إلى مشهد غروب الشمس. لاتزال أمامها 4 ساعات أخرى من العمل فقد أوشكت على الانتهاء والرجوع إلى منزلها واحتساء كأس لذيذ من النيذ بالرغم من أن شقتها ستكون هادئة كما هو حالها منذ طلاقها. تركها زوجها رودريجو من أجل امرأة أخرى تعمل فى نفس شركة المبيعات التى يعمل فيها. لم تُرزق هى ورودريجو بأطفال فكان يخالجها إحساس دائم بالأ تحاول القيام بذلك.

تدور حياتها الآن حول العمل وساعات قليلة من الراحة والإجازات. ولكونها فى الأصل من مدينة مدريد فقد قبلت هذا المنصب فى مدينة قرطبة؛ وذلك لأنها قد استنفدت ما يكفيتها من العاصمة علاوة على أنه كان منصباً أفضل وبمسئوليات أكثر. لكن هناك شيئاً تفنّده وهى تعلم أن هذا الشيء ليس رودريجو، فقد كانت سعيدة بذهابه كما أنه ليس متعلقاً بمتع الحياة؛ لأنها حقاً تستمتع بعملها. لقد مثلت لها مدينة قرطبة الكثير، حيث إنها تهتم بالمواقع القديمة الجاذبة للسائحين والمتاحف والشوارع الصغيرة الضيقة بطرازها المعماري الموديجانى.

فى الأفق الغربى، حيث الشمس تعكس ظلها تستطيع أن ترى تلك الأطلال. إنها مدينة ملكية قديمة متهدمة هى مدينة الزهراء التى بناها أحد الخلفاء منذ ألف عام. يبدو الموقع محبباً لبعض الأشياء للسائحين وذلك لتهدم الكثير منها أو انتقاله فهى غير مصونة على القدر الذى عليه المسجد القديم الواقع فى وسط البلد. أما بقايا المدينة فقد تهدمت وانهارت مع مرور الوقت على غرار مدينة بومبى التى رأتها فى أحد الأيام. ويقوم أحد المطورين ببناء بيوت فوق تلك الأطلال كما يحب الأزواج من الشباب فى الوقت الراهن إقامة أعراسهم عند القناطر المتبقية هناك.

اعتقد الناس فى بادئ الأمر أن هناك رابطاً بينها وبين تلك الأطلال لمشاركتها إياها فى الاسم ولكنها كانت تقول دوماً إنها مجرد مصادفة. ويعرف عن عائلة مدينة أنهم من الكاثوليك الملتزمين، واسمهم متداول مثل اسم جارثيا. ولم يذهب المعنى الذى يتضمنه الاسم إلى ما هو أبعد من ذلك، فهى لم تذهب إلى موضوع النسب، وعلى خلاف الكثير من الإسبان لم يهتم من يحملون اسم مدينة بالنسب العائلى. هل كان عليها

البقاء في أمريكا وأن تتزوج من أمريكي وتنجب أطفالاً؟ هل هذا هو السبب الذي تركها من أجله رودريجو؟ الأطفال؟

عند هذه اللحظة فقط تدخل عليها إحدى ممرضاتها لتخبرها أن أم الرضيع التي أجرت لها عملية الولادة للتو بالكُلاب لم تنج. لم يكن السبب الكُلاب حيث إن الأم قد تم نقلها إلى العناية المركزة ودون إنذار حدثت لها صدمة وأصابتها سكتة قلبية ورحلت بعد خمس دقائق.

على الرغم من فقدان باتريشيا لمهات وأطفال من قبل فما عادت تحتمل مثل هذه الأمور بعد الآن. هذه الطبيبة المتخصصة في التوليد المحترفة والصلبة تشعر وكأنها على وشك الانهيار. تقف وتنظر إلى الأطلال ينتابها شعور بالاكتئاب الشديد وتتساءل عما فقدته؟ هل هي طفولتها؟ أحلامها؟ ولم تستطع الوقوف أمام هذه النافذة أكثر من ذلك فتندفع نحو السلم وتترك المستشفى عبر أحد مخارج الطوارئ. في الخارج تقف باكية على خسارتها الحالية والسابقة وتتساءل كيف يتسنى لها الرجوع مرة أخرى لإنهاء وريدتها.

مدينة بغداد، ص 865 م - كثير من المؤذنين ينادون لصلاة الفجر في المساجد في كل جهات البوصلة. تبدأ مدينة الخلافة في الاستيقاظ ببطء على ظلال المآذن والقباب المقابلة للسماء المشرقة وتنطلق الخيول والجمال على الجسور المعلقة والشوارع المملوءة بالغبار متجهة نحو بوابات المدينة مع حركة آلاف الرجال والسيدات. تدوى الضحكات من ساحات الديار غير المرئية وتخبو الهمسات السرية في الحدائق المورقة والقصور الفاخرة وتسمع المناقشات من نوافذ البيوت الكبرى حيث يقوم الأثرياء والعباقرة بالاحتفال والجدال وسرد القصص.

ينطلق الكثير والكثير من الصيحات وأصداء الضوضاء من الشوارع الخلفية، حيث يعيش وينام العمال والصيادون والحمالون وسائقو الجمال والباعة المتجولون والسحرة والحانوتية والكناسون والغسالات.

منذ حوالي 230 عاماً بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تزايدت سرعة الاندفاع إلى المدن الإسلامية الكبرى فترك مئات الآلاف من الأشخاص حياتهم السابقة في الصحارى أو الحقول أو الأماكن الصغيرة والقديمة غير المواكبة لحركة التطور ليتجهوا إلى بريق الإثارة والتغيير.

إن منشأ المدن ناجم عن نبوءة تنادى بمجتمع عادل وإنساني، نبوءة ترفع من مستوى طلب العلم والمعرفة، نبوءة تبجل التجارة، حيث إن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان تاجراً، فهي رؤية لمجتمع نظيف وصحى كما وصى به النبي، صلى الله عليه وسلم.

ماذا تمثل ثقافة التحضر الجديدة هذه للمسلمين؟ إنها لتعنى بالنسبة للمفكرين والفنانين والمخترعين كلاً من الرعاية والدخل كما تعنى المكتبات ومراكز للتعليم والمناقشة وإقامة الحوارات والمجادلات، علاوة على تفاعل الكثير من العقول في محاولة للوصول إلى الحلول الكونية من خلال الاتفاق والاختلاف. بل وتعنى أيضاً أماكن الذوق والرقي وقصوراً من الخيال، حيث يمكن لأفكار الكثيرين التجمع والتراكم وهي أيضاً أماكن يحاول فيها الرجال الترفع عن مستوى الصراع لإيجاد ما يكفى من الطعام والمياه والمأوى؛ للبقاء على وجه الأرض والحصول على الطاقة والوقت للبحث في المسائل الكبرى.

أما بالنسبة للحكام فإن المدن إنما تعنى نصباً تذكارية وشهوداً على العصر والفن المعماري المدني في المساجد والقصور التي ستُخلد ذكراهم وتجسد تصوراتهم ورؤاهم. كما تعنى لهم مجتمعات البلاط حيث سيكون الأكثر براعة والأفضل على مقربة واستعداد للمشاركة حتى يجعل الحياة أكثر ثراءً ومتعةً.

وتمثل المدن لعائلات التجارة أماكن الالتقاء ونقاط التفاعل حيث يتصل كل من البائع والمشتري وتوجد مجموعات كبيرة ممن يريدون الملابس والمأكول والمتعة.

وتمثل هذه المدن فرصاً أفضل للنساء لإقامة أطفالهن وإمكانية الحصول على مستقبل أفضل حالاً من الماضي. أضف إلى ذلك الطعام والشراب النظيف والوفير. توفر لهن المدن الملابس الجميلة والمجوهرات وأحمر الشفاه والألوان المختلفة للأعين وصبغات الشعر، فالمدن تتيح لهن بعض الحرية والاستقلالية.

وللمسؤولين عن هذه الأماكن تمثل المدن تقييم الضرائب وإنفاقها على المياه ومواد البناء والشوارع والأسواق والمدارس والمساجد. كما تعنى الحاجة إلى الاهتمام بالصحة العامة؛ وذلك لأنه ليس بوسع أولئك الملايين من الأشخاص في المراكز الأساسية للدول مع ملايين آخرين العمل إذا كانت المدن كذلك مراكز للأمراض المعدية والقاذورات والبؤس. إن صحة المجتمع في صحة كل فرد من أفرادها سواء كان خليفة أو سقاءً.

خلف هذا الستار في حوالي عام 865 هناك طبيب معلم نحيل في الستين من العمر له لحية رمادية، استعمله العباسيون. يقف هذا المعلم في منتصف النهار في ساحة داره الواقعة بالقرب من بيت الحكمة ليتناول غداءً في هدوء مع أحد تلاميذه الأجلاء وهو فتى فارسي يتمتع بعقلية نافذة غير عادية. وقد هذا الصبي من مدينة الري لتحصيل أفضل المعارف من كثير من الأساتذة. ينظر كل منهما إلى قنينة من سائل أصفر مأخوذ من جثة.

يسأل التلميذ معلمه: «هل تعتقد أن جالينوس محق بشأن الأخلاط؟». إلا أن المعلم لم يجبه أولاً لأن قليلاً من الناس - هذا إن وجد أصلاً - قد تشككوا بالفعل في نظريات

جالينوس؛ وثانياً لأنه على ما يبدو أن تلميذه الشاب إنما يفكر بنفسه. رد المعلم قائلاً «ربما يجب علينا كلينا البدء في العمل على كتاب حول جالينوس» وهنا أشرق وجه التلميذ، واستطرد المعلم قائلاً: «لكنى أحذرك من أن الكثيرين سوف يزعجهم سماع أن أحداً يتشكك في أمر السيد».

هذا المعلم من أسرة يهودية قديمة من مرو، معروفة باسم سهل وقد تحول هذا المعلم إلى الإسلام واسمه على بن سهل رابان الطبرى. تدرّب الطبرى على المناهج الفارسية والإغريقية القائمة إلى حد كبير على نظريات مفكر إغريقي وطبيب من مدينة بيركامون بالأناضول يُدعى جالينوس منذ 600 عام.

والفتى الفارسي هو زكريا الرازى، من أسرة من المحتمل كذلك أن تكون تحولت من اليهودية إلى الإسلام.

يبين لهما جالينوس الذى توفى منذ زمن طويل الطريق إلى الحكمة الطبية بالنسبة للبيزنطيين والمسلمين والأوربيين منذ حوالي 1,300 عام بعد موته، فإن جالينوس فى الطب مثل بطليموس فى علم الكواكب وأرسطو فى المنطق. ومع قليل من العلم الطبى الذى يمكن أن يركن إليه قام جالينوس بتأسيس مجموعة شاملة من المعارف والمعلومات، بعضها نافذ البصيرة والكثير منها أخطاء بحثة، بيد أنه قدم أول محاولة موحدة لفهم العلاقات بين أعضاء الجسم والتغذية والبيئة والأمراض والجروح وعلم العقاقير والجراحة. ولم يحز جالينوس المعرفة النظرية فقط لكنه كان يقوم باختبار أفكاره أولاً بأول، فكان يقوم بتشريح الخنازير الحية ليرى كيف تعمل الأعضاء قبل أن تتوقف عن العمل. قام فى إحدى تجاربه بشق العمود الفقرى لخنزير ليرى كيف يحدث الشلل، كما ربط مجارى البول ليعرف أن البول يأتى من الكليتين، ونظر فى قلوب حية نابضة ورثات منتفخة وهى تضخ الدم، علاوة على مجموعات من الأعصاب.

أجرى جالينوس أيضاً عمليات جراحية على البشر الأحياء، منها إحدى تقنيات توقيف القلب لإزالة السُد وفيها يقوم بإدخال إبرة فى مقلة العين وراء العدسة مباشرة فيزيح السُد أو ينتزعه. وهى عملية من الدقة بحيث إذا انزلت يده أو عطس فقد يؤدى ذلك إلى فقد المريض لبصره أو ما هو أسوأ من ذلك.

مع ترعرعه فى الوقت المزدهر للإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد فى زمن ماركوس أوريليوس لم يتقيد جالينوس بالمفاهيم المسيحية التى ستظهر فيما بعد حول الإثم وتدنيس المقدسات، فقد أجاز لنفسه معرفة كيف تعمل الكائنات الحية، وكان هو الناقل الأول للكثير من الأفكار القديمة لطبيب إغريقى آخر، هو أبقراط من القرن الرابع قبل الميلاد.

وبدا جالينوس للمسلمين الأوائل مثل الطبرى مقبولاً دينياً، حيث ذكر أن كافة أشكال الحياة والوظائف العضوية تنبع من مصدر واحد هو الطبيعة. بالنسبة لعلماء الدين المسلمين فهذا الفكر يقارب على نحوٍ وافٍ من إيمانهم بالتوحيد؛ أى أن أشكال الحياة كافة قد أبدعها الله عز وجل.

إلا أن جالينوس الآن فى القرن التاسع يواجه لأول مرة منافسة جادة بعضها مصدرها الضوء الباهت للبيزنطيين وأكثرها من المبكرين الطبيين المسلمين ممن على شاكلة الطبرى. وعلى خلاف الأوربيين فى ذلك الوقت لم يشعر المسلمون بتقيدهم بالخرافات أو معاداة المذهب العقلى أو ببعض المعتقدات المسيحية الرواقية القائلة بتحمل مأسى الحياة الجسدية؛ وذلك لتطهير الروح قبل دخول الجنة. فالمسلمون ليسوا متعنتين تجاه فكرة أن الجسد هو مكان الفساد والخطيئة، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، قد كرر مراراً التوجيه الإلهى بشأن الأمور الطبية، وهو الأمر الذى يكشف حقيقة جليلة ونظرة حديثة للغاية. من ثم سوف يستكمل المسلمون من حيث انتهى جالينوس.

«أخلاق جالينوس هى حقاً أخلاق أبقرات» قالها الطبرى فأوماً تلميذه الرازى برأسه. «يتكون الجسد من توازن بين العناصر الأربعة الموجودة فى الأرض؛ ألا وهى النار والتراب والمياه والهواء، والتي تتجسد فى جسم الإنسان فى شكل الصفراء والسوداء والدم والبلغم».

«ماذا لو أن هناك ما يزيد عن الأخلاق فى الجسم؟» تساءل الطبرى متبعاً مسار تساؤل تلميذه: «خذ هذه القنينة. إن بها كثيراً من العناصر التى لا يمكننا فصلها بعد. لقد كان أبقرات يبذل قصارى جهده ولكن كان ذلك منذ ما يزيد عن ألف سنة».

بعد الغداء يعاودان مرة أخرى دراستهما لأعضاء الجسم، وفى هذه اللحظة يشعر الطبرى بالامتنان لوجود هذا الفتى البارع بالقرب منه وللتفكير فى أن القدر قد يجعلهما يتعاونان لعقود كثيرة قادمة، لكن ذلك لن يحدث فبعد أعوام قليلة سوف يموت المعلم بينما سيرجع التلميذ إلى مدينة الرى ثم إلى بغداد مرة أخرى ليرأس مستشفىين تعليميين عظيمين.

وبينما يرد ذكر الطبرى فى حواشى التاريخ سوف يكبر الفتى الرازى غريب الشكل ليصبح أول طبيب مسلم عظيم الشأن، وسوف تتم ترجمة أعماله إلى اللاتينية، والذى يورد على الأوربيين والعالم الإسلامى الابتكارات الطبية لكل من جالينوس وأبقرات.

وبينما ينزوى الطبرى فى طى النسيان سوف يتذكر الناس الرازى باسمه

اللاتيني . وبعد مرور مائة عام سوف يصير كل من الرازي وابن سينا ، وهو فارسي آخر ، أعظم الأطباء المسلمين لدى الأوربيين .

سوف يكتب الرازي ما يزيد على مائتي مخطوطة حول كل جوانب الطب المعروفة تقريباً بالإضافة إلى كتابات في الفلسفة والخيمياء والميتافيزيقا . وسيكون أول طبيب يصف إكلينيكيًا وعلمياً ويلات الجدري ومرض الحصبة الأقل إيلاماً ، ويبين أنهما مرضان منفصلان . في كتابه الجدري والحصبة كتب:

يتقدم ثوران الجدري حمى مطبقة ووجع الظهر وحكاك الأنف والتفرغ من النوم وهذه أخص العلامات بكونه لاسيما وجع الظهر مع الحمى ثم النخس الذي يجده العليل في جميع جسده وامتلاء الوجه وارتداده حيناً واشتعال اللون وشدة حمرة الوجنتين واحمرار العينين وثقل الجسد كله وكثرة التملل . علاماته التمطى والتأوب ووجع في الحلق والصدر مع شيء من ضيق النفس والسعلة وجفوف الفم وغلظ الريق وحة الصوت والصداع وثقل الرأس والقلق والضجر والغشى والكرب . غير أن القلق والغشى والكرب في الحصبة أكثر منه في الجدري ووجع الظهر بالجدري أخص منه بالحصبة وسخونة الجسد كله واشتعال لونه وبريقه وحمرة وتشد حمرة اللثة خاصة⁽²⁵⁾ .

يرى الرازي أن لكل مرض أسبابه الجسدية المحددة القائمة على أساس علمي ، فهو ليس بعقاب ينزله الله عز وجل على الإنسان .

سوف يرفض الخرافات والعقيدة البدائية التي لا تعتمد على الحقيقة المادية الخاضعة للملاحظة . وهذه العقلانية سوف تجعله ينهض بالمشروع الذي ذكره معلمه القديم الطبري ، ألا وهو التحليل النقدي لبعض الدروس العميقة لجالينوس في مؤلفه «شكوك على جالينوس»:

وأجد لذلك - يعلم الله - مضضاً في نفسي؛ إذ كنت قد بليت بمقابلة من هو أعظم الخلق علي منة ، وأكثرهم لي منفعة ، وبه اهتديت وأثره اقتفيت ومن بحره استقيت ، بما لا ينبغي أن يقابل به العبد سيده والتلميذ أستاذه والمنعم عليه ولي نعمته . وبودي - يشهد الله - أن هذه الشكوك التي ذكرتها في هذا الكتاب لم تكن في كتب هذا الرجل الحبر الفاضل العظيم قدره ، الجليل خطره ، العام نفعه ، الباقي بالخير ذكره . لكن صناعة الطب والفلسفة لا تحتمل التسليم للرؤساء ، والقبول منهم ولا مساهلتهم وترك الاستقصاء عليهم⁽²⁶⁾ .

بعد مرور حوالي 1200 عام سوف يدور جدل حول ما إذا كان الرازي تشككاً بعمق في افتراضات جالينوس ونظريته الخاصة بالأخلاق. وسوف يصرح بعض العلماء الأكثر تشككاً أنه على الرغم من أن الرازي قد هاجم بعض عناصر فكر جالينوس فقد تقبل الهيكل العام له بما فيه نظرية الأخلاق وسوف تصمد نظرية جالينوس حتى عصر النهضة الأوروبية. بينما يرى البعض الآخر في كتابات الرازي اعتراضاً أكثر عمقاً وبصيرةً لبعض المقدمات المنطقية الأساسية لجالينوس. وفي كتابه «شكوك على جالينوس» يتشكك الرازي بوضوح فيما لو كان بوسع نظرية الأخلاق أن تفسر لماذا يتسبب إعطاء مريض مشروباً ساخناً في ارتفاع درجة حرارة جسمه إلى ما هو أعلى من السائل نفسه، ويقول الرازي إن هذا التفاعل قد يعنى أن هناك عمليات تنظيمية أخرى تدور في الجسم، وهي أمور لم تتناولها الأخلاق.

كما أن الرازي سيجري تجارب كيميائية تخلص إلى أن هناك خصائص أخرى ذات طابع مادي للنار والماء والتراب والهواء التي أشار إليها جالينوس. وسوف يحدد الرازي كلا من سرعة الالتهاب والملوحة والزيتية والكبريتية كخصائص أخرى ذات أهمية.

من فيض أعماله سوف يخرج بنتائج حول مرض الربو الناجم عن الحساسية ومصدر حمى القش والنظرية القائلة بأن الحمى هي آلية الدفاع الطبيعية للجسم، بالإضافة إلى التلميحات الأولى حول الربط بين مرض الجسد والعقل كما سيصل إلى الاعتقاد بأن الأفراد مسئولون عن صحتهم من خلال سلوكياتهم ونظام غذائهم.

سوف يتعاطف مع الطبيب الذي يباشر علاج مريض يرفض تحمل مسؤولية نمط الحياة الذي يتبعه. وبالإضافة إلى ما تقدم سيقوم باختراع الملائط والمقوق والقوارير الصيدلانية والمراهم الزئبقية كما سيصل لعلاج بعض الأمراض الشائعة مثل الإمساك والصداع ونزلات البرد والسعال، حتى الاكتئاب. وفي علاجه للاكتئاب سوف يصف استخدام الخشخاش نظراً لتأثيره التخديري.

وسوف يهاجم بشدة دجالى الطب ممن ليس لديهم أى أساس علمي لتشخيصاتهم ومعالجاتهم. بل إنه سيحث الأطباء على التقانى طيلة حياتهم فى الدراسة المستمرة للتطورات الطبية حتى لا يتخلفوا عن الركب. ثم إنه سيقوم بتجربة الأدوية التى تحتوى على الزئبق على القروء قبل إعطائها للبشر. وفى إبان سنوات تجاربه وغزوه المستمر لمجال الخيمياء سوف يحرق عينيه، ومع مرور الوقت سوف ينال منه العمى. فى تلك الآونة سوف يصرف النظر مؤمناً بالقدر عن إمكانية علاج الأمراض الخطيرة من قبيل حالات السرطان المتأخرة والجذام قائلًا: إن الأطباء لا يمكنهم فعل الكثير.

سيقوم بكتابة أول كتيب طبي للعامّة. وفي أيام تدريسه سوف يجمع حوله حلقات عديدة من الطلاب ويلقى بالأسئلة على الحلقة الأولى وينتقل للثانية إذا عجزت الأولى عن إعطاء الجواب الصحيح عما طرحه من أسئلة.

بالرغم من حصوله على تأييد ودعم الخلفاء والحكام فإنه لم يتجاهل الفقراء فكان يعطيهم الدواء بالمجان. هذا الطبع الكريم سيجعل البعض يزعم أنه أصبح ثرياً من الاشتغال في الخيمياء منهمينه بأنه وجد طريقة لتحويل المعادن الأساسية إلى ذهب وسيجيب عن هذا الزعم بأنه لم يقم بمثل هذا العمل بل وبأنه قد توصل إلى الاعتقاد بأن هذا الأمر مستحيل.

وفي وقت متأخر من عمره سوف يكتب في السيرة الفلسفية:

«فإني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ولا متولي أعماله، بل صحبته صحبة متطبيب ومنادم يتصرف بين أمرين: أما في وقت مرضه فعلاجه وإصلاح أمر بدنه، وأما في وقت صحة بدنه فأيناسه والمشورة عليه - يعلم الله ذلك مني - بجميع ما رجوت به عائدة صلاح عليه وعلى رعيته. ولا ظهر مني على شره في جمع مال وسرف فيه ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير حقوقي. وأما حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك مني أنني لم أتعد إلى طرف الإفراط، وكذلك في سائر أحوالي مما يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية. فأما محبتي للعلم وحرصتي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك مني أنني لم أزل منذ حدثتني وإلى وقتي هذا مكباً عليه حتى إنني متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه لم ألتفت إلى شغل البتة - ولو كان في ذلك علي عظيم ضرر - دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل. وإنه بلغ من صبري واجتهادي أنني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمله الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث علي فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي.

فإن كان مقدار الذي أنا عليه من هذه الأمور عند هؤلاء القوم يحطني عن رتبة الفلسفة في العمل وكان الغرض من حذو سيرة الفلسفة عندهم غير ما وصفنا، فليثبتوه لنا مشاهدة أو مكاتبة لنقبله منهم إن جاءوا بفضل علم، أو نرده عليهم إن أثبتنا فيه موضع خطأ أو نقص. وهب أنني تساهلت عليهم



يعتبر ابنُ سينا الطبيبُ الفارسيُّ في القرن الـ 11 أكثرَ العلماءِ الفلاسفةِ تأثيراً في زمنه .
وقد تمت ترجمة كتبه على نطاق واسع في كل من الشرق والغرب .

وأقررت بالتقصير في الجزء العملي ، فما عسى أن يقولوا في الجزء العلمي؟
فإن كانوا استقصوني فيه فليلقوا إلي ما يقولونه في ذلك لننظر فيه ونذعن من
بعد بحقهم أو نرد عليهم غلظهم . فإن كانوا لا يستقصونني في الجزء العلمي
فأولى الأشياء أن ينتفعوا بعلمي ولا يلتفتوا إلى سيرتي»⁽²⁷⁾.

سوف يكتب عملاق عصر النهضة أندرياس فيزالوس، والشهير بدراساته التشريحية، والتي ستضع الطب على طريق جديد، رسالة الدكتوراه مُعلقاً على الأفكار الطبية للرازي ومعيداً صياغتها. في وقت لاحق من حياته سيوجه فيزالوس انتقاداً لاذعاً للطب العربي في محاولة للتخلص من النظام الطبي القديم. لكن مما يثير الاهتمام الإشارة إلى أهمية الرازي في القرن الـ16 في باريس، حيث سيدرس فيزالوس الطب وينغمس في التقاليد الطبية العربية. في تلك الآونة سيكون من الشائع بين الأطباء الأوربيين أن يكتبوا تعليقات حول الكتابات الطبية العربية والتي لا يتفقون معها بالضرورة.

وخلال مائة عام سوف يعقب هذه العقلية البارعة، ونمط الحياة الراقى، والتي نادراً ما وجدت نظيراً لها على مدار قرون من الزمن، سوف تجد ما يضاهاها بل ويتعدها. سوف يظهر خَلْفُ الرازي وهو ابن سينا والمعروف بأبي الطب، وسوف يبجله الأوربيون لمدة 400 عام كأعظم مفكر طبي للعصور كافة.

سنوات طوال وكثير من المعارك، يفكر الرجل الحزين. أما كنا لننعم بسنوات قليلة من السلام؟ مكان لائق للنوم؟ ومورد وفير للنبذ؟ هذا النبذ رخيص الثمن ينال من الرجال في أرض المعركة أكثر مما تناله الأسهم.

تتطلب المعارك تركيزاً تاماً على الحاضر والخصوم والخطط العسكرية وعلى عزم البقاء على قيد الحياة وعلى قتل العدو. برؤية هذا المشهد واستشعار دنو المعركة سوف يتشتت تفكير الكثير من الرجال، إلا ابن سينا، وهو الرجل الذي سيطلق عليه الأوربيون لاحقاً أفيسينا، فهو يعود إلى المهمة الموكلة إليه.

في الخارج في صحارى فارس في عام 1020، ممتطياً حصانه إلى الجانب الإمبراطورى يود ابن سينا مبهتجاً أن يتناسى للحظات أين يذهبون ومن سيحاربون وإنه ليذكر نفسه لحساب من يعمل.

وفى طريقه يملى على كاتب شاب مؤلفاً له من نحو ثلاثمائة مؤلف سينجزها خلال حياته، تدور حول الطب والفلسفة. وقد كان هذا الذى يستعرض أفكاره أقرب إلى السنوات الأخيرة من حياته، وقد أسس لنفسه مستقبلاً عملياً من إملائه مؤلفاته التى لم تنته، فى حين يشهد المعارك ويخرج منها، حيث يتطلب عمله حضوره لعلاج الجرحى لدى الأمير.

عندما ينظر إلى كاتبه الشاب يتذكر ابن سينا عندما كان طفلاً معجزة، ومرت حياته كلها أمام عينيه. بدت كل الأبواب مفتوحة أمامه، فقد حفظ القرآن وهو فى العاشرة من العمر، وبدأ دراسة الطب فى الثالثة عشرة، وراح يعالج المرضى

في السادسة عشرة. وعندما كان في سن المراهقة أنقذ حياة الحاكم الساماني نوح بن منصور والذي كافأه بدخوله إلى المكتبة الملكية في بخارى. وكان ظفره بدخوله المكتبة أفضل لديه من حصوله على العمل الذي عرضه عليه الأمير فرفضه في اندفاعه الشباب. وقد استهواه كثيراً أن يكون بين أكوام المخطوطات والصفحات ناعمة الملمس ورائحة الجلد والورق والحبر وكل هذه المعرفة بل كل هذه الإمكانيات.

كان يستطيع أن يمضى حياته برمتها هناك تحفه الأوراق الملكية من كل جانب ويعالج المرضى الأثرياء ويعلم تلاميذ الطب المجلين. كان بوسعه أن يمضى بعض الوقت في البلاط مستضحكاً لمزاح الأمير السخيف، وفاحصاً بشكل دوري الحالة الصحية للأمير، ومسعفاً إياه في حالات سُكره واكتتابه والنوبات الطارئة عليه بسبب مرضه التناسلي الناتج عن علاقاته غير السوية.

وفي ليالي سنوات المراهقة تلك تمكن ابن سينا من قراءة كتاب الميتافيزيقا لأرسطو ما لا يقل عن أربعين مرة، فقد قرأه مراراً وتكراراً حتى كدَّ ذهنه ولم يجد أنه فهمه حتى تلك اللحظة، ومثلما فعل تماماً مع القرآن الكريم فقد حفظ كل كلمة من عمل أرسطو عن ظهر قلب.

ما الذي كان يعنيه ذلك الإغريقي؟ لم يجد ابن سينا الجواب، وفي يوم ما وهو في السوق رأى رجلاً بائساً يبيع كتاباً صغيراً للفارابي بثلاثة دراهم، كان هذا الكتاب تعليقاً للفارابي على أرسطو، وفي هذا الكتاب الصغير وجد ابن سينا ضالته وكانت السبيل إلى فهم أرسطو ومن ثم حمد الله عز وجل كثيراً.

«حمداً لله الذي مكَّنني من أن أحيى حياة عامرة بالسلام والعلم» ظل ابن سينا يدعو الله عز وجل بهذا الدعاء في أثناء تلك السنوات القليلة التي عاشها في سلام منذ زمن بعيد. كانت حياته تزخر بتأمل الجمال في ساحة القصر واستنشاق عبير الورد والخشخاش في الربيع ورؤية عيني امرأة تنظر إليه من وراء حجابها، تانك العينان اللتان أومضتا بالوعود، والاستمتاع بأفضل أنواع النبيذ في فارس وقبل كل ذلك الاستمتاع بالمكتبة... فقد كان يخر ساجداً امتناناً حتى تدوم تلك الأعوام الأولى من حياته طوال عمره. إلا أنه في عام 999 بدأ كل شيء ينهار.

قامت عصابة من الأتراك بالتآمر على رعاته السامانيين والإطاحة بهم ومات والده. والأسوأ من ذلك أن أحرق الأتراك المكتبة الملكية الرائعة فاحترق كل شيء؛ جميع المخطوطات وكل هذه المعرفة والحكمة أتت عليها النار، كما تحرق القمامة. كيف تأتي لهؤلاء الرجال أن يكونوا بهذا الغباء؟ ما مغزى الحياة بلا أفكار؟

عندئذ عاش ابن سينا سنوات من التخفى والتنكر والهروب والتوسل والمناشدة والتلفع بأغطية الوجه والعمامات ودفع الأموال لقاطع الطريق والخائنين وهجرانه المدن في منتصف الليل. كان يحاول اقتناص حياته القديمة ولو في صورة عمل مستقر ونوع من السلام والراحة ومكتبة لائقة.

عرض عليه السلطان الفاسد محمود الغزنوي عملاً، ولكن حتى لا يعاني من سجن محتمل مثلما حدث مع البيروني رفض ابن سينا. كما عرض عليه وزير آخر في كراكنج راتباً صغيراً ولكنه لم يكن يكفي حتى للحصول على طعام لائق. أما الثالث فقد كان حاكماً في الديلم وهو عالم وشاعر عُرف برعايته الكريمة للمفكرين، ولكن عند وصول ابن سينا كان قد قُتل على يد جنوده. أخيراً قام صديق له في مدينة كركان الواقعة على بحر قزوين بشراء بيت صغير له حيث راح يدرس للتلاميذ فيه لبعض الوقت.

لكن أبعث ذلك تتوج عقلية عظيمة كعقلية ابن سينا فيجلس في بيت صغير يقع على أطراف فارس ليُعلم أبناء الطبقة المتوسطة من متسلقى هذه المدينة الصغيرة عن المنطق والفلك والطب؟ تسرح عيناه على امتداد بحر قزوين ويفكر في «أن الأمور العظام إنما تقع وراء الشاطئ المقابل».

تطلع ابن سينا إلى شيء أكبر من ذلك، إلى حياة تشبه الحال التي كان عليها في أثناء فترة مراهقته في المكتبة السامانية الملكية. لذا سيذهب من مدينة كركان إلى مدينة الري ملتصقاً برعاية ملكية وبعد ذلك إلى همدان. وبعد مرور فترة وجيزة عين أمير همدان ابن سينا في منصب وزير. أحق ذلك؟ هل انتهى وقت المشاكل؟ لكن هذا الرجل المعجزة الذي تخطى تفكيره بمراحل كل من في البلاط وفي القصر وفي المدينة قلما أعرب لسانه عما يجول في خاطره. في مناقشاته في البلاط كان مذهلاً ومسيطرًا وفي أغلب الأحيان دائماً على صواب. وعلى الرغم من عبقريته في أمور العقل فما كان بنفس البراعة في مجالات السياسة والدبلوماسية واللباقة. فكان ينظر لمعارضيه على أنهم أغبياء لا على أنهم يتبنون آراء مختلفة وأن له حقاً لديهم ويجب الحصول عليه بدبلوماسية.

اندفع السباب والتهديدات العنيفة في الاتجاهين ولم يطوها النسيان. من ثم بشكل سريع فبعد أن وجد العمل الذي كان من الممكن أن يتوج أحلامه، عزل هذا الوزير العبقرى الكثير ممن كانوا حوله، وضباط العسكرية الذين كانوا بالكاد يفهمون شيئاً مما يقول، كان لديهم الوعي الكافي ليدركوا أنه سخر منهم وحط من شأنهم. وبالتالي ثاروا على غطرسته ووجد الأمير نفسه مجبراً على الزج به في السجن. لكن عندما شعر الأمير بوعكة صحية أخرج المعالج العظيم من السجن ونجح ابن سينا في علاج الأمير ليسترد اعتباره، لكن لفترة وجيزة. فقد كان يواجه ما يكفي من العقول ضيقة

الأفق ، لذا بدأ بالاتصال سراً بالحكام في مدينة أصفهان باحثاً عن رعاية أفضل في هذه المدينة الكبرى . وعندما علم أمير همدان أن وزيره الطبيب كان يبحث عن مكان آخر استشاط غضباً فما كان أمام ابن سينا سوى الهرب ليلاً متخفياً متجهاً إلى أصفهان ، وقد تمكن بالكاد من الوصول إليها حياً .

أمضى ابن سينا في أصفهان الاثنتي عشرة سنة المتبقية من عمره . تتسم المدينة بروعة الجمال والثقافة والثراء وبها صالونات فكرية وحانات مجهزة بشكل جيد وشوارع وحدائق مدهشة ونساء غاية في الحسن . إنها مدينة متأنقة حتى أكثر من بخارى .

لا يهم بالنسبة لابن سينا أن تتطلب وظيفته كطبيب البلاط أن يرافق الأمير في المعارك ، والمعارك لا تتوقف ، فهو ثمن كان على أتم استعداد لدفعه . إنه يشعر بأن هذه هي فرصته الأخيرة ليجد منزلاً وحياءً يتناسبان مع عقله وطموحاته الكبرى حتى وإن لم تكن بالشكل التام .

خلال ما يقرب من 30 عاماً من التمزق وصل ابن سينا إلى قرار حاسم وهو أنه إذا ما أراد فك لغز المعرفة بجسد الإنسان والحياة فإن عليه القيام بذلك بانشغال تام فعليه أن يحسن من قدراته التركيزية وأن يحيا في عالمين ؛ أى عالم البقاء المادى وعالم العقل .

ورغم أن ابن سينا كتب المئات من الكتب حول كل شيء من الرياضيات إلى الفلك وعلم المعادن ، منها كتاب المعادن ، فإن أعظم إسهاماته كانت في الطب . الجدير بالذكر أن ترجمة أعماله حول الجيولوجيا وعلم المعادن ترجع بالخطأ إلى أرسطو حتى العصر الحديث . وأهم كتابين له هما القانون في الطب وكتاب الشفاء ، وقد تمت ترجمة هذه الكتب ومناقشتها على نطاق واسع ليس فقط في العالم الإسلامى ولكن أيضاً في أوروبا العصور الوسطى . بالإضافة إلى عمل الرازى يقوم كتاب مبادئ الطب بالكثير لتطوير الطب والفكر الأوربى عن أى عمل أو حدث آخر في هذا الصدد .

كتب ابن سينا فى القانون فى الطب:

لما كان الطب ينظر فى بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة والعلم بكل شيء إنما يحصل ويتم إذا كان له أسباب يعلم أسبابه فيجب أن يعرف فى الطب أسباب الصحة والمرض ، والصحة والمرض وأسبابهما قد يكونان ظاهرين وقد يكونان خفيين لا ينالان بالحس بل بالاستدلال من العوارض فيجب أيضاً أن تعرف فى الطب العوارض التى تعرض فى

الصحة والمرض . وقد تبين في العلوم الحقيقية أن العلم بالشيء إنما يحصل من جهة العلم بأسبابه ومبادئه إن كانت له ، وإن لم تكن فإنما يتم من جهة العلم بعوارضه ولوازمه الذاتية . لكن الأسباب أربعة أصناف: مادية وفاعلية وصورية وتامة⁽²⁸⁾ .

بينما ظهرت أول ما ظهرت هذه الأسباب الأربعة عند أرسطو فإن ابن سينا كان أول من وضعها في إطار منطقي وعلمي من أجل الطب . وبالرغم من أن جالينوس استخدم حقاً المنطق والمنهجية العلمية ، فإن ابن سينا هو من أعطى الطب الهيكل العلمي الرسمي في كتابه القانون في الطب . قد تكمن عبقرية ابن سينا في أنه حول الجسم البشري إلى شيء من الممكن فهمه مثل أى ظاهرة مادية أخرى ، وذلك فيما يتعلق بسلسلة الأحداث السببية التي تؤدي إلى حالات صحية ومرضية واعتلالية عديدة . ومن كل هذا الفيض الهائل للحكمة الطبية ، بماذا جاء ابن سينا للعالم؟

بجانب توفيره لخلاصة وافية للكثير من المعارف الطبية بالقرن الـ 11 قام ابن سينا بإخبار العالم بما يزيد على 700 نوع من الدواء . كما سيتناول الأمراض التي تنتشر عبر المياه والتربة ، وسيخلص إلى أن السل هو مرض معد ، لكنه سيخطئ في أسلوب انتقاله معتقداً أنه ينتشر من خلال التربة وليس الهواء . علاوة على ذلك سيقترح علاج الناسور الدمعي وهو عبارة عن تورم في الغدة الدمعية كما أنه سيخترع أداة تسبر القناة الدمعية . سيقول ابن سينا إن الطريقة الوحيدة لفهم أعمال الجسم هي من خلال إجراء الاختبارات والملاحظات العملية والحيادية حيث إن التأمّلات والنظريات ليس لها أى قيمة ما لم يتم إثباتها .

في خط متوازٍ مع ابن الهيثم الذي كان يجرى بحوثه في القاهرة في ذلك الوقت ، ولكن من منظور تشريحي وطبي أكثر تفصيلاً بالإضافة إلى ذلك سوف يسبر ابن سينا أغوار أجزاء العين المتعددة منها القرنية والحدقة والشبكية والخلط المائي والعصب البصري . كما أنه قد يسهب على ما جاء في نظريات جالينوس في وصف أعضاء بصرية أكثر سرية وبعداً ، على سبيل المثال التصالب البصري والهيكل الواقع في المخ ، والذي شكله التقاطع أو المرور الجزئي لأنسجة العصب البصري على أسفل الهيپوثلاموس . ويشرح أيضاً كيف يعمل الشريان الأورطي ملاحظاً أن صماماته الثلاثة تحول دون اندفاع الدم مرة أخرى إلى القلب بعد انتهائه من الانقباض . كما يؤكد على أن الأعصاب طرق للرسائل غاية في الأهمية لكافة المهام الجسدية خصوصاً الانقباضات العضلية حيث انتهى إلى أن الألم ينتقل من مصدره عبر الأعصاب .

سوف يتناول قسم كبير من كتاب القانون في الطب موضوع الجمال، والذي يعتبر تحليلاً طبياً للخصائص السطحية للجسد التي تخلق الإحساس بالجمال مثل الشعر أو فقدانه ولون البشرة ولمسها وأثر المرض على الشكل العام.

كما سيكرس مجلدات عدة من الكتاب لموضوع كسور العظام وسيبتكر طرقاً لعلاجها إضافة إلى ذلك سوف تكون له الصدارة في وصف التهاب السحايا ومضاعفاته.

وسيبدل جهداً لإدخال مفهوم علم التغذية للمسلمين العرب، حيث يظهر تأثير العلاجات بشكل أفضل إذا تأثر بالمنتجات والمناهج الطبيعية. وسيتعمق في كيفية تخدير الفم لعلاج الأسنان وإجراء جراحات الفم وسوف يشرح ويصف أسباب داء الكلب وسرطان الثدي والأورام والقيلة أو تجمع سائل مصلى في تجويف ما في الجسد والذي غالباً ما يكون في الخصية. بالإضافة إلى ذلك سوف يقوم أيضاً بتوفير المعلومات حول السميات والترياق الخاص بها، كما سيشرح خضماً هائلاً من الحالات الجسدية والبيولوجية الأخرى مثل القرحة ومرض الكلى وشلل الوجه، وكذا سيخلص إلى أن الدودة الخطافية تتسبب في بعض الأمراض المعوية.

سيضع ابن سينا قواعد علمية تجريبية من أجل اختبار وتقييم أثر الأدوية على علاج بعض الحالات، تلك القواعد التي ستكون بمثابة حجر الزاوية لتجارب الأدوية الإكلينيكية بعد مرور تسعمائة عام. بدلاً من تناول أحد العناصر فحسب يقول ابن سينا إن نقاء الدواء يعتبر أمراً هاماً، والذي يجب أن يكون فعالاً على المستوى العالمي، وأن الجرعة يجب أن ترتبط بمدى شدة المرض، وأخيراً يجب أن يتم اختباره على البشر تحت ظروف رقابية ومسيطر عليها تماماً.

بالرغم من أنه سيكون مخطئاً في الكثير من الأمور فإنه سيكون أيضاً ذا بصيرة نافذة في الكثير من الأمور الأخرى. إن تبنيه للهيكل الأساسي لنظرية "الأخلاق" الإغريقية سوف يبدو في وقت لاحق نظرية عفا عليها الزمن عندما يستخدم لوينهوك في القرن الـ 16 مجهره ليكتشف «الوحوش الصغيرة» العائمة في قطرات من المياه والدم أو الزاحفة على الجلد أو الأسطح. إن الجراثيم والفيروسات هي سبب العدوى وليست الأخلاق. لكن ابن سينا وبكل تأكيد سوف يكون مصيباً في أشياء أخرى والتي تظل سارية المفعول حتى القرن الـ 21.

سوف يتضح أنه كان على صواب في اعتقاده بأن السل هو مرض مُعد على الرغم من رفض الأوربيين لتلك النظرية لما يقرب من 400 عام. كما سُنبت صحته من خلال مفكرين مثل سيجموند فرويد وكارل يونج ونورمان كازينس في الكثير من اعتقاداته حول ارتباط الجسد بالعقل والمصادر العاطفية والفكرية للمرض.

على الرغم من تناول الرازي لهذا الموضوع فقد ألقى ابن سينا عليه المزيد من الضوء - من خلال قراءاته وتجاربه على مرضاه - على أن هناك بعض الأمراض علتها الروح أو ناتجة عن أنماط غير صحية من الأفكار وهي التي أطلق عليها الرازي «الأمراض المعنوية». لكن تفسير ابن سينا لهذا الموضوع سيرد أقل ولو بشكل بسيط فيما يخص الجانب المعنوي الذي أشار إليه الرازي .

ومع كونه من المفترض رجوع هذا الارتباط بين العقل والروح والصحة الجسدية إلى معتقدات الأديان الآسيوية التقليدية مثل البوذية والهندوسية إلا أنه ينجم أيضاً عن الآراء الإسلامية الشمولية الخاصة بترابط كافة العمليات المادية في الكون الذي خلقه الله عز وجل، بل وهي أيضاً مراجعة للانقسام الإغريقي الفلسفي بين العقل والجسد وبين المادة والروح أو الفكرة .

سوف يحاول ابن سينا الجمع بين العقل والجسد ومن هنا سيعمل من منطلق الاعتقاد الإسلامي الأساسي في أنه من الطبيعي للبشر أن يكونوا أصحاء لا أن يكونوا مرضى وأن المرض إنما ينتج عن اضطراب في الوضع الطبيعي للإنسان . في حين أن هذا الاضطراب قد يصدر عن بيئة مادية غير صحية أو نظام غذائي غير صحي، فقد تناول ابن سينا تلك الفكرة إلى أقصى حد لها بمعنى آخر أن كلاً من الأفكار والأحاسيس والأوضاع الذهنية غير الصحية إنما تؤثر على جسد الإنسان .

وسوف يتضح أن نظريات ابن سينا حول العقل نافذة البصيرة، حيث ستجد تعبيراً عنها بعد حوالي 900 عام في علم النفس الحديث والخيال العلمي . في واحدة من دراساته الفلسفية المؤثرة يطلب ابن سينا من القارئ أن يجرب تجربة فكرية، وهي نظريته الشهيرة «الرجل العائم» أو «الرجل الطائر». فقال: «تخيل وجود رجل يعوم في الغرفة بدون أي مدخلات حسية، فما من ضوء وما من جاذبية أي ما من أمر حسي من أي نوع، فهذا الرجل يعوم في ظلام حالك وهو لا يحس بأي شيء بما فيه جسده؛ وذلك لأن أعضاء جسده لا تتلامس مع بعضها البعض - ولنقل إن هذا الرجل خلق على هذا الوضع، فهل سيكون قادراً على التفكير؟ هل يستطيع العقل البشري التفكير في أي شيء دون أي مدخلات حسية خارجية؟ وإذا ما استطاع فما الذي قد يفكر فيه هذا الرجل؟ أيمن أن يكون الرجل العائم على وعى بأي شيء؟

وجواب ابن سينا الشهير عن ذلك السؤال هو: نعم، فعلى الرغم من عدم وعى الرجل ببيئته أو أي شيء خارجي فإنه على الأقل سيكون على وعى بوجوده. هذه الفكرة سبقت زعم ديكارت الشهير: «أنا أفكر؛ إذن أنا موجود» .

عرف ابن سينا كيف يرتبط معدل نبض المريض بتفاعله مع المحفزات الخارجية مثل بعض الكلمات أو الحقائق. قد يرى البعض أن تلك النظرية قد سبقت نظرية ارتباط الكلمات في عملية التحليل النفسي التي أرساها كارل يونج لـ 900 عام .

هناك قصة مفادها أنه ذات يوم زار ابن سينا شاب يشكو من مرض غريب غير قابل للتشخيص . مع تحسس ما إذا كان سبب هذا المرض العقل أو الروح . بدأ ابن سينا بسرد قوائم من الأماكن والعناوين والأحداث والأشخاص وعبر مراقبة نبض المريض واستدلاله خلص ابن سينا إلى أن هذا الشاب مغرم بسيدة في مدينة ما . وحتى يشفيه وصف ابن سينا للشباب دواءه بأن يجد تلك المرأة ويتزوجها ، ومن ثم فعل وتعافى .

سيقوم بعض المعالجين المسلمين فيما بعد باستخدام أشكال من علاج ابن سينا النفسى أو العقلى فى بعض الأحيان إلى أمور مخزية كأن يفزعوا من يعتقدون أنهم لا يستطيعون المشى حتى يمشوا، كما أن أحدهم سيصدم امرأة تعتقد أنها مشلولة بأن يرفع عنها ثيابها فجأة .

هذه العلاقة بين الحالة الذهنية والوضع الصحى للجسد ، والتي تعتبر غير قابلة للجدل ولكن يصعب فى نفس الوقت قياسها لن تجد طريقاً لها فى الطب الغربى إلا بعد مرور زمن طويل . وكذلك عندما يشرع الأوربيون فى إدراك ما يمثل فيما بعد الطب الحديث سينصب تركيزهم على منهج ميكانيكى لعلاج المرض من خلال توفير بعض العناصر المادية .

وسيقى الحال هكذا حتى يأتى كل من فرويد ويونج وخصوصاً الأخير لتظهر مرة أخرى المناهج الأقدم والأكثر تعلقاً بالروح والأفصح شمولية فى الطب الغربى . بالإضافة إلى هذين الشخصين سيأتى شخص آخر أمريكى يدعى نورما كازينس وهو كاتب ومحرر بجريدة ساترداى ريفيو ليتسبب فى ثورة ثقافية أمريكية فى أواخر القرن العشرين من خلال تناوله موضوع ارتباط العقل بالمرض . سوف يكتب تفسيراً رائعاً حول الضحك حتى الشفاء فى كتابه الصادر فى عام 1990 «العقل أولاً: بيولوجية الأمل والقوة العلاجية للروح البشرية» .

هل قرأ كازينس لابن سينا؟ إنه تاريخ ضائع ولكن الأفكار سوف تتولد من جديد فى شكل مختلف بعض الشيء وبلغة وسياق مختلفين .

لا علينا، فإن ابن سينا بعد كل هذه السنوات من عدم الاستقرار فى منزل أو عمل سوف يجد ضالته مع راعٍ فى أصفهان . ولرات أخرى سوف يخوضون المعارك ولن يكون السلاح هو سبب مقتل ابن سينا ولكنها نوبة ألم معوى حادة إما التهاب

معوى وإما تسمم غذائى وإما إنفلونزا معوية. إنه بلاء دائم حل بهذا المقاتل، وكان هذا المرض على وشك الفتك به فى إحدى المرات، ولكنه استطاع أن يشفى منه ولكن فى المرة الثانية عندما أعجزه المرض لم يعالج نفسه وسيطلب نقله إلى بلده همدان حتى يموت ويدفن هناك. وقد توفى ابن سينا وعمره 57 عاماً.

فى المدينة الأندلسية الملكية مدينة الزهراء تلد إحدى النساء فى عام 1005 وبوسعك أن ترى عبر نافذة غرفة الولادة الأعمدة اليشبية والمرمرية والآلاف من النافورات والشرفات المصنوعة من الرخام شديد اللمعان إلى الحد الذى يجعلها تبدو كمسابح من المياه الداكنة المتدفقة إلى سفح تل. ومن بعد تتلأأ مدينة قرطبة تحت شمس فصل الصيف.

تنظر المرأة مشفقةً من أن تكون تلك لمحتها الأخيرة لهذه المدينة الخلابه بل لهذا العالم. يدق قلبها وينتابها خوف آخر من ألا يترك وليدها هذه الغرفة حياً وألا يمر بما قد مرت به خلال سنى عمرها العشرين. إنها محظية ملكية للخليفة الأموى هشام الثانى ولشهور عدة وهى تتساءل ما إذا كان وليدها صبياً وإن كان سيكبر حتى يصير فى يوم من الأيام خليفة.

يبدل طبيب التوليد واسمه الزهراوى قصارى جهده، وبعد مرور مائة عام سيرفه الأوربيون باسم ألبوكاسيس من خلال الترجمة اللاتينية لمجلده الطبى الشامل «التصريف أو منهج الطب».

يحتاج الجنين إلى تعديل وضعه قبل مروره بقناة الولادة، وعندما يستخدم الطبيب الكلاب الذى لبث فى حقيبته الطبية لعدة سنوات. هو الذى تولى إعداد هذا الكلاب بنفسه، وفى حقيقة الأمر أنه الذى اخترعه منذ 50 عاماً عندما كان طبيباً شاباً فى مستقبل حياته.

يشير البعض إلى أن الزهراوى مثل سلفه الرازى فى بغداد سيقوم بتطهير الكلاب مستخدماً الكحول بينما يشك بعض الخبراء فى ذلك، ولكن الجدير بالذكر أن هذا الطبيب هو أول من قام بالكثير من الأمور. هذا الطبيب الأندلسى العربى البالغ من العمر 65 عاماً والذى يعمل بشكل متوازٍ مع ابن سينا ذلك الذى يبعد عنه بمسافة 2.500 ميل هو أبو الجراحة الحديثة.

ولد فى هذه المقاطعة الملكية بعد عامين من البدء فى بنائها فى عام 936. فى تلك الآونة التى شعر فيها الأموى عبدالرحمن الثالث بثقة كافية فى سلطته وقوة مجتمعه حتى ليتمكنه الإعلان أنه الخليفة الحقيقى للإسلام. كان ذلك فى الوقت الذى صار فيه العباسيون رؤساء صوريين، والفاطميون بينون إمبراطوريتهم عبر الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

«هل سيعيش وليدي؟» استطاعت المرأة البائسة أن تسأل ما بين الانقباضات. «إنه أمر شبه مؤكد» يرد عليها الطبيب الزهراوى «فلديكِ صبي بصحة جيدة ولكن تلك اللحظة القادمة ستكون مؤلمة».

بالنسبة لها كان الخبر الذى صرّح به مطمئناً على نحو كاف، فسوف يحيا الوليد فتياً. وعلى الرغم من أنها تريد أن تسأل ما إذا كانت ستبقى على قيد الحياة هى كذلك فما عاد هذا الأمر بذى بال الآن فهو تقريباً تجرؤ منها. ومثلما حذرها أدى الألم إلى فقدانها الوعى لفترة وجيزة، حلمت فيها أنها مع حبيبها الخليفة يمشيان معاً فى الهواء ويصعدان إلى الجنة بينما يظل ابنهما على الأرض ويتوج كخليفة للمسلمين. لكن عندما ينظران إلى الأسفل ليريا ما حدث بالأراضى القاحلة المروية التى صارت ثرية بالخصب والمدينة التى ضمت نصف مليون شخص والمقاطعة الملكية بشوارعها المرصوفة الوفيرة، الأنيقة المتسلقة سفح جبل العروس التى عرفت ذات يوم بالإسبانية باسم سيارا مورينا، تقول لحبيبها: «لقد كانت تلك المدينة جنة فكيف للجنة التى فى السماء أن تكون أفضل من ذلك؟».

وبمجرد التفات الخليفة لينظر إليها مندهشاً من جرأتها وكأنها ارتكبت معصية تستيقظ على صوت وليدها الصبى يصرخ وقد غمرت شمس الأندلس المكان.

«شكراً أيها الطبيب» قالت السيدة وهى تلتقط نظرة خاطفة للساقين اللتويتين والوجه الأحمر للرضيع الباكى قبل أن تغط مرة أخرى فى النوم. وقد ساغ لها النوم إذ ستولى الممرضة والقابلة تنظيف الطفل ووزنه وتدوين الملاحظات الخاصة بتفاعلاته.

على دراية بأن الأم نائمة يفضى الزهراوى إلى كبيرة ممرضاته: «لقد كان ذلك وشيكاً». وتومئ الممرضة برأسها؛ إذ تعلم ذلك، فقد أمضت مع الطبيب سنوات طويلة وقد رأته يتخذ القرار الصعب ما بين الأم والطفل أو عندما يكتشف أن الوليد متوفى أو مشوه أو يشاهد الأم وهى تموت تاركة الرضيع. إن تلك الأوقات من أشد الأوقات على نفسه إذ يشعر بأن إضافة روح على حساب أخرى لا يمثل مكسباً خالصاً للبشرية أو المجتمع، فإنه يرى ذلك فشلاً.

إن هذا السيد الجراح الأندلسى هو أيضاً سيد المسلمين فى طب التوليد وطب الأسنان والمنتجات الدوائية. ويشمل هذه الأشياء وأكثر الخلاصة الوافية التى وضعها والمكونة من 30 مجلداً وبسبب تعقيدها ورفعتها سوف يستغرق المترجمون الأوربيون 300 عام حتى يفصلوها ومن ثم يترجموها إلى اللاتينية واللغات الأوربية.

المرأة نائمة والرضيع يسجع والممرضة والقابلة تحرسانهما وقد آن للزهراوى أن يتحرك الآن.

متفقدًا الساعة المائية في الخارج عند الساعة يرى أن بإمكانه إنجاز مواعده مع أحد أعضاء الأسرة الملكية وهي أرملة من النبلاء تعاني ألمًا في ثديها الذي تورم لسبب ما بشكل بعيد عن الإثارة أو الجمال ليصبح عبئًا ثقيلًا عليها. ظهرها يؤلمها وتشعر بالخجل إلى الحد الذي يجعلها تحبس نفسها حتى تبتعد عن نظرات وهمسات الناس.

في غرفتها المطلة على إحدى الشرفات المصنوعة من الرخام يصل الزهراوى، وبعد تبادل التحية شرع في العمل. وعلى الرغم من شعور السيدة بالحرج الشديد أن يراها رجل هو ليس بزوجها إلا أن رؤية الزهراوى للعديد من الأجساد جعل من أسلوبه الفاتر راحة لها. بالنسبة له جاء ذلك ضمن يوم عمل عادى فمن شأن جسم الإنسان أن ينتابه كثير من الاضطرابات. وأعطت ممرضته السيدة المسكن والمُخدر وانتظرا حتى يبدأ تأثيرهما.

بإحدى تقنيات جراحة التجميل، والتي لن تُحاكى لمدة 950 عامًا راح الزهراوى يرسم خطوطًا في الأماكن التي سيشقها بقلم فحمى أسود ثم قطع بمشرط من اختراعه. وبسرعة أزال الأنسجة الدهنية الزائدة واستخدم العلاج المعطى عن طريق الفم والموضعي ليقفل النزيف ثم سرعان ما قام برتق الشقوق.

الآن وفي قصر مستشار للخلافة يعاني من آلام مبرحة بسبب حصوات بالكلى قام الزهراوى ومعه أحد مساعديه الرجال بدلاً من الممرضة بربط الرجل وإعطائه المسكن اللازم ثم أدخل سلكًا رفيعًا فضيًّا ذا طرف ماسى في مجرى البول ووجد الحصوة بالملامسة ومع التصاق تام بالماسة سرعان ما فتت الحصوة. وخفتت صرخات الرجل تدريجيًّا بادراكه أن المشكلة انتهت على ما يبدو وعندها أمر المريض بإمطار الطبيب بالقطع الذهبية.

إنه وقت الصباح وعند تحقق الزهراوى من الوقت أدرك أنه يستطيع تفحص حالتين قبل أن يستريح للغذاء. فمر على خادم عجوز للخليفة ليتحقق من طقم الأسنان الاصطناعية للرجل والمصنوعة من العظم. يتقدم الخادم بجزير الشكر للطبيب على طقم الأسنان الذى مكنه من أكل الغذاء الطبيعى مرة أخرى.

أما آخر زيارة فكانت لأحد حراس الخلافة الذى مكث مشلولًا فى ثكنة عسكرية بالقرب من القصر الملكى بعد حادث امتطاء مرعب فى أثناء مرافقته للخليفة فى طريق الرجوع من إشبيلية. أجفل الحصان فجأة ملقيًا بفارسه على جدار صخرى يحمى قناة للرى، وعلى الرغم من أن هذا الرجل عرض نقله من القصر حيث إنه لن يكون بإمكانه الخدمة بعد ذلك أصدر الخليفة أوامره أن يبقى فى مدينة الزهراء حتى يتم ترتيب مكان أكثر ملاءمة له.

«طاب صباحك» قالها المحارب المغوار للزهرأوى، حيث هو الآن شاحب ومكتئب.

يومئ الطبيب برأسه ويقول: «الأهم هو كيف حالك أنت؟». يهز الرجل كتفيه بمعنى أنه ما من تغير أو تحسن. «هل سأستعيد الحركة هنا؟» يشير الرجل بذقنه إلى الجزء السفلى من جسده. يصمت الزهرأوى للحظة ويعرف مدى فداحة السؤال، فيجيب «بالرغم من أنه ما من أمر مستحيل على الخالق، فما رأى خادمك المتواضع إصابة كهذه قط تعالج من تلقاء نفسها».

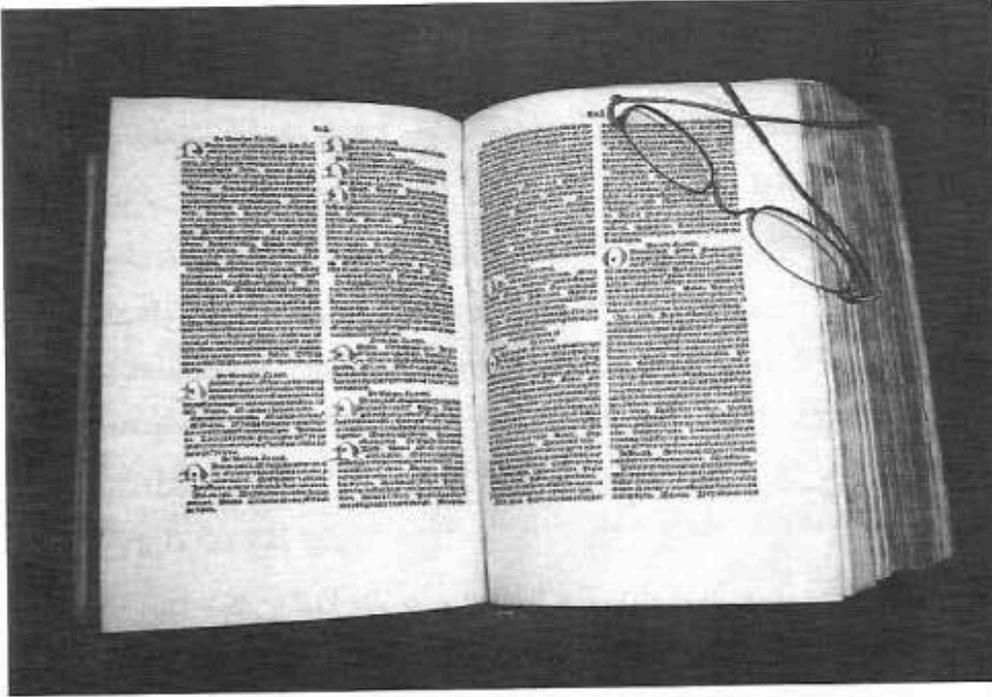
يصمت الحارس لبرهة من الزمن وتنهمر الدموع من عينيه للمرة المائة لكنه لا يريد أن يراه أحد وهو يبكي.

«لقد رأيت شكلين لهذا النوع من الشلل» يستطرد الزهرأوى مستشعراً أن الوقت مناسب للحديث «أحدهما إصابة في العمود الفقري تعرف عليها جالينوس منذ 800 عام عندما كان يقوم بتقطيع الخنازير. قطع العمود الفقري يتسبب في شلل الجسم من هذه النقطة إلى الأسفل ولا يوجد إصلاح لهذا القطع. الخبر السار لك هو أنني لم أر مثل هذا القطع في عمودك الفقري وهو أمر هام إذا ما أخذنا سقطتك في الاعتبار. تفحصت كل فقرة من الفقرات لم أجد أي رضوض بها، والذي وجدته هو ضربة قوية عند هذه النقطة وهي النخاع الشوكي حيث يمر وتر العمود الفقري إلى المخ. وقد أجريت الكثير من البحوث على الأشخاص المصابين بنفس نوع الشلل ممن لا يعانون من جرح في العمود الفقري وتبين لي من هذه الحالات أن المنطقة الواقعة أسفل المخ قد تعرضت لجرح شديد، قطع عملية التدفق من المخ إلى العمود الفقري أو أعاقها. هذا النوع من التلف في المخ والعصب يعلو على قدرتي المتواضعة على الرأب والإصلاح. من ثم فإن هذا النوع من الإصابة غير قابل للإصلاح على يد البشر».

في هذه اللحظة لم يستطع الحارس إخفاء حزنه وأجهش في البكاء على الملأ. احترم الزهرأوى حزنه وانسحبت الممرضة من الغرفة حتى لا تُخرج هذا المقاتل الحزين.

«لقد اعتقدت لو أن أحداً يستطيع إنقاذى على وجه الأرض فذلك الشخص هو أنت». أخيراً يعترف الحارس بذلك.

وكلاهما يعرف أنه ما من أحد يمكنه أن يفعل أفضل من ذلك. فقد رأى كلاهما وفود النبلاء والتابعين والرهبان والراهبات وقد تدفقوا من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا ليروا عجائب المسلمين في الأندلس والمدينة الملكية وليقفوا في صمت رهيب



كتاب ابن سينا «القانون في الطب» موضح أعلاه في ترجمة لاتينية
واضعاً معياراً للطب ولقد استخدمته أوروبا لمدة 700 عام.

أمام المكتبات العظيمة وليشاهدوا جودة الطعام والملابس ونمط الحياة الرفيعة ووسائل الراحة في المدينة الثرية على أرض إنسانية وأخيراً لمعرفة الوقت بدقة من خلال الساعة والمزولة.

«أى منا يمكنه الخروج من قناة الولادة ولم يعيش حياة كاملة بعد فإن هذا الأمر في حد ذاته معجزة» يقول الزهراوى بهدوء: «لقد أمضيت سنى عمرى كلها أحاول تمرير هذه المعجزة إلى أكبر قدر ممكن من الناس». يومئى الجندى برأسه؛ لأنه يعلم أن ما يقوله الزهراوى حقيقة، فهذا هو الزهراوى أعظم طبيب على وجه الأرض.

«لهذا أمضيت كل هذا الوقت، ليس فقط في الدراسة والبحث والتجربة، ولكن أيضاً في تسجيل النتائج التى توصلت إليها». يسترسل الطبيب متحدثاً الآن وكأنه يكلم نفسه أكثر من مريضه: «لو أنتى دونتها على الأقل فسوف تتوافر فى نص مكتوب لمن يأتى بعدى حتى يستطيع التحسين منها أو التعديل عليها، ومن ثم لن تتعرض للضياح. وبهذا الأسلوب قد يجد من يأتى بعدى طريقةً لتقطيب النخاع أو حتى العمود الفقرى. لكن ذلك سوف يتطلب أدق مشرط وأرفع إبرةً للتقطيب وربما كانت رفيعة للغاية حتى ليعسر أن تمسكها يد أو تراها عين رجل عجوز مثلى خشية أن نتسبب فى إصابة خطيرة تكون أسوأ مما هى عليه».

يحدق برهةً في المدينة الملكية، والوزير يتقدم متجهاً من الساحة إلى السوق والسحب المطيرة تتجمع ناحية الجنوب، فقد تهطل الأمطار على الوادي للمرة الأولى منذ أسابيع.

«كل نفس وكل دقيقة هي معجزة» يقول الزهراوى، وهو يغلق حقيبته ليستعد للرحيل «حتى مع إعداداتنا ووسائل حمايتنا العظمى يمكن أن تقتنص منا في ثانية. وما يتوجب علينا فعله هو حماية تلك المعجزة على قدر استطاعتنا وإذا ما فشلنا ولم يعد لدينا المزيد من الوقت فعلينا تقبل ما يأتى».

وإذ لفظ بهذه العبارة الأخيرة شعر أنه مخطئ، متغطرس، متقحم. كما يشعر بالخزى من نفسه، فقد تلفظ بما لا يمكن قوله، فما عانى قطُّ مثلما يعانى هذا الحارس وبالتالي فهو ليس فى وضع يجيز له إسداء النصح له، فهذا الرجل فى حاجة إلى تبين طريقه بنفسه.

يشعر الزهراوى وكأنه فشل. هذا الطبيب الذى قدّم للعالم أول وصف للهيموفيليا وأول نص وثائقي لمرض استسقاء الرأس (أو المياه على المخ) يشعر أن ذلك ليس بكاف. فقد كان أول من قدّم أول علاج فعال لمرض القلب والإمساك والخلايا التجميلية والنظام الغذائى وقياسات كميات الدواء. كما كتب بالتفصيل حول أمور مثل كى الجروح وعلاجها وإصلاح العظام المكسورة فى كل من الكسور البسيطة والمضاعفة واستخراج الأسهم أو القذائف المنغرسه. علاوة على ذلك توصل إلى تدابير معينة، من قبيل استخدام أمعاء الحيوانات والصوف والحريير لعمل أول خيط للعمليات الجراحية، كما توصل إلى طرق لتوسيع المجارى البولية المسدودة وكذا جراحات الجهاز التنفسى. وقد ابتكر عمليات جراحية مثل استئصال الثدي فى حالات سرطان الثدي واقتلاع كيبس الغدة الدرقية وتفتيت حصوات المثانة. ووصف كيفية بتر الأطراف دون موت الشخص المتبور، أضف إلى ما تقدم أن الزهراوى كان جراح أسنان بارعاً إلى حد قيامه ببعض العمليات التى تتفوق على طب الأسنان المعوجة الحديث.

كان أول من سجّل وضعاً خاصاً بالولادة ودعمه ولكنه لم يُنسب إليه، بل هو معروف بدلاً من ذلك باسم «وضع والتشر» تيمناً بطبيب ألمانى فى القرن الـ19. رسم الزهراوى ما يزيد عن 200 أداة طبية، الكثير منها من اختراعه، والتى سيتم، مع إجراء بعض التعديلات استخدامها لمدة ألف عام قادم. تتضمن أربعة من اختراعاته كلاب الولادة وأدوات لفحص الأذن الداخلية والإحليل وأداة أخرى لإزالة الأجسام الغريبة من الحلق.

وما كان ذلك بكاف لرجل يقترّب من نهاية مستقبله المهني. يخرج الزهراوى

حزينا ومكتئبا على تجاربه الفاشلة تحت شمس منتصف النهار بمدينة الزهراء وينتشر رذاذ النافورات التي تتغذى على مياه الجبل لتكون بمثابة سخرية من المعاناة الجسدية التي غالبا ما يراها. هذه المدينة وتلك الأساسات التي تكبره بعامين تبدو دائمة، بينما حياة البشر تبدو وانية وضعيفة. وينظر مقترضا أن هذه النافورات سوف تُعمر بعده وبعد كل مرضاه ومستظل ترش رذاذها مسبغة الجمال لمدة طويلة بعد فناء الجيل برمته.

فى أقل من عشرة أعوام سوف يثبت خطأ هذا الافتراض، على الرغم من أنه لن يتسنى للزهراوى معرفة ذلك حينها. فسوف يُخلف النزاع على الخلافة السياسية مرتزقة البربر الذين سيتركون خيول الحرب تشرب من تلك النافورات وتلقى بمخلفاتها فى الشرفات المصنوعة من الرخام. فى عام 1010 سوف يتداعى الحكم الأموى، ومن ثم سيهتز استقرار وعظمة ما يزيد على 250 عاماً.

وسوف يجعل عدم الاستقرار الذى تشهده هذه المدينة الملكية جماهير قرطبة تنصب على الوادى وعلى الشرفات الملكية مطالبةً بنصيبها فى الغنيمة الملكية التى يقتنصها الغزاة والمرتزقة الأجانب، منها مقننات الموائد والفولاذ الدمشقى والأبسطة والستائر وقطع من المرايا الداكنة الشبيهة بالرخام، والخيل والطعام وخمر العنب. أما بالنسبة لأعضاء عائلة الخلافة فتشتتوا محاولين إنقاذ أنفسهم، عازمين على ألا يعودوا مرة أخرى.

سوف يحترق بعض من أعظم مكتبات العالم هنا، فبعد مرور ثمانى سنوات على ذلك الوقت سوف يرى الزهراوى فى السبعينيات من عمره أعظم المكتبات التى شهد تجميعها خلال حياته تشتت فيها النيران. ومع ذلك الوضع سوف تنقض مأساة الوجود البشرى بكل عنفوانها عليه كى يرى هذه المدينة مدينة الملوك التى هى أشبه بأحد أشقائه تقضى نحبها أمام عينيه. سيكون هذا الأمر جللاً بالنسبة له فيلحقها إلى الموت.

بعيداً عن القصص والشائعات ما من سجلات تدور حول حياته أو حبه، أكانت له زوجات أو أطفال؟ وكيف كان يبدو؟ وكيف أمضى وقت فراغه هذا إن وجد بالطبع؟ فى واقع الأمر أنه لن تكون هناك سجلات تنبئ عن أصدقائه أو ممتلكاته تماماً كمدينة الخلافة الرائعة تلك التى انزلت تحت أرض سيرا مورينا ووجها فيما عدا بعض الأحجار الممتدة فوق الأرض لتكشف عن الرخام والدعائم مبنية عن شطر عظيم من التاريخ الإنسانى والكثير من حيوات العظمة.

كل ما سيبقى عن هذا الرجل هو المجموعة المكتوبة بخط يده حول منهج الطب والمختبئة هنا حيث تنشط هناك لتكون بمثابة كنز خاص بتاريخ ضائع وسيظل ذلك

حتى مرور مائة عام فيما بعد عندما يعثر عليها راهب إيطالي ويرى أنها ستكون ذات قيمة للمسيحيين في الشمال .

يجد الطبيب ذو العمامة واسمه ابن زهر في طريقه لرؤية أمير المرابطين بمدينة إشبيلية عام 1120 رجلاً هزياً يجلس على قارعة الطريق ومعه إبريق ماء ينتفخ بطنه ويبدو جلياً عليه الحزن .

لكن المعالج متأخر عن مواعده ومن ثم يمضى في طريقه وإذ يمر في اليوم التالي يجد نفس الرجل في نفس الحالة المتدهورة فيقف ويسأله: «أمريض أنت أيها الرجل؟» فيومئ الرجل برأسه ، فيسأله: «ما الذى أكلته؟» .

فيجيبه قائلاً: «فقط بضع كسرات من الخبز ومياه من هذا الإبريق» .
فيرد عليه الطبيب: «الخبز لن يؤذيك» «فلا بد أن السبب الماء ، فمن أين تأتى بهذا الماء؟» .

ويرد الرجل: «من البئر الواقعة في القرية» .
فيرد عليه الطبيب: «إن البئر نظيفة ، فلا بد أن السبب هو الإبريق ، فلتكسر هذا الإبريق ولتأت بأخر» .

«إننى لا أستطيع أيها الطبيب؛ فهذا هو إبريقى الوحيد» .
«وذلك هو بطنك الوحيد المنتفخ بهذا الشكل فمن الأيسر أن تجد إبريقاً آخر من أن تحصل على بطن آخر» .

أخذ أحد رفاق الرجل المريض حجراً وكسره به الإبريق على الرغم من اعتراض الرجل المريض وإذ بضدع ميت ينسرب مع الماء .
فيقول الطبيب: «أرأيت يا رجل!» «كاد هذا الضدع النافق أن يأخذك معه . خذ هذه العملة المعدنية واشتر لك إبريقاً جديداً» .

وإذ يمر الطبيب في المرة التالية يجد بطن هذا الرجل وقد انكمش وقد ازداد وزنه واستعاد لونه الطبيعى وأخذ يغنى في مدح الطبيب .

لمن هم في الجانب الضائع من التاريخ قد تبدو الهزيمة وكأنها النهاية ، ولكن في الهزيمة والموت غالباً ما يكمن الإحياء والتجديد . وفي حالة الأمويين بالأندلس سوف يلي موت الوعى والمجتمع ميلاد غيره .

بعد موت الزهراوى والأمويين سوف تذهب أدراج الرياح الرؤيا الأموية للوصول إلى أندلس حكيمة وثرية تسيطر على كافة أرجاء أيبيريا تحت لواء الإسلام . لكن سيحل مكان هذه الرؤيا الضائعة ، المرابطون في عام 1090 ثم الموحدون في عام 1145 ليستولوا على المدن الإسلامية العظيمة .

وطوع خدمة هؤلاء الحكام الجدد بعد مرور مائة عام على وفاة الزهراوى ستكون عائلة فى غاية الرقى من المعالجين رجالاً ونساءً وأشهرهم ابن زهر المعروف فى اللاتينية باسم أفينزور .

ابن زهر هو الذى أنقذ الرجل الجالس على قارعة الطريق . كما أنه أول عالم مسلم يحدد عمله فقط فى مجال الطب ، فقد تخرج فى جامعة الطب فى قرطبة وسوف يقضى معظم حياته فى إشبيلية . وهو فى السبعين من العمر سيكون طبيباً لدى المرابطين ، ثم يزجون به فى السجن وعند إطلاق سراحه سيعمل فى خدمة الموحدين .

على الرغم من اعتبار تشريح الجثة أمراً مخزياً فقد انتشرت الشائعات بأن ابن زهر يقوم بتشريح الجثث حتى يضيف إلى المعارف المتعلقة بعلم التشريح والتي وصفها الفرس والزهراوى . سيكتب حول طرق تجنب تكون الحصوات بالكلية من خلال نظام غذائى ونمط للحياة ، ومن ثم الحيلولة دون آلام العلاج وصعوبته فى المستقبل . كذا سيتم ممارسة الرازى باختبار أنواع جديدة من العلاج على الحيوانات . قد يكون ابن زهر هو أول من وصف الطفيليات بإسهاب بالإضافة إلى الأمراض التى تسفر عنها . كما أنه الذى وضع منهجاً لعمليات فتح القصبه الهوائية مما يسمح للمرضى الذين يعانون من الاختناق الناتج عن انسداد الحنجرة بأن يعيشوا .

وسيقوم ابن زهر بتطوير أسلوبه الخاص بفتح القصبه الهوائية على الماعز قبل تجربته على البشر ، كما سيقوم بتشريح خروف بدا موته نتيجة لأمراض تقرحية بالرئتين . وعلى النحو الذى يليق بخريج من كلية طبية رسمية سيدعم بقوة برنامجاً للتدريب الدقيق والمنقح لأطباء المستقبل لا يشابه نظام التدريب الداخلى الواقع اليوم .

وعلى نفس القدر من الأهمية سيقوم ابن زهر رجل القرن الثانى عشر بقبول أمر اتجاه اثنتين من قريباته وهما ابنته وحفيدته إلى مجال الطب . وعلى الرغم من أنهما تخصصتا فى طب التوليد فقد شرعنا فى تقليد سيشيع حتى فى أكثر المجتمعات المسلمة تمييزاً حتى الوقت الحديث ، فبينما كان يتم استثناء المرأة من المجال السياسى فى كثير من الدول ، سيتم قبولها كطبيبة .

سوف يكتب ابن زهر الكثير مثل أسلافه وسيشرح برسم بيانى تفصيلى فى كتاب «التيسير فى الداواة والتدبير» المتعلق بالعلاج والنظام الغذائى كيف تسنى له التعامل مع أكثر حالات المرض والإصابات حرماً ، والذى شمل فيما شمل الفقرة التالية حول جروح البطن:

ويعرض فى البطن الجرح إما بحديدة أو بخشبة حديدة تشق جلدة البطن والمراق معاً فيبرز الثرب وعن بروزه يجب أن يصرفه صانع اليد . وإن

أصابه تراب أو غبار أو نشارة خشب فيجب أن يغسل ذلك عنه بماء فاتر ثم يصرفه برفق، فإن تمزق منه جزء أو أسود فالحزم أن يقطع عنه ما تمزق وفسد ثم يصرفه إلى البطن ويخيط عليه بخيط حرير إبريسم. وصانع اليد كفيل بعمل ذلك، وإنما (أعرفه علماً لا عملاً، ويضع على الخياطة ما يعين على الالتحام. ومع ذلك فيجب بسبب الجرح أن يلفظ الغذاء غاية ما يمكنه ليقبل انصباب المواد. وإن لم يخرج دم كثير فلا يضره أن يستفرغ شيئاً من دم العرق الأكل، وهذا أمر شامل في جميع الجراحات ليقبل انصباب المواد. وربما خرج من الجرح شيء من المعى وإن خرج والمعى صحيح لا آفة به كبيرة ولا صغيرة، حاشاً بروزه إلى خارج، فتجب المبادرة إلى رده برفق كي لا يعرض فيه انتفاخ، فلا يسع من حيث خرج. فإن وقع توان حتى أصاب المعى انتفاخ) فيجب عند ذلك أن يصب ماء عذباً معتدلاً في الحرارة بحيث يلتذ الإنسان بصفحة خده، يصب منه على ما انتفخ صباً متوالياً حتى تذهب النفخة، فإذا ذهبت تسعى في رده بغاية الرفق. ثم بعد ذلك يخاط الخرق من الجلد ومن المراق بحرير إبريسم على غاية الرفق. وألزم العليل السكون، وإلا يرفع صوته ولا يتحرك، وألا يتملأ من الطعام ولا من الشراب، وغذ به بما يكون قليل الكمية كثير التغذية⁽²⁹⁾.

سيزدهر حال ابن زهر وأسرته تحت حكم المرابطين والموحدين بالرغم من تعرضه للسجن أو فراره للمنفى. إن مخاطرة الاعتماد على الرعاية الأقوياء تعني أن قدر المرء إنما يرتبط بقدر سيده. والجدير بالذكر أن خمسة أجيال من هذه الأسرة ستكون من المعالجين.

لكن على الرغم من الازدهار المشهود فسوف تقرر أسرة يهودية أن الأندلس - والتي انقسمت الآن إلى ولايات، حيث لا يتمتع التعاون الإسلامي اليهودي المعهود بالقوة المعتادة - ليس أفضل مكان للبقاء فيه. والموحدون على وجه الخصوص بالتعاون مع بعض من أحلافهم المسيحيين سوف يضيقون على يهود قرطبة، وهو الأمر الذي سيثير شعور هذه الأسرة وبالتالي ستنقل إلى القاهرة التي ما عادت تحت حكم الفاطميين ولكنها تحت حكم القائد صلاح الدين.

عام 1199 يجلس الفلكي الفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون أو الميموني على بساط، بينما يستلقي مريضه الملكي على سريره الفاخر ذي الوسائد الحريرية ويرتشف شراباً فواراً متحدثاً بالحاح عما يريد.

يقول السلطان: «بشكل مباشر يا أبا موسى، ما أريده هو إحدى جرعاتك التي تمنحني المزيد من الفحولة الذكورية حتى أستطيع المضاجعة من خمس إلى ست مرات في الليلة كي تستمتع رفيقاتي قدر الاستطاعة».

يفكر الطبيب الفيلسوف للحظة حول المدى الذي تدهوروا إليه منذ وقت الحكم النبيل لصلاح الدين. الآن كبير مرضاه ورئيسه هو ابن أخ صلاح الدين الملك الأفضل وهو أبعد ما يكون عن عمه. فهذا الرجل يتفاني في إخضاع النساء وقنينات الخمر ورفقاء القمار تماماً مثلما كان عمه يتفاني في لم شمل الجيوش المسلمة المنشقة للوصول إلى حل مع الصليبيين المتهورين، وعندما لم يتمكن من ذلك ألحق بهم الهزيمة في ساحة القتال وعند انتصاره كان رحيماً.

الآن بعد كل ما مر به لدفع فواتير وإطعام عائلته تضاعل وضع ابن ميمون حتى صار شكلاً من أشكال القوادة الملكية.

«سلطاني العزيز» يقول الرجل اليهودي العجوز البالغ من العمر سبعين عاماً بلغته العربية الأم، والتي هي لغته الأولى منذ ولادته في قرطبة من زمن بعيد. «ألا ينبغي تدبر الأمور بشكل أفضل من ذلك، فتقبل حدود الطبيعة وتمنح نفسك بضع ساعات للنوم ليلاً؟ إن قوتنا على المعاشرة إنما يمنحها الله لنا وليست بمحلول في زجاجة».

يحدق الشاب المستهتر في الطبيب.

يقول السلطان: «إنك لتحقد على أنك رجل عجوز، فقد نسيت ملذات الليل».

يصمت موسى بن ميمون للحظة ثم يضحك قائلاً: «يا عزيزي السلطان، على الرغم من أن قوتي الجسدية هي مجرد ظل لقوتك فلا أزال أذكر المتعة الجسدية، بل وأحياناً أمارسها. فقد رزقتني الله عز وجل بزوجة واحدة وهو ما يصلح لي، وهذا كثير على وإلا ما كانت لتتوافر لي قوة للعمل. أما في حالتك فالبلاد تعتمد عليك وعلى قوتك، على أن خدمتك لمجموعة من النساء تمثل مخاطرة عليك».

يقول السلطان: «وأنا أريد المخاطرة، إيت لي بالجرعة».

«كما ترغب يا سلطاني» يرد ابن ميمون وهو ينحني حتى يرحل.

في أثناء خروجه من قصر الخلافة أخذ يتساءل عن أي مركباته يفى بالغرض لحالة هذا الغبي المسرف، وإن لديه بكل تأكيد بعض المركبات في خزانة الأدوية. وفي واقع الأمر أن هذا الشاب ألهمه كي يؤلف كتاباً كاملاً حول أثر الصحة على الطاقة الجنسية وأدرج فيه معرفته المتعلقة بمثيرات الشهوة الجنسية.

من جانب آخر فإنه يذكر أن أسلافه مثل الرازي وابن سينا قد خاضوا في الكتابة حول الارتباط الذهني بالمرض والأمراض الدائمة وارتباط نمط الحياة بالصحة

والطب الوقائي. ولقد عالج السلطان من كافة أنواع الأمراض التي حلت به ومنها الأمراض التي تسبب فيها لنفسه والاكنتاب والإرهاق والأمراض التناسلية ومرض ذات الرئة. ولولا أن ابن ميمون كان عليه أن يعول الكثير من الأطفال وأبناء الأخوات والخالات والعمات من كبار السن لترك هذا العمل معللاً للسلطان أن المريض هو من يشفى نفسه لا الطبيب ودواءه.

لكن ابن ميمون يشعر كما لو كان عائلاً نصف يهود مصر، لذا فليست لديه هذه الحرية. لطالما كان على هذا الوضع منذ وفاة والده العجوز وكان كل من والدته وأشقائه على شفا التضور جوعاً. وقد أفضت تلك السنوات العذبة المليئة بالقراءة والدراسة إلى نهاية سريعة وبالرغم من مواصلة الكتابة حول الفلسفة فإنه كان يتقوت من مهنة الطب.

ومكافأته هي أنه أصبح رئيس أطباء وزير صلاح الدين الأعظم الفاضل، وهو من حكم البلاد في أثناء محاربة صلاح الدين للصليبيين. وما كانت تلك بالوظيفة السهلة ولكنها على الأقل عالجت قضايا أكثر جدية، فأحس أنه ينجز شيئاً مختلفاً.

وصف موسى بن ميمون يوم عمله المعتاد في تلك الآونة في خطاب له إلى الحاخام صموئيل بن طبون، وهو يوم ملئ بالأعمال ليس مثل أيام الأطباء الذين أتوا من بعده بـ 800 عام؛ إذ كانوا يمضون أيام عملهم في صراعات ومنافسات فيشكو له اضطراره إلى زيارة الخليفة يوميا في الصباح الباكر، وإن حدث وأصابه مرض أو أصاب أحد أبنائه أو ما ملكت يمينه فلن يستطيع مغادرة القاهرة إنما يتوجب عليه المكوث بالقصر طيلة اليوم. ويروى كذلك أنه في حالة مرض أحد أو بعض الجنود فعادة ما يتوجب عليه مباشرة علاجهم بنفسه. ويشكو أن قد بات حتماً عليه أن يشد الرحال إلى القاهرة صباح كل يوم، حتى مع عدم وجود ما يستوجب هذا، ولا يعود إلى القسطنطينية إلا في المساء، وحينها يكون متضوراً الجوع، فيجد الكثيرين، من اليهود أو أناس من النبلاء أو العامة، يجد القضاة ورجال الدرك، وكذلك الأصدقاء والأعداء، جمعاً مختلطاً محتشداً بانتظار عودته، فما منه إلا أن ينزل عن دابته ويسارع بغسل يده ويذهب لمرضاه يتوسل إليهم أن ينتظروه برهة حتى يلتقط بعض اللقيمات، وهي كل زاده طوال اليوم. بعدها يبدأ في معاينة مرضاه، فيكتب لهم وصفات وعلاجات أو جاعهم، ويتوافد المرضى، ذهاباً وإياباً حتى يحل الليل، وإنه ليقسم بالتوراة أنهم كانوا ينخطون الليل بأكثر من ساعتين، يظل طوال هذه الفترة يحادثهم وأحياناً يصف لهم العلاجات وهو راقد من جراء التعب. وعندما يحل الليل، يكون قد أنهك تماماً حتى إنه ليعجز على الكلام.

قام بن ميمون بعمل رائع في هذه الأيام فذاع صيته في شتى الأرجاء حتى إنه تلقى عرضاً للعمل لدى المحارب المسيحي ريتشارد قلب الأسد وهو العرض الذي تجاهله بن ميمون .

كتب بن ميمون عشرة مجلدات في الطب والصحة والمرض والعلاج . كتب في كل شيء بدءاً من أخطاء جالينوس إلى شرحه للسكتة الدماغية والنوبات المرضية وأمراض الكبد ومرض السكر والصحة الجنسية والبواسير . وقد أحصى علامات التهاب الكبد الوبائي ثمانية كالتالي: حمى، وشعور بالعطش، وفقدان تام للشهية وتحول لون اللسان من الأحمر في البداية إلى الأسود، وقيء صفراوى يكون في أوله كصفار البيض، ثم ينقلب للأخضر الداكن، وشعور بالألم بالجانب الأيمن ويمتد ليبلغ عظم الناحرة، وبين الحين والآخر ينتاب المريض سعال خفيف وشعور بالثقل يبدأ في الجانب الأيمن ثم يستشري في كامل أنحاء الجسم .

سوف يوضح بن ميمون في رسم طريقة العلاج من لدغة الثعبان وهو الأسلوب الذى سيظل فى شكل معدل له حتى منتصف القرن العشرين فى كتيب صبى الكشافة:

عندما يُنهش المنهوش يجب أن يبادر للحين برباط ما فوق الموضع الملسوع إن أمكن ذلك ربطاً جيداً حتى لا يسرى السم وينبسط فى جملة البدن . وفى حال ربط الموضع المربوط يكون شخص آخر يلى شرط موضع اللسعة ومصه بفمه بغاية جهده، ويصق كلما يمتصه، وينبغى أن يتمضمض أولاً بزيت أو شراب وزيت، وبعد ذلك يمتص ويدهن شفتيه بدهن بنفسج، إن حضر، أو بزيت . يحذر الذى يمتص أن يكون فيه علة أو ضرر متآكل، وقد اشترط بعض الأطباء أن يكون الذى يمتص صائماً . . . وإن لم يكن المص فيبادر بتعليق المحاجم إما بدون نار أو بنار، والتي بالنار أقوى وأبلغ لأنها تجمع بين الجذب والكى، وبعد ذلك يخرج ما فى المعدة من الطعام بالقىء السهل، وإن عسر القىء فيقيأ إما بالزيت أو بالسمن، واحذر أن يتقيأ بعنف، وبعد ذلك يتناول الترياق الكبير إن وجد، أو معجون مثرود يطوس إن عدم الترياق أو أحد المعاجين الكبار النافعة من السموم على العموم، وإن عدم ذلك فأخذ الأدوية المفردة المخلصة من نهش الهوام على العموم⁽³⁰⁾ .

مما يدعو للسخرية أن ابن ميمون سوف يتذكره الناس ، لا بالكثير من حكمته الطبية العريضة وإنما بكتابات كأكظم فيلسوف يهودى وكالأب الروحي لليهود القادمين من إسبانيا إلى الشرق الأوسط . إن أكثر من سيحيى ذكره هم اليهود فى نفس الوقت الذى عمل فيه طيلة حياته فى شفاء الكثير بل الأكثر من المسلمين والمسيحيين .

مما يدعو للمزيد من السخرية أيضاً بعد مرور 800 عام أن القليل من اليهود - هذا إن وجدوا - سوف يتقلدون مناصب عليا موثوقاً فيها فى المجتمع الإسلامى كما كان الحال مع موسى بن ميمون ، والقليل من المسلمين سوف يتذكرون ذلك فى وقت من الأوقات . رأى اليهود المدن الإسلامية كأماكن تحتوى على فرص لهم وملجأ فكرى كما فكر ابن ميمون عندما ترك هو وأسرته إسبانيا .

سخرية أخرى هى أن ابن ميمون سوف يقضى آخر أعوامه فى عمل العلاج الطبى للأثار الناجمة عن نمط الحياة المستهتر للسلطان .

حتى لو عاش الأطباء المسلمون العظام أو ماتوا فسوف يظهر المزيد من النصب التذكارية الدائمة لحكمتهم الطبية ضمن مشاهد الحياة اليومية . هذه الهياكل الجديدة سوف تكون حقاً مجهولة فى أماكن أخرى من العالم ولن تتكرر فى أى شكل ملحوظ لها لقرءون من الزمان . الكثير منهم سوف يحاكون القصور ، وذلك لأن بعضها إلى حد ما قصور حقيقية منحها الرعاة الملكيون لجعل حياة مواطنيهم تستمر لوقت أطول وتكون أكثر صحة وإنسانية . سوف تقودهم الرسالة المساواتية للنبي ، صلى الله عليه وسلم إلى الاعتناء بالفقير والمريض والأقل حظاً .

سوف يطلق على هذه المباني مستشفيات وصيديات ، وهى مفتوحة - لا إلى مدى بعيد - للأثرياء ممن يفضلون تلقى العلاج فى منازلهم بل هى مفتوحة أمام من يستطيع المشى إليها ، وإذا ما لم يستطع المشى فسوف تنقله الحواملات .

فى الشرق الإسلامى سوف تُعرف المستشفيات بكلمة بيمارستان وهى كلمة فارسية تعنى «أماكن المرضى» ثم سيتم اختصارها فيما بعد لتصبح مارستان . وبدلاً من أن تكون أماكن يذهب إليها الناس ليلقوا حتفهم ، فإنها ستصير أماكن يذهب إليها الناس لتلقى العلاج وللشفاء من مجموعة عديدة من الأمراض والإصابات ، وتشمل فيما تشمل المرض العقلى .

أما الصيدليات ، فبينما ستكون محدودة وفقاً للتكنولوجيا المتوافرة ، فإنها ستوفر العلاج الذى غالباً ما يكون له آثار إيجابية على المرضى ، وذلك لأنها بشكل ما نتيجة للتجارب والملاحظة ، وليست شكلاً من أشكال الطب الشعبى أو الخرافات أو السحر ، فإنها ستستسم بتقدم ملحوظ عن نظيراتها فى أوروبا .

أول مستشفى إسلامي سيكون عبارة عن عيادة، ويقع في مدينة دمشق وقد تم بناؤه وفقاً لأمر من الخليفة الأموي فيما بين العامين 705 و715 وكان متخصصاً بشكل كبير في عزل الأشخاص المصابين بالجذام عن سائر أفراد الشعب.

بعد مرور عقود على ذلك في أواخر القرن الثامن سیدعو هارون الرشيد طبيباً من مدينة جنديسابور بفارس لفتح أول بيمارستان في بغداد. وفي القرن التاسع سبترأس الرازي مستشفى أوديدي الجديد في بغداد ولايجاد أفضل مكان لبناء المستشفى فسوف يعلق قطعاً من اللحم النيء في أماكن مختلفة من المدينة ثم يوصى ببناء المستشفى في المكان الذي به أقل معدل لفساد اللحم. بمجرد بنائه سيحتوى المستشفى على عشرين طبيباً منهم الجراحون واختصاصيو العيون والفسيلولوجيون ومع حلول القرن الـ12 سوف يصف الزائرون هذا المستشفى بأنه يبدو «قلعة عظيمة».

وفي عام 1000 سيصل العدد إلى خمسة مستشفيات رئيسية في مدينة بغداد العباسية. هذه المستشفيات ستوفر خدمات متعددة الأغراض على غرار المستشفيات الحديثة، وستحتوى على مراكز للجراحة وعيادات خارجية وأماكن للعلاج النفسى وأماكن أخرى للنقاهاة علاوة على مناطق للرعاية. ومن وقت إلى آخر يتوفر لدى تلك المستشفيات وقت لعلاج المحتاجين.

في مصر في القرن الـ13 سوف يتوفر لدى مستشفى المنصوري 8000 سرير وسيبلغ عائدها السنوى مليون درهم كما سيتميز بسياسته التي تنص على علاج أى مريض يلجأ إليه سواء غنى أو فقير. ويتم الفصل بين النساء والرجال في هذا المستشفى علاوة على تخصيص أماكن لتقديم الخدمات للمسلمين والمسيحيين كل على حدة. كما سيوجد بالمستشفى قاعات للمحاضرات وصيدلية داخلية وأجنحة منفصلة للجراحة والحميات وأمراض العيون. وتضمنت حجة وقف البيمارستان المنصوري النص التالي:

بیمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء والأغنياء الثرىين والفقراء المحتاجين، بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض... يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم. ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلى والغريب، والقوى والضعيف، والدنى والشريف، والعلى والحقير، والغنى والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير،

والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطوله الجسيم، وأجره الكريم وبره العميم (31).

ستضيف القاهرة فيما بعد مستشفيين رئيسيين آخرين أما دمشق فستحتوى على خمسة مستشفيات وبالنسبة لمكة والمدينة فى شبه الجزيرة العربية وغيرها من المدن الكبرى فى شمال إفريقيا سيوجد بها ما يزيد عن ذلك. ستلحق الأندلس بالركب فيما بعد لتبنى مستشفى فى غرناطة فى نهاية القرن الـ 14. كما سيوجد لدى تركيا العثمانية والمغول الكبار مراكز كبرى للشفاء.

سيكتب مؤرخ طبى فى أحد الأيام حول تقدم المسلمين فى علاج المرض العقلى قائلاً:

فى مدينة فاس بالمغرب تم بناء مستشفى للأمراض العقلية فى بداية القرن الثامن كما تأسست مثل هذه المستشفيات على يد العرب فى بغداد فى عام 705م والقاهرة فى عام 800 م ودمشق وحلب فى 1270 م. علاوة على توفير الحمامات والأدوية والعلاج السخى للمرضى النفسيين، كما توفر أيضاً العلاج الموسيقى والمهنى. وكانت هذه الأنماط من العلاج متقدمة للغاية حيث نفذ يومياً فرق موسيقية حية وجوقة لمتعة المرضى فكانت تقدم الأغاني والحفلات الموسيقية وكذا التمثيل الكوميدي.

يوجد أيضاً المزيد من الابتكارات الثورية. وتنتشر بشكل كبير الصيدليات التى تصرف الدواء المعالج للأعراض المرضية ومن ثم تجعل الناس يشعرون بتحسن ويطلق على هذه المهنة باللغة العربية صيدلة. كما انتشرت الصيدليات من مدينة بغداد إلى المدن الإسلامية الأخرى خلال 50 عاماً من الافتتاح الأول لها فى مستشفى هارون الرشيد بالعاصمة. فيما بعد احتوت المستشفيات الممنوحة ملكياً على مصارفها الخاصة، التى توزع الأشكال المختلفة من الأدوية مثل الشراب والمراهم والبودرة وغيرها من المنتجات التى صنعتها معامل داخلية كبرى. تخضع تلك الأمور كافة للمشرفين الحكوميين ممن يراقبون دقة القياسات ومدى نقاء الدواء. كان ضمن مهامهم التأكد من عدم استخدام الأدوية منتهية الصلاحية وحماية العامة من أى أخطاء أو عجز.

لماذا تعتبر المؤسسات الطبية الإسلامية عالية المستوى أكثر تقدماً مقارنةً بأوروبا المسيحية؟ على الرغم من أن العالم الإسلامى فى تلك الآونة، وحتى الآن، ليس

بمنأى عن الخرافات فإن المجتمع الإسلامى فى عصوره الذهبية سوف يوفر معظم الوقت أدوية ذات فاعلية كما هو ثابت فى التجارب والملاحظات الطبية، كما سوف يتبع التوقع العام بشكل سريع القدرة التكنولوجية للمجتمع، وكذا مهنة الطب نفسها سوف تصبح محددة تماما وسيقوم الكثير من أسسها على علم حقيقى. وبينما سيوفر الكثير من الدور المسيحية فى أوربا التكايا التى ترعى المرضى ومن هم على فراش الموت، فسوف تفتقر تلك الدور إلى الموارد أو التكنولوجيا المطلوبة لعلاج الأمراض.

إلا أن المناخ الطبى الإسلامى المتقدم سوف يودى إلى ما يزيد عن الأدوية المفيدة والمستشفيات وأماكن الرعاية النفسية. فإنه سيؤدى إلى ظهور المعالجين الكبار من أمثال ابن النفيس، والذي يعتبر من أعظم أطباء القلب فى عصر ما قبل الحداثة. ولد ابن النفيس فى عام 1213 فى قرية صغيرة بالقرب من دمشق ولكن بعد دراسته الطب هناك أمضى معظم حياته العملية فى القاهرة كأول رئيس لمستشفى المنصور وكقائم على مدرسة الطب التابعة لهذه المستشفى. وهناك توصل إلى اكتشافه المذهل فى عام 1284 ألا وهو التركيب البنىوى للقلب وطريقة عمله بالإضافة إلى فهم كيفية تدفق الدم من القلب إلى الرئتين حيث "يختلط مع الهواء".

حتى ظهور ابن النفيس كان التفسير المتعارف عليه بخصوص ميكانيكية عمل القلب هو الذى وضعه جالينوس. كتب جالينوس أن الدم يتحرك من البطين الأيمن إلى الأيسر عبر مجموعة من المسام أو الممرات ما بين الجانبين، بغض النظر عما إن وجدت تلك المسام أم لا.

قلب ابن النفيس هذا التفسير رأسا على عقب بإعطائه نظرة ثاقبة على حركة الدم بين القلب والرئتين عبر مراقبته للكثير من العمليات الجراحية والتشريح. وكتب فى التعليق على شرح تشريح القانون:

ولا بد فى قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء، فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتهما جسم متشابه الأجزاء، وهذا التجويف هو التجويف الأيسر حيث يتولد الروح. ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس، فإن مسام القلب هناك مستحصفة، وجرمه غليظ فلا بد أن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويتصفى ألطف ما فيه، وينفذ إلى الشريان الوريدي ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويف القلب (32).

إن اكتشاف ابن النفيس يمثل للطب الحديث نفس أهمية اكتشاف الخوارزمي للصفر في الرياضيات الحديثة. كان ابن النفيس أول من وضع خريطة بشبكة الشرايين التي تزود القلب بالدم، ولكن بسبب الضياع بين صفحات التاريخ ظل عمله هذا مجهولاً خارج نطاق العالم العربي حتى قام أندريا ألباجو من بيلونو في إيطاليا بترجمة بعضه في عام 1547 أضف إلى ذلك مشروع ترجمة أخرى له في إسبانيا بعد مرور خمس سنوات.

بشكل يشوبه الارتياب تظهر ترجمة ألباجو قبل ظهور الانفراجة في فهم القلب ودورته على يد ويليام هارفي بنحو ستين عاماً. ويليام هارفي هو طبيب إنجليزي عمل في بلاط جيمس الأول وتشارلز الأول وقد درس في جامعة بدوا. على نحو غريب لم تتضمن ترجمة ألباجو المعروفة لمؤلف ابن النفيس على إشارات لحركة الدم من القلب إلى الرئتين. إنه حذف غريب يجعل المرء يعتقد أن ألباجو ترك هذا الجزء عن عمد لخوفه من السلطات الطبية في إيطاليا، لكن من المحتمل أن ألباجو استأمن أحد زملائه المقربين من الموثوق بهم على اكتشافات ابن النفيس.

من المحتمل أن هارفي تعرف على عمل سلفه العربي في بدوا. بدأ هارفي تفصيل أفكاره نحو عام 1628 أي بعد مرور حوالي 350 عاماً على قيام ابن النفيس باكتشافاته. مما تجدر الإشارة إليه أن هارفي توصل إلى الدورة الكاملة للدم عبر الجسم بأكمله، لا الدورة الرئوية للدم من القلب إلى الرئتين فقط كما شرحها ابن النفيس.

أحد مآسي تاريخ ضائع أنه مع حلول الوقت الذي يترجم فيه عمل ابن النفيس لم تعد أوروبا البالغة عصر النهضة تذهلها الاكتشافات الإسلامية، وبالتالي لم يحصل على اسم لاتيني أو الاعتراف المطلوب به، فقد اختفت أيام التبجيل الأوروبي لأفيسينا (ابن سينا) ورازيز (الرازي) وألبوكاسيس (الزهرابي) وعفت عليها القرون. بينما تصحو أوروبا الآن ويخيو العالم الإسلامي فيكون من المناسب أن يتم التعامل مع أوروبا كالمركز الحقيقي؛ أي أننا الجديدة وروما الجديدة أيضاً.

على الرغم من ثلاثين دور الأطباء المسلمين العظام وغيرهم من المفكرين من العقل الأوروبي مع نهاية عصر النهضة فسوف يحصلون على شهرتهم في أوروبا العصور الوسطى عبر مجموعة صغيرة من المترجمين المسيحيين واليهود من ذوى العزم، والذين شملهم الحظ ليكون لديهم القدرة على القراءة والكتابة والسفر. يخدم هؤلاء المترجمون نفس الغرض في أوروبا العصور الوسطى مثلهم مثل مترجمي بيت حكمة المأمون في بغداد منذ قرون مضت، لكن عملية الانتقال إلى أوروبا كانت بالطبع أبطأ، حيث ظلت المعرفة حكراً على الكنيسة، ولم يسمح بالدخول إلى الأماكن الخاصة السرية بمكتبات الكنيسة إلا لقلّة فقط.

بالرغم من كافة تلك العقبات استمرت كل من المعارف الإسلامية الطبية والرياضية وغيرها في طريقها نحو الشمال في غالبية الأمر من خلال إسبانيا، والتي تعتبر كعاصمة فكرية متعددة الثقافات المنفذ لأوروبا حتى القرن 15. تمثل المدن مثل طليطلة وبرشلونة وليون وسيجوبيا منارات تجذب إليها كل من ينتابه فضول الاستنارة الفكرية، وحدث انتقال شبيه في المدن الفرنسية الجنوبية بمجرد أن وطئها المسلمون، منها مارسيليا وناربون وتولوز وصقلية وجنوب إيطاليا مثل ساليرنو ودير سانت بينديت بمونت كاسيني وباليرمو وسيراكوز كانت أيضاً جميعاً بمثابة نقاط انتقال.

أحد المسئولين الرسميين الكاثوليكين في بداية العصور الوسطى، وهو سيلفيستر الثاني، أول بابا فرنسي والذي توفي في عام 1003 كان ممن يقدرون التطورات الإسلامية في الرياضيات والعلوم. قبل وفاته جعل الكنيسة تحل نظام الترقيم الروماني المعقد بنظام الترقيم العربي الهندي الأكثر كفاءة بالإضافة إلى تبنى المناهج الفلكية والرياضية الإسلامية. نظراً لأن معظم الأوربيين ممن يجهلون القراءة والكتابة ويعيشون في فقر إقطاعي طاحن فإنهم لن يشعروا بتلك الابتكارات، بل سيشعر بها فقط الصفوف العليا من مفكرى الكنيسة ولن يتم استخدامها بشكل عام حتى منتصف القرن الـ 15.

في عام 1065 يأتي قسطنطين الإفريقي من تونس بالمخطوطات الإسلامية إلى ساليرينو؛ حيث مدرسة الطب الأولى في أوروبا وهناك قام الرهبان والعلماء بترجمة النصوص الطبية العربية إلى اللاتينية.

بعد مرور قرن آخر، في القرن الـ 12، سيقوم روبيرت من تشيسترا بإنجلترا بالعديد من التراجم للخوارزمي من العربية إلى اللاتينية، منها دراسة الخوارزمي حول الجبر المعروفة باسم كتاب «المختصر في حساب الجبر والمقابلة»، ورائعته حول الحساب الهندي المعروفة باسم «رسالة في الحساب». يهتم روبيرت، والذي عمل في منتصف القرن الـ 12 بالأمر العربية، ومن ثم ترك إنجلترا ليقضى عقداً من الزمان في إسبانيا وبشكل أولى في مدينة سيجوبيا مختلطة الثقافات. وتثير اهتمام فيرديناند الأول الحاكم الكاثوليكي هناك التطورات العربية، ومن ثم يشجع روبيرت على عمله.

جيرار من سيرمونا إيطالي عاش في القرن 12 وهاجر إلى إسبانيا بغرض تعلم العربية وترجمة المعرفة الإسلامية إلى اللاتينية. استقر في مدينة طليطلة التي تحررت من السيطرة الإسلامية في عام 1085 وعندما جاءها جيرار كان يحكمها أسقف فرنسي يدعى ريموند، وهو الآخر من المهتمين بالتطورات الإسلامية، من المعتقد، تحت رعاية ريموند، أن يكون جيرار قد ترجم ما يزيد على 70 عملاً في مجالات مختلفة، منها الرياضيات والطب. يرجع إليه الفضل بسبب تراجمه التي

ستكون حجر الأساس لأعمال كل من روجر بيكون وألبيرتوس ماجنوس وطوما الأكويني وكوبرنيكوس، ثم يجيء جون الإشبيلي العالم اليهودي ليكون بديل روبيرت ويستكمل عمله في هذه المدينة.

انضم أبييلارد من باث في إنجلترا، والذي يدعى أحياناً باسم أديلارد إلى سائر المترجمين. شاع عنه أنه ادعى أنه مسلم في بداية القرن الـ 12 بإسبانيا ليثير انتباه، حاكم مسلم إسباني واحد على الأقل إلى أن المترجمين المسيحيين «يسرقون» المعرفة والحكمة المتراكمة للمسلمين حتى يستولوا على المعلومات ويدعوا أنها لهم ثم يقبلوها ضد غير المسيحيين. وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا فقد اتخذ أبييلارد المسلك الآمن بينما قام بترجمة العديد من الأعمال الرياضية للعرب والإغريق من اللغة العربية إلا أن الأوربيين سوف يتذكرونه خصيصاً لوضع يده على التراجم العربية للعظيم إقليدس. وتمثل المترجمون الآخرون الأقل شهرة في أفلاطون من تيفولى وهيرمان من كرانتن ورودولف من بروخه وميشيل سكوت وفيليب من طرابلس ووليام من لونيس أما من إسبانيا فكان دومينيكيس جونديزالفى وهيو من سناثالا. كما يشمل المترجمون اليهود للغة العربية بيتروس الفونسي وإبراهام بن عزرا وجون من أشبيلية وسفاسوردا. من ثم سوف يستوعب الأوربيون من أسلافهم المسلمين فكراً علمياً ثرياً ومتعدد الثقافات، حتى الأعمال الإغريقية الخالصة تعتبر مفهومة من خلال عدسة قرون الفكر الإسلامى، والتي انتشرت في أقاليم عديدة مثل العراق وإسبانيا وإيران ومصر.

تلك «الجسور الثقافية» هي ما ستمكن العمل الفكرى للجيل القادم من المفكرين الرياضيين والعلميين الأوربيين. يدين بالفضل ألبيرتوس ماجنيس، وهو راهب عالم من القرن الـ 13، لجيرار لترجمته أعمال أرسطو والمفكر الفارسى العظيم ابن سينا من العربية إلى اللاتينية. ألبيرتوس ماجنيس فى المقابل هو معلم سانت توما الأكويني الذى سيأخذ التأملات الفلسفية العميقة للمسلمين والإغريق ويضعها فى سياق جديد ذى طابع مسيحي.

اقتبس روجر بيكون الراهب الفرنسيسكانى فى إنجلترا من القرن الـ 13، وهو أحد معاصرى ألبيرتوس والمكافئ له التراجم المكتوبة بخط اليد للعرب الكاثوليك وعمل بها فى مجالات شتى للرياضيات والكيمياء والفلك والبصريات. وهو متأثر على وجه الخصوص بعقريه ابن الهيثم.

يعتمد المنهج الفعلى للترجمة على المترجم، ولكنها لا تكون مهمة سهلة بالمره. حاول الكثيرون القيام بترجمة حرفية من اللغة العربية الصعبة إلى اللاتينية وأحياناً كانوا يرتجلون بأن يأخذوا كلمة عربية مجهولة ويكتبوا مقابلاً لاتينياً له نطق مماثل. ونادراً ما تتلمذ هؤلاء المترجمون فى المجالات التى كانوا يترجمونها،

وبالتالي فإنهم كانوا إما أن يخمنوا المعنى وإما أن يستعينوا بخبراء لمساعدتهم في فهم الكلمات والعبارات الصعبة، وأحياناً يلجئون إلى وسطاء مثل العلماء اليهود الإسبان المتقنين لثلاث لغات: العربية واللاتينية والعامية الإسبانية. فيقوم اليهود بترجمة المخطوطة من العربية إلى الإسبانية ثم يقرأون الكلمات بصوت مرتفع حتى يتسنى للمترجمين الآخرين ترجمتها إلى اللاتينية.

في بادئة أخرى يقوم المترجمون بتحويل أسماء المفكرين المسلمين إلى اللاتينية. وعلى الرغم من القيام بذلك لمساعدة الأوربيين في التغلب على الأصوات غير المألوفة وصعوبة النطق للأسماء العربية فإنه مع مرور الوقت تطمس هذه الممارسة هوية هؤلاء المفكرين المسلمين فتجعلهم يبدو وكأنهم لاتينيون أو غربيون.

بهذا الأسلوب ستمتص أوروبا الطب الإسلامي مثلما فعلت بالرياضيات والعلوم والأفكار الإسلامية، ولن يحدث هذا بشكل منفصل؛ وذلك لأنه لن يلجأ أحد من المفكرين المسلمين أو المتلقين الأوربيين إلى هذا الأسلوب. سيكون الطب الإسلامي تواءماً بالرياضيات والعلوم الإسلامية وأول قريب للموسيقى والفنون والفلسفة والقوانين الإسلامية.



رؤية وصوت وقلعة

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا

خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

[سورة الكهف: آية 31]

مدينة مشهد في إيران عام 2007 - تجثم على مدينة مشهد غمامة الظهر البرتقالية وينتشر غبار المدينة وضوضاؤها عبر وادي نهر الكشاف. تقع المدينة في قلب خراسان القديمة حيث مارس الرجال والنساء التجارة وزرعوا لما يزيد عن 5000 سنة أما الآن فتعج بالضوضاء وتدفق ما يزيد عن مليوني شخص مع الاختلاط بصوت المؤذن والمرور وحركة التجارة النشطة.

إنها ثانية كبريات المدن في إيران بعد مدينة طهران. بغض النظر عن كونها مركزاً تجارياً فإنها أيضاً مكان الجامعات وحرَم الإمام رضا. يحتوى المقام على ضريح إمام يجله الشيعة، ويعتقد أنه اغتيل بأمر من الخليفة المأمون في بغداد، وهو موضع يحج إليه الشيعة، وكثيرون من السكان المحليين يستهزئون بقولهم إن الأثرياء يحجون إلى مكة بينما الفقراء إلى مشهد.

مدينة مشهد هي أيضاً ملجأ للأفغان الهاربين من الغزو السوفيتي أو ما عرف فيما بعد بحركة طالبان. يقيم فيها كثير من الناس منذ عقود فقد نما فيها جيل جديد من الأفغان المغتربين المتمسكين بالتراث الأفغانى إلا أنهم يتحركون وفقاً للوتيرة الإيرانية.

في مكتبة جامعة الفردوسى تيمناً باسم شاعر القرن الـ 13 المجل؛ تقرأ امرأة أفغانية من جيل اللاجئين الأفغان الثانى، تدعى «ليلى» - تقرأ تراجم عديدة لقصة ألف ليلة وليلة، فتفتنها شخصية شهرزاد. بالرغم من أنها تتقبل بوعياها أن كل الوثائق تؤكد على أن راوية تلك القصة كما هو مشار إليه في معظم نسخها الشهيرة ليس له وجود أو أنها مجمعة من شخصيات عدة، فهي لاتزال على المستوى العاطفى تتوق

إلى الوجود على شاكلة هذه المرأة، بهذا القدر من الذكاء والعبقرية، والتي وضعت إطاراً لنمط قصصي كان أساساً لكثير من الأجيال الأدبية.

مع ترعرعها في إيران التي هي أكثر تمكيناً للمرأة من موطنها الأصلي أفغانستان، وصلت إلى اعتقاد مفاده أن شهرزاد لم توصف بأنها شاعرة مصادفةً وما استطاعت أن تبرهن على ذلك، وإنما لتعتقد أن المرأة أكثر ميلاً للشعر بفطرتها من الرجل حيث إن المرأة بطبيعتها تتجه إلى المهارات شديدة الحساسية والملاحظة وهو الأمر الذي ينتج عنه أفضل أنواع الشعر. هي لا تحسد أن الرجال يعجزون عن كتابة شعر بنفس قوة الأحاسيس، ولكنها ترى أنهم لا يتمتعون بنفس النزعة الطبيعية الموجهة للوعي بالشعر.

كما أنها تحب التمسك بفكرة المرأة التي تضع حياتها على المحك كل يوم معتمدة على مهاراتها في سرد القصص. لم تخاطر ليلي بحياتها طيلة السنوات العشر أو أكثر، والتي أصبحت فيها شاعرة جادة، ولكنه أمر لم يكن يسيراً الحفاظ عليه. هي أم لطفلين وبالرغم من أن زوجها، وهو أستاذ هندسة بالجامعة، قد عمل بكد ليعوضها عن كونها لا يتوافر لديها سوى القليل من الوقت في اليوم. وتتعرض ليلي لنظرات قبيحة وشتائم من العديد من رجال المجتمع الأفغاني لما هي عليه. من هنا وجدت دعمها وسلواها في رفقة كاتبات لاجئات أفغانيات أخريات بالإضافة إلى الإيرانيات اللاتي انضممن إليهن.

بعد بضعة أسابيع سوف تكون ضمن المشاركين في تجمع وطني خاص بالكتاب الأفغان بالمنفى، والذي سينعقد في طهران. إنها لحظة هامة في حياتها بالرغم من أنه من غير المؤكد لها بعد ما إذا كان زوجها سيستطيع إيجاد جليسة أطفال وآخر يحل محله لبعض محاضراته أم أن عليها استصحاب أطفالها معها في رحلة الحافلة الطويلة إلى طهران. وتفكر ملياً في أنه ثمن بخس تدفعه، أقل كثيراً مما خاطرت به شهرزاد كما أنه أقل مما قد تخاطر به ليلي إذا ما كانت في أفغانستان محاولة التمسك بمبادئها الشعرية.

لطالما قالت لنفسها إنها ما كانت لتصبح على ما هي عليه لو أنها ترعرعت في أفغانستان فما كانت لتحصل على قسط من التعليم وما كانت لتعرف عن الشعر وما كان يتاح لها أن تصير شاعرة هي نفسها.

لكنها الآن ليست متأكدة تماماً من ذلك، فعلى الرغم من أنها لم تذهب إلى أفغانستان قط فإن الذكريات المنقولة إليها والمناهج التي يتبعها بلدها المفقود كثيرة للغاية إلى الحد الذي يجعلها تشعر بأنها تعرف أفغانستان. علاوة على ذلك فهي تقرأ أية أخبار تستطيع إيجادها على المواقع المختلفة بشأن بلدها وكذا تستمع إلى كل المعلومات الجديدة التي يتناقلها الأصدقاء.

أحياناً تشعر تقريباً بالذنب تجاه حظها الطيب أن منحها القدر والدين تمكنا من الخروج أثناء أسوأ أوقات الحرب الأهلية في أفغانستان .

لطالما كانت مدينة مشهد بيتها، وحتى وقت حديث لم ترد على الإطلاق الرجوع إلى المكان الآخر وهو بيت والديها في بلخ، المدينة القديمة لطريق الحرير، والتي كانت أيضاً مسقط جلال الدين الرومي الشاعر الصوفي بالقرن الـ 13 والذي ذاع صيته في الغرب خلال السنوات الأخيرة. حتى الآن في ظروف المدينة المحدودة هل سيتاح لها شيء من الأحجار والهواء والمنظر العام لمدينة بلخ، مما يمكن أن يعزف صوتها؟

تجلس في المكتبة في ظهر ذلك اليوم الدافئ وتتنظر إلى الطلاب الآخرين وهم يقرءون أو يكتبون على الطاولات أو يغفون، فتتساءل هل خسرت قدر ما كسبت بكونها أجنبية عن البلد؟ هل من واجبها أن تكون مثل شهرزاد وتحارب من أجل المرأة في الصفوف الأولى بأفغانستان؟

تعرض أفكارها للمقاطعة حيث يأتي أحد أمناء المكتبة ممن يعرفونها ويربت على كتفها .

«التعليق النقدي الجديد الذي كنت تسألين عنه وطلبناه لك فقد في الشحنة الأخيرة» .

«فقد؟» نهمس ليلي بإحباط . ألفت هذا الكتاب مجموعة من باريس وترجم إلى اللغة الفارسية وقد كانت تنتظره لمدة تزيد عن عام .

«لقد تم شحنه من طهران منذ شهر مضى وقد تتبعناه» .
«هل سيجدونه؟» .

هز أمين المكتبة كتفيه معرباً عن عدم معرفته .

«هل تستطيع طلبه مرة أخرى؟» .

«ليس قبل ستة أشهر فلدينا قائمة جديدة تماماً للطلب» .

تتنهد ليلي من الحسرة، فليسبب ما لا يرتبط بالعقل تعتقد أنه ربما كان في وسع هذا الكتاب توفير بعض الأدلة على تساؤلاتها الضائعة عن شهرزاد. والآن عليها الانتظار لوقت أطول، لا تعرف إلى متى؟

وتحل فترة ما بعد الظهر وهي لا تستطيع القراءة أو التفكير، ويأتي موعد صلاة العصر ويدخل الطلاب ويخرجون حسبما اتفق، وتذكر أنه موعد إحضار الأطفال وأنها قد أضاعت ساعات في إحساسها بالشفقة الذاتية .

عدم التأكد من اختياراتها وقدرها وما تراه في تلك اللحظة بالذات من أنانيتها

وجه إليها لطمة شديدة فأغلقت دفتر ملحوظاتها بشدة ووقفت فجأة ثم مشت في ضوء العصر البراق لمدينة مشهد. تمشى بين مجموعات الطلاب العديدة التى تتحدث عن التآمر والخيانة والوظائف غير المتفرغة وفرص الحصول على المنح وتذاكر الطيران المخفضة إلى طهران وبحر قزوين والأوطان فى أوقات الإجازات.

ماذا فقدت باتباعها هذا الطريق؟ ماذا فقدت؟

مدينة القدس فى عام 691 - تتلأأ قبة ذهبية قديمة بمدينة مقدسة تمثل نقطة التقاء العقائد الثلاث لإبرهيم عليه السلام، تتخذ القبة شكل نصف كرة ذهبية فوق قاعدة مكونة من ثمانية جوانب من القرميد الأزرق والأبيض. يقع أسفل القبة الذهبية صخرة وهى أساس العالم بالنسبة لليهود وهو المكان الذى قيد فيه إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل استعداداً لذبحه تنفيذاً لامتحان الله عز وجل لمدى إيمانه. كما أنه بالنسبة للمسلمين المكان الذى عرج منه النبى عليه الصلاة والسلام إلى السماء مع الملك جبريل.

قبة الصخرة هى أول رؤية معمارية بعيدة الأمد للأمويين، وقد أمر الخليفة عبدالملك ببنائها فى عام 691 بعد مرور حوالى 60 عاماً على وفاة النبى عليه الصلاة والسلام. يدعم الهيكل ذا الأضلاع الثمانية صفان من الأعمدة والركائز. تجسيداً للاعتقاد التقليدى بأن النبى عليه الصلاة والسلام حرم تمثيل معظم الأشياء الحية فإنها مزينة من الداخل بصور للزهور والنباتات وتغطى الجدران الزخارف الملونة والمطلية بالذهب.

تلتقط القبة الذهبية أشعة الشمس لتضفى على المشاعر إحساساً بإجلال القدس، وهى المدينة المقدسة القديمة عند اليهود والمسيحيين ولها نفس القداسة أيضاً عند المسلمين. على خلاف الكثير من الصروح الإسلامية فقد صمدت لما يزيد عن 1,300 عام وقد وضع الخليفة عبدالملك نقشاً يشير إلى رعايته لهذا المشروع.

مع بقاء هذا الهيكل المتناغم والمنظم سيحاول بعض الأشخاص سرقة تاريخه فبعد مرور 150 عاماً قام الخليفة العباسى المأمون بإزالة اسم عبدالملك من النقش ووضع اسمه بدلاً منه مع عدم تغييره لتاريخ الانتهاء، ومن ثم سيكتشف العلماء هذه السرقة. وفيما بعد سيقوم الخلفاء والسلطين المسلمون بتجديد الهيكل وإصلاحه فى القرن الـ 19.

على الرغم من كونها أكثر المباني القديمة، التى لها طابع معمارى إسلامى بقاءً فإن تاريخها ومعناها لن يضيعا، وربما يرجع ذلك إلى أهميتها أيضاً لدى العقيدتين الأخرين. لن يتكرر هذا النجاح المعمارى من حيث قهره للزمن فى بغداد عندما

ينهار مركز الخلافة. حتى عندما يقوم المأمون بوضع اسمه كذباً على قبة الصخرة فبالكاد يكون قد تبقى شيء ما من بلده المحبوب بغداد. فإن القصور المصنوعة من المرمر لن تستطيع الصمود أمام انقراض حفيد جنكيز خان الضارى أو عذاب القرون الطاحن.

سوف يكون لأماكن أخرى ذات طابع أسطوري وباع تاريخي حال أفضل. ولكن حتى بالنسبة لهذه المدن فمأساة نقش ذكرى الحب على حجر تكمن فى أنه مع مرور الوقت سوف تفقد تلك الذكرى الكثير من معناها وتضيع حياة هذا الحب ليتشابه مع هذا الحجر. عند الإعجاب بالأهرامات على سبيل المثال سوف يتساءل الزائرون التالون كيف تم بناء تلك الآثار ولماذا. مدينة رائعة متهدمة تقع على جبل منذ ألف عام مضت تم وضع أساسها فى سياق ضاع منذ زمن بعيد، وهو السياق الذى كان فى وقت من الأوقات مليئاً بالألوان الزاهية وحركة الحياة، تلك كلها أمور سوف تترك المراقبين فى المستقبل يظنون معناها.

تقع إحدى قصص الحب الباقية على الحجر فى الأطلال الواقعة على أطراف مدينة قرطبة على جبل سيارا مورينا. تلك المدينة التى سقطت بسقوط الأمويين أمام المرابطين؛ المدينة الملكية التى سقطت فى طى النسيان والواقعة على الجبل سوف تتداعى تدريجياً، تنقلب الأعمدة والأحجار أو تنتقل إلى مشاريع بناء جديدة مثل قصر مدينة صقلية ودير سان جيرونيمو. كما ستسرق الأعمدة الرخامية لتشييد قصور جديدة أو لنحت تماثيل دينية، أما النوافير فسيملؤها غبار وفضلات القرون وأخيراً تسحقها الأرض بسبب عوامل التآكل.

سوف تفقد هذه القلعة حتى اسمها، وفى أحد الأيام سوف تُعرف مدينة الزهراء بقرطبة القديمة. هل يذكر أى شخص معنى الاسم المنسى؛ مدينة الزهراء؟ يعرف أحد الرجال معنى هذا الاسم، فمنذ زمن سحيق وقف ذلك الرجل على الجبل مع زوجته المحبوبة الزهراء ببشرتها الزيتونية وعينيها البنيتين وهو يعلم - كما صرح لها - أنها على نفس قدره من الذكاء إلى الحد الذى يجعلها خلافاً لأى شخص آخر تمسك بزمام قوة الحب، الذى يمكن أن يكون أعظم من قوة السيف.

فى أكثر اللحظات خصوصية كان يؤنب نفسه بقسوة على حبه لهذه السيدة فهى ليست زوجته المفضلة فقط ولكنها أيضاً زميلته المساعدة فى الأمور العلمية والسياسية وهى محل ثقته القصوى فى اتخاذ قراراته المتعلقة بقاءه وسياساته. وعلى الرغم من أنه أوكل إليها هذا الدور فإنه كان مفتوناً بها إلى حد بعيد لعدم إساءة استخدامها لهذا الدور. أحياناً كثيرة كانت تقول له إن الأمر ليس من شأنها، لكنه كان يلح عليها لعلمه بأن نصيحتها تنبع من تواضع وفهم.

تضفى الزهراء المزيد من الطراوة على حياته؛ فهي تحب الشعر والموسيقى وتوفر له المتعة عندما تكون أيامه مشحونة بالأمر الإدارية والسياسية والحربية والرعية حيث إن تلك الأمور من الممكن أن تدمر روح المرء، بالرغم من أن الكثيرين قد يضحون بحياتهم ليقفوا في مكانه الآن ويحوزوا هذه القوة العظمى فإنه على وعى بمدى ما يمكن لتلك القوة من أن تصير مهلكة.

وقد صرح لها في أحد الأيام أنه فقط من خلال التوازن القائم بينهما يمكن للأندلس أن تحيا، وهذا التوازن يكمن في سيطرته هو على الحياة المادية وهي على الحياة الروحية، وهي سعيدة بأن تكون ملهمته وأن تضفى الجمال والرقعة على قسوة الحرب والسلطة. إنها لتحب هذه المعادلة، تحب أن تكون سلطنة الليل ل خليفة النهار.

على الرغم من أنه يعلم برجاحة عقله أهمية إقامة مدينة جديدة ينتقل إليها مع بلاطه من قرطبة المكتظة بالفصائل والعامّة الجامحة والأعداد الغفيرة من البشر، وعلى الرغم من أنه يعي أن قدره إقامة مدينة تكون محط غيرة ودهشة أوروبا فيراها السفراء الأجانب تلوح في الأفق على بعد ساعات من بواباتها، وعلى الرغم من درايته أن على تلك المدينة الجمع بين الجمال الحقيقي للأمويين وحب النبي، صلى الله عليه وسلم، على الرغم من كل ذلك فإنه ليعلم أيضاً أن على مدينته الملكية أن تسلب لب الزهراء.

إنه الخليفة عبدالرحمن الثالث وهو بعد مرور 250 عاماً على حكم عائلته للأندلس يشعر بقوة كافية ليعلن أنه ليس نسخة من النسخ العباسية كذلك المتكررة في بغداد وأنه الخليفة الحقيقي للإسلام. وحتى يلائم هذا الدور المزعوم الجديد كحاكم لمعظم أنحاء العالم يتوجب أن تكون لديه مدينة على نفس القدر من جمال وعظمة العالم الذي يحكمه.

وفضلاً عن ذلك يجب عليه إيجاد وسيلة لبث حب الزهراء في أحجار المدينة وناقوراتها وقصورها ومساجدها وشرقاتها.

كيف يضفى حب امرأة وموسيقاها وذاكؤها على المباني والشوارع والقصور والناقورات؟ إنه لأمر يتطلب أفضل معماريين وبنائين وقاطعي رخام ونحاتين ومهندسين. كما أنها ستتطلب حاكماً يشعر بالسيطرة المطلقة على شعبه وسوف تحتاج إلى ثلث الخزانة الوطنية بالكامل لمدة 40 عاماً لتمويل هذه القصيدة الحجرية للحب والقوة.

سوف يبلغ طول المدينة ما يزيد على ميل وعرضها ما يزيد على نصف ميل. وستحتوى على ثلاثة شوارع عريضة تنزلق نحو الوادى الكبير، علاوة على ذلك

سيوجد بالمدينة مكان للطيور وحديقة حيوان وأربعة برك للسماك و300 حمام في القصر وحده. كما ستحتاج إلى 400 مسكن لإيواء خادمي القصر وتسليحهم، كما سيكون لهذا المجمع مستودع خاص للأسلحة.

إن العجائب الداخلية، والتي ستكون مفتوحة فقط للحاشية والقادة رفيعي المستوى والخبراء الماليين والمفكرين التابعين للخلافة الأموية أضف إلى ذلك المبعوثين الأجانب ممن يأتون لتقديم الإجلال والتقدير، سوف تتضمن غرفة اجتماعات واسعة يزينها البلور لإضاءة ضوء داخلي من قوس قزح عند دخول أشعة الشمس. في غرفة أخرى يوجد تجويف زئبقى في منتصفها، سينشر أشعة الشمس في الداخل على الجدران عند إلقاء ضوءها من الخارج.

وبينما يقوم الخليفة ووليه ابنه على بتشديد هذا المشروع، والذي يمتص تلالاً من المال سوف يلجأ إلى خبير المال اليهودي هاسداى بن شابروت الذي سيمكن الخلفاء من إطلاق العنان لفكرتهم. سوف تمتد قوة هاسداى التي تقوم على نقطة التقاء الحب والمال إلى كل جانب من جوانب الخلافة. بالرغم من كونه يهودياً وأنه لن يحصل على اللقب الرسمي فسيعرفه الجميع بالوزير الأعظم اليهودي لآخر الخلفاء الأمويين، وسوف يحصل على أقصى حد للتوازن الجميل بين المسلمين واليهود الأندلسيين في أوج استقلالهم الأندلسي المشترك والمتضافر مع القدر للخروج بعمل فنى لا يمكن أن يحققه سوى الملوك والسلاطين.

كما سيكتب المؤرخ القبطى المصرى المكين فى القرن الـ 13 فى تأريخه الطموح للعالم معتمداً على ما جاء من ابن حيان، وهو أحد أفراد حاشية الخليفة الأندلسي:

بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله ببناء الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى الصخر المصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد، وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل، وقيل أكثر، منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله، ومن دواب الأكرياء الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال، وكان يرد الزهراء من الجيار والجص فى كل ثالث من الأيام ألف ومئة حمل.

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيان صاحب الشرطة أن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة، ونيف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية، قال: منها ما جلب

من مدينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وأن مصاريع أبوابها صغراها وكبارها كانت تنيف على خمسة ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله سبحانه أعلم فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجله خطراً، وأعظمه شأنًا.

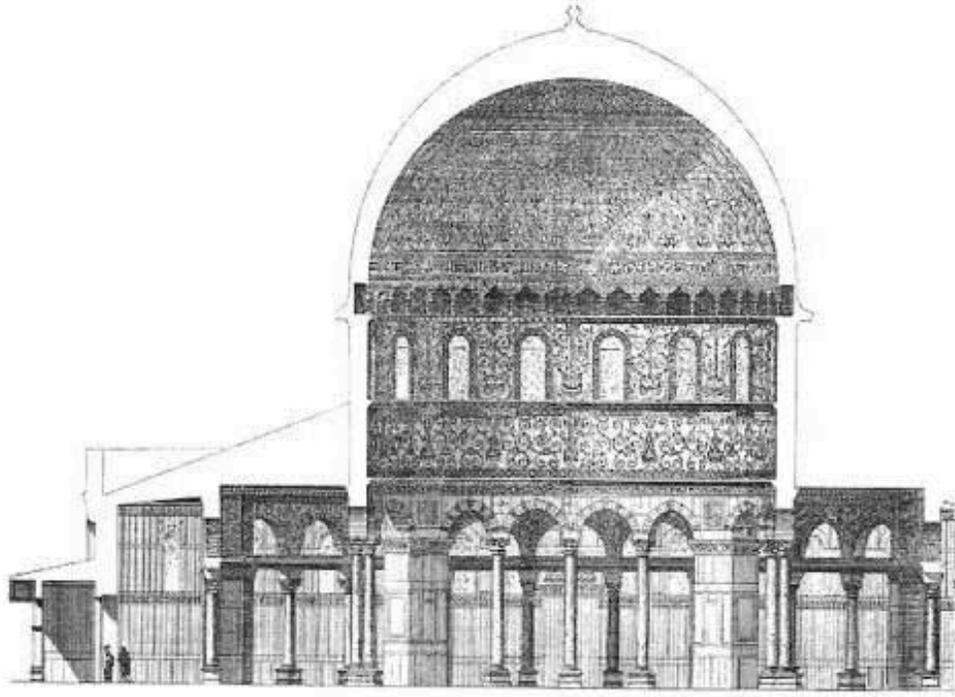
وكان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وسائرهما من مقاطع الأندلس طركونة وغيرها، فالرخام المجزع من رية، والأبيض من غيرها، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقس..

يسترسل ابن حيان قائلًا عن عجائب الزهراء:

وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتمثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، وقيل من القسطنطينية، مع ربيع الأسقف أيضًا. وقالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثنتى عشر تمثالًا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النقيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النقيس، ويخرج الماء من أفواهها⁽³³⁾.

مع أنه تم تشييد مدينة الزهراء كى تبقى إلى الأبد؛ أى تبقى ما بقيت الأحجار فى هذا الكون، فإن هذا العمل الضخم سوف يجلب الدمار على نفسه. ستعيش المدينة فقط 65 عاماً أخرى وهى مدة تعتبر طرفة عين فى تسلسل أحداث التاريخ. ويجوز الزعم أن الحكام من الأفراد والأسر الحاكمة الصغرى يبقون ما يزيد على ذلك، بل إن أماكن قبحة ليس لها أى صبغة جمالية أو عاطفية تحتوى فقط على المتعلقات العامة تظل باقية لمدة تفوق تلك الفترة بعشرات المرات.

أول هجوم على مدينة الزهراء سيكون من مرتزة من شمال إفريقيا أرسلهم



مسجد عبد الملك فى القدس أو قبة الصخرة الذى تم الانتهاء منه فى عام 691 ويظهر هنا فى شكله فى القرن الـ 19 وهو أقدم مبنى معمارى إسلامى مقدس لا يزال باقياً .

«المرابطون» لاسقاط الأمويين . لكن فى أعقابهم ستأتى أيضاً مجموعة من عامة الأندلس من دافعى الجزية ممن ساعدوا فى تمويل هذا المشروع على مرور جيلين بالإضافة إلى المواطنين الغاضبين والمضطهدين والثائرين من قرطبة، والذين سينتهبون المجمع الذى يحيا فيه حكامهم ويحرقونه فى عام 1010 ثم يحاولون أخذ الغنائم لأنفسهم .

هذا المكان أى مدينة الزهراء سيصير محل ازدراء، بل وسيقع فى طى النسيان لمدة 950 عاماً . عندما يبدأ العلماء وخبراء الآثار إمطة اللثام عن الأطلال وعوامل التآكل فسوف يجدون القليل مما له قيمة هناك مما سيجعلهم يتساءلون فيما بينهم ما إذا وجدت بالفعل الشرفات البراقة المصنوعة من الرخام وقوس قزح الداخلى .

فلن يجدوا أثراً لبساتين الزيتون أو اليشب أو المرمر أو الماس أو الياقوت أو اللؤلؤ المحفور فى الجدران الهندسية . كما أنهم لن يجدوا أشكال الجرفين البرونزى أو الأسود أو الأحصنة التى تسكب مياه الجبل فى محيط من النافورات المرمرية . ولن يجدوا أى أثر لأشجار السرو والنخيل ولا للحدائق الفردوسية ذات الشكل البساطى الحى ولا أثر لنباتات الآس أو إكليل الجبل أو الدقلى أو مسك الروم أو الزنبق أو الورد .

حتى إنهم سيتساءلون ما إذا كانت الأميرة الزهراء وجدت بالفعل أو إذا كان اسم المدينة يرجع بالفعل لشخص أو شيء؛ إنما تلك أمور سقطت في غيابات التاريخ.

مدينة غرناطة، إسبانيا، من عام 1492 - في يوم صاف من شهر يناير والجو بارد إلا أنه جاف تتلألأ فيه الشمس الضاربة على أسطح القراميد الحمراء والتلال قاتمة اللون وسلسلة الجبال المحفوفة بالبحر البعيد. بدأ عام جديد لتوه وولد عالم جديد معه، لكنه مثل للبعض نهاية العالم.

ينظر الملك المسلم الذي كان أسلافه من السلاطين والأمراء على الجموع المحتشدة في الأسفل ويستطيع أن يرى الفرقة الملكية التابعة لجيش الملك والملكة الكاثوليكين وحاشيتهما وحراسهما وجيوشهما في اللونين القرمزي والأزرق، وهؤلاء إنما هم آخر قادة لقوة هبطت عليه وعلى أسلافه من الشمال، إن كان أحداً يمكنه التذكر، فهى تلك القوة أصبحت الآن لها اليد العليا.

لديه بضع دقائق فقط في هذه المدينة التى شهدت مولده. إن أسرته الحاكمة التابعة لبنى نصر، وهى آخر أسرة حاكمة مسلمة فى إسبانيا من أسلاف الأمويين والمرابطين والموحدين الذين سقطوا منذ زمن طويل، ترتبط بشكل وثيق بتلك النافورات والحدائق والسراقات الواقعة على جوانب التل. يقف ويتخيل أسلافه يشاهدونه وينتحبون معه على هذا المشهد المروع.

فقد سقط حصن جنتهم إلى الأبد، وسوف تعيش الأندلس لبضع دقائق أخرى فقط. إنه القدر المؤسف لهذا الرجل الصغير أن يسلم آخر جزء متبق مما حصل عليه طارق بن زياد وعبدالرحمن منذ 700 عام فى أثناء فتوحاتهم.

فى محاربة لتيار التاريخ استطاع النصريون، والذين نقلصوا إلى منطقة صغيرة فى الركن الجنوبى من إسبانيا إطالة عمر الحلم الإسلامى عما هو متوقع، فبعد مرور قرابة 500 عام على سقوط الأرض الملكية فى قرطبة فى يد الكاثوليك استطاع المسلمون الإسبان الاحتفاظ بهذا المكان الثرى والساحر.

كانت مدينة غرناطة هى آخر بلدة مسلمة استطاعت الصمود. وللحفاظ على ما تبقى من هذا الحلم كان ملوك غرناطة من المسلمين بمثابة تابعين للملك كاسيل من الكاثوليك عارضين لهم الولاء بالإضافة إلى مساعدتهم فى إخمد ثورات المسلمين، ومن ثم جاء ذلك ليكون ثمن هذا الولاء.

يتلَبَّثُ آخر الملوك المسلمين محمد الثانى عشر، والذى يعرفه المسيحيون باسم بوبديل، كى ينزل إلى المنتصرين الكاثوليك ويعطيهم هذه الجائزة الأخيرة. يتردد لبرهة من الوقت حيث إنها آخر لحظة سيرى فيها مدينته تلوح فى الأفق.

ينظر إلى هذا الانسحاب من المكان الذي عاشت فيه عائلته لأجيال عديدة وإلى السرادقات المصنوعة من الأحجار الرملية وجدرانها ذات اللون الأصفر المشاحب والنقوش العربية التي تزين تقريباً كل الأسطح سواء بآيات من القرآن الكريم أو أبيات من الشعر التي تحيي ذكرى آخر انتصارات النصرين في الجيسيراس منذ زمن طويل. كل هذه الكلمات المنقوشة بالخط العربي تضيف شكلاً وعمقاً على الأسطح، التي ستبدو فيما عدا ذلك مسطحة وباردة، ويرى الفن المعماري الذي سيتم محاكاته لمدة 500 عام أخرى في إسبانيا، أي إسبانيا الجديدة وحول منطقة البحر المتوسط بأكمله وتلك الهوابط المنقوشة بثرء وفضول، والتي يطلق عليها المقرنسات تتدلى من الأسقف، كل منها منقوش بتصميمات فريدة، كما يرى تلك الأعمدة التي تعلوها الأقواس شبه الدائرية المشققة والحدائق والباحات والمرات. وينظر إلى إحدى الساحات التي توجد بها نافورة محاطة بالأسود، بينما يوجد في أخرى مسبح كبير.

ما الرؤية التي كانت وراء تأسيس هذا المكان؟ بينما كانت بغداد هي مركز العالم وبينما كانت مدينة الزهراء إعلاناً لإمبراطورية عالمية جديدة وحبّ تجاوز كل شيء فإن هذا المكان، والذي يطلق عليه بالعربية الحمراء وهو القصر الأحمر للنصرين هو بمثابة ملجأ أخير ومكان ينظر إلى الأعماق الداخلية للحفاظ على ذكرى كل ما مضى وطريقة للسمو فوق مستوى الأرض وتجنب الحقيقة القاسية، والتي لا مفر منها، والموجودة في الواقع، ألا وهي أن الحلم الإسلامي في الأندلس أمر محدود وقته وأنه سينتهي في يوم من الأيام.

كل من تلك الغرف والحجرات مفتوحة على الهواء والفضاء، حتى يتسنى لهذا الملك وزوجاته وأسلافه أن يشعروا وكأنهم يسبحون في الهواء. كصبي تخيل الأمير محمد أنه يطير تماماً مثل ابن فرناس ولكن دون المخاطرة بحياته، فقد يستطيع الحصول على أفضل ما في العالم والسماء في أحلامه. فكيف يستطيع التعامل مع الحقيقة المندھورة على أرض الواقع في حين أنه وُلد وعاش في الهواء؟

والآن حان وقته، وعليه أن ينزل لمن قرروا أن هذا الحدث التاريخي الغريب قد تخطى وقته وأن هذا الدين المنافس الذي ظل طوال سبعة قرون يجب أن يرحل وهذه اللغة السامية التي اخترقت اللغة اللاتينية بشكل كبير حتى إن ما يزيد عن ثلثها يعتبر غير مفهوم للمتحدثين الرومانسيين في أقصى الشمال وهذا النمط الشرقي للحياة أصبح كله لا ينتمي إلى هذا المكان بعد الآن. من ثم تم طرده هو وعائلته وأنصاره.

أن الأوان وفيما يلي خطاب كتبه شاهد عيان على المشهد إلى الأسقف ليون:

مع تجلى الشعار الملكي والصليب المسيحي على الجدران الحمراء لمدينة الحمراء... يتقدم الملك المورى ومعه ما بين ثمانين أو مائة على ظهور الخيل وهم جميعاً فى أبهى حلتهم لتقبيل أيادى جلالتهما. استقبلاه بكل حب وتواضع وسلماه ابنه الذى وقع رهينة منذ أسره. وأثناء وقوفهم وصل أربعمائة أسير ممن كانوا فى الأسر فى موكب مهيب حاملين الصليب، يغنون أحد الترانيم الدينية ويترجل جلالتهما لتوقير الصليب ومرافقة الجموع فى دموعهم وورعهم التبجيلي مثل كاردينال سانتيجو ودوق قانس وغيرهم من الشخصيات العظيمة الموقرة والواقفين ضمن هذا الحشد الكبير. ما من أحد لم يبك من شدة الامتنان مع شكر الرب لما رأوه حيث لم يستطع أى شخص منع نفسه من البكاء. فى نفس الوقت لم يستطع الملك المورى والموريون المصاحبون له إخفاء حزنهم وألمهم بسبب فرحة المسيحيين وبالأحرى على خسارتهم حيث إن غرناطة هى أكثر الأماكن تميزاً ورفعة فى العالم.

ما بين هذا الزحام يقف رجل آخر يشاهد ما يحدث.. رجل كانت أسرته فى أحد الأيام يهودية، ولكنها لم تعد كذلك، هو رجل من العالم الجديد القادم، وفى الواقع أنه الرجل الذى سيكتشف العالم الجديد. اسمه كريستوفر كولمبوس وكتب فى مذكراته:

بعد انتهاء جلالتك من حرب الموريين ممن حكموا أوربا وحرب مدينة غرناطة العظيمة وفى هذا العام 1492 فى الثانى من يناير رأيت الأعلام الملكية لجلالتكم توضع بقوة السلاح على أبراج الحمراء وهو حصن المدينة المشار إليها، ورأيت الملك المورى يخرج من البوابات ويقبل يدي جلالتك الملكيتين.

وانتهى الأمر على ذلك النحو واتجه آخر ملك مورى إلى ملاذ آمن مؤقت على ساحل إسبانيا ثم إلى شمال إفريقيا، حيث اتجه إلى هناك الكثيرون من الإسبان اليهود والمسلمين بعد تراجعهم أمام المسيحيين.

لكن من مكان مرتفع فى طريقه ينظر مرة أخيرة خلفه ليرى الحمراء تحلق فى الأفق ويتنهد ثم يبكى على خسارته كل ذلك؛ أن يكون آخر من يسلم آخر جزء من اللحم. تنظر

إليه أمه، والتي كثر ألا تكون رفيقةً في أوقات كنتك وتهمس له «فلتبتك مثل النساء على ملك لم تستطع الدفاع عنه كالرجال». وعندها يفكر «هل كان جُبناً أن يرغب في هذه الحياة بشدة؟ لقد كانت الجنة هنا وما الذي كان من الممكن لموتنا أن يخلفه؟».

سوف تظل مدينته أعلى التل خالية لبعض الوقت وأجزاؤها السفلى سوف تقع فريسة لمشاريع البناء ذات الأهداف المختلفة حتى يأتي يوم من الأيام تظل فيه فقط الحجرات العلوية والنافورات والمسابع. لزمن طويل ستظل الحمراء القديمة، والتي لها شأن يعلو عن أى من المدن التي ستظهر في هذه الأجزاء لقرون، رمزاً لتاريخ لا يريد أحد تذكره أو الاعتراف به، فستكون رمزاً لأمر ضاع عن عمد ودون أدنى ضرورة. ما من أحد سيتذكر الغرض من تلك الصالونات شاسعة المساحات المنقوشة بالخطوط على الحجر؛ القليل من الناس فقط سوف يتذكرون بالكاد اسم المكان.

لكن ذات يوم سيأتي جيل آخر و يتعجب: «من أسس هذا المكان؟ ولماذا؟» وسيكون هناك قلة ممن يمكنهم الإجابة عن هذا السؤال. الإجابة الوحيدة سيحملها الهواء البارد الجاف المنذفع عبر الأندلس والذي يبدو وكأنه صوت تنهّد.

مدينة سمرقند، أوزبكستان فى 1417 - 1660 - على طريق الحرير الواقع فى نهاية الجهة المقابلة للعالم الإسلامى بالأندلس فى هذا المكان الملىء بالرياح والخالى من الحدود تقع ثلاثة من أحجار المنلث الضخمة زرقاء اللون، كل منها مشقوق من النصف بأقواس متطابقة مستدقة القمة، فتبدو وكأنها ليست من هذا العالم. من بعيد تشبه، على نحو ما، الأماكن المقدسة لما قبل التاريخ والمراصد القديمة مثل ستونهينج بإنجلترا وتيكال بجواتيمالا.

عن قُرب تتقابل أحجار المنلث مع بعضها البعض عبر ميدان. تمتد لتشبه الأعمال الفنية واللوحات العلمية والتصريحات الأرضية والسماوية ذات القوة المطلقة، فتصبح بمثابة ثلاث بوابات شبه متطابقة تتناسب مع ثلاثة من الجان أو العفاريت العمالقة وفى نفس الوقت هى مصنوعة من أفضل أنواع الحجر والقرميد.

هذا المكان الخارق إنما يُطلق عليه ريجستان، ويعنى المكان الرملى فى مدينة سمرقند. أسس تيمورلنك فى عام 1370 هذه المدينة القديمة كعاصمة لإمبراطوريته ويرجع تاريخها فى الأصل إلى عام 700 قبل الميلاد. فقد وضع حجر الأساس لما سيصبح أكثر الأماكن روعة ونفوذاً بالنسبة للفن المعمارى الأثرى فى منطقة آسيا الوسطى.

جاء تيمور من مكان غير معلوم واستعمر العالم بعد رحيل منغول خان عندما بدا وكأن الجميع باستطاعتهم العيش بأمان مرة أخرى. فى ذلك الميدان سوف يضرب عنق ضحاياه ويضع رءوسهم على أوتاد مغروسة فى الرمال الدامية. عندها سيتم الإعلان

عن التصريحات الملكية من خلال النفخ فى أبواق نحاسية طويلة تُسمى دزوركى ، فى هذا المكان الذى ازدهر فيه سوق المدينة فى أحد الأيام وهنا يقع قلب سمرقند .

فى القرن 15 أصدر ألغ بيك حفيد تيمور حكماً بشأن التقليد الملكى لجدّه وهو أن يبنى أول هيكل من الهياكل الثلاثة فى ريجستان المهندس المعمارى التابع له كافوميدىن شيروزى . بعمل شيروزى لدى ألغ بيك ، بقوته المطلقة على الحياة والموت ، أودع شيروزى خوفه الشخصى ورعبه هذه البوابة الواقعة خارج نطاق الأرض . على الرغم من أنها تبدو كبوابة ضخمة إلى السماء فإنها ملحق بها مدرسة ملكية وهى مدرسة دينية .

بالوقوف أمام قوس واحد تحيط به المآذن التى تشبه الأعمدة الضخمة الحاملة للسماء وبالتحديد فى الواجهات الشاسعة الزرقاء الممتلئة للوقت والفضاء ، ينتاب المرء شعور بأن أحد هذه الهياكل قد يكون كافياً لتقزيم البشرية جمعاء وتنقل عظمة قوة السماء والعقل . لكن بعد ذلك خلال القرنين التالين سيتم بناء هيكلين مشابهين آخرين ، ومن ثم سيوجد مثلث من بوابات ثلاثة تكاد تكون متطابقة وبها مدارس ، اثنتان منها تقابلان بعضهما البعض أما الثالثة فتقف عابرة لساحة البلاط .

بالوقوف فى الخارج عند هذا الامتداد الشاسع عند نقطة التقاء الأقواس الثلاثة يتعجب الزائرون من هذه القطعة المقتبسة من الرؤية الإسلامية . إنها بعيدة تمام البعد عن مدينتى الزهراء والحمراء لكن هذه الهياكل بالنظر إليها يتبين انتماؤها لنفس العالم . ومثل نظيراتها الإسبانية؛ فإن أبنية ريجستان توضح مدى دقة الأنماط القطرية والدائرية والهندسية المصنوعة من القرميد الأزرق والفيروزى والذهبى والأصفر ، فهى بمثابة عالم صغير من الكون نفسه به نظريات رياضية وفلكية وخريطة بالنجوم والكواكب مصنوعة من القرميد وكذا تمثيل للتفاعل الذرى والكيميائى . ريجستان هى تمثيل للفكر البارد والمروع علاوة على السلطة المطلقة على عكس الأحاسيس الدافئة والشعور بالحنين الذى اتسمت به تصاميم مدينتى الحمراء والزهراء . لكن الأماكن الثلاثة إنما تمثل ذكريات الأحجار التى تشهد على كل ما حدث من قبل ، ولن يعود مرة أخرى وذلك باستخدام الكثير من الأشكال المتشابهة .

بالنظر عن قرب إلى أبنية ريجستان يتبين أن الأقواس الداخلية لمدرسة تيلكارى تقف بمثابة دعامة لصفوف من المقرنس ، تلك الهوابط المتدلية التى هى من صنع الإنسان ، ومن الممكن أن تكون مستلهمة من مدينة الحمراء الواقعة على بعد 3000 ميل نحو الغرب . وتفيد هذه المباني ، لا كمكان تدريب وسكن للطلاب فقط ولكن أيضاً كمسجد كبير . بعد التخلص من تيمور ووارثيه بوقت طويل تظل تلك الآثار موجودة ورد الفعل الذى تثيره الآن وستثيره وفيما بعد هو الإحساس بالرعب أكثر من أى شىء .

بالتالى قام أبناء تيمور الذى مات منذ وقت طويل بعمل شىء لم يستطع أى شخص القيام به، ألا وهو التعبير عن الإحساس فى الحجر. وفى حين أن من الممكن إدراك الشعور بالحنين والحب الموجودين فى الفن المعماري الأندلسى تماماً من خلال استرجاع الأحداث النائية بين صفحات التاريخ، فلا تزال القوة الرمزية المدهشة للتيموريين فى سمرقند حية مثلما كانت عليه منذ 600 عام مضت.

مدينة أصفهان، فارس فى 1592 - يوجد سياسى وقائد طموح فى القرن 16 و17 فى فارس اسمه الشاه عباس. من خلال تجمع الكثير من الأمور، ألا وهى انتزاعه العرش من والده وتدفق الثروات عبر تجارة طريق الحرير والمساعدة البريطانية فى النقل من القوات الاستعمارية للأتراك العثمانيين وغيرهم من الأوربيين، استطاع التجهيز لإعادة فارس لمركزيتها الجلية التى كانت عليها قبل وصول الإسلام.

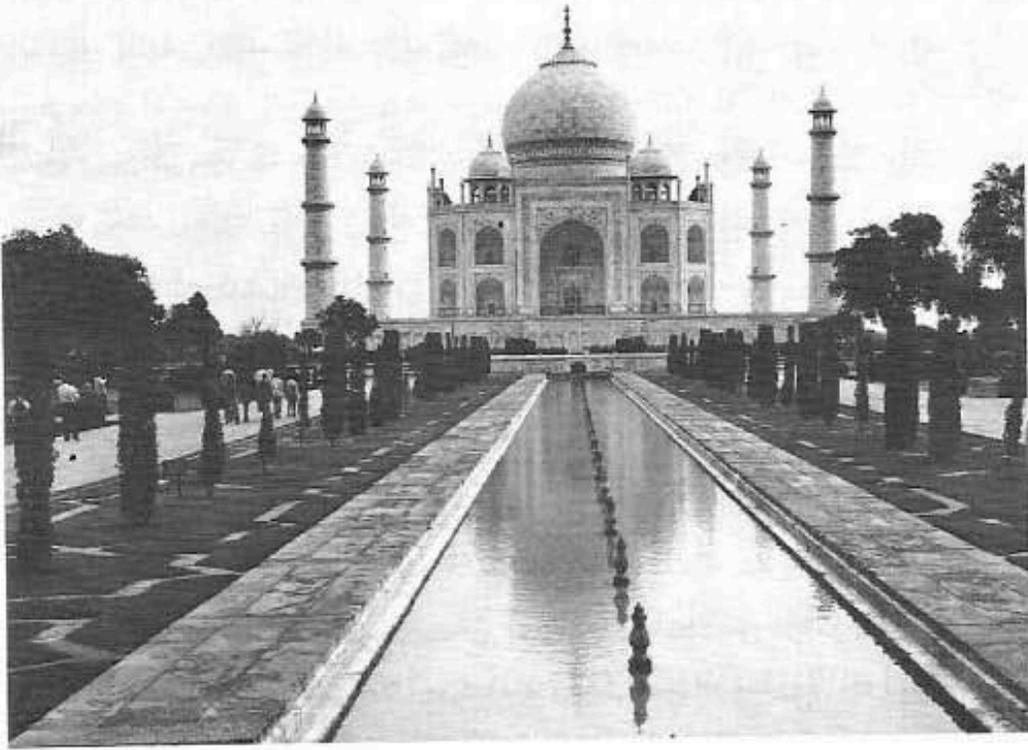
إنه يعلم أن فارس، والتى كانت فى أحد الأيام واحدة من مراكز العالم ومصدراً للقوة الفكرية والمالية والفنية لكل من بغداد ودول آسيا الوسطى والمغول الكبار، لم تحظى بنصيبها من القوة الصريحة والاعتراف الواضح، بسبب تفككها.

من ثم فكر فى تجميع كافة أجزاء فارس مرة أخرى، فقد انتصر على الأتراك دافعاً إياهم إلى أبعد حد ممكن، كما انتصر على الجورجيين فى الغرب والملاحين البرتغاليين، وبالتالي تدفقت ثروات التجارة الأوروآسيوية إلى خزائنه.

مع مرور الوقت اختار مدينة أصفهان كى تكون عاصمته الملكية، وعلى الرغم من أنها بالفعل مدينة مزدهرة وجميلة ويرجع تاريخها إلى زمن السلاجقة فإنه سيجعلها أكثر عظمة. سيقم مدينة بنفس عظمة مدينة بيرسيبوليس عند الفارسيين القدماء.

تحت رعايته سوف يمضى المعماريون والمخططون والفنانون فى تنفيذ سيمفونية شاسعة على الحجارة، حيث إنه حتى فى تلك الآونة كان ينظر إلى المجالات المختلفة من الموسيقى والرياضيات والفن المعماري على أنها انعكاسات فى شكل مختلف لنفس مصدر شفرات خلق الله عز وجل. هؤلاء المؤسسون سوف يقررون أنه مثلما تعتمد الموسيقى على نظام النوتة الموسيقية فإن الهندسة المعمارية ستقوم على ثمانية عناصر رئيسية، هى الحديقة والمنبر والشرفة والبوابة والقبة والمئذنة وحجرة الاستقبال والقنطرة.

باستخدام تلك العناصر لن يتمكن العباس والمخططون فقط من زيادة تزيين النسيج الفخم لمدينة أصفهان بالمساجد والقصور والأماكن العامة الجديدة، ولكن سيغزلون هذه المدينة بشكل يجعلها أكثر المدن الأثرية، ليس فقط فى العالم الإسلامى ولكن فى العالم برتمته، لتصبح مدينة رائدة مسلمة فى القرن 16 وتسبق كلا من سانت بيتر



صورة لتاج محل الذي بناه شاه جهان في القرن الـ 17 كأثر لحب ضائع وهو مثال على الفن المعماري للمغول الكبار.

سكوير الذي أبدعه بيرنيني في القرن الـ 17 بروما، ولي إنفانت في القرن الـ 18 بواشنطن وهوسمان في القرن الـ 19 بباريس.

سيتم تنظيم مدينة الشاه عباس الجديدة حول ميدان كبير معروف بميدان الشاه أو الإمام على مساحة 95.600 ياردة مربعة؛ أي ضعف حجم الميدان الأحمر بموسكو. في أثناء الأيام الملكية سيتم استخدامه كميدان للعبة البولو الملكية. وما بين درر هذه المدينة مسجد الشيخ لطف الله؛ وهو المسجد الذي بناه المعماري محمد رضا ابن استاد حسين بنا الأصفهاني. في مواجهة الميدان المستطيل، والذي يبلغ طوله ميلين توجد بوابة من القرميد الأزرق تحيط بجانبها المرات المقنطرة شاحبة اللون للقصور والمكاتب والشقق رفيعة المستوى.

يكتب روبرت بايرون عن مسجد الشيخ لطف الله:

ما شاهدتُ مثل هذه الروعة قط. لقد خطر ببالي بعض المشاهد الداخلية
لأماكن أخرى لمقارنتها بها مثل فيرسي أو الحجرة المصنوعة من الخزف في

شونبرن أو قصر دوج أو سانت بيرت ، وجميعها تتمتع بالثراء والفخامة ، إلا أنها ليست مثل هذا المسجد .

وثمة بناء آخر له أهمية خاصة هو على قابو أو قصر البوابة الرفيعة ، والذي يتمتع بثراء رسومات الجدران الطبيعية لرسام البلاط رضا عباسى وطلابه . سيستخدم رضا الزهور والطيور وحيوانات أخرى والرموز والموضوعات الباقية من الفن الإسلامى الفارسى الرفيع والتصميمات الموجودة فى المخطوطات التى لا حصر لها . وسيكون قصة خيال فارسية منقوشة على القرميد والحجر والذهب .

وقطعة رائعة أخرى هى مسجد الشاه أو الإمام مع عظمة وجهته الزرقاء ومآذنه تقف مقابلة لمسجد الشيخ لطف الله .

على الرغم من أن تلك الأبنية فارسية تماماً فإنها تعكس النمطين الجغرافيين المختلفين للإسلام : الأندلس الراحلة وريجستان البعيدة . وعلى شاكلة ريجستان سوف تحتوى مباني أصفهان الأثرية على القرميد الخارجى بألوانه الفيروزية والزرقاء وكذا التفاصيل الدقيقة للتصاميم العاكسة لمدى تعقيد الكون . وعلى شاكلة الحمراء سيحتوى الكثير من هذه المباني على المقرنسات المتدلية والمنقوشة . وتبذل مداخلها الغائرة المستحيل حتى تقتنص لانهاية الفضاء اللامتناهى فى سياج رائع من صنع الإنسان .

سيمفونية الأحجار والقرميد فى أصفهان غاية فى الضخامة والتعقيد ، وبالتالى من الصعب تثبيت الأعين على أى تفصيل من تفاصيلها النفيسة . يجب التعامل مع مدينة أصفهان وميدان الإمام ككل باعتبارها من أكثر الأبنية الفنية والمعمارية روعة فى تاريخ البشرية . وبالرغم من أن القباب المنحوتة وعبقرية الزخرفة سوف تشيران إلى الشرق فإن تصميم الميدان والممرات المقنطرة والقصور المحيطة والبيوت سوف تتبناها أوروبا الغربية فى الفن المعمارى الملكى فى فرنسا وإنجلترا والنمسا .

أما بالنسبة للساحات بمدينة أصفهان فسيكون لها نمطها الخاص ، حتى مع ارتفاع المساجد والمآذن فى أعلى أفق فارس ، ومع إبراز التمثيل الفنى لمدى عظمة السماء المنمقة والمصطفة ستصل أعماق القصور والبيوت ضمن ظلال الحدائق ومتع الحواس إلى ذروتها بطرق لا يمكن الوصول إليها إلا فى زمن من القوة المطلقة والثروة اللامتناهية .

ستكون مدينة أصفهان وعظمتها الفنية والسياسية والحسية نتائج لحظة فنية لن تسنح مرة أخرى . فإن الالتقاء الفريد لرؤية الشاه عباس وقوته مع الثروة الناتجة عن التجارة البرية بين أوروبا وآسيا سوف تصل إلى منتهاها ، وسوف يلقى الشاه عباس حقه وسيليه خلفاء متنازعون .

ستقوم أوروبا سريعاً بتحويل تجارتها من البر إلى البحر مستخدمة السفن لتجوب إفريقيا وتتجه إلى الهند والصين ودول جنوب شرق آسيا. بالتالى سيواجه طريق الحرير وثروات مدن مثل أصفهان ضربة قاضية، وسيكون أثر ذلك عليها أشبه بغلق أحد الأشخاص لصنبور المياه.

لكن وهو ينتظر نهايته سينظر الشاه عباس على ميدانه ويتدبر: «أمعن النظر أيها الفانى على العظمة الثابتة لأصفهان واعرف القوة الفنية والإبداعية للفارسيين عندما تكون أذهانهم منطلقة وعندما تقودهم رؤية مستنيرة».

الآن تلك المباني الواقعة فى الميدان تحتفظ بروعتها كأحد مواقع التراث العالمى لمنظمة اليونسكو.

مدينة أجرا، الهند فى عام 1631 - كان هناك حاكم من المغول الكبار للهند يُعرف باسم شاهبودين محمد شاه جهان، ولديه العديد من الزوجات، ولكن أقربهن لقلبه هى زوجته ممتاز. تزوج منها وهما لا يزالان طفلين بالكاد، ووصلا إلى سن المراهقة وعاشا بالتالى معظم حياتهما مع بعضهما البعض.

أنجبت ممتاز من جهان 14 طفلاً؛ وعلى خلاف الكثيرات من الزوجات الملكيات، كانت تسافر معه فى المعارك؛ فغالباً ما كانت بجانبه طيلة الوقت إلى الحد الذى يفقد حياله الإحساس بأنهما شخصان منفصلان، وحبها يتعدى الوعى بالحب فى حد ذاته؛ فما بينهما هو صورة للتعايش الحى، فهما روحان فى جسد واحد.

بجانب هذا الحب فإن شاه الهند هذا محظوظ للغاية؛ فهو يسيطر على دولة هى بمثابة إمبراطورية وعالم خاص. كانت ثروة الهند فى القرن الـ 17 أعظم من أى دولة أخرى على وجه الأرض، وقد شملت فيما تشمل القوات الملكية المتنامية فى أوروبا، والتي تشتهى تلك الثروات.

هذه الدولة، بالرغم من حكم المسلمين لها، حوت الكثير من الناس والأديان واللغات إلى الحد الذى يجعل من المسلمين الموجودين فى الهند عبارة عن قشرة ثرية فى عمل إبداعى قديم له نفس القدر من الثراء.

يتحدث أئمة المساجد اللغة العربية ويكتبون بها بينما يتبنى المغول الكبار، وهم فى الأصل من آسيا الوسطى، الأشكال والأنماط الفارسية وحتى تكتمل الدائرة قاموا بغزو الهند الهندوسية القديمة.

يتضمن أسلاف شاه الهند المشار إليه الأسقف بابور من أوزبكستان، وهو مؤسس إمبراطورية المغول الكبار وجد جهان جلال الدين محمد أكبر، والذى سيقال عنه فى أحد الأيام إنه أعظم حاكم هندى عرفه الزمان وذلك بإجماع من المسلمين والهندوس وغيرهم.

لم يحظ شاه جهان برؤية أكبر ولا البسالة العسكرية لبابور ولكنه سيُعرف بالفن المعماري الرائع. فهو من أسس الحصن الأحمر بدلهي وهو الحصن المصنوع من الحجر الرملي الأحمر، والذي ظل لمدة من الوقت تعريفاً لطبيعة التصميم ذات طابع المغول الكبار، بالإضافة إلى ذلك أسس قصوراً وحدائق، ولكن أعظم الأعمال سيكون مستوحى من الحب.

في عام 1631 عندما يذهب إلى إحدى المعارك تأتي معه ممتاز وهي حامل في طفلها الرابع عشر، وبالرغم من أن هذا الأمر لم يُنصح به فإنها لم تفكر أبداً في عدم انضمامها إلى زوجها المحارب في رحلته. فقد قامت بذلك عديداً من المرات، ومن ثم لا ترى مشكلة في التكرار وفي أثناء الحملة أنجبت ممتاز لجهان طفلة أطلق عليها شاهزادي جوهرة بيجوم وكان من المفترض أن تسير كافة الأمور على ما يرام ولكن في دورة الزمن والقدر انتقلت ممتاز إلى بارثها.

وبالنسبة لحاكم أغني إمبراطورية على وجه الأرض - والذي يمتنع بسلطة وثروة لن يعرفها سوى عشرات قليلة من الناس بعد آلاف السنين - كان هذا الأمر بمثابة تمزيق لقلبه ورثتيه فإن ممتاز هي ذاته البديلة؛ فالحياة بدون ممتاز ليست بحياة. لمدة طويلة لم يستطع هذا الرجل التفكير والتنفس وكان قلبه قد توقف.

دعا الله عز وجل أن يأخذه معها إلى عالم الموت. أصبح لا يستطيع تذكر اسمه أو زوجاته أو أبنائه أو دوره كشاه لكافة أرجاء الهند أو جيوشه أو قصوره أو خزائنه المكتظة بالزمرد والذهب والياقوت أو عشرات الآلاف من الأفيال أو مئات الآلاف من التابعين أو صلاتهم أو بركاتهم أو شهاداتهم أو ضرائبهم. ما من شيء كان له وجود بالنسبة له فهو يريد أن يموت.

لكن بالرغم من أن روحه وقلبه رحلا فإن جسده ظل موجوداً. لم يستطع الأئمة والروحانيون والأصدقاء والحاشية فعل أي شيء للمساعدة فكيف لهم أن يساعده؟ هل يستطيعون المجيء بممتاز مرة أخرى؟

كتب أحد مؤرخي البلاط عبدالحميد لاهوري قائلاً إن حزن الشاه جهان «فتت صموده الذي كان أشبه بالجبال» وإن لحيته صارت بيضاء بين عشية وضحاها كما أنه لم يظهر إلى العامة لمدة أسبوع كامل.

وأضاف أيضاً الرحالة الفرنسي في القرن الـ 17 فرانسواه بيرنييه أن الشاه جهان كان مغرماً بزوجته الجميلة حيث «كان مخلصاً لها طوال حياتها وعند موتها تأثر تأثراً بالغاً لدرجة أنه تمنى أن يلحقها إلى القبر».

انطلاقاً من هذا اليأس توصل شاه جهان لأمر وحيد قد يساعده في تصحيح الطامة الكبرى التي وجهها إليه الزمن والقدر، ومن ثم سيسمح له بالاستمرار في هذا العالم.

أقسم أن بينى نُصباً تذكاريًا لحبه الراحل يجذب أبصار كل من ينظر إليه ويخطف أنفاسهم ويجعلهم يخرون ساجدين ليشاهدوا ذكرى حب يبلغ مساحة الهند في حجمه لامرأة كانت نصفه الآخر ، روحان توفقا بتوقف حياتها .

وتصدر الأوامر باستدعاء المماريين والمهندسين وخبراء المال والخطاطين وقيل لهم إن عليهم بناء أعظم أثر على الإطلاق يتناسب مع أعظم حب عرفه الزمان وإلا فلا .

وقد أتوا بالعشرات بل بالمئات بل بالآلاف ، حوالي 20.000 رجل من كافة أنحاء الهند وفارس وتركيا العثمانية ، كما انتشرت الشائعات عن استجابة بعض الأوربيين أيضا .

على الرغم من أن معظم ملايين الوثائق الرسمية الخاصة ببلاط المغول الكبار سوف تدمر في يوم من الأيام ، فإن المؤرخين سوف يخلصون إلى أن الفريق النهائي سوف يحتوى على سيد المماريين أستاذ أحمد لاهورى بالإضافة إلى احتمال وجود الشاه جهان بنفسه . هناك بعض التخمينات بأن الشاه قام برسم الخطط وإضافة التعديلات والتنسيق بين العديد من معماريي البلاط .

نتج عن كل هذا الكم من الحزن والاضطراب خطة لهزيمة الموت عبر المجيء بالجمال السماوى وقوته إلى الأرض على ضفاف نهر جامونا بمدينة آجرا حتى ينحت في الحجر قصيدة حب وإعجاب مصبوغة بالحزن الرهيب على الموت والفراق .

سوف تعصف فيالق الأفيال الأرض حاملةً أطنان الرخام الأبيض الشفاف من رجاستان وأعمال اليشب من بونجاب لكتابة القرآن بالحروف السوداء على الخلفية المصنوعة من الرخام الأبيض كما ستأتى باليشم والبلور من الصين لعمل الزخرفة والإضاءة . علاوة على ذلك ستأتى بالفيروز من تيببت واللازورد من أفغانستان والياقوت الأزرق من سيريلانكا والعقيق الأحمر من شبه الجزيرة العربية . ولتطعيم الرخام سوف يأتون بثمانية عشر نوعاً مختلفاً من الأحجار الكريمة .

وبفضل تابعي الشاه من الخبراء الماليين بدأ هذا المشروع ، ووفقاً لبعض الحسابات استغرق 22 عاماً حتى ينتهى العمل فيه ، كما ستبلغ تكلفته التقديرية 500 مليون دولار .

يطلق على هذا النصب التذكارى تاج محل .

سيظهر فى قاعدته المصنوعة من الرخام والمربعة الشكل ضريح الحب المصنوع من الرخام الأبيض ، والذي يحيط به عند كل ركن من أركانه مئذنة من الرخام الأبيض أيضا . كما سيعلو هذا الهيكل قبة من الرخام الأبيض عليها الهلال الإسلامى موجهاً إلى الأعلى بحيث إذا ما شوهد بكامله يوحى بأنه رمز الإله الهندوسى شيفا .

بعد مرور خمس سنوات على استكمال المشروع، أى فى عام 1653 أطح بالشاه جهان - الذى لم يستعد نفسه السابقة - ابنه أورانجزيب وهو من سيحول التركيز الملكى مرة أخرى إلى الأمور الواقعية. سوف يقضى والده الشاه جهان سنواته الأخيرة محدد الإقامة محقق النظر عبر نافذته على معبد الحب. عندما يموت سيتفضل ابنه بوضع جسده بجانب ممتاز التى توفيت منذ وقت طويل وذلك حتى يجتمعا مرة أخرى.

كان جهان ينوى بناء مكان مشابه له من الرخام الأسود منقوش عليه حتى آخر حرف فى القرآن الكريم يصل به إلى الجانب الآخر من النهر ليعكس مدى حزنه وفقدانه لممتاز طوال السنوات التى عاشها بعد موتها. لكن هذا لن يهيم فسوف يجتمع الحبيبان تحت الرخام، وستوجد ممتاز فى المنتصف تماماً أسفل قمة القبة، «وجهان» إلى جانبها بعيداً بعض الشيء عن المنتصف.

بعد ذلك سيمر هذا المكان بأوقات عصيبة حيث سيفقد المغول الكبار سطوتهم وسوف يأتى الناهبون. عندما يأتى الغزو البريطانى واستعمارهم سوف ينتزع البريطانيون من الهنود الأحجار الكريمة المرصعة بها الجدران. لكن فيما بعد سيصدر نائب الملك البريطانى أوامره بعمل الترميمات اللازمة لهذا الصرح المعمارى.

ثم ستظهر القصص المختلفة مثل الهمسات الخارجة من الحدائق البلاطية الوامضة والمسابع العاكسة فستزعم الإشاعات بأن جهان لم يقم ببناء تاج محل وأنه فى الأصل موقع هندوسى.

فيما بعد محيط الحديقة سوف تظهر الفنادق وسيتساءل الزائرون إذا ما تشابه حبهم مع هذا الحب المجدد فى الحجر.

مكة، شبه الجزيرة العربية فى عام 600 - توجد أغنية حب بدأت أول ما بدأت فى الإسلام منذ زمن بعيد ثم انتشرت هذه الأغنية فيما بعد فى أنحاء شتى من العالم لينتج عنها أدوات موسيقية جديدة ولتخرج بأشكال مختلفة من الموسيقى وتؤثر على غيرها من الأشكال ولكن تنتشر باتساع وعمق ولمدة طويلة إلى الحد الذى يجعل الكثيرين يتناقشون فى مصدرها الأصلى وأثرها.

تشتق هذه الموسيقى من العديد من أغاني الثقافات الثرية والقديمة التى انغمس المسلمون فيها واستوعبوها مثل البيزنطية والرومانية والإغريقية والعربية الشعبية واليهودية والفارسية والهندية والبربرية والبلقانية والمغولية. قد تكون هذه الأغنية عن أشياء عدة وبالتالي أفضل مصطلح من الممكن أن يطلق عليها هو «أغنية الحضارات». وبالرغم من تفرعها إلى الكثير من التعبيرات فإنه سيكون لها عظيم الأثر وأوسعها

بتطورها إلى أغنية حول الحب الدنيوى، أغنية حول التعلق بالحبيب سواء كان مخلصاً أو خائناً، حاضراً أو غائباً، من الممكن الوصول إليه أو مختفياً إلى الأبد، مقدساً أو دنيوياً.

ضمن أغنية الحضارات دائماً ما ترن في الخلفية أغنية أخرى في حب الله عز وجل. الكثير من المفكرين ممن سبروا أغوار النجوم والشفرة الرئيسية للكون سوف يمتدون في هذه النظريات والدراسات للموسيقى، والتي يرونها فرعاً من فروع الفلسفة ويرتبط ارتباطاً مباشراً بالرياضيات. كما سيضيف الكثير من عمالقة الرياضيات والفلسفة وحتى الطب في الإسلام المزيد من التعقيد والهيكل الرسمي لأغنية الحضارات. علاوة على ذلك سينقب بعمق علماء مثل الكندى وابن سينا وابن رشد في النظرية الموسيقية وسيبدءون في استخدام شكل من أشكال التدوين الموسيقى قائم على الحروف الأبجدية. وسيقوم زرياب وهو الموسيقى الشهير ببغداد فى القرن التاسع - بدافع من الغيرة من البلاط الأموى فى قرطبة - بتأسيس أول معهد موسيقى فى العالم هناك فى الوقت الذى كان يقوم فيه بأمر عديدة مثل الطبخ وتصميم الملابس وتصنيف الشعر.

هناك أيضاً أحد واضعى النظريات الموسيقية رفيعى المستوى وهو الفارابى الفارسى الأصل، عاش فى القرن التاسع وانتمى إلى بلاط فى سوريا. سيكتب الفارابى خمس دراسات حول الموسيقى، دراسات احتوت على الملاحظة التالية على نظرياته:

والأصوات والنغم التى يستعملها الحيوان عند الانفعالات الحادثة فيها، ليست هى التى يستعملها الإنسان علامات فى الدلالة على الأمور، أما تلك، فهى بمنزلة الأصوات التى تسمع من الحيوان والإنسان عند طربها، فإن فى طباع الحيوانات والإنسان إذا طربت أن تصوت نحو ما من التصويت، وكذلك إذا لحقها خوف صوتت صنفاً آخر من التصويت، والإنسان إذا لحقه أسف أو رحمة أو غضب أو غير ذلك من الانفعالات صوت أنحاء من الأصوات مختلفة، وأمثال هذه الأصوات والنغم إذا استعملت ربما حصل عنها انفعال ما أو ازدياده، وربما زال الانفعال أو انتقص (34).

سيكتب الفارابى حول تحديد درجة النغم والصوت، مع البقاء على مفاتيح العزف والسلم الموسيقى، والنغمات الجزئية أو الفواصل الحيادية.

سيرى الفيلسوف الدينى الغزالى - وهو مفكر من القرن الثانى عشر، والذى سيبدأ فى قيادة عملية تراجع نهائية عن المذهب العقلى الإسلامى إلى اتجاه أكثر

إحساساً وصوفيةً - أن هناك ارتباطاً مباشراً بين الإيمان الصوفي والموسيقى الصوفية. كتب قائلاً:

فإن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر وقد طويت فيها
جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر كما أخفى الماء تحت التراب
والمدرك ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب
إلا من دهليز الأسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها وتظهر
محاسنها أو مساويها فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه (35).

تمت ترجمة تلك النظريات، ومع مرور الوقت وبشكل تدريجي تتجه ناحية الشمال إلى أوروبا من الأندلس وصقلية من خلال الصليبيين أو عبر وسائل نقل أخرى بالرغم من تباطؤ هذا الانتقال لمدة قرون.

وفقاً للمؤرخ إتش جى فارمر، فإن أحد أهم التحويلات من المسلمين إلى الأوربيين هو التدوين الموسيقى العربى الإسلامى. أشار إلى أنه بالرغم من أن مؤرخى الموسيقى الأوربيين يعتبرون أن التدوين «دورى مى فاصول لاسى دو» بدأ أول ما بدأ فى القرن الـ 11 بإيطاليا فإنه توجد أدلة دامغة على أن الإيطاليين كانوا يستخدمون ببساطة التدوين العربى السابق من القرنين التاسع والعاشر. وفى كتابه «حقائق تاريخية خاصة بالتأثير الموسيقى العربى» أشار إلى المقارنة التالية بين التدوين الإيطالى والتدوين العربى.

الأبجدية العربية: مى فا صاد لا سين دال را
التدوين الإيطالى: مى ف صول لا سى دو رى

يوجد أيضاً شكل آخر ترجع جذوره إلى الشعر العربى فى القرن السابع. فقد ساهم أحد أعظم شعراء مكة السابقين «عمر بن أبى ربيعة المخزومى» بأسلوب شعرى يُطلق عليه الغزل، والذي يعنى حرفياً قصيدة الحب. سوف يكتب قصائد حول علاقاته بالمسيدات النبيلات من الحاجات الزائرات لمكة.

كما سيبدأ أمر آخر عظيم فى التطور فى معمل الشعر العربى السابق، ألا وهو فكرة الحب العذرى. الشاعر العربى الذى يُعتبر أبا الحب الأوربى الفروسى وهو جميل الذى جاء من المدينة فى القرن السابع وكتب حول المحبين ممن أصبحوا شهداء لحبهم وماتوا من أجل أسمى مشاعر الحياة الدنيوية.

كما سيكتب أحد الحكام الأمويين بدمشق في أواخر القرن الثامن وهو الوليد بن يزيد قصائد حب رائعة حول الشراب .

في كل من الأندلس وصقلية في القرون الوسطى بدأت كل من الأشكال الشعرية والموسيقية الإسلامية في الانتشار في اتجاهات مختلفة، الأمر الذي كان له صدى حول العالم . تباعاً سينتشر أسلوب أندلسي يُطلق عليه الموشحات، وهي عبارة عن أغانٍ استروفية بها عبارات متكررة، في العالم العربي وينتج عنها نمط آخر يُعرف بالزجل، وهو نوع مبكر لجنس أغنية التروبادور، والتي ستترك صداها أيضاً نحو الشمال في منطقة البرانس . وسيشدو الشعراء من المغنين المسلمين الجواله بالحب العفيف للمرأة وسواء كانت تلك المرأة مجرد رمز لتجليات الخالق على الأرض، أو هي امرأة حقيقية لها من الحسن ما يسلب لب العابد .

في القرن 13 سيرعى الملك ألفونسو حكيم كاسيل وليون إنتاج ما يزيد عن 400 أغنية مسيحية مقدسة حيث تبدو 300 منها متشابهة في الشكل والمضمون مع الموشحات الإسلامية .

وبدأ مسيحيون آخرون في شمال إسبانيا في غناء قصائد غنائية مشابهة بعد مرور عدة قرون، والتي توجهت في البداية إلى العذراء مريم ولكن فيما بعد توجهت إلى أي سيدة تستحق المديح . سوف يُعرف هؤلاء المغنون باسم التروبادور في فرنسا وتروفاتور في إيطاليا وهذا الاسم قد يكون في الأصل مشتقاً من الكلمة العربية طرب، والتي تعنى «النشوة» كما هو الأمر بالنسبة لنشوة الحب . من هنا سيتفجر مفهوم غناء قصيدة للمحبة في الثقافة الأوربية، ومن ثم مولد لشكل جديد في الموسيقى، أي أغنية الحب، والتي ستثبت أبديتها . مع هذا النوع من الغناء سيبدأ وعى جديد بقيمة المرأة ومفهوم الفروسية والشرف بوضع البذور لمجتمع أوربي يتمتع بقدر أكبر من الإنسانية والاستنارة .

ستأتي بعض عمليات الانتقال الموسيقية تلك من المسافرين على جانبي بايرينيس فيما بينهم شارلمان وهو - وفقاً لبعض المصادر - أمضى سبع سنوات كاملة في إسبانيا في أثناء حملاته العسكرية .

يشير بعض المؤرخين الموسيقيين إلى أن الكثير من النساء المسلمات من أسيرات العديد من الحملات العسكرية في إسبانيا الشمالية ممن انتقلن إلى أوربا المسيحية خدمن أيضاً كرسل موسيقيين . تلك المئات من النساء - ممن تم أسرهن عند سقوط أماكن مثل بالباسترو - قد تدربن منذ طفولتهن على الأساليب الموسيقية الأندلسية في المنازل والشوارع وسيجبن فرنسا وإيطاليا مع جيوش البابا ألكسندر الثاني .

وفقاً للمؤرخ الموسيقى بالقرن الـ 21 د . رباح سعود لن تذهب النظريات والأساليب الموسيقية الإسلامية فحسب إلى الشمال ولكن منذ القرنين التاسع والعاشر ستنتشر أيضاً الأدوات الموسيقية في الشمال المسيحي في كل من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا على يد الموسيقيين والمغنين المسلمين . على سبيل المثال سينتج عن العود الإسلامي

المزهر الأوربي ثم القيثارة والمندولين وستتطور الغيطة العربية لتصبح مزمار القربة الإسكتلندي والجيطة الإسبانية والبرتغالية. علاوة على ذلك سيتولد عن القانون الإسلامي القيثار الإنجليزي والقانون الألماني. أما بالنسبة للكمنجة الفارسية والربابة العربية فسوف تأتيان في شكل الكمان وستخرج الزورنا الإسلامية وهي إحدى آلات النفخ بألة المزمار. وأخيراً سيؤدى الصانثور الفارسي - وهو شكل سابق للقانون المطرقى - إلى ظهور اللالات الأوربية ذات ألواح المفاتيح.

وحتى مع بقاء أصداء الإسهامات الموسيقية الإسلامية في شتى أرجاء أوروبا فإنها سوف تظل تتطور في إسبانيا. وستأخذ أنشودة الحب والحضارات أشكالاً مختلفة، لكنها لن تمحى باستيلاء الكاثوليك على الأندلس وسقوط غرناطة. بالإضافة إلى ذلك سوف يتلاشى الكثير من المسلمين الإسبان وسط ظلال وطنهم الذي أصبح يعاديهم فجأة، فقد طرد بعضهم فأجبر بعضهم الآخر على التحول إلى المسيحية والبعض الآخر قد أعدموا، بالتالي سينضم البعض إلى العجر ممن يتمتعون بنطاق من الحرية للتجوال والاستقلالية. هؤلاء العجر الموريون هم من سيخرجون بالنمط الموسيقي الذي يطلق عليه الفلامينكو، والذي سيقول عنه الروائي الكوبي بالقرن العشرين جابريل كابريرا إنفاتي إنه مشتق من مصطلح عربي يعنى «متشردى القرية».

كما لن يقتصر النمط الموسيقي الإسلامي الغربي المصبوغ بأسلوب زرياب الذي توفي منذ زمن طويل على إسبانيا والبرتغال وأوروبا فسوف يرافق الفاتحين والمستعمرين الإسبان في اتجاههم نحو الغرب إلى الأمريكتين ليطور أنماطاً جديدة مثل السامبا في البرازيل والجراي في المكسيك ولا كويكا في شيلي والجاتو في الأرجنتين وأورجواي ولا جواجيرا في كوبا.

وسيزعم علماء الموسيقى وجود أصداء لأغاني الحب الإلهي الإسلامية في الأغاني الأمريكية الحزينة التي ألفها العبيد وخلفاؤهم ممن كان أسلافهم من مسلمي إفريقيا.

مدينة قونيا، الأناضول في عام 1228 - يولد شاعر صوفي فارسي متميز فيما يطلق عليها حالياً أفغانستان في عام 1207، والذي يسمع نوعاً مختلفاً من الموسيقى، هذا الشاعر هو جلال الدين الرومي. في طفولته تهرب أسرته إلى الغرب بعيداً عن التقدم المغولي للاستقرار في المملكة السلجوقية بالأناضول في مدينة قديمة تحتوى على القصور والمآذن يطلق عليها قونيا.

انغمس الرومي تماماً في مدرسة الشعر الصوفي وهو عبارة عن تقليد إسلامي فارسي عربي يشير إلى أن الصوت الشعري بإمكانه - عبر الاستخدام الرمزي وموسيقى أنغامه - سبر أغوار عالم أكثر رفعة وتحريراً للعقل والروح للوصول إلى معرفة إلهية أفضل.

باعتباره صوفياً سيلتف حول الرومى مناصرون ممن يعتقدون فى ذلك الوقت أنه ولى من الأولياء . هؤلاء المناصرون لن يكونوا من طائفته فقط ولكن سيكون منهم المسلمون والمسيحيون واليهود . فى حقيقة الأمر سيقدر الرومى فى كتاباته أن الأديان كافة واحدة مع اختلاف أسمائها وصفاتها:

فى رحاب هيبية وبركة الرجال الصالحين
تجدل خيوط ثناء ومديح الأنبياء داخل نسيج واحد
وتختلط داخل نهر موحد
فتنسكب كل الأوانى فى إبريق أوحد
لأن من يثنون عليه فى النهاية ما هو إلا الله الواحد
وفى هذا السياق فإن كل الأديان دين واحد
حيث يتجه كل الثناء والمديح نحو نور الله الأحد
تستمد كل الأشكال والصور شكلها منه ولا أحد

سيقوم الرومى بالتدريس فى مدرسة بقونيا ، التى ستصبح فيما بعد مكاناً للتبجيل والحج حيث سيتم الاحتفاظ بسمته المميز من الفلسفة الصوفية والتسامح العقائدى المتبادل . يوجد أعلى بوابة الدخول العبارات التالية:

هلم هلم أيما تكون
أيها الهائم التائه عابد الأوثان ومقدس النيران
تعالى يا من حنثت بعهودك آلاف المرات
هلم وهلم مرات ومرات
فقاقلتنا لا تعرف القنوط

من المتوقع من تابعى الرومى ألا يقوموا بالبحث الصوفى الإلهى فحسب ، وإنما بالعمل فى جرف مفيدة أيضاً مثل الأعمال الجلدية والنسيج والاشتراك فى المجتمع من خلال مساعدة الفقراء والعاجزين بالتبرع لهم بالغذاء والضروريات الأخرى .

سيتم الاحتفاظ بعادة الدوران حول أحد أعمدة بيته عندما تنتابه إحدى حالات النشوة الدينية والرومانسية ضمن مجموعة المولوية والمعروفة بـ «ال دراويش الدائرون»، والتي ظلت مدة 800 عام. فإنه يعتقد هو وتابعوه بأن في وتيرة الدوران المنتظمة يستطيع المرء فصل نفسه بيسر من التفكير الاستنباطي والميكانيكي للحياة اليومية، ومن ثم تحرير العقل والذات لمنهج مباشر إلى الله عز وجل. يتناول الرومي في وعظه موضوعاً غاية في الأهمية وهو أن أي شخص يستطيع أن تكون له علاقة مباشرة مع الله عز وجل ومن دون وسيط.

مثل الشاعر الفارسي الآخر عمر الخيام فإن عادة كتابة الرومي عن الله عز وجل بلغة رومانسية وحسية سوف يساء تفسيرها من قبل البعض على أنها شعر رومانسي حرفي. كما سيزيد الرومي من هذا الاعتقاد عندما يقيم علاقة صداقة وثيقة تقوم على فكرة الاستحواذ مع واعظ متجول اسمه شمس الدين التبريزي. وسوف يقيم هو وشمس عند الرومي فترات طويلة من الحوار محيرين البعض وصادمين للبعض الآخر. ثم سيختفي شمس فجأة، ومن المحتمل أن يكون قتلته مجموعة يقودها أحد أبناء الرومي بدافع الغيرة من سطوته على قائدهم، وسيحزن الرومي على فقدانه لسنوات ليصل في النهاية إلى إدراك أن شريكه الصوفي المحبوب شمس هو انعكاس حقيقي للرومي نفسه.

لِمَا أبحث فأنا منه وهو مني

وروحه تجرى في نفسي

إذن فأنا في النهاية لا أبحث سوى عن نفسي

تقول الأسطورة: إنه قبل وفاة شمس سوف يظهر في دمشق ويتقابل مع فرانسيس من أسيسي وهو أحد النبلاء الإيطاليين الشبان تم إرساله إلى الصليبيين. من خلال تلك الوساطة من الرومي سيبدأ فرانسيس في أخذ لمحة حول الحياة الصوفية والخيرية والمشاركة النبيلة مع العالم.

وبينما تعدت شهرة الرومي في وقته بيئته المحيطة، وكان لصوته الشعري أثر عميق على الأدب الفارسي والتركي التالي لذلك، إلا أن هذا الشاعر ذاعت شهرته من جديد بعد مرور 700 عام في العالم غير الإسلامي في كل من أوروبا والأمريكيتين. في منتصف القرن العشرين اكتشف الغربيون هذا الشاعر الصوفي الذي مضى منذ زمن، ويقال إنه في القرن الـ 21 بالولايات المتحدة أصبح الرومي أفضل الشعراء مبيعاً في مجتمع ليس دائماً ما يُكرم الشعراء.

تخور قوانا أمام لعبة الحب
فكيف ينبغي لنا أن نتصرف وكيف نعتدل
وكيف نقبع داخل منازلنا كالفنية الصغار المهذبة
وكيف نستمتع بالأغلال التي تحبس من فقد عقله
آه يا حبيبتى ستجديننا كل ليلة
داخل شارعك
تتسمر أعيننا على نافذتك
فى انتظار لمحة من وجهك المشع

يوجد أيضا المزيد من القصص البارزة التى تنتشر فى أنحاء العالم الإسلامى وما بعده أحيانا بشكل متوازٍ مع الأغاني وأحيانا أخرى بالامتزاج بها. هذه القصص مكتوبة شعرا ونثرا.

يضع العرب والفارسيون والهنود الشعر فى جوهر الكثير من المناقشات العامة، فالشعر فى ذلك الوقت سيقوم بالدور المستقبلى للصحافة والنقاش السياسى والاستمتاع. والجدير بالذكر أن الهند ستقيم مسابقات شعرية كبرى وتجمعات تضم آلاف الأشخاص سيمضون الأيام والليالى فى مسابقات شعرية عامة.

سيتفتح عن الشعر العربى المولود فى أحضان السهول الرملية بشبه الجزيرة العربية والمستخدم آنذاك كوسيلة من وسائل الاستمتاع فى المسابقات الشعرية المقامة بين القبائل ما يطلق عليه القصائد التى تُمدد بشكل مطول قيمة الحبيب أو أحد الانتصارات الصحراوية. وسيتم إحياء ذكرى التجمعات القبلية والسياسية الكبرى عبر قرص أعظم الشعراء للشعر، وكذا سيكون للشعر القدرة على ثراء الشاعر العربى أو هلاكه بالاعتماد على من يرعاه ومن يعاديه وعلى ما يكتب وإلى أى مدى تكون جودة ما يكتب.

لكن الشعر الكلاسيكى للعرب ستكون ترجمته غاية فى الصعوبة؛ وذلك لأسباب عديدة أولها انغماس اللغة العربية بشكل كبير فى الرمزية مع وجود كلمات وحروف وأصوات لها معنى حرفى وآخر خفى ومعانٍ غامضة ليس من الممكن وصفها بلغات أخرى دون حواشٍ وملحقات تفصيلية، من ثم هذا النوع من العوائق سيحول دون نقلها. أما العائق الثانى فهو التراكم المقفأ والسجعية الثابتة التى تأتى بمرادها فى لغة المصدر ولكن تبدو ملتوية وعرجاء فى اللغات الأخرى وكذا يقيد سجعها وقافيتها الصارمان من موسيقاها.

ولأن هذه القصص والأشعار تكتب للطبقة المتعلمة التابعة للخلافة، من ثم فلن تخترق بعمق الثقافة العامة، وذلك يرجع إلى صعوبة فهم الكثير من المسلمين للغة العربية الفصحى. في خط مواز ستظهر القصص الشعبية لإمتاع العامة وتعليمهم.

لكن يوجد أيضاً قصص للحياة الرفيعة والمتدنية من العرب ومن الشعوب الأخرى المنغمسة في الدين والحضارة. فيوجد أشعار وقصص للحب والرغبة والحرب والقصص الخرافية والتعليمية وأنماط الحياة العظيمة والصغيرة والإجلال الملكي والنقد السياسي اللاذع ودروس الحكمة والتاريخ والسفر. وستأتى هذه القصص من الهند وفارس وإفريقيا ومن آسيا الوسطى وأوروبا وبيزنطة.

توجد مجموعة من القصص الرائجة في العربية وعلى الرغم من احتقار البلاط لها أو تجاهلها بسبب مزجها بين اللغة الأدبية والعامية وموضوعاتها فإنها ستترك صدًى عميقاً لدى الناس. هذه القصص مستلهمة من مجموعة قصص ترجع إلى الأميرة الفارسية فيما قبل الإسلام أفسانا ابنة الشاه أتاكسيركسيس الثاني. واسم هذه المجموعة القصصية هو هازار أفسانا والمعروفة باسم الألف ليلة.

في القرن العاشر سيقوم كاتب من بغداد اسمه الجهشياري بجمع هذه القصص مع قصص من الروائيين المحليين. ثم ستبدأ هذه المجموعة القصصية في الانتشار في مصر وسوريا ويطلق عليها ألف ليلة وليلة.



في عام 1615 الشاه عباس الأول حاكم فارس، والذي استعاد السلطة للإمبراطورية الفارسية ليحكم منطقة تمتد من تيجريس إلى أنهار الهندوس.

الأمر الفريد في هذه القصص أنها تأتي ضمن إطار أكبر لقصة ما تدور حول ملك فارسي هندي اسمه شهریار وزوجته البائسة شهرزاد. القصة الإطار هي أنه إذا لم تستطع شهرزاد الحفاظ على استمتاع زوجها الملك برواية قصة جديدة له كل ليلة فسوف يقتلها، وبالتالي كي تبقى على قيد الحياة شغلته بنسج قصص حول علاء الدين وعلى بابا وبلاط هارون الرشيد والملاح السندباد.

وفي أثناء حملات المسيحيين الصليبيين لاستعادة الأرض المقدسة في القرنين الـ 11 و12 سوف يسمعون بعض هذه القصص. وعلى الرغم من النظم الجيد في الكتاب المقدس المسيحي وعن استماع البعض إلى الملاحم والبطولات الأوروبية مثل شانسون دي

رولاند أو الملك آرثر أو بيولف أو نيلونجينلايد أو إيدا، فإنه يوجد شيء ما خاص بتلك القصص العربية، والذي مس وتراً ما، ومن هنا سيذهب صداها إلى أوروبا عندما يعود المحاربون الباقون إلى ديارهم.

سوف يسمع الكاتب الإيطالي جيوفانى بوكاتشيو بهذه القصص ، والتي ستؤثر على عمله التالي وهو مجموعة قصصية تضم مائة قصة ممتعة اسمها ديكاميرون . كما سيقوم الكاتب الإنجليزي جيوفري تشوسر بعمل نسخته الخاصة تحت عنوان كانتيربرى تيلز .

الشاعر الإيطالي فى القرن الـ 13 دانتي أليجيري لن يحتاج أن يكون من الصليبيين كى يسمع بالقصص والأشعار والأغانى الإسلامية . فإنه سيقضى بعض الوقت فى صقلية بثقافتها الإسلامية المسيحية ولن يسمع القصص الشعبية فقط وإنما سيقراً القرآن الكريم والكتابات العلمية للمفكرين العظماء التابعين لبيت الحكمة ببغداد بالإضافة إلى مفكرين مسلمين آخرين .

أما بالنسبة للكاتب الإسباني فى القرن الـ 16 ميغيل دي ثرانتس فإنه لن يأتى فقط من أرض مضى على الفترة المورية التى كانت فيها مجرد عقود ، ولكنه سيقضى العديد من السنوات فى شمال إفريقيا ومن ثم سيفهم بشكل جيد اللغة العربية . بالتالى فإن عمله «دون كيشوت دي لا مانشا» بجوانبه الفروسية سيكون نتاجاً لتراثه الأندلسى .

علاوة على ذلك سيختار الكاتب الإنجليزي المسرحى كريستوفر مارلو اسم تيمور وهو أحد أعظم الفاتحين المسلمين بآسيا الوسطى كاسم بطل لمسرحيتين له اسمهما تيمور لنك .

كما سيختار كاتب الأعمال الكوميديّة والمأساوية فى القرن الـ 16 ويليام شكسبير ، فيما يبدو أكثر أبطاله إخضاعاً ، «عطيل المورى» الذى سيسقط بسبب الافتراءات الكاذبة لياجو .

أخيراً فى القرن الـ 18 سيقوم رجل فرنسى اسمه أنطوان جالاند بترجمة جزء كبير من ألف ليلة وليلة ، وذلك لأول مرة إلى اللغة الفرنسية أو أى لغة أوروبية أخرى . نشر هذه الترجمة سوف يلمس الولوج المفاجئ والدائم بالأمور الشرقية وهو الأمر الذى سينتج عنه أدب كل من جان أوجست ديمونيك أنجرس وأوجين ديلاكروا لتتلوها أعمال هنرى ماتيس وأوجست رينوار وتابعيهما ممن سافروا إلى الجزائر وفتنهم الأدب العربى والمرأة العربية . هذا الإعجاب بالشرق سوف يؤدى إلى بناء هياكل تشبه المساجد على أراضى دول عظيمة مثل ألمانيا وكذا ظهور اهتمام جديد بالثقافة الإسلامية من جانب كتاب مثل جوتيه ولورد بايرون وفولتير . كما سيدرج تشايكوفسكى الموسيقى والحركات الشرقية فى رقصات البالية الخاصة به كما ستلهم شهرزاد موسيقى ريمسكى كورسكوف فى القرن الـ 19 .

فى القرن الـ 21 سوف تستمر هذه القصص العامية ذات الطابع العربى والفارسى والهندي ، والتى تتناول الحب والرغبة والخيانة فى إلهام الكثير من الكتب والأفلام ؛

حتى أصبحت مادة خاماً للأعمال الأدبية والفنية، ولكن في نفس الوقت سوف تظل ألف ليلة وليلة تجذب الجماهير من شتى أرجاء العالم.

بالرغم من التهديد الدائم بالموت إلا أن راوية هذه القصص سوف تحظى بنهاية سعيدة حيث يختتم المؤلف المجهول للقصص في الليلة الأولى بعد الألف من رواية شهرزاد قائلاً:

وكانت شهرزاد في هذه المدة قد أنجبت من الملك ثلاثة ذكور فلما فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدي الملك وقالت له يا ملك الزمان وفريد العصر والأوان إنى أنا جاريتك ولى ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين فهل لى فى جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية؟ فقال لها الملك: تمنى يا شهرزاد. فصاحت على الدادات والطواشية وقالت هاتوا أولادى فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة ذكور واحد منهم يمشى وواحد يحبو وواحد يرضع، فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبلت الأرض وقالت: يا ملك الزمان هؤلاء أولادك وقد تمنيت عليك أن تعتقنى من القتل إكراماً لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصير هؤلاء الأطفال من غير أم ولا يجدون من يحسن تربيتهم من النساء فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال: يا شهرزاد والله إنى قد عفوت عنك من قبل مجيء هؤلاء الأولاد لكونى رأيتك عفيفة نقية حرة تقية بارك الله فيك وفى أبيك وأمك وأصلك وفرعك وأشهد الله على أنى قد عفوت عنك من كل شىء يضرك. فقبلت يديه وقدميه وفرحت فرحاً زائداً وقالت له أطال الله عمرك وزادك هنية ووقارا (36).



القيادة المستنيرة

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

[سورة ص: آية 26]

ولاية واشنطن العاصمة في عام 2007 - يفرُّك عضو الكونجرس الأمريكي عينيه وينظر من نافذة مكتبه الواقع بمبنى لونغورث هاوس أوفيس وهو يشعر بالإرهاق والارتباك. فقط منذ بضعة أشهر مضت بالكاد حصل على الفوز بعدد 611 صوتاً من أصل عملية اقتراع تضم 230,000 صوت؛ فقد كان أقصى سباق سياسي مر به في حياته. يقف الآن متأملاً ما إذا كان من الأفضل له الهزيمة؛ وذلك لأن القضايا التي يواجهها والاختيارات التي يقوم بها لا تريحه بالمرّة.

تستقطب الدولة ومنطقتها بشكل مريع أشياء كثيرة، ألا وهي الحرب والسلام والاقتصاد والرعاية الصحية والهجرة والإرهاب. ولكل جدال جيد من ناحية ما يوجد آخر متساوٍ معه في الإقناع من الجانب الآخر. كان وشيكاً أن يقضى عليه منافسه بهجومه عليه بسبب عدم حسمه للأمر، وفي حقيقة الأمر كان لهذا المنافس منطقه في ذلك.

بالنظر إلى زائري عضو الكونجرس هذا الصباح سيتضح ما يلي: أول زيارة كانت لوفد معنّى بأمن الموانئ حيث طلبت هذه المجموعة الكبرى وثيقة الاتصالات عقد جلسة استماع شخصية ولم يكن أمامه سوى القبول بها حيث إنهم يمثلون أكبر قطاع للأعمال في منطقتهم.

فقد زعموا أن ما يتم غير كاف وأن الدولة تمر بحرب حالية بجانب أن العدو على الرغم من كونه مشتتاً فإنه خطير ومميت ويجب مواجهته. علاوة على ذلك فما زالت الدولة عرضة للأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية التي تأتي في حاويات غير معلومة، فماذا يحدث حقاً؟

أوما برأسه وقال فى نهاية الاجتماع أنه سيولى اهتماماً خاصاً لمصادر القلق التى تنتابهم وأفكارهم كما سيطلب من وزارة الأمن القومى تقديم تقرير بالوضع الكلى . جاءت استجابتهم على ما قال بأنه إذا لم يرجع إليهم بحلول سريعة فسوف يحملونه شخصياً المسئولية فى انتخابات عام 2008 .

لم يكن هذا الاجتماع كافياً فقد لحقتهم مجموعة من الناخبين المسلمين وقد رمقت كلتا المجموعتين بعضهما البعض بالنظرات فى أثناء انتظارهم فى غرفة الانتظار الواقعة خارج المكتب . وبمجرد دخولهم اتضحت الشكاوى الخاصة بهؤلاء المسلمين فقد كانوا مهتمين للغاية بالقرارات الكونجرسية والتنفيذية المتعلقة بالتعامل مع المحجوزين على ذمة الحرب ضد الإرهاب؛ حيث زعموا أن الرئيس والكونجرس ينتهكون الدستور والقوانين والعدالة الأمريكية . وأشاروا إلى القبض على بعض الأقارب والأصدقاء عن طريق الخطأ، والمعلومات المتوافرة عن هؤلاء الأشخاص تتفاوت بين إطلاق سراحهم بعد التعرض للتعذيب وسوء المعاملة أو عدم معرفة أى معلومات عنهم . من ثم قامت تلك المجموعة بتقديم خطابات وعرائض فى هذا الخصوص .

وطلبوا أيضاً من عضو الكونجرس استخدام سلطته للتقدم بتشريع حتى يتم إزالة تمثال للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من الفريز بالمحكمة العليا للولايات المتحدة معللين أن هذا التمثال إنما ينتهك أحد التقاليد الإسلامية بالألا يصور النبي، صلى الله عليه وسلم، فى شكل فنى .

أربك هذا الموضوع عضو الكونجرس حيث إنه بدا له كنوع من التشريف وضع نبي الإسلام فى المحكمة العليا للولايات المتحدة ما بين 17 آخرين من عظماء التاريخ منهم موسى وحامورابى . لكنه قال إنه سيفكر فى الأمر ويجمع آراء أخرى ويحاول الوصول إلى القرار الصائب الذى يمثل حقوق الجميع .

خارج باب مكتبه يوجد تلال من خطابات البريد اليومية وصندوق البريد الإلكتروني الذى يقوم فريق العمل التابع له بفرزه بحثاً عن أنماط الآراء المتعلقة بالأمر المتنوعة الملحة . على سبيل المثال الإصلاحات الخاصة بالهجرة وواردات الأدوية وزواج الشواذ جنسياً وبحوث الخلايا الجذعية والحرب ضد العراق وعجز الميزانية والمراقبة الداخلية واستراق الأسلاك وخفض الضرائب وسياسة التعليم والحد الأدنى من الأجور والسياسة الأجنبية وإساءة استخدام الأدوية والإصلاحات المرتبطة برفاهة المجتمع وخلق فرص عمل وكذا مبيعات التبغ للقصر وما إلى ذلك . يستطيع بسهولة أن يمضى يوماً كاملاً فى محاولة الخروج بسياسات تتعلق بواحدة أو اثنتين من تلك القضايا ولكن من المطلوب منه أن يعمل على حل كل هذه القضايا مجتمعة .

بالإضافة إلى ما هو مشار إليه أعلاه يوجد أيضاً تلال أخرى من الطلبات من أطراف خاصة وجماعات الضغط ونقابات التجارة والشركات ومجموعات المواطنين

من اليمين واليسار، علاوة على الشكاوى والخدمات وشيكات التأمين الاجتماعي الضائعة والمواعيد مع ويست بوينت ودعوات العشاء والعروض وأندية الروتاري. يُطلق العنان لتفكيره فيرى أنه ربما حان الوقت للراحة وربما كان خصمه على حق وربما الهزيمة في الانتخابات السابقة كانت أفضل له. مضى على بقائه في الكونجرس مدة عشر سنوات وقد تبخر حلمه في أن يصبح سيناتور أو أكبر من ذلك منذ زمن بعيد فعليه جمع الكثير من المال كل عامين للفوز في إعادة الانتخابات. هذه الحياة أخذت قسطاً شخصياً منه فهو مُطلَق ولديه ولد يعاني إدمان الكحول، كما جاءت هذه الحياة أيضاً على صحته فأصابه مرض السكر فجأة وها هو يلهث على جهاز الجري في صالة الرياضة بالمجلس في محاولات لإنقاص وزنه.

حتى يصفى ذهنه قرر أن يخرج للمشى في وقت الغداء. من الصعب وصف مظهره بشكل كاف، وهو الأمر الذي يجعل قلة من الناس قادرين على معرفته. فلا يوجد معجبون به خارج مكتبه إنما بعض ممثلي جماعات الضغط وتابعيه ممن يريدون دقيقة من وقته كما قد يوجد بعض الناخبين من مسقط رأسه. بين كل ذلك يتسلل من باب جانبي.

كيف لك أن تكون قائداً جيداً في هذا العالم وفي هذا النظام؟ هل هذا ممكن؟ أم أن الهدف الواقعي الوحيد للقائد هو تجنب الأخطاء الفادحة والحفاظ على الأمور في نصابها الصحيح؟

إنه فصل الصيف والهواء ثقيل ينذر بانهمار المطر في عصر هذا اليوم. يمر بجانب المبنى الخاص بمركز الزائرين الجديد عند الكابيتول على جانبي المحكمة العليا. وبالنظر إلى الرخام والمرمر المحيط به يبدو المشهد أشبه باليونان وروما القديمة، أليس ذلك ما شكّل الرؤية الأمريكية للحكومة والقيادة أكثر من أي شيء آخر؟ وأليس بيريكليس وأفلاطون وسقراط وقيصر وماركوس أوريليوس هم أسلاف الديمقراطية الأمريكية التي تحولت فيما بعد من خلال عصر النهضة والاستنارة للمثل العليا لكل من واشنطن وجيفرسون ولينكولن؟ أليس ذلك هو السرد التاريخي والتقليد السياسي؟ ماذا كانوا يفعلون عند مواجهة هذه القضايا والاهتمامات الخاصة؟ ماذا كانوا يفعلون؟ يغلبه الفضول وهو يعبر الشارع نحو المحكمة العليا ليفحص هذا الفريز؛ لم يعلم أن نبي الإسلام، صلى الله عليه وسلم، ممثلاً في الكابيتول.

تسمح له بطاقة الكونجرس الخاصة به بالمرور من الباب الأمامي ويستطيع الدخول إلى قاعة المحكمة الهادئة الآن فيما عدا وجود مجموعة صغيرة من الزائرين وفريق النظافة. يقع الفريز هناك وبعد برهة من الحيرة يجد عضو الكونجرس النبي، صلى الله عليه وسلم، حاملاً للقرآن الكريم ولسيف محمداً في الغرفة التي تتجسد فيها أهم القوانين في أمريكا.

ولثوان يتساءل عضو الكونجرس هل يوجد أى شىء فى الحكومة والسياسة والقيادة الإسلامية فى هذه الدولة ذات صبغة أوربية مستنيرة؟ أم أنها جميعاً صارت تاريخاً ضائعاً؟

تكمن الإجابة على هذه الأسئلة فى قصة قديمة وأغنية عن مثل أعلى غير منسوب لأحد وعن أناس تقريباً صاروا أسطورة.

كانت القيادة الإسلامية المستنيرة للإمبراطورية الأولى سبباً فى ظهور العصور الذهبية العديدة. هذه الرؤية للقيادة بالرغم من تأثرها بالآنا البشرية الحتمية والانتكاسات المؤسسية وسوء الحظ والفساد استطاعت لمدة ثمانية قرون إلهام مناخ من الاختراع المتميز والثورة الفكرية الفريدة، وهى الأمور التى ستساعد فى تشكيل رؤية مستقبلية للقيادة الحديثة فى أوربا وغيرها من الدول غير الإسلامية.

إحدى النتائج هى الإنجازات الفكرية الموصوفة فى هذا الكتاب فى مجالات الرياضيات والعلوم والطب والفن، كما ستتضمن النتائج الأخرى لهذه القيادة المثالية الابتكارات العديدة مثل المكتبات والجامعات النموذجية الحديثة وروح العدالة والمساواة الاجتماعية ووسائل الصحة العامة المتقدمة وتقبل مذاهب الإيمان والجنسيات والعناصر المتنوعة.

هذا السلوك المستنير سيتجسد أيضاً فى أنماط من السلوك الديمقراطى والتوصل إلى إجماع الرأى وفض المنازعات والاستجابة مع آراء العامة.

على الرغم من ذلك كما هو الحال فى كافة الأنظمة والمساعى البشرية توجد أيضاً قوات مضادة فعالة، ألا وهى قوات الذات والطموح وضيق الأفق والجهل والتحامل وسوء الفهم، وأحياناً يكون لهذه القوات المضادة الغلبة. لكن المثل الأعلى المستنير القوى وأحياناً المسيطر فى الفترة من القرن الـ 7 إلى القرن الـ 15 سيكون دائماً موجوداً، حتى وإن ضاع فى التاريخ أو فى غيابات الزمان.

ورغم تجسيد هذه الأمور فى القرآن الكريم وفى أفعال النبى، صلى الله عليه وسلم، فإن البحث فى الوثائق القديمة يشير إلى أن أول القادة المسلمين ممن حاولوا تطبيق رؤية القيادة بشكل عملى هم الخلفاء الراشدون، وعلى وجه الخصوص، أبو بكر الصديق وهو أول خليفة بعد النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، وكذا على، وهو ابن عم النبى، صلى الله عليه وسلم، وصهره.

إن مثال قيادة أبى بكر الصديق مُحْتَفَظ به فى تصريحات غاية فى البلاغة، كما أن خطبته الأولى عند اختياره خليفة هى واضحة البساطة (انظر الفصل الأول

الصفحات 12-13). إن رؤيته تتجسد بشكل أفضل في أفعاله ومشار إليها في مصادر عديدة سواء إسلامية أو غير إسلامية. توضح هذه المصادر أن أبا بكر الصديق لم يسع للخلافة، بل قاومها حتى بدا أنه المرشح المناسب الذي يستطيع رأب صدع الثورات القبلية والشخصية التي بدأت في الظهور في المجتمع الإسلامي الصغير.

فضلاً عن ذلك هو رجل تتمتع شخصيته بتواضع وبساطة ملحوظين. كما أن الأسلوب الذي اتبعه بمجرد توليه الخلافة هو محاولة غرس بذور ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يفعله وليس وضع أى خطط أو استراتيجيات خاصة به. ومع استمرار نمو الإمبراطورية العربية في الثروة والسلطة منذ توليه دور الخليفة وهو يحيا في نفس مسكنه المتواضع ولديه عبد واحد يخدمه.

أبو بكر هو أول رجل في الإسلام يحرر عبده وفقاً لاعتقاداته الدينية وهو أول مسلم يبنى مسجداً بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، ويقال إنه أنفق جميع مدخراته 40,000 درهم حتى يدعم إعلاء راية الإسلام. علاوة على ذلك فهو يكره تحويل أو أخذ أجزاء من الثروة التي يستطيع أن يجنيها من أموال الجزية والغنائم التي تتدفق إلى الخزانة.

يكتب المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون في تاريخ المسلمين:

عندما تولى أبو بكر الصديق الخلافة فرض على ابنته عائشة أن تأخذ قسماً محدداً من الإرث، والذي يثبت ما إذا كان ثرياً أم فقيراً ألا وهو ثلاث قطع ذهب فقط ولكن في كل يوم جمعة كان يوزع ما يتبقى منه ومن المال العام أولاً إلى من يستحق بالفعل ثم للفقراء من المسلمين. أما بالنسبة لما تبقى من ثروته وهو ثوب خشن وخمس قطع من الذهب فقد تسلمهم من خلفه، والذي شعر بعدم مقدرته على مضاهاة هذا النموذج المثير للإعجاب.

ببساطة إرث القيادة الذي خلفه أبو بكر الصديق يبدو في خلق نموذج من التواضع والتسوية والأمانة والاهتمام بعمل الخير ورفاهة العامة. سوف توفر هذه القيم نموذجاً صامداً للقيادة في العالم الإسلامي وما وراءه، وهو نموذج يرقى بالغرائز الأساسية للإنسان ولكنه سيستمر في جذب المناصرين للإسلام السياسي في القرن الـ 21. رابع خليفة وهو علي بن أبي طالب، والذي سيجسد أفكاره الخاصة بالقيادة بشكل رائع وستحيا الكثير من تصريحاته.

علي هو أحد القادة المسلمين الأوائل ممن وضعوا في نص مكتوب شكلاً تفصيلياً للقيادة المستنيرة، والتي ستظهر عناصرها فيما بعد في الخلافة الأموية والعباسية

والفاطمية والسنية في مصر ولدى سلاجقة فارس والأناضول وكذا سلطنة دلهي
وهند المغول الكبار فضلاً عن الإمبراطورية العثمانية.

يتجلى الدليل على ذلك في خطاب مطول حول القيادة، والذي أرسله الخليفة
علي بن أبي طالب إلى تابعه الأمين مالك الأشتر عند تعيينه الحاكم المسلم الجديد
على مصر:

ثم اعلم يا مالك! أنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من
عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من
أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم... وأشعر قلبك الرحمة
للرعية، والمحبة لهم، واللفظ بهم...

فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق.. فأعطيهم
من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه
وصفحه...

ولا تقولن: إنى مؤمر أمر فأطاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة
للدين، وتقرب من الغير، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة
أو مخيلة، فانظر إلى عظم مالك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه
من نفسك...

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها
لرضى الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط
الخاصة يغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى
مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل
بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً
عند ملومات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين،
والعدة للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم...

واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها
عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة
العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من
أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة
السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة، وكل قد سمي الله له سهمه، ووضع على
حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه (صلى الله عليه وآله)، عهداً منه عندنا
محفوظاً. فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاية، وعز الدين،

وسبل الأمن، وليس تقوم الرعاية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم.

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب، لما يحكمون من المعاهد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم⁽³⁷⁾.

الصراعات المتعاقبة فى الخلافة الأولى سوف تؤدى إلى ما هو أكثر من الانقسام البين فى الإسلام بين السنة والشيعية. سوف يغلق هذا الارتياب بشكل مؤقت النماذج المتقدمة للقيادة والتجارب القائمة على الإجماع فى اختيار الخليفة.

تم اختيار الخلفاء الأربعة الأوائل عن طريق عملية أشبه بالتصويت التهليلي والانتخاب على الرغم من أن تابعى علي كانوا أكثر ولاء لنموذج الوراثة فى القيادة، ومن هنا جاء سبب الانقسام إلى هذا الحزب. هذا الترتيب الأولى القائم بشكل جزئى على التعاليم والأمثلة التى وضعها النبى، صلى الله عليه وسلم، مقترنة بالارتجال السياسى بعد وفاته عليه أفضل الصلاة والسلام، سوف تدوم فقط لمدة 29 عاماً. ستدوم ذكرى هذا المذاق الموجز للمشورة والإجماع الإسلامى لمدة 1400 عام بشكل يؤثر فى التطور الحتمى لشكل الديمقراطية الإسلامىة فى القرن العشرين.

لكن كما هو الحال فى الكثير من أنحاء العالم حتى تقريباً القرن الـ 18 فى أوربا وبيزنطة والصين ودول المغول والأمريكيتين سيكون النموذج الإسلامى الخارجى أشبه بحكم عسكري دينى ممزوجاً بالولاية الحاكمة. حتى ذلك سيلوث عندما تحكم القوات العسكرية المهيمنة مثل السلاجقة قبضتها تحت القيادة الاسمية للعباسيين.

أول خليفة يأخذ السلطة بالقوة هو الأموى معاوية فى عام 661 وسيحكم خلفاؤه حتى يطيح العباسيون بهم فى عام 750 ثم سيهلك العباسيون على يد المغول فى عام 1258. عندها سوف يقوم الأمويون فى إسبانيا بمحاكاة نموذج الولاية الحاكمة كما هو حال الفاطميين والمماليك فى مصر والسلاجقة فى فارس والشرق الأوسط والمغول الكبار فى الهند. آخر حكام مسلمين يحصلون على لقب خلفاء الإسلام هم الأتراك العثمانيون فى إسطنبول.

سوف تتشابه القيادة السياسية مع الحكم التقليدي للسلالة الحاكمة، وكما هو الحال في أماكن أخرى من العالم لن يكون هناك قادة ممن لا يستغلون السلطة المطلقة المتوافرة لديهم. لكن كنوع من الطباق سوف تظهر من وقت إلى آخر السياسات والمناهج المتقدمة.

سيكون محط الاهتمام الرئيسي للأمويين في دمشق هو تشييد البنية التحتية العامة وتحقيق الرخاء الاقتصادي والوصول إلى دولة موحدة. أما بالنسبة للعباسيين في بغداد فسوف لا يألون جهداً لإقامة مركز سياسي وفني ومالي وفكري للعالم. وعلى الرغم من حكمهم بالقوة وتوارث الحكم فإنهم لن يغضوا الطرف عن مناهج الحكم المعتدل والمستنير. في إسبانيا بالنظر إلى الإنجازات المنيرة للعباسيين سوف يحاول الأمويون الأندلسيون المنافسة تقريباً في كل مستوى من مستويات بغداد المختلفة.

في وقت متأخر من إحدى ليالي بغداد في عام 801 يمشى في الشارع رجلان يرتديان زي تجار بقوافل صحراوية. ينير القمر المدينة وتفوح رائحة الأنهار في الجو يحملها نسيم ليالي الصيف الساخنة. في أثناء مرور الرجلين تتجلى أمامهما حفلات عشاء الأثرياء في أبهى أشكالها مع وقوف الحراس والفرسان أمام البوابات المغلقة. تكتظ منازل هذه القصة بالجماهير من مختلف الطبقات العليا والدنيا وتنتشر الصيحات بالقصص الفاسقة وتنهمر الدموع الهادئة عند سماع قصة مقدسة. تمتلئ الحانات بالناس وتخرج منها الضحكات والصراخ ويمشى أحد السكارى باضطراب في الشارع.

يجذب أحد الرجلين نقاش سياسي مرتفع الصوت وبسماعه لاسمه بين كلمات الحوار وقف أمام الباب المضاء كي يكون على مرمى السمع.

«كما قلت لك لقد خضعنا للفرس» يقول أحد السكارى بصوت مرتفع: «هم من يديرون البلاط بل والدولة بأسرها».

«الفرس أناس أذكىء» يقول الطرف الآخر في النقاش: «نحن بحاجة إليهم».

«إنهم بحاجة إلينا أكثر». يرد الأول: «استطاعت الجيوش العربية العظيمة قهرهم ويجب علينا أن نذكرهم بذلك».

في الخارج وفي هذا الظلام ينظر المستمع الأول للثاني ويغمز له، ثم يتجه الاثنان إلى ضفاف النهر والسوق المركزي. الرجل الأول في زي أحد أفراد العامة شبه ملثم هو الخليفة هارون الرشيد نفسه والشخص المتكرر الثاني هو صديق طفولته جعفر ابن الوزير الأعظم من العائلة البرمكية.

ما زال في السوق الكثير من أصحاب المحال في محالهم المضاء بالشموع أو قناديل الزيت يبيعون البخور والروائح والأقمشة والتوابل والمجوهرات ومجلات

صغيرة من الشعر والقصص الخرافية. يقف الخليفة المتنكر عند أحد المحال؛ حيث يجلس بائع عربى له نظرات عميقة وثاقبة بين مجموعة من الخناجر السورية المصقولة. «كم يبلغ سعر هذا الخنجر؟» يسأل هارون الرشيد المتنكر مشيراً إلى خنجر فى غمد من الجلد الأسود.

يرد البائع: «ثمنه درهم».

يقول الخليفة: «يا إلهى! ما هذا يا رجل، هذا كثير!».

«هل أنت من هنا؟».

«نحن من . . . المدينة».

يومئ الرجل برأسه ببطء غير مقتنع تماماً.

يقول الرجل: «فأنت إذن لا تعلم، يجب أن أدفع ضرائبى التى دائماً ما ترتفع كما يجب أن أدفع ثمن الحماية للشرطة وأدفع الإيجار لمالك المحل الذى يرفع ثمن الإيجار باستمرار. بالتالى فإن درهماً سعر مناسب».

«هل الضرائب المفروضة عليك عالية؟».

يقول البائع باختناق وهو يهز رأسه: «ماذا؟ هل ترى هذه الجسور والجدران والقصور الفاخرة؟ ويقوم الخليفة ببناء قصر آخر ملىء بالذهب والفضة! ما عيب قصر جده المنصور؟ أليس جيداً بالشكل الكافى؟ ومن يدفع الضرائب؟».

يستمتع الخليفة هو وصديقه.

ثم يسأله الخليفة: «كما عليك أيضاً دفع الحماية للشرطة».

«ليست الشرطة فحسب بل ابتداءً من قاضى القضاة «أسد» وما يليه من وزراء وتابعين حتى الأقل شأنًا فى الحكومة طالما أحتاج إليه، فجميعهم يستنزفوننى حقاً يستنزفوننى».

يسأله هارون الرشيد: «فى رأيك ماذا يجب القيام به؟».

«أعتقد أن جلالته يجب أن يخرج من صومعته ويأتى هنا بيننا نحن العامة ويرى ما يتم باسمه ويستمع إلى الناس، على الأقل يرينا وجهه. كل ما نعلمه هو أن الدولة يحكمها التابعون».

يسأله هارون الرشيد: «ما رأيك فى الخليفة؟».

«كيف لى أن أعرف؟ إننى لم أره قط ولكننى أسمع أنه مغرم بالنساء والخمر. أتعرف . . . الكثير من شرب الخمر» ويقلد الرجل السكارى فيلتف بعينيه ويفتح فمه ويترنح فيضحك ثلاثتهم.

يُخرج الخليفة درهماً ذهبياً مصكوكاً حديثاً منذ أيام قليلة ويعطيه للرجل. يثير لمعان الدرهم دهشة الرجل فيعض عليه بأسنانه ويمسكه ناحية الضوء ليتأكد من أنه سليم.

ثم يقول الرجل: «إنه درهم جيد». وينطلق الرجلان مرة أخرى في ظلام الليل.
في صباح اليوم التالي في القصر يدور حديث بين الخليفة وجعفر.
«من هو مسئول الشرطة في السوق؟»
«سأبين من هو يا خليفة».

«ثم أنت لى باسم كل مسئول في هذه المنطقة من أسد إلى من يليه من أشخاص حتى أقل منصب؛ فإننى أسمع أنهم جميعاً يتلقون الرشوة».
«لك الأمر».

«والهيكل الضريبي متى كانت آخر مرة تمت مراجعته فيها؟»
«العام الماضى يا خليفة لتغطية النفقات الزائدة والقصر الجديد والمستشفى».
«أريد أن ألقى نظرة أخرى عليه».

بعد ذلك فى ضوء الظهر البراق مرتدياً زيه الخلافي وواضعاً سيفه الملكى فى حزامه يذهب هارون الرشيد مع جعفر فى ساحة البلاط حيث نادى كلاهما لإعداد الأحصنة والحراس. ممتطياً فرسته العربية يقود الخليفة موكبه إلى السوق فى وضوح النهار فى شوارع بغداد العامة لأول مرة منذ عام. تتراجع حشود الناس الموجودة فى الشارع ويصبح بعض المواطنين من نوافذ عليا ويلوح الخليفة لهم بيديه.

يقف الخليفة أمام محل الخناجر ويصاب البائع ذو العينين الداكنتين بالدهشة إلى الحد الذى يجعله غير قادر على الوقوف فيظل جالساً وفى يده فنجان من الشاي، وهو معلق فى الهواء فى طريقه إلى فمه.

يقول هارون الرشيد: «هل مازال صحيحاً أن الخليفة لا يُظهر وجهه وأنت لم تضع عينيك عليه أبداً؟». عندها يلقي الرجل بالفنجان ساجداً أمامه معتقداً أنه على وشك الإطاحة برأسه بسبب وقاحته. لكن بدلاً من ذلك يجذب الخليفة من عدل الخرج كيساً مليئاً بالدرهم الذهبية أكثر مائة مرة مما أعطاه للرجل من قبل وألقاه له وبالكاد استطاع الرجل النظر إليه.

قال هارون الرشيد ضاحكاً: «لا تخف أبداً من قولك الحقيقة للخليفة». ثم انطلق هو وموكبه نحو ضفاف النهر ليرى كيف تسير الأمور فى مشروع الجسر الحديث.

أخذ بائع الخناجر مدة عشر دقائق تقريباً حتى يستطيع التقاط أنفاسه ومدة أقل من ذلك كى يقف على قدميه ويفكر فى الثروة الجديدة التى هبطت عليه فى الوقت الذى جاء فيه جيرانه واحتشدوا حوله.

تم تصوير شخصية هارون الرشيد بطريقة رومانسية أسطورية، كما أنه شخصية محورية في الكثير من النسخ التالية من قصص ألف ليلة وليلة. لكن بغض النظر عن ذلك يوضح التاريخ أن أفضل ما يذكر به هارون الرشيد هو كونه نموذجاً لدور الحاكم المسلم المتقدم. إنه ليس فقط قوياً عسكرياً وله حضور طاغٍ ولامع الذكاء بل هو أيضاً حكيم وشغوف بالأمور الفكرية. علاوة على ذلك فهو من رعاة الفنون والبحوث العلمية والرياضية وداعم للكثير من مشاريع الترجمة، والتي ستأخذ صبغة رسمية فيما بعد على يد ابنه المأمون في بيت الحكمة. وكذا قام هارون الرشيد بتشجيع أول مستشفى في بغداد كما ساعد الكيميائي جابر بن حيان في بحوثه ودعم أول عملية ترجمة كبرى للنصوص الفلسفية والعلمية الهندية والإغريقية، أضف إلى ذلك جمع النصوص الأصلية الأجنبية، ومنها الدراسات الرياضية الهندية التي ستكون مصدراً لإلهام الخوارزمي في أحد الأيام.

أما بالنسبة لاهتمامات هارون الرشيد الشخصية فهي الموسيقى والشعر والفنون. وبحصوله على الكميات الكبيرة من أموال الجزية التي يتلقاها من تابعيه ومعاديه، ومنهم البيزنطيون، استطاع أن يضع حجر الأساس لعصر بغداد الذهبي.

وتروى كتب التاريخ النوادر التالية حول هارون الرشيد:

استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منزله وأكثر الطعام والشراب
واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش
والنعيم، فقال:

عش ما بدا لك سالماً	في ظل شاهقة القصور
تسعى إليك بما اشتهيت	لدى الرواح إلى البكور
فاذا النفوس تقعقت	عن ضيق حشجة الصدور
فهناك تعلم موقناً	ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير
المؤمنين تسره فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى.

وقد كان رحمه الله جم التواضع للعلماء، كثير الحب لهم، استدعى إليه
أبا معاوية الضريير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، قال معاوية، ما
ذكرت عنده حديثاً إلا قال: صلى الله على سيدي، وإذا سمع موعظة بكى

حتى بيل الثرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي ، فصب الماء عليّ وأنا لا أراه ، ثم قال: يا أبا معاوية ، أتدرى من يصب عليك الماء؟ قلت: لا . قال: يصب عليك أمير المؤمنين!! قال معاوية: فدعوت له ، فقال: إنما أردت تعظيم العلم (38).

انتشرت القصص حول مدى عظمة بلاط هارون الرشيد وثقافته بشكل كبير في أثناء عصره . فلم يقم علاقات دبلوماسية مع أماكن بعيدة مثل الصين وبلاط شارلمان فحسب ، وإنما بدأ أيضاً في حوارات مطولة بعيدة المسافات مع شارلمان ، والتي كان لها عظيم الأثر على الفرنجة عن العرب .

في أثناء صياغة الرسائل الأخيرة من الخليفة إلى الإمبراطور الفرنجي يتساءل دبلوماسيو بغداد أنه بينما قائدهم القوى هو رجل علم وشاعر ، فهل يستطيع شارلمان القراءة والكتابة . إن الحقيقة ليست قاطعة تماماً ، فبالرغم من أن شارلمان في حقيقة الأمر لا يستطيع القراءة والكتابة فإنه يدعم العلماء ويعين المعلمين .

قام البلاطان بالتخطيط لعقد اجتماع قمة في بداية القرن التاسع ولكن لم يحدث ذلك . الأمر الآخر الجيد هو تبادل الهدايا في عام 801 عندما أرسل هارون الرشيد إلى شارلمان هدايا لم تر أوريا مثيلاً لها . أهدها هارون الرشيد فيلاً اسمه أبو العباس ، وسار هذا الحيوان الضخم في شوارع عاصمة شارلمان إيكس لا شابيل محدثاً فوضى بين الناس . فإن الأفيال لم تطأ أرض أوريا منذ عبور هانيبال جبال الألب منذ ألف سنة مضت .

كما أرسل هارون الرشيد إلى شارلمان قرناً عاجياً منقوشاً وصينية وإبريقاً من الذهب الخالص وطقم شطرنج وخيمة ملكية وزوج شمعدان من النحاس وساعة مياه غاية في الدقة . وقد سلبت هذه الساعة لب كل من رآها كما تولد عن هذه الأعجوبة التقنية مناقشات بين المفكرين الأوربيين في ذلك الوقت؛ حيث تحتوي الساعة على 12 كرة نحاسية تشير إلى الساعة بسقوطها في صنج و12 فارساً منحوتاً يخرجون من نوافذ صغيرة .

يوجد القليل من الشك في أن تعامل شارلمان مع هذا الحاكم القوى والمستنير أظهر له نموذجاً مثالياً للقيادة لا يوجد في أي مكان بأوروبا فيما عدا الأزمنة التاريخية باليونان وروما . حتى في وقت صراع شارلمان لدفع المسلمين إلى أعماق إسبانيا بقوة الجيوش كان مبهوراً بتقدمهم التكنولوجي والاجتماعي .

في نفس الآونة سيظهر بشكل مواز نموذج للحكم الإسلامي التحرري في الأندلس . فسوف يمتد مثل التسامح الديني الأندلسي والاعتدال الشعبي الاستبدادي

للأموي المؤسس عبدالرحمن الأول . لكن هذه الشائعات سوف تصير أكثر وضوحاً في عام 796 عندما يطلب الأمير الأموي هشام المتقدم في العمر من مسئوليه أن يقسموا بالولاء إلى ابنه وخليفته الحكم وسوف ينصح ابنه بأن يقيم العدل بين الغني والفقير على حد سواء، وأن يكرم رعيته التي أوكلته رعايتها؛ إذ إنهم جميعاً من خلق العلي العظيم، وعليه أن يعهد بولاية مختلف المدن والأمصار إلى من يثق بهم من ذوى الحنكة والخبرة، وليضرب بيد من حديد ولا تأخذه رحمة بأى منهم سبيله القمع أو القهر، وراح ينصحه بالاعتدال في قيادة الجند مع توخي الحزم، وأن يتذكر أن الجيش إنما هو للدفاع عن البلاد وليس لنهب خيراتها وثرواتها، وعليه أن يعمل على انتظام رواتبهم وألا يمنيهم بالوعود والعهود، وأن يجاهد حتى تحبه رعيته، ففي محبتهم له أمن البلاد وخوفهم منه خطر عليه وكرههم له المهلاك والدمار. وأن يولي رعاية خاصة للزراع والخبازين، وأن يضمن حفظ مواردهم وسلامتها من الأذى. وأن يتوج الاحترام والوقار أفعاله حتى تبارك له رعيته وتسعد تحت ظل حكمه، فليس للملوك والأمراء سبيل آخر لكسب السمعة الطيبة والسيرة الحسنة.

لسوء الحظ بمجرد تولى الحكم السلطة لن يضيع وقته وسوف يتجه مباشرة إلى الحریم والخمر ضارباً عرض الحائط بكل تعاليم والده. وسوف يحيا حياة قصيرة ومتدهورة ثم سيأتي النمط الأكثر مسئولية وتقدماً الذي اتبعه والده مع حكام أندلسيين آخرين.

لكن النموذج الاستبدادي والافتقار إلى مراقبة السلطة الملكية واقترانها بالثروة الضخمة للخلفاء وطبقات الحكم الإسلامي سوف تغوى الحكام الضعفاء والمستبدين. فسيرجع الأمر إلى الحكام المستنيرين والأمناء لمراقبة أنفسهم بدلاً من القوانين والهيئات الخارجية. أحياناً سيفلح هذا الأمر وأحياناً أخرى لا، ولكن سيوجد على الدوام نموذج القيادة العادلة والرحيمة حتى يتبعه القادة الصالحون.

لن يكون الأمويون والعباسيون الوحيدين الذين يناصرون نموذجاً للحكومة الصالحة حيث إن السلاجقة ممن وصلوا للسلطة السياسية تحت العباسيين الضعفاء في القرن العاشر سوف يستمرون في نفس التقليد. أحد المفكرين السياسيين العظماء هو الوزير الأعظم نظام الملك وهو صديق لعمر الخيام وفيما بعد سيصبح وزيراً لدى السلطان ملك شاه.

سيؤكد نظام الملك من أن المعرفة والتعليم هما جزءان أساسيان من الحكم الرشيد والمجتمع الصحيح؛ وذلك من خلال تأسيس الجامعات الدينية ضمن النطاق السلجوقي في فارس والشرق الأوسط، والذي سيطلق عليها اسمه. سوف ينظر الكثير من العلماء إلى النظامية بمنأخها التساؤلي والجدلي ضمن سياقها الديني

غير المحكم نوعاً ما على أنها سلف للجامعات الغربية الحديثة. ستوجد النظامية حتى تلقاها أمواج الصليبيين المسيحيين الآتين إلى الأرض المقدسة في بداية القرن الـ 11؛ حيث لا يوجد بعد ما يشبهها في أوربا التي كان التعليم فيها لا يزال يعول على أنظمة الدير المغلقة.

حتى السلطان سينشكك في تكلفة تمويل هذا الكم من الجامعات معتقداً أنه من الأفضل إنفاق المال في بناء الحصون أو تعيين المزيد من القوات. وقيل إن نظام الملك قد رد قائلاً:

الحصن التعليمي الذي أسسته لك سيتحدى طغيان الزمان ويثبت صموده .
لن تتعدى أسهم الجنود 100 ياردة أما أسهم الجيش الذي شيدته فستصعد إلى
السماء وتخلد ذكراك إلى الأبد .

على المستوى النظري سوف يقوم نظام الملك بمساهمة أخرى في القيادة الصالحة والحكومة الرشيدة. في أثناء أعوام سفره في شتى أرجاء الإمبراطورية واستماعه إلى المواطنين والمسؤولين نيابة عن السلطان سوف يبدأ في صياغة كتاب ضخم حول كيفية الحكم الجيد وسيطلق على هذا الكتاب (سياساتنامه) أو كتاب الحكومة وسيكون بلغته الأم وهي الفارسية. في خمسين فصلاً سيضع (سياساتنامه) مقاييس وأمثلاً حول الحكومة الصالحة:

قد تدوم المملكة بلا دين لكنها لن تصمد في وجود الظلم .
عندما يجلس الملك في مكان تحميه الأبواب والبوابات والأقفال والردهات
والحواجز والمسؤولون من الممكن للأشخاص المستبدة أن تمنع الأشخاص من
الوصول إلى الملك .
يجب إعلام جامعي الضرائب بأخذ الكم المستحق فقط بكل تمدن ورحمة
وعدم الانتظار حتى آخر لحظة .
أفضل الحكام هم من يحتفظون بصحبة من يعلمون ، وأسوأ من يعلمون
هم من يسعون لصحبة الملك .
المعرفة أفضل من الثروة؛ وذلك لأن عليك رعاية الثروة ولكن المعرفة
هي التي ترعاك .

قبل أن يجف الحبر فى دراسة نظام الملك حول الحكومة الصالحة بدأ صراع عسكرى ألقى وهو الأمر الذى أظهر للكثير من ذوى الولاء أن أولويات الإنفاق التى أشار إليها مالك شاه كانت صحيحة حيث لا يحتاج المسلمون فى القرن الـ 11 إلى كل هذا التعليم وحكومة صالحة مثلما يحتاجون إلى المزيد من الجيوش والحصون .

سيكون هذا الصراع الأول من نوعه بعد مرور ثلاثة قرون ليأتى بصدامات عنيفة تهز أرجاء المنطقة من تركيا إلى سوريا إلى مصر . هذا القتال هو القتال الصليبي وبالمنظر من أعلى يبدو وكأن الصليبيين جاءوا فى المقدمة بالصراع الدينى العسكرى الأولى الذى حدث فى «تور» بالقرن الثامن . لما يزيد عن مائتى عام يوصف القتال الصليبي ، منذ أواخر القرن الـ 11 وحتى بداية القرن الـ 13 والمكون من تسع حملات مسيحية رئيسية والعديد من الحملات الأخرى الصغرى ، على أنه «جهاد معاكس» يقوم به المسيحيون لطرد المسلمين من القدس وأراضى المهد المسيحية . لطالما كانت هذه الأراضى تحت السيطرة الإسلامية منذ زمن الخلفاء الأوائل فى القرن السابع؛ فبالتالى ظلت تحت الحكم الإسلامى طيلة أربعة قرون؛ أى عشرين جيلاً عاش فيها كما تعايشت الأديان الثلاثة الإبراهيمية تحت السيطرة الإسلامية . كان المسيحيون يذهبون للحج فى القدس طوال هذه المدة كما وجد اليهود فى كل مكان هناك .

لكن الزمن يتغير ، ففى الوقت الذى يناور السلاجقة والأيوبيون والفاطميون للوصول إلى سلطة المسلمين وينزوى البيزنطيون فى بلاد صغيرة على الساحل الأناضولى عندها أحس الأوربيون بأن الفرصة سانحة أمامهم .

ما زاد من جرأتهم هو إعادة الفتح المسيحى التدريجى لإسبانيا كما استشاطوا غضباً بسبب القرار غير المنطقى للسلطان الفاطمى الحاكم بتدمير كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس ، والتى بناها الإمبراطور قسطنطين فى عام 330 لإحياء ذكرى التل الذى صُلب عليه المسيح والضريح الذى دُفن فيه .

هذه النسخة المسيحية الجديدة للحرب المقدسة ، والتى نتج عنها جدل واسع فى روما حول عدم اتساقها بالمرّة مع التعاليم السلمية للمسيح عيسى سوف توافق عليها أخيراً الكنيسة الغربية .

لكن بالنظر إليها من أعلى وعبر عدسة تاريخ ضائع نجد هذه الصراعات السياسية الدينية سوف تتسم بفروق واضحة كما أنها ستتعدد بسبب انفصال الكنيسة المسيحية فى عام 1054 لأول مرة وإلى الأبد إلى المذهب الكاثوليكى الرومانى فى روما والمذهب الأرثوذكسى الشرقى فى قسطنطينية . من ثم سيرغب الكاثوليك الرومان

ليس فقط في طرد القوات الإسلامية من المدن المقدسة وإنما أيضًا القوات البيزنطية الأرثوذكسية.

بالإضافة إلى ذلك سوف تتعدد أمور الحرب نتيجة للتحالفات الغربية التي ستحدث. سيتفق الصليبيون والمغول على قضية مشتركة ضد المسلمين في الوقت الذي سيأخذ البيزنطيون جانب أعدائهم القدامى المسلمين، بل وسيتفق فرسان الهيكل المسيحيون مع الإسماعيليين السوريين.

وللمزيد من التعقيد للأمور وحتى بفوز الكثير من الصليبيين في المعارك الأولية وأخذهم الموقت للقدس ومدن أخرى في فلسطين وسوريا سوف يتغيرون بشكل أبدى نتيجة لهذه التجربة. فالكثير من المحاربين الأوروبيين سوف يستقرون في الشرق وبعضهم سوف يمنح ممتلكات كثيرة كما سيحبون الجو الأكثر دفئًا وجفافًا وسيقعون تحت سحر نمط من الحياة أكثر رُقياً ورفاهيةً وراحةً.

ستتميز الحملة الصليبية الأولى بالغايات والانتصارات العسكرية المسيحية، والتي تتضمن سقوط القدس في يد المسيحيين في عام 1099. مع الكثير من التفاصيل التي ضاعت بكل أسف في غيابات التاريخ؛ هذا الانتصار الأوروبي في القدس وإنه ستشوهه مجزرة أوروبية ضد كافة سكان القدس القديمة؛ فكل من المسلمين واليهود وحتى المسيحيين تم التعامل معهم على أنهم أعداء. وفي الطريق إلى الشرق الأوسط سوف يقوم المسيحيون بعمليات عنف ضد اليهود.

يصف أحد الفرنجة المجزرة الصليبية لأهالي القدس في عام 1099 على النحو التالي:

الكونت ريموند ورجاله أثناء الهجوم على الجدار الواقع في الجانب الآخر... رأوا المسلمين وهم يقفزون من الجدار الواقع أمامهم وعلى التو أسرعوا مبتهجين نحو المدينة لمطاردة الأعداء الألداء وقتلهم كما كان يفعل رفقائهم في الحرب. لجأ بعض المسلمين والعرب والإثيوبيين إلى برج داود بينما فر آخرون إلى معبد الرب ومعبد سليمان. دار قتال شديد في ساحات المعابد حيث لم يستطيعوا الفرار من الجلادين المراقبين لنا. هرب الكثيرون إلى سطح معبد سليمان، وأصابتهم الأسهم حتى سقطوا على الأرض صرعى. قُتل في هذا المعبد قرابة عشرة آلاف شخص، وإذا ما كنت هناك لرأيت أقدامنا حتى كواحلنا مغطاة بدماء القتلى. ماذا أقص أيضًا؟ ما من أحد ظل حيًا حتى النساء والأطفال لم يسلموا من المذبحة.

كما يصور فرنسي آخر الوضع بشكل أكثر حركة قائلًا:

في أثناء غزو المسيحيين للقدس في عام 1099 دارت مذبحة نالت من المسلمين في الشوارع والبيوت . لم يكن في القدس أى ملجأ للمهزوم فالبعض فر من الموت بإلقاء أنفسهم من فوق الأسوار واحتشد البعض الآخر في القصور والأبراج والمساجد حيث لم يستطيعوا إخفاء أنفسهم عن أعين المسيحيين . سيطر الصليبيون على مسجد عمر حيث دافع المسلمون عن أنفسهم لبعض الوقت ولكن الصليبيين جددوا مشاهدتهم الباعثة على الأسى ، والتي ألحقت العار بغزو تيتوس . انطلق المشاة والفرسان بين الهاربين ووسط أكثر الاضطرابات بشاعة ليقتلوا على من تبقى لم تسمع سوى تأوهات الموتى ووطئ المنتصرون فوق أكوام الجثث في سعيهم للحاق بمن حاولوا محاولات فاشلة للهرب . صرح ريموند داجيل وهو شاهد عيان أنه تحت الرواق المعمد في المسجد ، وصل عمق الدماء إلى الركب ، بل وصل أيضًا إلى أجمة الأحصنة .

ساد الهدوء لمدة قصيرة في أثناء المجزرة عندما اجتمع الصليبيون لأداء صلاة الشكر من أجل الانتصار الذي أحرزوه ، ولكن لم يمض الكثير حتى جددوا القتال بشراسة فائقة . ويقول ميشود إن كافة الأسرى الذين لم تطلهم المذبحة وكل من أنقذ على أمل الحصول على فدية كبيرة تم ذبحهم عن عمد . تم إجبار المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعلى الأبراج والمنازل وتعرضوا للحرق وهم أحياء وتم جرهم من مخابثهم وسحبهم إلى الأماكن العامة حتى يضافوا إلى أكوام الموتى الملقاة . لم تُلن دموع النساء أو بكاء الأطفال ولا حتى مشهد المكان الذي سامح فيه المسيح عيسى جلاديه قلوب المنتصرين . . . استمرت المذبحة لمدة أسبوع ، أما القلة التي استطاعت الهرب فقد خضعوا إلى عبودية قاسية .

بجانِبِ المجزرة فإن الغزو المسيحي موصوم أيضًا بأعمال النهب والاختصاب . سيقوم الأوربيون حتى بسرقة الكنائس المسيحية الثرية كما سيتشاجر القادة الأوربيون المنتصرون فيما بينهم على الغنائم .

وستحصد تلك المجزرة الأوربية المتعمدة أرواح آلاف الضحايا من الأبرياء والعزل من مختلف الأديان الذين عاشوا في القدس . سينتشر أصداء هذا الحدث في شتى أرجاء الشرق الأوسط ليعضد من قوى المسلمين للمقاومة وسوف يستغرق الأمر قرابة قرن حتى يبنى المسلمون قوتهم .

فى ذلك الوقت سيقوم المسيحيون بتأسيس مملكتهم اللاتينية فى القدس وحصون أخرى فى سوريا وفلسطين. ستصير الخطوط غير واضحة والأعداء جيراناً لا يستهان بهم.

فترة الاضطراب هذه سوف تساعد على ظهور قائد مسلم وهو رجل شديد التدين لن يتمتع بفكر مثل هارون الرشيد والمأمون ولا الحاكم فى القاهرة أو عبدالرحمن الثالث فى قرطبة إلا أنه سيجسد نوعاً من شرف الفروسية الإسلامية سيكون مثار انبهار الأوربيين، بل وسيدفعهم نبلة هذا إلى العديد من المواقف المحرجة فما كان منهم إلا التهامس بأن السبب وراء أخلاقه الرفيعة والكرامة ما هو إلا لأن لديه دماء «أوربية» تجرى فى عروقه.

هذا الرجل هو صلاح الدين، ومثل هارون الرشيد، تجد القصص التى تحيط به لها طابع رومانسى وأسطورى، لكن رقيه الأساسى وحكمه الإنسانى فى الكثير من الأمور المستفزة هو حقيقى ويقندى به.

صلاح الدين فى الأصل كردى تربى وتعلم فى سوريا ووالده رجل عسكرى وكلاهما خلاصاً إلى أن الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها المسلمون مقاومة هجوم المسيحيين هى وحدة الفصائل الإسلامية المتحاربة كافة. وسيكون صلاح الدين هو من يقوم بهذا العمل البطولى.

سيحصل على فرصته فى الانتقام فى عام 1187 بعد سنوات عديدة من الصراع، سيحاصر هو وجيوشه مدينة القدس لاستعادتها وتدمير المملكة المسيحية. وعندما حانت لحظة الانتصار وارتفع مرة أخرى رمز الهلال والنجمة فوق جدران المدينة توقع الجميع - ومنهم قواته - أنه سيقوم بنفس المجزرة الوحشية التى حدثت على يد المسيحيين والعين بالعين، وأنه يجب أن تطير الرءوس وتتدفق أنهار الدماء.

إلا أنه... كما يروى ابن الأثير بعد معارك القدس:

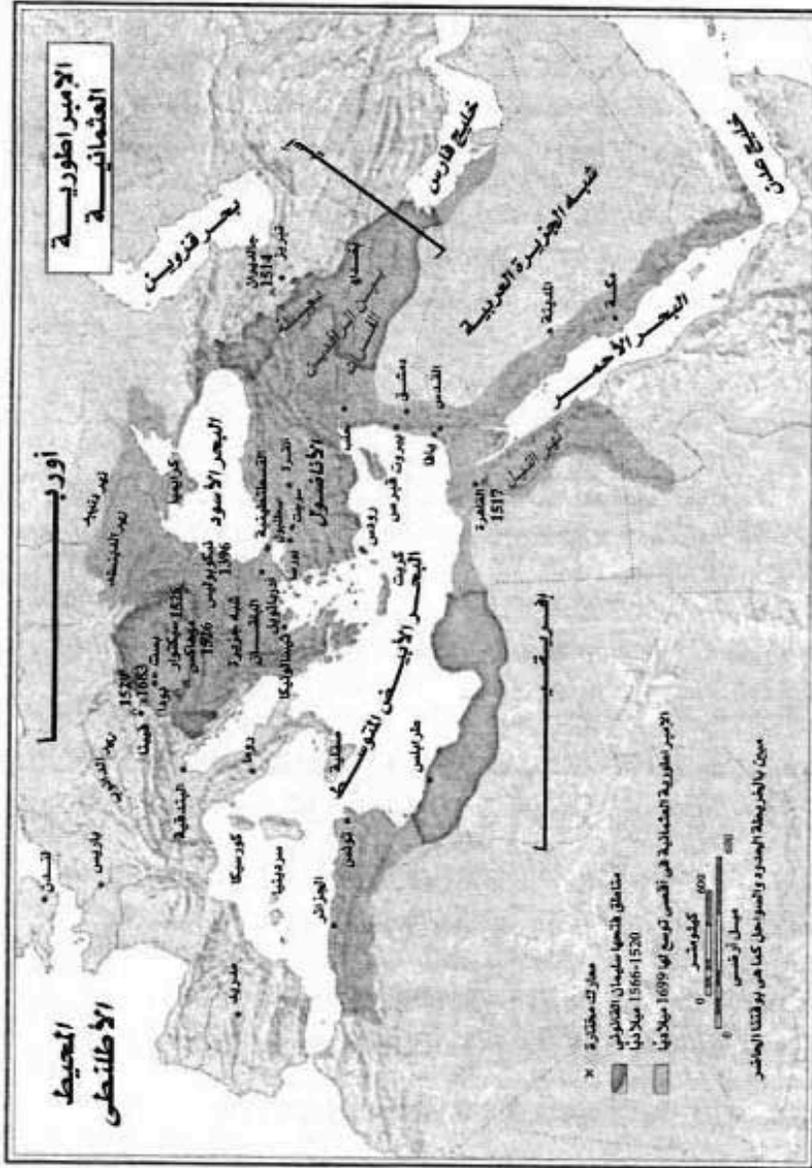
فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم الجانيق بالرمى المتدارك وتمكن النقبائين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبارائهم وأعيانهم فى طلب الأمان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها. فلما رجع الرسل خائبين محرومين انسل باليان بن بيززان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا

الامر وتحريره فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه. فلما أيس من ذلك قال له: أيها السلطان أعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغتمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعضاء أو نظفر كراماً.

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وألا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شيء تتجلى ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج فاستقر أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك. وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوماً مشهوداً ورفت الأعلام الإسلامية على أسوارها...

وخرج البطريك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع منها: الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له لياخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال: لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور...

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم فأعيد إلى الأول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس ففعل ذلك أجمع (39).



شملت الإمبراطورية العثمانية (1453-1922) معظم أراضي الدولة الإسلامية المبكرة،
 عدا إسبانيا والمغرب، كما شملت دول البلقان.

حقاً استرد صلاح الدين القدس لنفسه وللمسلمين ولكن ليس من باب الانتقام .
سمح للمسيحيين -والذين بلغ عددهم 100000 تحديداً - بمدة شهر كي يرحلوا
وكان عليهم دفع جزية الرحيل وسمح لهم أيضاً بأخذ متعلقاتهم ، وكذلك النبلاء
الأثرياء الذين تكتظ بيوتهم بالفنون والجواهر . أما بالنسبة لمن تبقى من نسل من قاموا
بالمذبحة في عام 1099 فكان عقابهم الأسوأ هو النفي .
عندما ظهر ما يقرب من 30000 مسيحي فقير ممن لا يستطيعون دفع جزية
الرحيل ، فقد انتشرت الشائعات بأنهم إما سيستعبدون أو يُقتلون أو يُجبرون على
اعتناق الإسلام .

توصل مستشار وصلاح الدين إلى أن الأسقف المسيحي هرقل الذي سيرحل مع
المسيحيين لديه ما يكفي من الثروة كي يدفع فدية المسيحيين المتبقين كافة . فلم لا يجعلونه
يدفع لهم؟ لكن صلاح الدين رفض ، بل ودفع هو وأخوه وصهره المال من مالهم
الخاص وسمح للأسقف هرقل بالرحيل بكافة متعلقاته وثروته .

هذه الأفعال في حد ذاتها هي تجسيد لمدى نبل صلاح الدين . لكن في عام 1192
لاحت في الأفق جولة أخرى عندما عاد الصليبي المسيحي الشهير ريتشارد قلب الأسد
كي يستعيد المدينة المقدسة . وبالرغم من الجهود الباسلة تعرقلت الحملة ، وعندها
بدأت أكبر صداقة غير متوقعة في تاريخ الحرب ، فكما كانت العلاقة بين هارون
الرشيد وشارلمان صار كل من صلاح الدين وريتشارد أصدقاء عن بعد . وبينما
جمعت الحرب بينهما رغم بعد بضع المئات القليلة من الياردات فإنهما لم يتقابلا فعلياً .
لكن كليهما حاول التغلب على بعضهما البعض بالأفعال الكريمة والنبيلة .

عندما مرض ريتشارد في حصار إيكير في عام 1192 لم يرسل صلاح الدين طبيبه
الخاص ابن ميمون لعلاج فحسب ، بل أرسل له الثلج لمساعدته في الشفاء من الحمى
وكذا بعض الفواكه المعالجة . وعندما قتل حصان ريتشارد في إحدى المعارك ووجد
الملك الإنجليزي نفسه على قدميه في مواجهة جيش المسلمين بأكمله تركه المسلمون
يمشى عبر كتبتهم كلها دون مهاجمته ، وبعد ذلك أرسل صلاح الدين له فرسين حتى
لا يشعر بقلّة الحيلة .

أخيراً توجب على ريتشارد قلب الأسد ترك الحملة الصليبية بسبب الشائعات
التي وصلت إليه حول تأمر منافسيه ضده في إنجلترا . من ثم كلما طال وقت
انتظاره في الأرض المقدسة كلما خاطر بفقدان عرشه ، وهنا سمح له صلاح
الدين بالتراجع بشرف مشيراً إلى آخر مجهود جاد لاستعادة القدس . سوف
تتفرق الحملات الصليبية بعد مرور بضعة عقود حتى بعد إلحاق المغول الهزيمة
بخراسان وبغداد .

بعد مرور وقت طويل على تلك الأعمال الفروسية كتب المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه عن صلاح الدين قائلاً:

حقاً إن كرمه وورعه وعدم تعصبه، وهى ثمار التسامح والتواضع التى كانت جميعها النموذج الذى يتبعه المؤرخون القدماء، جعلته يفوز بقدر من الشعبية فى سوريا الفرنكية على نفس قدر بلاد الإسلام.

لكن سيأتى تقدير آخر على يد واحد من أفضل الشعراء الأوربيين فى القرن الـ 13 والذى كتب بعد مرور عقود على فشل الصراع الصليبي فى استرداد القدس، ذلك عندما رتبت الكوميديا الإلهية، من خلال أعين مسيحية ملتزمة، شخصيات التاريخ البارزة حيث قام دانتي بالتمييز بين المسيحيين وغير المسيحيين، فما من وثى إلا ويحتل أعلى المستويات؛ فمثلاً الشخصيات الوثنية الإغريقية والرومانية مثل هوميروس وأفلاطون وقيصر سوف يسكنون الليمبوس^(*). لكن صلاح الدين سيكون له مرتبة خاصة به يُطلق عليها «الأرواح عظيمة القلوب»، وذلك بسبب أفعاله وسياساته النبيلة أثناء صد المسلمين للقوة الصليبية فى الشرق الأوسط.

ومع توقف الحملات الصليبية وضعفها فى تلك الآونة تأسس كيان إسلامى جديد فى الجنوب الشرقى. ظهرت سلطنة دلهى فى أوائل القرن الـ 13 ودامت من عام 1206 حتى 1526، وقد تأسست على يد مقاتلين أتراك من آسيا الوسطى زحفوا إلى الهند. وعلى الرغم من اختفاء هذه السلطنة فى تاريخ الهند الإسلامى على يد المغول الكبار إلا أن قائدة غير عادية ذات اتجاه تقدمى ستظهر فى بدايات دلهى الإسلامية منذ 1236-1240.

اسم هذه القائدة رضية الدين. عندما ينظر والدها المُسن السلطان إلتتمش إلى المستقبل يفكر فى الخلافة الملكية. فقد مات ابنه الماهر فى إحدى المعارك، ويعرف أن أبناءه الآخرين ليسوا بالكفاءة المطلوبة، ثم يجد بعد ذلك ابنته رضية الدين فهى أذكى من الصبيان كافة، كما أنها مقاتلة على قدر عال من المهارة. تركها فى الكثير من الأحيان مكانه فى البلاط فى أثناء ذهابه إلى المعارك، ولم يفكر أبداً فى أن يفعل ذلك مع أحد أولاده. على الرغم من أن هذا غير مألوف - أى عندما يفكر فى الاختيار بين ترك وصيته لمن هم دون الكفاءة أم إلى رضية الدين - فإنه يختارها.

(*) فى علم اللاهوت، الليمبوس هو موطن الأرواح العادلة أو البريئة التى حرمت من دخول الجنة من غير ذنب اقترفه مثل أرواح الأطفال غير المعمدين.

لكن بعد وفاة إلتتمش اقتنص السلطة أحد الأشقاء الطموحون، اسمه فيروز وتوجب على رضية الدين التنازل. انغمس فيروز لمدة سبعة أشهر في الحفلات والإنفاق، وترك شئون السلطنة تخرج عن السيطرة، وعندها وقف المواطنون وقفة رجل واحد وطلبوا رجوع رضية الدين إلى العرش وما كان على فيروز أمام هذه الثورة إلا الاستسلام.

بالرغم من حصولها على دعم الناس فإنها واجهت الأعداء من كافة الاتجاهات، وكان الكثير يحطون من شأن أنوثتها. في الوقت ذاته ينتظر النبلاء الأتراك أن تقع في خطأ واحد وكذا يتآمر عليها أخواتها. وإلى أن تحكم لم تثق في أى فرد من أسرتها أو من طبقة النبلاء، وبدلاً من ذلك اعتمدت على عبد إتيوبى اسمه جلال الدين ياقوت وأصبح أقرب مستشاريها بل وقد يكون أكثر من ذلك.

من أجل أن توطد علاقاتها بالناس أقامت رضية الدين اجتماعات مفتوحة مع مواطنيها كى تسمح بتقديم الشكاوى والطلبات لها مباشرة. كانت تردى زى الرجال فإما أن تردى درعاً وإما أن تردى سترتة طويلة بالإضافة إلى غطاء للرأس. قامت بدعم التجارة وتشيد البنية التحتية مثل الطرق السريعة والآبار وزراعة الأشجار؛ لزيادة المساحة الخضراء والحد من التآكل الذى تخلفه الرياح.

ثم حاولت أن تقلل من التمييز ضد الهندوس وعندها وجد أعداؤها الفرصة، وجميعهم من نفس دينها وعرقها. ويأتى حاكم اسمه مالك الطونيا ويهزم جيش رضية الدين ويقتل مستشارها الإتيوبى. وتجبر رضية الدين على الزواج من الطونيا، وحكما معاً تحت توجيهاته، ولم يمض وقت طويل حتى تمرد عليها أحد أشقائها؛ وكل من رضية الدين وزوجها قد سقطا قتيلين. كانت تبلغ من العمر 35 عاماً عند موتها، وقد كانت حياتها سلسلة من المغامرات، الواحدة تلو الأخرى. ولبعض الوقت سيبدو حكمها وكأنه أمر غير مألوف لن يتكرر أبداً.

وعلى الرغم من مرور قرون على ظهور امرأة هندية أخرى لها نفس قوتها السياسية فإنه سيبدأ فى الظهور نساء متمكنات تحت الحكم الهندى الإسلامى. فى معظم الأحيان ستكون تلك النساء زوجات وبنات ملكيات لكن عبر وصولهم للسلطة سوف يسيطرون عليها بشكل غير مباشر. وفى أحد الأيام فى القرن العشرين البعيد ستقوم امرأتان بحكم الدولتين التابعتين للهند القديمة؛ ألا وهما الهندوسية أنديرا غاندى فى الهند العلمانية، وبينظير بوتو فى باكستان الإسلامية وثالثتهما سونيا غاندى، والتي لم تولد فى الهند، كمرشحة رئاسية جادة.

وبالرغم من دخول كل هؤلاء النساء إلى السلطة من خلال كونهن بنات

أو زوجات لسياسيين مشهورين فإنهن سيستطعن الحصول على السلطة المباشرة .
ما الأمر الخفى الموجود في الهند، والذي يُمكن المرأة إلى هذا الحد؟

في حوالي عام 1580م اعتلى العرش في آجرا عاهل المغول الكبار (جلال الدين أكبر) مستمعاً إلى أحدث العروض اللاهوتية والعقائدية. وهو أول شخص من المغول الكبار يولد على أرض هندية ووصل إلى العرش وهو لا يزال طفلاً معتمداً في ذلك الوقت على أوصياء حتى اشتد عوده ليقوم بالحكم بنفسه. وعلى ثقة منه في سطوته العسكرية والسياسية أراد هذا الحاكم استخدام نفوذه لجعل الهند أكثر قوة وعدلاً واتحاداً في هذه الأرض، التي تحوى مائة لغة وألف إله وتقاليد متوطدة منذ آلاف السنين .

وهو يبلغ من العمر 50 عاماً لم يقم أكبر بالحكم فحسب، بل وضع النظريات و اخترع الكثير فقد قام بأعظم التجارب الاجتماعية التي عرفها التاريخ . يحكم (أكبر) ما يزيد عن 140 مليون شخص في الوقت الذي كانت فيه إنجلترا 5 ملايين وأوربا بأسرها 40 مليوناً .

تلقت مجموعة من القساوسة اليسوعيين البرتغاليين الآتين من المستعمرة الساحلية (غويا) دعوة من الحاكم المسلم حتى يعرضوا أفضل ما لديهم فيما يخص المسيحية . الجو حار ومزدحم في غرفة العرش والشمس تحترق في الخارج ويحصل العاهل على بعض البرودة من المراوح المصنوعة من ريش الطاووس وبمجرد أن بدأ البرتغاليون في الحديث سادت الهمهمة والهمسات بين جمهور الحاضرين .

انتهى اليسوعيون من مناقشتهم المعرفية، والتي تخلص إلى النتيجة الحتمية في صالح المسيحية، وينصت إليهم (أكبر) محلاً بدقة ما يقولون . في أثناء تلك المناقشات والمجادلات استمع أيضاً إلى علماء لاهوتيين لكل من الزرادشتية والسيخية واليانية والهندوسية .

قامت مجموعة من تلك المجموعات بإقضاء منافع للذوق لعلماء المسلمين السنة الذين ينتمى إليهم (أكبر)، وبغضب كانوا على وشك الإعلان بأنه أكبر مهرطق . وفي أطراف القاعة يستمع وكلاؤهم لما يقولون وقد ملأهم الرعب .

لم يهتم (أكبر) بما يقولون فهو يرى نفسه كمسلم متحفظ وملتزم . أقرب مستشار له هو (أبو الفضل) وهو مؤرخ شيعي، فيما بينهما كانا يفكران في الدين والمجتمع بعقلية منفتحة، خائضين في مجالات خاف الكثيرون من الخوض فيها .

في دولة معظم المسلمين فيها من المذهب السني اقترح أبو الفضل مفهوماً شيعياً فريداً للإمامة، وهو المفهوم الذي يأتي بأصداء إغريقية وأفلاطونية، إنها رؤية

خاصة بمملكة إسلامية صالحة يقودها ملك فيلسوف حكيم وقويم ألا وهو الإمام .
ويشعر علماء المسلمين بالاستياء لهذا التبجيل المبالغ فيه للحاكم السياسى ، معتقدين أن
هذا التفكير هرطقة ، فماذا يفعل؟

لكن (أكبر) لا يخاف من أن يكون هو نفسه عنصراً للتغيير حتى فى أمور العقيدة؛
فبعد مرور سبعة قرون من فرض الحكام المسلمين الجزية على غير المسلمين حول
العالم ، ألغى (أكبر) هذه الضريبة المفروضة على الأديان الأخرى ، كما سمح للهندوس
بالسفر بحرية إلى مقدساتهم ومنع الجزية المفروضة على حجهم ، وحتى يعوض الفرق
الذى حدث فى العوائد بدأ فى تطبيق الضريبة على الجميع بما فيهم النبلاء . بالطبع
اندهش النبلاء من هذا التصرف ، ولكن أمام الدعم الشعبى الذى حظى به هذا القرار
من (أكبر) ما كان عليهم سوى الإذعان .

قام (أكبر) بما يزيد عن ذلك ، فمن أجل أن ينسج الدولة الهندية الكبرى بشكل
وثيق تزوج من بنات كل ملك وأمير وسلطان فى شبه القارة تقريباً حتى وصل عدد
زوجاته حوالى 5,000 زوجة من كل العقائد والأصول العرقية . كانت زوجته
المفضلة هى (أمبر) وهى أميرة هندوسية من رجا سان فهو لم يسمح لها فقط بالاحتفاظ
بعقيدتها ، بل سمح لها بممارستها فى قلعة المغول الكبار فى أجرا أيضاً .

كان (أكبر) أيضاً هو أول شخص من المغول الكبار يمنح الألقاب والنبالة لغير
المسلمين فحوالى ثلث من منحهم النبالة من الهندوس . وما يزيد على ذلك فإنه أول
حاكم من المغول الكبار ينغمس فى العقائد والممارسات غير الإسلامية لشعبه فهو يراها
جميعاً مدهشة .

كان جالساً فى عصر ذلك اليوم الحار يستمع إلى البرتغاليين ، يرجع إلى فكرة
تشغل ذهنه منذ عدة شهور؛ ألا وهى بما أن الدين فى أغلب الأحيان هو نقطة الصراع
الاجتماعى فماذا لو اندمجت كل هذه الأديان مع بعضها البعض؟ بما أنهم جميعاً
يعبدون إلهاً واحداً: الله عز وجل ويتمتعون بنفس روح الحب والحنان ، الموضحة
بطرق مختلفة فلم نركز على الاختلافات؟ لم لا نأتى بهم جميعاً ضمن هيكل الإسلام؟
لكن يجب استبعاد بعض الأمور مثل الزرادشتية عبدة الشمس .

سوف أطلق عليه «الدين الإلهى» يهمس (أكبر) إلى الفضل وعندها يومئ مستشاره
برأسه .

عندها صدر الأمر بأن يكون الدين الإلهى هو العقيدة الجديدة للهند؛ باعتماد الدين
الجديد ، بشكل كبير على الإسلام سوف يحتوى على بعض الإيماءات الخاصة بالعقائد
الأخرى التى سيتضمنها . سيقام هذا الدين الجديد فى مدينة جديدة ستكون العاصمة ،
ويطلق عليها فاتحبور سيكرى ، وبها القصور والمعابد الخاصة بهذا الدين المجمع الجديد .

سوف يكتب أبو الفضل حول دخول (أكبر) عاصمته الجديدة في عام 1571 قائلاً:

هب نسيم الفرحة من فاتحبور حيث وصل الملك بعد رحلة طويلة . يا لها من فرحة ، فكل قلب من القلوب يدق بألف ألف بهجة . في هذا اليوم المفعم بالفرحة وقف الضباط العظماء والتابعون الأوفياء وغيرهم على جانبي الطريق على بُعد مسافة من المدينة . وقفت الأفيال الضخمة ضخامة الجبال في موكب جلالته ، وانطلق خديوى العالم على ظهر أحد الأفيال السماوية محاطاً بهالة نورانية . وبدأت مسيرة الأمراء الخاضعين عن إصدار الأوامر ، وسار الكثير من النبلاء أمام حاملي الصولجان . وكانت هناك الكسوة فى روعتها ، يتبعها العديد من الضباط . زفت دقات الطبول وألحان الموسيقى الساحرة الأخبار السارة . وتجمع حشود الناس على أسطح المنازل وعند الأبواب تنتابهم الدهشة . وفى نهاية اليوم جلس فى القاعة الفاخرة (دولتخانه) على عرش السيادة . أقام العدالة بمكافأته للمخلص ومعاقبته للمعاد وجعل من زيادة السلطان والنجاح أداة لتقوية العبادة والتضرع .

بالتالى من عصر هذا اليوم الحار انطلقت حملة الهداية الدينية لما بين العقائد المختلفة إلى أركان الإمبراطورية الأربعة . تشير النظرية إلى أنه بتجميع عقائد 140 مليون شخص سوف ينتهى الصراع .

باستثناء مؤسسى الحملة... فماذا يُفترض على المرء الإيمان به فى الدين الإلهى؟ فيوجد الكثير من الجدل والاضطراب حول الافتقار إلى تفاصيل تتعلق بالطقوس والتعاليم .

يرى السُّنة التقليديون هذا الدين الإلهى على أنه هرطقة جليلة على الرغم من أنه فى فحواه هو امتداد للإسلام . من هنا بدأ الكثير منهم مساندة الحركات المنشقة والمتمردة ، أما باقى من يؤمنون بالعقائد الأخرى فى الهند فقد جلسوا يشاهدون ويستمعون لما يحدث . (أكبر) حاكم عظيم وفعل الكثير حتى يوحد الهند ويزيل الإحساس بالحكم الإسلامى المطلق ، لكن هذا الدين الجديد! هل له أن يشرحه مرة أخرى!؟

هكذا سيخبو لهيب الدين الإلهى تدريجياً فى الهند شاسعة المساحة؛ فيحتضر هذا الدين بينما (أكبر) مازال على قيد الحياة . بيد أنه سيظل ذكرى بعد موته وتشير السجلات إلى أن إجمالى من تحول إلى هذا الدين الجديد هو 18 شخصاً جميعهم أعضاء فى بلاط أكبر .

يكتب أبو الفضل حول (أكبر) عند موته قائلاً:

يا له من شخصية! كان نقياً تماماً واتسم بكافة المثل العليا . فيا له من جوهره
نقية خالية من أية شوائب! مقام رفيع وطالع سعيد وحظ موال وسعادة تامة
وسلطان متزايد وانتصار متعاضم وصداقة ممتعة وحب للاستمتاع وتقدير
للصديق وتدمير للخصوم وحرية تمنحها الملكة وقوة تطيح بالأعداء وفخامة
تعنق العالم وثبات يقهر العالم وصمود ووقار مجتمعين مع عمل المعجزات
الجلية، وحديث فخم وعقل مستنير ووعى منحه الله عز وجل له، وروح
طاهرة وذواقة للمعرفة ومتفحص للألغاز وسابر لأغوار الغموض ومنتصر
على الصعاب إلخ كافة تلك الصفات اجتمعت في هذه الشخصية الرفيعة
وخلقت دهشة بين ملوك البصيرة .

أطلق عليه الفاحصون الذين أحصوا جميع صفاته العليا لقب إمام العصر
فهو الملك الروحي والدنيوي؛ إنه جلال الدين (أكبر) الفريد الذي جعل الفقراء
ملوكاً للثروة .

رحل هذا الشكل الأولى، والذي من روحه النقية اجتمعت الحقائق الأبدية .

ومن رموز ذلك الفشل النبيل على وحدة الأديان، هُجرت المدينة العاصمة
فاتحبور سيكري بعد مرور بضعة أعوام على موته، حيث إن العالم لم يفقد فقط
الطاقة القوية والسحر الحالم لـ (أكبر)، بل وأيضاً ما نفذت المياه اللازمة لاستمرار
الحياة في فاتحبور سيكري فباتت مدينة جافة بكل ما في الكلمة من معنى وأضحت
مقاماً لتلك الشخصية التي تنسى بين صفحات التاريخ .

لقرون تلت ذلك سيقول المحافظون: إن (جلال الدين أكبر) فشل في اختباره
الطموح . ملك الأراضي الهندية لم يستطع إخضاع الروح الهندية متعددة الأوجه .
ولقرون عدة ستبدو إصلاحات (أكبر) الكاسحة ومعمله الفكري بمثابة تاريخ قديم
سرى؛ وذلك عندما خضعت الهند للسيادة الإنجليزية وتم الاستيلاء على ثروتها
لتمويل الهيمنة العالمية للإمبراطورية الإنجليزية .

لكن بعد مرور أربعة قرون بعد ذلك سوف تبدو الهند العلمانية الديمقراطية نسخة
حديثه من حلم (أكبر) الشامل وحتى الحلم المحتمل للسلطانة رضية الدين . لن تتوحد
العقائد الكثيرة الموجودة في الهند ولن تكون فوق الصراعات ولكنهم سيتعايشون .
وسيتولى المسلمون - الأقلية في الهند - الكثير من المناصب القيادية كما كان حال
الهندوس تحت حكم (أكبر)، كما سيتعايشون هم أيضاً في دولة علمانية تحترم أديان
الأفراد ولكن بالنسبة للأمور العامة تتفرق عن بعضها البعض .

إنه من الصعب أن تسبق وقتها ولكن هذا لا يعنى أنها ستضيع تماماً فى أحضان التاريخ.

فى القرنين الـ 15 و 16 يحل مسرعاً عصر التاريخ الإسلامى الكلاسيكى وليله مشوباً بالظلال المتعمقة والسوداوية المحلقة وتبدو أمجاد الماضى أعظم من أى شىء قد يأتى فى المستقبل.

اختفت قوة دمشق وبغداد والأندلس وخراسان منذ أمد بعيد ولن تعود أبداً. وبالرغم من عدم القدرة على تجاهل مرور الوقت وشيخوخة الحضارة إلا أن مجموعة من المسلمين ستقوم بمجهود شجاع أخير.

هؤلاء المسلمون هم الأتراك العثمانيون والذى بنفوذهم ستهنز الكثير من أرجاء العالم. بعد مرور ألف عام على استحواذ الجيوش العربية على العالم سيقوم الأتراك العثمانيون بما هو أكثر من مضاهاة هذه الإنجازات. فبعد سقوط بغداد وقرطبة قام الأتراك ببناء الإمبراطورية العربية برمتها باستثناء الأندلس؛ لكنهم سيستعيضون عن إسبانيا بضمهم البلقان ورومانيا وحتى الحدود الجنوبية لپولندا. لن تكون عاصمتهم بغداد ولكنها إسطنبول وما يزيد على ذلك أنهم سيزيلون تماماً الدولة البيزنطية المتعجرفة من على الخريطة.

مع ضم ثلاث قارات ابتداءً من عاصمتهم على نهر اليوسفور يأتى الأتراك من الأطراف البعيدة لسيبيريا وصولاً إلى تركيا بعد رحلة مدتها قرون من الغزوات وأعمال السلب المستمرة التى بدأت عند بوابات الصين القديمة حيث عرفوا بالاسم الصينى (توكيو) وهو اسم ظل معهم طيلة هذه السنين وعلى امتداد هذه الأميال ومع التحولات اللغوية المختلفة.

لكن الأمر لا يتعلق فقط بقوة الأتراك، فعلى الرغم من أن أكثر ما يميزهم هو القدرة على إقامة إمبراطورية دامت 600 عام وصولاً إلى القرن الـ 20، ففى أفضل أحوالهم أيضاً سوف يتميزون أيضاً بالتنوع والتضمين الدينى والاستحقاق فوق الامتياز والعدل.

فى عام 1492 فى مرفأ إسطنبول فقط بعد مرور 40 عاماً على سقوط قسطنطينية فى يد الأتراك تصل سفينة أجنبية صغيرة.

يقف عند المرفأ وفد للسلطان بايزيد الثانى للترحيب بالوصول ويترأس الوفد الوزير الأعظم وممثلون منتقون من بلاط السلطان. يبدو أن هذه السفينة تحمل وفداً أجنبياً أو ممثلين لحكومة متحالفة أو صديقة أو هامة. فمن هؤلاء الزائرون؟

لكن بمجرد أن اقتربت السفينة لرمى البصر واتضح معالم الركاب تبين أنهم

ليسوا بسفراء. يرتدى هؤلاء الرجال على ظهر تلك السفينة قطنسوات ولهم لحى داكنة وفي لباس تورّاتى، مما يشير إلى أنهم لاجئون من زمن آخر أى رجال قدماء ذوو حكمة. يعتلى وجوههم حُرقة الشمس ولكنها دالة على حزن عميق؛ حزن على فكرة الخسارة التى لا يمكن استعادتها.

هؤلاء الرجال هم لاجئون وقد خسروا الكثير. خسروا ديارهم وتاريخاً كاملاً وتقبلوا دعوة اللجوء التركى.

إنهم اليهود السيفرديون للأندلس، أى آخر يهود غرناطة وقرطبة وإشبيلية وتوليدو ومدريد. هم من كانوا جزءاً من قلب وروح الدولة ثلاثية الأديان آخر مواطنين سيفارد، والذين طُردوا بسبب خيانة إيزابيلا. وبدلاً من قبول التحول إلى الكاثوليكية أو الموت جاءوا إلى هنا بناءً على دعوة السلطان للإقامة فى موطن جديد.

موطن اليهود الجديد هو إسطنبول، وعلى الرغم من سيطرة المسلمين الأتراك عليها إلا أن بها عشرات الآلاف من المسيحيين الأرثوذكس وفى حقيقة الأمر هى مقر البطريرك الأرثوذكسى. تحتوى إسطنبول على أمواج من الهجرة الأولى لليهود كما يوجد بها الكثير من مذاهب الإسلام ويمكن القول هنا إن تركيا العثمانية هى واحدة من عمليات التجسيد الأخيرة للتعايش العذب بين الكثير من الأديان، والتى ظهرت فى أوقات مختلفة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى.

لم تكن تركيا هى الدولة الوحيدة المتسمة بالتسامح الإسلامى بين القرنين 15 و16 حيث عاش اليهود والمسيحيون فى أرجاء العالم الإسلامى كافة. فوجد الكثير من الأقليات المسيحية الكبيرة فى مصر والعراق وسوريا والهند، أما بالنسبة للأقليات اليهودية الكبيرة فازدهرت فى مدن المغرب وفى كافة مناطق شمال إفريقيا بمصر وإيران.

لكن فى تركيا العثمانية لم يكن التسامح والتعايش مجرد سياسات غير رسمية بل كانت واضحة وصريحة حيث ينص مرسوم السلطان على أن الحكام الأتراك يتوجب عليهم «ألا يرفضوا دخول اليهود أو يتسببوا لهم فى أى صعاب ولكن يجب استقبالهم بكل حب وود».

فقط بعد مرور 60 عامًا على وجود اليهود فى إسطنبول تصل الإمبراطورية إلى أوجها السياسى والعسكرى. يدبر الأتراك وبيروقراطيتهم ما يزيد على مليونى ميل مربع من الأرض وملايين أخرى من الأقاليم الخاضعة للتاخمة. يمتلك الأتراك

تكتلات من الأراضى والناس تمتد من عمان إلى المحيط الهندى فى أقصى جنوب غرب آسيا إلى بولندا الجنوبية وروسيا فى أقصى شمال شرق أوروبا عابرة كل شمال إفريقيا وصولاً إلى المغرب. تسيطر الأساطيل التركية بشكل دورى على البحر المتوسط وتناوش السفن القادمة من المدن الإيطالية وتضع قواتها فى المنطقة العليا عند أوترانتو. يفكر صنّاع الخرائط الأتراك ملياً فى نفس المغامرات العالمية التى يسعى خصمهم الإسبانى لها فى الأمريكتين.

هذه الإمبراطورية هى عالم فى حد ذاته فلم لا ترحب باليهود المطرودين من إسبانيا؟ فضمن السيادة التركية يوجد عرب وبيزانطيون وإغريقيون وصريبيون وبوسنيون وكرواتيون وپولنديون وأوكرانيون وتشيكويون وسلوفاكيون وهنغاريون ونمساويون ورومانيون وفارسيون وأناس كوكاسوسيون وبربريون وأذربيجانيون وجورجيون وصوماليون وإثيوبيون. أما بالنسبة للغات واللهجات فهى لا تحصى.

أديان الأتراك هى الأخرى كثيرة، وكما هو التقليد السائد فى خلافة الأندلس وبغداد، فإن المسلمين، على الرغم من هيمنتهم، فهم يعتمدون بشكل كبير على الشراكات مع الأديان الأخرى ومساندتهم أيضاً. فكان صفوة حراس السلطان العثمانى وجنود الإنكشارية، وكوادر الدفشمرة العريضة من المسئولين الإداريين جميعهم صبية مسيحيون من البلقان تعينوا خصيصاً بسبب ديانتهم. من غير السماح لقوات الحرس بالزواج أو الحصول على عائلات وذلك حتى يكرسوا حياتهم وطاقاتهم للسلطان والدولة؛ نتيجة لذلك ترقى بعض المسيحيين ليتولوا مناصب الوزراء الأعظمين، وهو ثانى أكبر منصب فى هذه الإمبراطورية العابرة للقارات، مثل اليوسنى الصربى (ميهميت سوكلو) باشا الوزير الأعظم لسليمان وابنه وحفيده.

ما يثير الدهشة أن هذه الإمبراطورية الشاسعة لا يحكمها النبلاء المتوارثون كما هو الحال فى معظم الأماكن الأخرى. هذه الدولة الأكثر قوة على الإطلاق كان يحكمها أولو الاستحقاق، فكان يتم اختيار مسئولين شباب من المدارس التى تعلموا فيها وبعد إجراء الاختبارات والتدريبات لهم كانوا يترقون لمناصب المسئولين رفيعى المستوى بالإمبراطورية. والغريب فى الأمر أن معظم هؤلاء المسئولين كانوا من غير المسلمين.

فلم يكن غير بيت عثمان والنسوب إلى السلطان هو الذى يحكم بالوراثة.

إظهاراً لمدى التسامح المدنى للسلطان العثمانى، وهو حامى المدينتين مكة والمدينة، والتى تقع على بعد 1500 ميل جنوباً، وهو خليفة الإسلام، ومن ثم «من يطبق تعاليم الله عز وجل فى الأرض»، لم يفرض الشريعة الإسلامية فرضاً مطلقاً. إن الأتراك بالرغم من ولائهم الشديد للإسلام قد وضعوا نظاماً قانونياً متنوعاً، والذى يتضمن

تطبيق الشريعة على المسلمين والقانون على اليهود والمسيحيين الأرثوذكسيين، وكذلك المجموعات الدينية الأخرى بل والقانون المدني الخاص على مجالات محددة مثل الأعمال التجارية حيث لا تشملها الأنظمة القانونية الأخرى .

يأتى هذا التنوع والتفاوت النسبى من مصادر عدة منها الأصول التركية ذات الطبيعة الرحالة، فمع الاعتياد على التحرك عبر سهول أوراسيا أصبح من المؤلف لأتراك ما قبل الإسلام التشبع بآثار الثقافات الأخرى . بالإضافة إلى ذلك فبعض التعاليم تأتى من الإرشاد المستنير للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، والمفكرين الأجلاء مثل الخلفاء الراشدين . هذا المزيج الفريد من النفوذ والعدل والتنوع جعل من الأتراك إمبراطورية عظيمة ويأتى التجسيد الواضح لكل عظمة الأتراك فى شخص السلطان سليمان الأول الحاكم منذ 1526 وحتى 1566 .

يتقدم سليمان فى العمر حيث يجلس فى شرفته فى قصر توبكابي فى بدايات خريف عام 1566 . مازال الهواء أشبه بمناخ فصل الصيف ، ومسبح السلطان ممتلئاً ، وما من نار اشتعلت بعد كى تدفى من برودة الليل . على نهر البوسفور زال ضباب الغسق وانعكس منظر قمر ليالى فصل الخريف فوق المياه الباردة مع انتشار للنجوم الصغيرة .

يبلغ من العمر 71 عاماً ولا يزال أقوى حاكم على وجه الأرض إلا أنه وحيد، فقد ماتت زوجته المحبوبة حوريم فى عام 1558 ولقى أعز أولاده مصرعهم إما فى الحرب الأهلية وإما بسبب المرض . نمت إلى علمه مؤخراً أن هنغاريا - الذى كان إقليم جانح عند توليه العرش فى عام 1526 والذى قد تم إخضاعه ست مرات منذ ذلك الوقت - يثير المشاكل مرة أخرى . هل عليه فى مثل عمره ووحدته الخروج لأرض المعركة مرة أخرى؟ إنه لم ينزل إلى ميدان القتال منذ عشرة سنوات وبالتالى يبدو ذلك طلباً غير عادل من رجل فعل الكثير من أجل شعبه .

من المعتقد أن هذا الحاكم باسمه التوراتى أخذ نصيباً من المسمى «سليمان»؛ وذلك لأنه دائماً ما فضل المصلحة العامة على الرغبات الخاصة والمستشارين الموثوق فيهم والأبناء والأقارب إلى الحد الذى يصل إلى طردهم أو نفيهم أو ما هو أسوأ ذلك إذا ما رأى أنهم يدمرون المصلحة العامة .

تقابل بارون بوسبيك سفير هابسبورج إلى البلاط ، وهى الدولة التى وقفت بمثابة تحدٍ عظيم أمام النمسا ، مع سليمان فى عام 1555 ووصفه وهو فى الخمسين من عمره قائلاً:

تعبيراته . . . هي عبارة عن ابتسامات كما أن به صرامة على الرغم
من الحزن الذي يشوبها فإنها مملوءة بالفخامة . . . بدأ يشعر بثقل السنين
ولكن سلوكه الوقور ومظهره العام يتناسبون مع حاكم مثل هذه الإمبراطورية
الكبرى .

مما يدعو للسخرية بالنسبة لخليفة الإسلام أن الكثير من الناس يعتقدون
أن هذا الرجل فعل الكثير لتقدم القضية البروتستانتية في أوروبا عن أي حاكم
أوروبي وذلك من خلال تحالفه مع الملك الفرنسي فرانسيس الأول والذي
انحاز للاهتمامات البروتستانتية ضد القوات الكاثوليكية الأكثر قوة التي يقودها
تشارلز الخامس ملك إسبانيا. ضحك سليمان في نفسه على هذه الفكرة قائلاً أنا
بروتستانتي!

سليمان هو ملحن ماهر لأنشودة الحرب، بجانب عدله وحكمته، وفنان مغوار
للفنون العسكرية وشاعر محنك لقصائد الأسلحة والقيادة. وقد مكنه حدسه الحسي
بالمعارك من إسقاط بلجراد في عام 1521 وجزر الرودس المتوسطية في عام
1522 وهزيمة هنغاريين في موهاك في عام 1526 وسيتوقف في أوروبا الوسطى
فقط بفشله في الحصول على قيينا عاصمة النمسا بعد حصار دام من سبتمبر وحتى
أكتوبر عام 1529. في عام 1534 أحرز نجاحاً كبيراً ضد فارس ثم في حملات
أخرى ضد العالم العربي أخذ تقريباً كل شمال إفريقيا و عدن ميناء البحر الأحمر.
فرسان مالطا هم فقط من أنزلوا هزيمة ساحقة بجيشه وأسطوله عند محاولته أخذ
قاليستا في عام 1565.

سليمان هو أيضاً شاعر في التقليد الصوفي العربي. في أحد مقاطع شعره كتب
قائلاً:

يا عرش وحدتى وثروتى وحبى ونور قمرى
يا صديقتى العزيزة ومحل ثقتى وكل وجودى يا سلطانتى
يا أجمل الجميلات
يا ربيعى يا بهجتى ونهارى يا قلبى ويا ضحكتى
يا حلوتى يا وردتى . . . أنت الوحيدة التى لا تزعجنى فى هذا العالم
يا إسطنبول يا كارامان ويا أرض أناضوليا

يا بداخشان وبغداد وخرسان
يا ذات الشعر المتهدل والرمش المتدلى والأعين المملوءة بالآثارة
سوف أظل أغنى فى مدحك دائماً
أنا المحب للقلب المعذب والعيون الفائضة بالدموع ، إننى سعيد .

لكن الشعر له مجرد ملجأ مؤقت من القرارات السياسية الأليمة التى يتوجب عليه أخذها يومياً . على سبيل المثال كان عليه الحكم بالإعدام على اثنين من أولاده بايزيد ومصطفى واللذان اتهما بمحاولة الإطاحة به فى عمليات تمرد منفصلة . ما الذكريات التى عليه حملها؟

فى أحد الأيام سيكتب المؤرخون أن هذا التقليد العثمانى الأول للخلافة بالانقلاب أو القتل ، وما تلاه فى عام 1603 من نظام القفص حيث يسجن فيه الوارثون المنافسون من الذكور قد يكون أكثر الضربات المميتة من أى شىء آخر ، والذى سيسقط بهذه الإمبرطورية . قام الأتراك بالحصول على أحد أعظم قادة الأفية وبوضع هيكل عبقرى لدعم هذا القائد لكنهم لم يجدوا طريقة لوضع السياق المؤسسى لاستمرار هذه القيادة على أعلى وأكثر المستويات أهمية .

الحقيقة المروعة هى أن مؤسسى الإمبراطورية العثمانية لم يتعاملوا جيداً مع قضية الخلافة الملكية ، فمثلما شوه البيزنطيون وارثيهم من الذكور فإن العثمانيين سوف يتخذون بدائل تتساوى معهم فى السوء .

ربما كانت النية الأصلية فى إقامة دولة تعتمد على الحكم الاستحقاقى وليس الأرستقراطى هو السماح بمنح الفرصة لجميع الأبناء حتى يفوز أفضل من فيهم . قد تكون الرغبة هنا هى إعطاء السلطان قدراً إضافياً من المرونة حتى يختار أفضل خليفة له من بين العديد من الأبناء ، والذى ليس بالضرورة أن يكون أكبرهم . لكن مهما كان السبب فالنتيجة هى منافسة لانهائية مع الكثير من التآمر بين الحريم وأولادهن ومسانديهم الكثيرين ، وهو الأمر الذى يؤدى إلى عنف دورى ووفيات قبل الأوان للمنافسين الأضعف أو الأقل تأييداً . لقرون عدة تعرض المنافسون الذكور إلى القتل أو الحبس فى غرفة صغيرة أشبه بالسجون أو غرف أكبر حجماً فى قصر توبكابى؛ وذلك لإبعادهم عن المشاكل حتى الاحتياج إليهم فى العرش . أدت هذه الممارسة إلى تنصيب عدد من السلاطين المدمرين والمنهزمين نفسياً ومن دون المعرفة والتعليم وغير القادرين على التواصل مع العالم ذهنياً وحكم نصف العالم عند توليهم السلطة بالمصادفة أو الخداع أو الموت الطبيعى للحاكم .

بالنسبة لسليمان في ذلك الوقت المتأخر من تلك الليلة الصيفية سواء اتخذ القرار بمهاجمة هنغاريا أم لا ، سيكون هذا القرار بالنسبة له أيسر من اتخاذ قرار بقتل ابن أو أخ له أم لا .

في صباح اليوم التالي جمع سليمان أكثر مستشاريه ثقة وميهميت سوكلو باشا وزيره وأبو سعود مستشاره القانوني . اجتمعوا في قاعة التداول بعد تلقي أخبار هنغاريا كي يتقدموا بتوصياتهم إلى السلطان حول كيفية الاستجابة مع هذا الأمر .

على الرغم من أنه ليس بطلب من سليمان إلا أن الزائرين دخلوا إلى حضرة جلالته من الغرفة المقابلة وخرروا سجداً كعلامة من علامات الاحترام والولاء طالبين بركته وهم يقتربون . إنها استعادة للسجدة التي حصل عليها ملوك الحرب من الأتراك الأوائل على سهول منغوليا منذ ألف سنة مضت .

وَجْهُ سليمان الشاحب هو أول ما صدم زائريه وعلى الرغم من أن مستشاريه قد اعتادوا على ذلك فإن مرور الوقت قد أخذه إلى هذه الدرجة من الشحوب ، فتوقفت أنفاسهم للحظة هذا اليوم . وقد زاد من هذا الانطباع لحيته الرمادية المشدبة وشفاه الزرقاوان والسواد الشديد تحت عينيه . وبالرغم من ذلك ، وفي هذه الهيئة الجسدية المتهاكلة ، فإنه لم يكن قبيحاً ، فزهده قد ألقى عليه وسامة مملوءة بالدفء . لكن مع تقدم عمره ورفعة مكانته تساءلوا إذا كان هذا دفناً حقيقياً وإنما ضعف نابع من حزن وخسارة ، سواء كانت تلك الخسارة تتعلق بالعائلة أو الصديق أو حريته مقابل تحمل عبء مصير الملايين التي يخدمها فذلك لم يمكن تحديده .

سألهم أن يضعوا في الاعتبار كافة الخيارات ، غير الحرب ، ثم الطرق المختلفة للدخول في الحرب لإخضاع الهنغاريين إلى الأبد . إنهم يعلمون أنه شخص حاسم وحكمه كما يعرفون سيكون سريعاً وقاطعاً .

«سوف ننهي مهمتك يا سيدي» قال الحضور . أرادوا قول المزيد حيث إنهم على استعداد أن يذهبوا إلى آخر الدنيا من أجل هذا الرجل الذي رفع من شأنهم وشأن أناسهم فيوجد قلة من هذا النوع على الأرض رجال حكماء ورحماء ومتمرسون عسكرياً وشخصياً .

هو ليس من الأتراك ولكنه من فينيسيا إنه بيرناردو نفاجيرو ، والذي قال على اعتبار أنه حصل على كافة المعلومات: إن سليمان لم يظلم أحداً ، كما أنه أجنبي آخر ممن أطلق على الأتراك «العظماء» . لهذا السبب فإن هؤلاء الرجال سوف يفعلون



خريطة الإدريسي في القرن 12 تظهر رأساً على عقب توضح حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط وآسيا. ساعدت مثل هذه الخرائط البحارة في أوروبا أثناء عصر الاستكشاف.

أى شىء يطلبه سليمان وسينتابهم شعور بالخوف على أناسهم وهيمنتهم باحتمال وفاة سليمان سواء بسكين مغتال أو بكبر السن.

مضى شهران حتى الآن وفي نوفمبر عام 1566 اتخذ سليمان قراره. فيما يراه كاستكمال لقدرة أرسل جيوشه شمالاً لبدأ المعركة في هنغاريا وهو الآن منضم إليهم هناك. مرة أخرى مجتمعاً مع جيشه ضد جيوش النمسا المسيحية فى هذه الأرض الشمالية الرطبة والباردة حيثما قاد الجيوش منذ سنوات كثيرة مضت. لكن هذه المرة يترك مدينته الملكية مريضاً وحزيناً فى نهاية عمره وأعظم أيامه ولت

وراءه. بينما كان رحيله عظيماً ومؤثراً فإنه اتم بحس مأساوى حيث كان مثبتاً فى حصانه للحيلولة دون وقوعه بسبب ضعفه وهو يمر بين تهليل الحشود. غير أنه رجل عجز رحل للدخول فى حرب فى أوربا.

وعلى الرغم من قوة جيشه سوف يموت هناك فى مركز قيادته بهنغاريا.

من ثم يرحل سليمان إلى الأبد ولا ينتهى العالم برحيله بالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن فترة رحيله كانت هى أوج الهيمنة التركية. يأتى سلطان آخر ويضع قبينا تحت الحصار بعد مرور قرن من الزمان وتضع هزيمته نقطة التحول الأخيرة للعثمانيين. لكن فى العالم الذى يلعب فيه الأطفال ويأتى الربيع بالحياة إلى أغصان الشتاء الميتة وحيث تأتى المراكب من نهر البوسفور ممثلة بصيد البحر فإن هذا العالم يستمر بعد رحيله.

يأتى سلطان جديد للأتراك كل ما عليه فعله هو أن يجلس فى غرفة ومن حوله يتأكدون من أن كل شىء يسير كما يجب. يقترن الأزواج ويولد الأطفال وتأتى حرارة فصل الصيف بعائلات الفلاحين إلى الحدائق التى أقامها سليمان لمتعتهم وترتفع قباب المساجد وأبراج المآذن إلى الأعلى لتشهد على عظمة الله عز وجل وجلال النبى، صلى الله عليه وسلم.

والإمبراطورية العثمانية آخر خلافة للإسلام وآخر أمة إسلامية قادرة على تحدى أوربا والوقوف أمامها، سوف تظل لمدة 350 عاماً أخرى دون مساسها بأذى ولكن بفقدانها التدريجى للأجزاء التى حارب سليمان وأسلافه من أجل جمعها وربط بعضها ببعض. وبينما تم بذل الكثير من الجهودات من أجل الإصلاح والتجديد وهى جهودات لتحديث الإمبراطورية وجعلها قادرة على المنافسة مع الدول الملكية فى أوربا إلا أن تلك الجهودات لم تكن كافية لوقف الانحدار إلى الأسفل. السبب وراء ذلك - أكثر من أى شىء - هو افتقار القادة إلى صفات سليمان، وبالتالي وهنت الإمبراطورية بسبب عبء إدارة هذا الجمع من الناس وجميعهم يطالبون بالتححرر من الحكم الأجنبى.

بالتالى تفتت الإمبراطورية واستقلت اليونان فى عام 1829 بعد حرب الاستقلال التى أثارت متعة الصفوة الأرستقراطية والأدبية بإنجلترا وتوفى اللورد بايرون فى هذه المعركة. واستولى الإمبراطور الروسى على كرايميا وإيران كما تحررت أرمينيا وجورجيا عنهم. خرجت رومانيا فى عام 1877، وأعلنت بلغاريا استقلالها فى عام 1908 ورحلت ألبانيا فى عام 1917، وتحررت اليمن البعيدة فى عام 1918.

أخيراً لم يتبق سوى تركيا والأراضي العربية في حكم العثمانيين المنحدرين .
جاءت الحرب العالمية الأولى كى تنهى هذه الأسطورة عندما حارب تى إيه لورينس
بجانب ابن سعود وغيره من الملوك العربية القبلية لإقامة دول عربية جديدة .
لا زالت أصداء انهيار العثمانيين تدوى لمائة عام بعد ذلك .

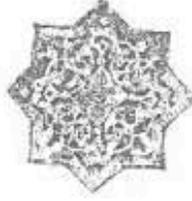
ستقع البلقان فى حرب فورية وتطهير عرقى بمجهودات دامية ولا طائل منها
للتخلص من خليط الأراضى متعددة الأديان والأعراق التى تطلع إليها ، بل وأقامها
السلطان . فكل من الحرب العالمية الأولى والصدمات الإسلامية المسيحية فى كوسوفو
والبوسنة ستكون أعمال العنف التى ستضع نهاية للتعايش السلمى الذى كان تحت
الولاية العثمانية .

ستتمزق تركيا المستقبلية بين تراثها الإسلامى الثرى والثورة المضادة للكنيسة على
يد مصطفى كمال أتاتورك ، والذى كان ضابطاً لدى السلطان السابق والمؤسس التالى
للدولة التركية الجديدة ، ثم سيسود بعد ذلك توازن صعب ليس باليسير .

سوف ترسم بريطانيا من الحطام العثمانى الحدود الإجبارية للعراق ، والتى غالباً
ما تكون مجتمعات غير متجانسة من الشيعة والسنة والعرب والأكراد ، وكذا حدود
الأردن المستقبلية ، والسعودية ، وفلسطين (إسرائيل) . تحت الولاية العثمانية استطاع
المزيج الثقافى الثلاثى للإسلام والمسيحية واليهودية أن يحيا ويتعايش فى لبنان وسوريا
وفلسطين ، لكن بعد رحيلهم تتناول العناوين اليومية الصدمات والصراعات بين
تلك الثقافات المتنوعة التى فى يوم من الأيام تقاسموا هذه الأماكن . فى هذا المستقبل
سيبدو المثال المفضل هو مثل الرؤية المجردة لإيزابيلا بأديان وأشخاص ، كلُّ ينتقل
إلى أقاليم منفصلة بدلاً من النموذج متعدد الأوجه الذى بدأ مع الخلفاء الأوائل وحتى
العثمانيين .

تلك هى مأساة تاريخ ضائع . ينتاب المرء شعور باليأس عند التفكير فى ضياع كل
هذا بل وظهور أشياء جديدة .

هل نتعلم البشرية؟ أم أن الناس تنسى ببساطة وتحاول اكتشاف أمور أخرى؟



الذاتمة

يتسارع الوقت فى عام 2007 فالكثير بدا وكأنه يجمع زخماً مستمراً أو لا يأخذ قسطاً من الراحة.

لبعض الناس يبدو التاريخ غير ذى صلة فيعتقدون بأنه وصل إلى نهايته ثم انتقل إلى عالم جديد بلا أى تسارع أو تقدم فى الوقت. كما يعتقدون بأن فى استطاعتهم قهر هياكل التاريخ العميقة من خلال ثروتهم وسلطتهم وتكنولوجياهم وفى الكثير من الأحيان يشعرون بأنه ما من حاجة إلى تبجيل التاريخ أو أنهم باستطاعتهم المضى قدماً بجهلهم به.

بينما للبعض الآخر يعتبر الماضى أمراً حديثاً وكأنه من لحظة فائتة متسمة بالشدة والقوة ومخرقة كل منحنى من مناحى حياتهم. لم تغرهم بعد سلطة المستقبل وبالنسبة لهم يبدو الماضى أعظم من المستقبل، ومن الممكن له من حين لآخر أن يكون مصدراً للغضب والامتعاض والانتقام. من هنا لن يهدأ لهم بال دون تصحيح الأخطاء والجرائم الحقيقية أو الخيالية للماضى.

ماذا يحمل الماضى بين طياته عندما تنشق البشرية بهذا الشكل فيما يخص التاريخ والزمن؟ هل هناك طريقة ثالثة لبناء المستقبل، طريقة بإمكانها الاعتراف بحقيقة الحاضر وقيمة الماضى؟

فى عام 2007 أصبحت العصور الذهبية لكل من دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وسمرقند وأصفهان وأجرا وإسطنبول ذكرى بعيدة للبعض، بل وذكرى لا يمكن استرجاعها للغالبية. كل من الغزو البريطانى للهند وحملات نابليون على مصر والمغامرات الاستعمارية الأوربية المنتقاة فى إفريقيا والشرق الأوسط وآسيا وكذا تفكك الإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى، كلها أمور تشير إلى نهاية الازدهار الثقافى الاستثنائى الذى شهدته تلك المناطق.

كان من الممكن للتاريخ أن يأخذ مساراً مختلفاً. فى تلك اللحظات النادرة من التوازن بين الصين والهند والعالم الإسلامى وأوروبا فى أواخر القرن 15 والقرن 16 أى من منافسى أوروبا كان من الممكن لهم اتخاذ نفس القرارات المصيرية التى قامت بها إسبانيا والبرتغال وإنجلترا لدعم رحلات الاستكشاف والغزو. كان من اليسير على الصينيين الإبحار إلى الباسيفيك وعلى الأتراك العثمانيين السيطرة على الأطلنطى.

ماذا لو أن المنافسات الاستعمارية فى الأمريكتين وجنوب شرق آسيا كانت بين الأوربيين والصينيين والأتراك وليست بين القوات الأوربية؟ ماذا لو أقام الأتراك والصينيون مستعمرات سعياً لإصلاح اقتصادهم ومجتمعاتهم ومناخهم الفكرى لتكثيف الحاجات مع الإمبراطوريات الجديدة العابرة للمحيط؟ هل كان سيوجد عصر نهضة واستنارة أكثر انتشاراً؟

يعتقد الكاتب أن هذا كان ممكناً حدوثه؛ كان يمكن للمسيحية أن تصبح أكثر انغلاقاً فى معاداة المادية والتعصب، كما كان لبعض التغييرات فى الخلافة الملكية أن تأتى بعملية التحقق إلى إنجلترا، وكذا كان ممكناً أن يصبح أوليفر كرومويل الراعى الرئيسى للفلسفة السياسية الإنجليزية وليس جون لوك. فى هذا الكون الموازى كان ممكناً للعالم الإسلامى أن يقود مزايا عصر النهضة والاستنارة التى غرس بذورها علاوة على الاستمتاع بها. كان يمكن للمسلمين أن يقودوا عصر الاكتشاف والإمبريالية الذى تولاه الأوربيون المسيحيون بدلاً منهم. يرى الكاتب أنه لم توجد أى حتمية لظهور الغرب.

يعتبر هبوط تلك الثقافات الابتكارية الأولى أمراً مأساوياً من الناحية التاريخية والإنسانية. لماذا تخلفت عن الركب تلك المجتمعات التى قادت العالم لقرون فى مجالات شتى ووضعت الأساس ليزوغ الأفكار والعلوم الأوربية؟

سيظل المؤرخون والعلماء يناقشون هذا السؤال حتى نهاية الزمان، وبينما لا توجد إجابة واحدة عن هذا السؤال فإنه من الممكن إرجاع الأمر إلى عدد من العوامل التى ساهمت فى هذا الجمود؛ فبعضها كان نتيجة للحظ السيئ، وبعضها الآخر بسبب التطور الثقافى.

تكمّن جغرافية الإسلام فى مهد الحضارات حيث ظهرت الثقافات الأولى فى بلاد الرافدين ووادى النيل ووادى السند بترائها الزراعى الأول. هذه الأقاليم نفسها تحولت إلى صحارى خلال ألف عام موفرة القليل من الفرص الاقتصادية.

إن الأثر الذى خلفته الأمواج المتتالية من الغزوات الآسيوية الوسطى بقيادة السلاجقة والمغول والعثمانيين على قلب الأراضى الإسلامية هو الدمار التدريجى لمراكز الابتكار الإسلامى فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا الوسطى والغربية بمنأى

عن إحباطات وتمزقات هذا الوقت مما سمح لهم باستكمال تطورهم في الآونة التي كان على الشرق الأوسط وإيران وتركيا القيام بعملية إعادة البناء .

في القرن الـ 17 عندما بدأت الدول الأوروبية تستعمر الأمريكتين تلقوا أنهاراً من ثروات ما وراء البحار وهو الأمر الذي مكنهم أيضاً من القيام بغزواتهم الاستعمارية في العالم الإسلامي .

وجهت الإمبريالية الأوروبية الضربة القاضية للعالم الإسلامي في الشرق الأوسط وإيران وإفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا . أدى الاستعمار بالكثير من دول هذا العالم إلى كساد اقتصادي ، والذي سيستغرق قرناً حتى يتم التخلص منه .

بما أن كلاً من العلوم والتطوير يعتمدان على مساندة قيادة الدولة وتمويلها فقد انحدر مستوى العلوم الإسلامية عندما توجب على دولها تحويل مواردها إلى الدفاع العسكري بعد القرن الـ 16 . من ثم أصبح بزوغ شمس أوربا وغروب شمس العالم الإسلامي وجهين لعملة واحدة .

بحلول القرن الـ 21 صارت بعض مراكز الابتكار الإسلامية القديمة جزءاً من العالم النامي بكل مشاكله الناشئة مثل الفقر والجمود الاقتصادي وعدم الاستقرار السياسي . فقد ضاع تاريخهم الثرى وفيما يبدو صار مجرد أطلال .

إن العالم يتغير مرة أخرى فكل بقعة أزمة ، ويوجد مركز ابتكار واعد في العالم الإسلامي . أصبحت مجتمعات المسلمين المهاجرين في أوربا والأمريكتين بمثابة نقاط التقاء؛ فإن تقابل الثقافات لا يؤدي فقط إلى التوتر بل إلى نشر الأفكار الجديدة وهو الوصول إلى تفاهم مشترك .

ولت عصور المسلمين الذهبية الأولى ولكن على ما يبدو أن هناك عصوراً جديدة تخرج إلى النور على الرغم من أن العناوين اليومية تشير إلى عكس ذلك .

عندما ننظر إلى المستقبل باسترجاع الماضي فقد يكون أفضل مبدأ يقودنا هو ما قيل منذ 900 عام على لسان الشاعر عالم الرياضيات عمر الخيام:

صوت ذات مظلومة تشتكيه
أه رفقا فأنت طين وماء (40)

شكر وتقدير

مشروع كهذا لم يكن ليخرج إلى النور دون مساعدة الكثيرين .

أود أن أشكر ناشيونال جيو جرافيك على وجه الخصوص كيفين مولروي وباربرا براونيل لثقتهم في تولى مثل هذه المهام الصعبة في تلك الأوقات العصيبة .

كما أتوجه بالشكر إلى محرري كارين كيني لوقته وصبره على مساعدتي في الإبحار في اللغات المختلفة والروايات المتضاربة والسُّبل التاريخية المعقدة التي تقود إلى اتجاهات كثيرة .

وكل الشكر لمستشاري أمين تيجبار بالقاهرة لمشاركته بمعرفته التاريخية والثقافية وكذا رؤاه غير التقليدية حتى يصبح «تاريخ ضائع» أكثر من عملية سرد تقليدية لبعض القصص القديمة .

جزيل الشكر لجلالة الملك عبدالله ملك الأردن لتصديره هذا الكتاب .

وأقدم بخالص التقدير لسمو الأمير الوليد بن طلال ومؤسسة الملكة لمحتهم التي ساعدت في إظهار رسالة هذا الكتاب على التلفاز .

الشكر كل الشكر لكل من الكاتبات فهميدا رياظ وسوزان هازين هاموند وباتريشيا إل شارب وبيث سترينج وإليزابيث تريكي جلاسمان لقراءة مسودات الكتاب واقتراح بعض التغييرات الهامة .

وكل الشكر والتقدير للمؤرخين والعلماء العظماء الكثيرين سواء المسلمين أو من ديانات أخرى والذين ساهموا في نسج هذا الكتاب: «تاريخ ضائع» من خلال الروايات الكثيرة والمتنوعة وأحياناً المتضاربة لأحداث 1400 عام سابقة .

ومسك الختام أتقدم بوافر الشكر إلى الكثير من الأبطال والبطلات من جميع الأديان ممن سقطوا في بحر النسيان والغفلة لشجاعتهم وعبقريتهم في المساعدة لوضع أسس الحضارة الحديثة .

أتمنى أن يفتح هذا الكتاب الباب لحوار يوضح إلى أي مدى ندين لعبقرية الماضي . . . ومن ثم نبدأ في عملية سلام .

مراجع الكتاب

- Armstrong, Karen, *Islam: A Short History*, Modern Library, 2002
- Barks, Coleman, and John Moyne, A.J. Arberry, Reynold Nicholson, translators, *The Essential Rumi*, Harper San Francisco, 1997
- Berggren, J.L., *Episodes in the Mathematics of Medieval Islam*, Springer Verlag, 1986
- Darke, Hubert, *The Book of Government or Rules for Kings*, London, Routledge & Kegan Paul, 1978
- Esposito, John L., *The Oxford History of Islam*, Oxford-University Press, 2000
- Farmer, H.G., *Historical Facts for the Arabian Musical Influence*, Georg Olms Verlag, Hildesheim, New York, 1970
- Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, Modern Library, New York, 2003
- Gillispie, Charles Coulston (ed.), *Dictionary of Scientific Biography*, New York, Scribner, 1970-1980
- Gingerich, Owen, "Islamic Astronomy," *Scientific American*, April 1986 v254
- Grousset, René, *Epic of the Crusades*, New York, Orion Press, 1970
- Hamarnah, Sami K., *The Life and Ideas of Al-Kindi*, Hamdard Medicus, 1986
- Al-Hasan, Ahmad Y. and Donald R. Hill, *Islamic Technology*, Cambridge University Press, 1986
- Hayes, J.R., ed., *The Genius of Arab Civilization, Source of Renaissance*, MIT Press, Cambridge, Mass., 1978
- Hill, Donald R., *Islamic Science and Engineering*, Edinburgh University Press, 1993
- Hitti, P.K., *History of the Arabs*, Mac Millan St. Martin's Press, 1970
- Holmyard, J.E., *The Makers of Chemistry*, Oxford, Clarendon Press, 1931
- Horne, Charles F., ed., *The Sacred Books and Early Literature of the East*, Parke, Austin & Lipscomb, 1917
- Huff, Toby E., *The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West*, Cambridge University Press, 1993
- Huntington, Samuel P., *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order*, Simon & Schuster, New York, 1997
- Al-Jazari, *The Book of Knowledge of Ingenious Mechanical Devices*, translated by Donald R. Hill, Dordrecht, 1974
- King, David, *In Synchrony with the Heavens, Studies in Astronomical Timekeeping and Instrumentation in Medieval Islamic Civilization*, Leiden, Brill 2005; "Astronomical Instruments in the Islamic World," in Selin Helaine *Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medicine in Non-Western Cultures*, Dordrecht: Kluwer Academic Publishers, 1997

- Lewis, Bernard, *Middle East: A Brief History of the Last 2,000 Years*, Simon & Schuster, New York, 1997
- Al-Masoudi, Abul Hasan Ali; Paul Lunde and Caroline Stone, translators, *The Book of Golden Meadows*, Keegan Paul, 1989
- Menocal, Maria Rosa, *The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain*, Back Bay Books, 2003
- Nasr, Seyyed Hossein, *Islamic Science, An Illustrated Study*, World of Islam Festival Publishing Company Ltd., 1976
- Newby, P.H., *Saladin in His Time*, Boston, Faber and Faber, 1983
- Ragep, Jamil, "Tusi and Copernicus: The Earth's Motion in Context," *Science in Context* 14 (1/2), 2001
- Rosner, Fred, *Medical Legacy of Moses Maimonides*, Ktav Publishing House, New Jersey, 1998; *The Medical Aphorisms of Moses Maimonides*, Maimonides Research Institute, Israel, 1989; and *Treatises on Poisons, Hemorrhoids and Co-habitation*, Maimonides Institute, Israel, 1984
- Sabra, A.I., "Situating Arabic Science: Locality versus Essence," *Isis*, Vol. 87, No. 4 (Dec., 1996)
- Said, Edward W., *Orientalism*, Vintage, 1979
- Saliba, George, "Greek astronomy and the medieval Arabic tradition," *American Scientist*, Research Triangle Park: July/Aug. 2002 Vol. 90, Issue 4, pg. 360; *Al-Biruni, Dictionary of the Middle Ages*, ed. Joseph Strayer, Charles Scribner's Sons, New York, 1980; *Whose Science is Arabic Science in Renaissance Europe?* Columbia University, 1999
- Sarton, George, *Introduction to the History of Science*, Williams and Wilkins, Baltimore, 1950-53
- Singh, Simon, *The Code Book*, New York, Random House, 1999
- Teres, Elias, *Abbas ibn Firnas, Al-Andalus*, 1960
- Turner, Howard R., *Science in Medieval Islam*, University of Texas Press, Austin, 1995
- Wiet, Gaston, *Baghdad: Metropolis of the Abbasid Caliphate*, Translated by Seymour Feiler, University of Oklahoma Press, 1971
- Wightman, G.B.H., and A.Y. al-Udhari, *Birds Through a Ceiling of Alabaster*, Penguin, 1975
- <http://198.65.147.194/english/Science/2001/02/article1.shtml>
- <http://www.en.wikipedia.org>
- <http://www.fordham.edu/halsall/sbook.html>
- <http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk/history/>
- <http://www.iiim.org/islamed3.html>
- http://www.islamicity.com/forum/forum_posts.asp?TID=6717&PN=1
- <http://www.islamset.com/isc/zuhr/main.html>
- <http://www.muslimheritage.com>
- <http://www.cyberistan.org>

مراجع الاستشهادات

1. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت. (ص73).
2. خطبة أبو بكر الصديق عند توليه الخلافة - المرجع السابق.
3. تاريخ البطارقة: ساويرس ابن المقفع، إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين، الجزء الأول، مكتبة مدبولي، 2006، (582-586).
4. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت. (ص380-381).
5. رحلة ابن جبير، في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الصليبية، تحقيق حسين نصار. القاهرة، مكتبة مصر، 1992.
6. الفهرست لابن النديم المجلد الأول، (د. شعبان خليفة / وليد محمد العوزة) العربي للنشر والتوزيع، 1991 (ص497).
7. رسائل الكندي الفلسفية، جمع وتحقيق الدكتور عبدالهادي أبو ريذة، دار الفكر العربي، 1950.
8. كتاب البلدان، أحمد بن واضح اليعقوبي. منشورات المطبعة الحيدرية - النجف - الطبعة الثالثة (1377هـ - 1957م) (ص3-5).
9. معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي؛ تحقيق فريد عبد العزيز الجندي.
10. ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق عائكة الخزرجي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة 1، 1954.
11. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصنيف أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة 3. مزيدة ومنقحة 1958. (ص342-344).
12. كتاب الجبر والمقابلة، لحمد بن موسى الخوارزمي؛ قام بتقدمه والتعليق عليه على مصطفى مشرفة ومحمد مرسى أحمد. القاهرة، الجامعة المصرية، كلية العلوم، 1939.
13. المناظر، المقالات 1، 2، 3 في الإبصار على الاستقامة، للحسن بن الهيثم؛ حققها وراجعها على الترجمة اللاتينية عبد الحميد صبرة. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، 1983. (كتاب المناظر لابن الهيثم المقالة الثانية).
14. المرجع السابق (ص307-310).
15. من مقال «الفيلسوف الشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات»، محمد خلف الرشدان من الموقع الإلكتروني: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=117189>
16. رباعيات الخيام: الفلكي الشاعر الفيلسوف الفارسي، معربة نظماً بقلم وديع البستاني. مصر: دار المعارف [1969].
17. ترجمت بتصريف من ترجمة وديع البستاني: رباعيات الخيام: الفلكي الشاعر الفيلسوف الفارسي، معربة نظماً بقلم وديع البستاني. مصر، دار المعارف، [1969].
18. التعليقات على الكتب الأربعة لفلك البطالمة، من مقال «سوبرنوفيا على بن رضوان»، من الموقع الإلكتروني: <http://www.kaceta.com/montada/showthread.php?t=10876>
19. أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، 1988، 8 أجزاء، الاقتباس من الجزء الأول ص206-207.

20. ابن رشد: 1. مقالة اللام من تفسير ما بعد الطبيعة، تح. موريس بويج دار المشرق بيروت، الطبعة الثالثة 1990 ص 1663-1664 .
21. الكامل في التاريخ لابن الأثير - الجزء السابع (301 من 309).
22. كتاب السبعين، مختارات باول كراوس .
23. رسائل الكندي الفلسفية، جمع وتحقيق الدكتور عبدالهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، 1950.
24. علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، د. محمد مرياتي وآخرون: الجزء الأول: دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدُرَيْهِم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1987.
25. كتاب الجدرى والحصبة، لأبي بكر الرازي، صورة رقمية للكتاب من موقع الجامعة الأمريكية ببيروت.
26. مقدمة الشكوك على جالينوس، لأبي بكر الرازي، تحقيق الدكتور مصطفى لبيب.
27. أبو بكر الرازي، رسائل فلسفية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط. 2، 1977، وهي من تحقيق باول كراوس. من ص 99 إلى 111.
28. القانون في الطب، ابن سينا الكتاب الأول الأمور الكلية في علم الطب الفن الأول حد الطب التعليم الأول موضوعات الطب الفصل الثاني.
29. التيسير في الداواة والتدبير، لابن زهر، تحقيق ميشيل الخورى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1983.
30. موسى بن ميمون الإسرائيلى القرطبي، رسالة في علاج السموم وذكر الأدوية النافعة منها ومن النهوش، مجموعة المخطوطات العربية، مكتبة الإسكوريال، ميكروفيلم رقم 241، مخطوط رقم 889، (ص 63 - 192).
31. الحجة الوقفية الخاصة بالبيمارستان المنصوري: من كتاب تاريخ البيمارستانات في الإسلام، لأحمد عيسى بك، الطبعة الثانية 1981، دار الرائد العربي، بيروت.
32. شرح تشريح القانون لابن سينا - ابن النفيس - الصفحة: 97 من الموقع الإلكتروني www.alwaraq.net.
33. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرئ، الجزء الأول، تحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس. ص 567 - 569.
34. كتاب الموسيقى الكبير، تأليف أبي نصر الفارابي، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة؛ مراجعة وتصدير محمود أحمد الحفنى - القاهرة، دار الكاتب العربى، 1967 ص 63-64.
35. إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي، الجزء الثاني كتاب السماع والوجد.
36. ألف ليلة وليلة، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوى، تصحيح ومراجعة أحمد زيادة، المجلد الرابع. 2006. مكتبة مدبولي (مجلد 4 ص 942).
37. نهج البلاغة، شرح وتعليق الإمام محمد عبده - كتاب الإمام على (عليه السلام) إلى مالك الأشر لما ولاه مصر.
38. من كتاب هارون الرشيد الخليفة المظلوم، للشيخ أحمد القطان ومحمد طاهر الزين، دار الإيمان، 2001، نقلاً عن الفضيل بن عياض، وهو الراوية الذى عاصر الرشيد وعمل فى بلاطه.
39. الكامل في التاريخ الجزء السابع - ذكر فتح البيت المقدس (280 من 309).
40. رباعيات الخيام: الفلكي الشاعر الفيلسوف الفارسي/ معربة نظماً بقلم وديع البستاني. مصر: دار المعارف، [1969].

الكشاف

- الأرقام المكتوبة بينط عريض تشير إلى صفحات بها صور.
- أبقراط (طبيب إغريقي) 185، 184
ابن الأنثري 140-141، 268-271
ابن الأحنف 62
ابن الصفار 131
المقاربي 191، 240
ابن النفيس 74، 214-215
ابن الهيثم
التأثير 73-74، 97، 98، 105، 106، 138، 217
التجريبية 103-163
التحكم في الفيضان 101
الخدمة المدنية 97-98
دراسات الجاذبية 105
الرياضيات 105
السيرة 98
الشخصية 106-107
الضوء والعلم البصريات 73-74، 97، 102-106، 128، 170، 194
الطفولة 97
الفلك 103-104، 128، 129
الوفاة 106
ابن إياس 62
ابن بطوطة 78-79
ابن طبون، صمويل 209
ابن تيمية 130
ابن حيان 225-226
ابن داود 62
ابن رشد 137-138، 240
ابن رضوان 127-128
ابن زهر 205-207
ابن سعود 287
ابن سينا 169، 185، 189، 190-198، 217، 240
ابن صباح، حسن 109، 112-113
ابن فرانس، عباس 156-159، 177-178
ابن ماسويه 64
ابن معتر 62
ابن يونس 73، 128
أبو العتاهية 261
أبو الفضل 275-276، 277
أبو الوقا 96
أبو بكر، الخليفة 12-13، 14، 17، 254-255، 257
أبو معود 284
أبو سفيان 35
أبو طاهر 111
أبو معاوية 262
أبو نواس 62
أبيلارد، من بات 217
أجرا، الهند 77-78، 236-239
الأخلاق (الطب البشري) 185، 187، 207
- الإدارة الوطنية للملاحة الجوية والفضاء (ناسا) 117-119
الإدريسي: الخريطة 285
أرتوك (جنرال) 171
الأردن: السلالة الهاشمية 8
الأردى 147
أرسطو 47-49، 90، 98، 191، 194، 217
أرمين فايرمان 156-157
إسبانيا
الأمويون 40-41
الحكم الإسلامي 69-72
فتح طارق ابن زياد 18-21
المجتمعات اليهودية الفكرية 136
أسناد أحمد اللاهوري 238
الاستشهاد 10
الأسطرلاب 124-125، 131، 132
إسطنبول، تركيا 279
الإسلام
الأركان الخمسة 10
الأصوليون 51، 52، 53-54، 63
الانتشار 11، 14-15، 18-21
التسامح الديني 15-17
الحجم 21
الدفاعات 50
الشعائر 120
الشقاق 34-35
الشمولية 50
المعتقون 15-16
النزعة الفكرية 52-53، 54، 63
الأسلحة 173، 177
أشبيلية، إسبانيا 68، 135
أشقاء بني موسى 57، 60، 167
أصفهان، إيران 111، 112، 193، 233-236
الأطباء 183-184، 211-214
الاعتدال الخريفي أو الربيعي 95، 148
الأعمدة المرقية 173
أفسانا، الأميرة (فارس) 246
أفغانستان 220-221
إقليدس 217
الإقليديسي 95
أكاديمية جنديشأبور الفارسية 55-56
أليرونس ماجنوس 216، 217
آلة السدس 129
أنغ بيك 150، 232
ألف ليلة وليلة 62، 219-220، 246-249
ألفونسو الحكيم، الملك 138، 241-242
أمير، الأميرة 275
الامبراطورية العثمانية 76-77، 278-287
الخريطة 270
الامبراطورية العربية
الخريطة 6
الأمراض 186، 188، 194، 195-
- 196، 206، 210
الأمويون
إدارة الحكم 38-39، 258، 264
الأصل 17
الأعداء 38-39، 69، 226
التسامح الديني 70، 71، 136، 263
الشبه مع العباسيين 68، 110
الشقاق مع العباسيين 32، 34-35، 39-40، 65، 67، 161، 257، 258
العلم 110، 129-131
الفن المعماري 35-37، 78، 95، 222-224
في إسبانيا 31، 34، 40-41، 135، 258
في دمشق 17، 21، 23، 35، 161، 240، 258
في قرطبة 23، 32، 65-72، 129-130، 155، 223-240، 227
الأمين، خليفة 55
أنجرس، جان أوجست دمونيك 248
أندريا ألهاجو 215
أنديراس فيسالوس 190
أندلس، إسبانيا
انظر أيضا قرطبة، إسبانيا
الحكم الإسلامي 23-34، 40، 66-72، 224-231، 263، 138
الفلك 125، 129-136، 137، 138
الموسيقى 241-243
أنظمة سياسية انظر القيادة
أوجين ديلاكروا 248
أورانجزيب (الامبراطور المغولي) 239
أوريا
الخوف من الغزو العربي 32-33
الايثانول 164
إيزابيلا (ملكة إسبانيا) 71، 154، 279، 287
إيفانوف، فلاديمير 99
أينشتاين، ألبرت 106
الأيوبيون 74
إيود، كونت أكوئين 24، 25، 26، 27
بأبور (الامبراطور المغولي) 77، 236-237
البرامكة 161، 163
البارود 174
يارون بوسبيك 282
بايرون، روبرت 75، 234
بايزيد (ابن سليمان) 283
بايزيد الثاني، سلطان 278
المتاني 94-95، 127
بختيشوع (الطبيب) 64
بدر (الخادم) 65-66
براه، تايكو 150
براهماجوبتا (عالم الرياضيات) 87،

الجهاز القلبي الوعائي 214-215
 الجهشياري 247
 جوتيه، يوهان وفجانج 248
 جون إشيبيلى 217
 جونزاليس دى مدينة، باتريشيا 180-182
 جيبون، إدوارد 31-32، 255
 جيرار الكريمنى 216، 217
 جينكينز خان 76، 139، 141، 142، 144، 223
 الجيولوجيا 167-170، 193
 الحاكم بأمر الله 73-74، 98-103، 265
 الحج 10، 113
 الحجرة المظلمة (الكاميرا) 104، 129
 الحديث 10
 الحرب على الإرهاب
 معاملة المسلمين 252
 حرم الإمام رضا، مشهد، إيران 219
 حساب التفاضل والتكامل 105
 حساب المثلثات 95، 96، 122، 126، 143، 148
 حساب الوقت: 128 انظر التقويم والساعات
 الحسن 60
 حسين، صدام 46، 47
 الحصية 186
 الحصن الأحمر، دلهي، الهند 78، 237
 الحكم بن هشام 263
 حكومة انظر قيادة
 السراء، غرناطة، إسبانيا 229-231
 الحملات الصليبية 175، 265-271
 الحنبلية 53-54، 63
 الحنفية 53
 حنين ابن إسحاق 57، 86
 حوريم (زوجة سليمان) 281
 الحياة الحضرية 182-183
 الحياة
 تخليق فى معامل 162
 خان، فاهمينا 81-85
 الخجندي، أبو محمود حامد ابن الخضر 128-129
 خدمات الكمبيوتر 82
 خديجة (زوجة محمد عليه الصلاة و السلام) 8-9
 الخرائط
 الإمبراطورية العثمانية 270
 الإمبراطورية العربية 6
 الملاحة 285
 الخسوف والكسوف 103، 120، 128، 129، 133
 خط العرض
 حسابه 124
 الخلفاء
 السلطة 54
 عملية الاختيار 257
 الخوارزمي 56-57، 85-93، 90، 125، 130، 216
 خوان كارلوس (ملك إسبانيا) 180
 الخيمياء 160-161، 162-163، 165، 188
 خيرة، أوزباكستان 85-86

التعاشيش الدينى 15-17، 77-78، 263، 278
 التعليم 59
 الأهمية 10، 11، 17
 المسداس 55-57، 59-60، 75، 76، 232، 264
 التقويم 111-112، 120-121، 122، 131، 132-133
 التهاب الكبد الوبائي 210
 نور، فرنسا 1-5، 21-34
 توماس كوهن 123-124
 تيمورلنك (أحد الغزاة الأتراك) 76، 231-232، 248
 تيموريون 76، 77
 ثابت ابن قري 93، 94
 ثابت، ابراهيم 94
 ثيرباتنس، ميغيل دى 247
 جابر ابن حيان 160-165، 261
 جابريل كابريرا إنفانتى 243
 الجاذبية 105، 166
 جالاند، أنطوان 248
 جاليلي، جاليليو 97
 جالينوس (الطبيب الإغريقى) 183-185، 186-187، 194، 201، 214
 الجامعات والكليات 60، 73-74، 264
 جامعة الأزهر، القاهرة، مصر 73-74
 جامعة الفردوسى، مشهد، إيران 219-222
 جامعة ملكة سوفييا، قرطبة، إسبانيا 179-182
 المستشفى 179-182
 الجبر 56-57، 90، 91، 92، 111، 216
 جبل قسيون، سوريا
 المرصد 125
 الجدرى 186
 الجراحة 198، 200، 203، 206
 الأدوات 202
 جراحة التجميل 200
 جروسية، رينيه 272
 جريجورى ثاني، الأب 27-28
 جريفز، روبرت 114
 الجزرى 160، 172-173
 الجزية
 الأراضي تحت الفتح 14، 226
 إمساك الدفاتر 211
 الجبابية 264-265
 الدبئية 15، 16، 38، 275
 المغادرة 271
 الجزيرة العربية
 العشاير 8
 التاريخ 7-8
 جعفر (البرامكة) 259-260
 الجغرافيا 90، 167-170
 جلال الدين أكبر 77-78، 236-237، 274-278
 جلال الدين ياقوت 273
 الجمال 105
 جمال الدين 147، 148
 جميل (شاعر) 241
 الجهاد 10، 14

89، 122
 بشار بن برد 62
 البصرة، العراق 97-98
 بطرس الرسول 34
 البيروني، نور الدين بن إسحاق 135، 138
 بطليموس 97، 103-104، 122-124، 126، 135، 137، 138
 بغداد، العراق
 2007 ميلاديا 43-47
 780 ميلاديا 120-122
 801 ميلاديا 258-261
 805 ميلاديا 160-165
 813 ميلاديا 47-64
 832 ميلاديا 85-93
 865 ميلاديا 182-190
 التأسيس 40، 50، 124
 الغزو المغولى 145-146، 222
 القرن العاشر الميلادى 60-62
 المرصد 125-126
 المستشفيات 212
 بلال (عبد إفريقى) 119-120، 239
 بليان بن برزان 269
 بن ميمون 136-137، 138، 208-211، 272
 بنجالور، الهند 81-85
 بنو نصر 69، 228-231
 بنيامين (الأسقف) 15-17
 بوتو، بنظير 274
 بوكاتشور، جرفانى 248
 بويهي 97، 128
 بين الثالث، (ملك الفرنجة) 31
 بيت الحكمة، بغداد، العراق
 التأسيس 55-57، 59-60، 261
 علم الرياضيات 86-87، 88، 93-94
 الفلك 86-87، 88، 93-94
 الكيمياء 165
 بيت الحكمة، القاهرة، مصر 100
 بيرنيه، فرانسوا 237
 البيروني، أبو ريحان 94، 123، 167-171
 رسم لخسوف القمر 129
 بيكين، روجر 216، 217
 بيلي، روبرت 117، 120
 تاج محل، أجا، الهند 78، 234، 237-239
 تامرلان انظر تيمورلنك (أحد الغزاة الأتراك)
 التبريزى، شمس الدين 245
 التتمش، السلطان 273
 التجريبية 103، 163، 169، 194، 195
 تحديد الموقع الجغرافى 95
 التحكم فى الفيضان 101
 التروبادور 241
 تشارلز الخامس، الإمبراطور الرومانى 282
 تشابكو فيسكي، بويتر 248
 تشوسر، جيفرى 125، 247
 تشينغ خه 148

- داجيل، ريموند 267
دانتى الجيرى 127، 247، 272
الدرابوش الدوارة 244
دريا (الجارية) 109
دلهي، الهند
السلطنة 272-274
دمشق، سوريا
661 ميلاديا 34-41
بناء منيلتها في إسبانيا 67-69
الخلافة 17، 21، 34، 38
الساقد 21، 71، 78
المستشفيات 212
الدوحة، قطر 151-154
الدولة الفاطمية 73-74، 98-100،
102، 127، 128، 265
الدين الإلهي 276-277
الروية 104، 105
رابضان، محمد 72
الرازي، زكريا 164، 184، 185-
190، 196، 212
رجب، جميل 124
رحلات وبحوث النضاء 117-119
رضا عباسي 235
رضا، إمام 219
رضية الدين 164، 184، 185-190،
196، 212
ركن الدين خورشاه 144
الرماح 174
رمضان 10
روبرت، من تشيمستر 216
الرومي، جلال الدين 75، 221،
243-245
الرى 38
الرياضيات
انظر أيضا الجبر والهندسة وهندسة
المثلثات
أنظمة الأرقام 88-89
بيت الحكمة 56-57، 86-93
التأثير على أوروبا 91، 92
التأثيرات الإغريقية 92
التأثيرات الهندية 87-88،
89، 91
الفلك 87-88، 93-95، 107،
109، 120
الكسور 95
مسألة رقعة الشطرنج 94
المعادلة التكعيبة 110
الموسيقى 109
ريتشارد قلب الأسد 271-272
ريزنر، فريدريش 106
ريمسكي كورساكوف، نيكولاى 248
رينوار، أوجست 248
رينيه ديكرات 104
الزراعة
التحكم في اقبيضان 101
الرى 38
الزرقي، إبراهيم بن يحيى 131-134
زرياب (أبو الحسن على بن نافع) 155،
158، 240
الزهراء (زوجة الخليفة عبد الرحمن
الثالث) 223-224، 227
- الزهراوى 198-224
سارتون، جورج 171
الساعات 132-133، 173
ساعات المياه 132-133، 173
ساعة الغيل 173
ست الملك 101، 102
المسحر والسحرة 86
مرد القصص 59، 246-249
سعود، رباح 242
البيفرديون (موطن اليهود) 70، 279
اسل 194، 195-196
السلاجقة 75، 107-108، 111-113
السلالة الهاشمية 8
سليمان القانوني 77، 281-286
سمرقند، أوزباكستان 76، 77،
231-233
السنة
الأصولية 276-277
الشقاق مع الشيعة 12-13،
17، 35، 44، 52، 56،
99، 110
النصرع مع الإسماعيليين
112-113
مراكز التعلم 74
سوكولو باشا، محمد 280، 284
سيد بن آل 125
سيلبي، أحمد 177-178
سيلبي، لاجارى حسن 178
سيلفستر الثاني، البابا 216
شارل مارتل 4، 26-34
شارلمان 32، 33-34، 242،
262-263
شاه أتاكسيركيس الثاني 247
شاه جهان، شهاب الدين محمد 78،
236-239
شاهزادى جوهرة بيجوم 237
الشعر 107، 114-115، 220، 245-
246، 282-283
الانصهار العربي الفارسي 62
أهميته 9
الصوفي 243-245
قصائد الحب 241
مصاعب الترجمة 114، 246
شهرزاد 62، 219-220، 221،
247-249
شهريار، الملك 247-249
الشورى 13
الشيخ لطف الله، مسجد، أصفهان،
إيران 234
الشيخزادى 147
شبروزي، كافومدين 232
الشيعة
الحج 219
شقاق مع السنة 12-13، 17،
35، 44، 52، 56، 99،
110، 275
شكسبير، ويليام 248
الصائبة 93-94
الصحة العامة 183
الصفير (مفهوم رياضى) 88-89، 90،
91
- الصفويون 75
صلاح الدين، السلطان 74، 136،
207، 208، 209، 268-272
صناعة الورق 59
الصواريخ 173-177، 178
صوفيا، ملكة إسبانيا 180
الصوفية 162، 243
الصيدليات 211-212، 213
الصين
الصواريخ 173-174
الفلك 147-148
الضوء 97، 102-103، 104، 170
الطائرة الثقاة 178
طارق ابن زياد 18-20، 35، 66
طاهر (وزير) 56
الأسرة 63
طب الأسنان 200
طب التوليد 180-182، 198-199،
203
الطب والصحة 74، 104، 165،
179-215
الطيري، على ابن سهل ريان 184-
185، 186
طلطلطة، إسبانيا 131-132، 134
الطوائف 69-70
الطوسي، نصر الدين 123، 134،
142-143، 145-149
طوما الأكويني، القديس 216، 217
الطيران 157-159، 177-178
الطيران، البشر 155-159، 177-178
عائشة (زوجة محمد صلى الله عليه
وسلم) 12، 255
عائلة الغافقى 2، 4-5
عباس الأول، شاه (فارس) 75، 233-
236، 247
العباسيون
الأثر الفكرى 57-58، 258
الأيدولوجية 52، 53، 54، 63،
110، 264
الخلافة فى البعداد 32، 34، 40،
46، 50، 51، 145، 257
الرياضيات والعلوم 89، 90،
120، 126-128
الشيعة مع الأمويين 68، 110
النصرع مع الإسماعيليين 73، 99
النصرع مع الأمويين 32، 34،
35، 39-40، 65، 67،
257، 161، 25
العمارة 44، 45، 58-59، 222
نمط الحكم 51-54، 58
عبد الرحمن الثالث، خليفة 70، 198،
224-226
عبد الرحمن الثاني، أمير 155
عبد الرحمن الداخل 39-40، 65-69،
263
عبد الرحيم، نصر الدين 143
عبد الملك، خليفة 24، 222
عبدالرحمن الغافقى 23-30
العبودية 119، 255
عثمان 176-177
عثمان، الخليفة 15، 257

- العدسات 105
العراق
إعادة البناء 44، 45، 47
الحدود 287
المراصد 57
العصور الذهبية
الأساسيات الرياضية 96
الإنجازات 254
بغداد، العراق 46، 64، 125، 261
التأسيس 18، 40، 64، 107، 146، 261
الطب 213
علم الفلك 120، 125
النهاية 33، 176
الهند الإسلامية 77
العقار المنير للشهوة الجنسية 208-209
علاقة المرض الجسدي بالعقل 187، 196-197، 209
علم البصريات 97، 103، 104-105
علم التغذية 195
علم التنجيم 111، 122، 124، 126، 169
علم الصيدلة 165، 169، 187-188، 194، 195، 213
علم الطيران 157-159، 177-178
علم الفلك 117-150
إسهامات بيت الحكمة، بغداد، العراق 86-87
الألات 149
التقويمات 94، 110، 120-121
حساب الوقت 121-122، 128
دوران الأرض 112، 123-124
القاعدة الرياضية 87-88، 93-95، 107، 109، 120
المراصد 57، 60، 76، 111، 125-126
الملاحة 88، 122
الموسيقى 109
نقد بطليموس 90، 103-104، 122-124، 126، 135
علم المعادن 148، 170، 193
علم النفس 196-197
علي بن أبي طالب، خليفة 12، 13، 17، 35، 255-257
علي الرضا 56
عمر بن أبي ربيعة المخزومي 241
عمر الخيام 75، 107، 108-115
عمر بن الخطاب، الخليفة 15، 257
عمر علي شاه 114
العناصر (الطب البشري) 185، 187
غازان خان 144
الغافقي، إدريس 2، 4-5
الغافقي، كريمة 2، 4
غاندي، إنديرا 274
غاندي، سونيا 274
غرناطة، إسبانيا 70، 227-231
الغزالي 112، 240
قارس
التأثير الثقافي 38، 55-56، 78، 62-63، 74-76، 78، 233-236
الغزو المغولي 140-141
الفلك 124، 125، 126، 128-129، 146-148، 129
فارمر، إتش جي 241
الفاضل 209
فاطمة (ابنة محمد صلى الله عليه وسلم) 12
فرانسيس الأيسسي 245
فرانسيس الأول، ملك فرنسا 282
القرودوسي (شاعر فارسي) 142، 219
فرسان الهيكل: الحملات الصليبية 266
الفرغاني 126-127
فرنجة: معركة مع عرب 21-34
فرويد، سيجموند 196، 197
الغزاري، إبراهيم 124، 125
الغزاري، محمد 125
الغزياء 73-74، 79، 89، 103، 105، 106، 166
الفضل (البرامكة) 261
الفلاسفة 57، 107، 137-138، 143، 196، 211
الفن
المنهج الهندسي 95-96
الفن المعماري 35-37، 75، 78، 83، 95-96، 233-237
التهجري، يوسف، الأمير 66-67
الفرغاني 147
فولتير 248
فيتزجيرالد، إدوارد 114
فيتاغورس 109
فيرديناند الأول، ملك إسبانيا 216
فيروز، السلطان 273
القاهرة، مصر 73-74، 98-102، 127-128، 213
قبة الصخرة، القدس 36، 222، 227، 271
القدس
691 ميلاديا 222-227
الصليبيون 266-272
القرآن الكريم
التأثير على دانتى 247
في النقوشات 228، 238، 239
المخلوق 51
التصانح والتعاليم 10-11، 13، 52، 94، 121، 126، 254
قرطبة، إسبانيا
2007 ميلاديا 179-182
756 ميلاديا 65-72
852 ميلاديا 154-159
التشبه مع دمشق، سوريا 67-69
علم الفلك 129-130
قرطبة، إمارة أموية انظر قرطبة، إسبانيا
قسطنطين، الإفريقي 216
قسطنطين، إمبراطور 265
القسطنطينية
المسقوط 175-176
الفتحي 124
- قصر علي قابو، أصفهان، إيران 235
قطر 151-154
القفز بالمظلات 155-157
قلعة الموت (فارس) 138-142، 143، 144
القمر
طور الهلال 121
قوبلاي خان 139-140، 147
القوط الغربيون 18-21
قونيا، الأناضول، تركيا 1228 ميلاديا 243-245
القيادة
الإجماع 13، 35، 54، 254، 257
الاستعداد 54، 263
الحكم بالاستحقاق 280-281
الخلافة 13، 53، 257-258، 283
العشائر 8، 9
مثال الاستقارة 254-257، 261، 262-265
كاثوليك رومانية: السيطرة على المعرفة 215-216
كانكا (فلكي هندي) 87
الكتابة بالشفرة 166-167
الكعبة، الحرم المكي، الجزيرة العربية 7
الكتاب 181، 198-199
كمال أتاتورك 287
الكندي 57، 165-167، 240
كنيسة القيامة المقدسة، القدس 265
الكنيسة الكاثوليكية
السيطرة على المعرفة 215-216
كو شو شينج 147، 148
كوبرنيكوس، نيكولاس 97، 123-124
كولمبوس، كريستوفر 230
الكون
التمركز حول الأرض 122-123
الكونجرس الأمريكي 251-254
كينز، يوهانس 104
الكيمياء 160-161، 163-164، 165
كينج، ديفيد 149
اللاجئون الأفغان 219-222
اللاهوري، عبد الحميد 237
لدغة الثعبان 210-211
لذريق، ملك (إسبانيا) 18، 20
اللغة العربية
الأبجدية 241
أصوات اللغة 25
الخط العربي 9
الرمزية 246
اللغة الرسمية للحكم 38
اللغة السائدة 18
لورد بايرون 248، 286
لورينس، تى إيه 287
اللورغاريتم 57، 81-82، 85، 92، 216
ليوناردو دا فينشي 104
ما شاء الله ابن آثار 124
ماتيس، هنري 248
مارتل، شارل انظر شارل مارتل

- مارلو، كريستوفر 248
مالك الأختار 257-256
مالك الأفضل 209-208
مالك الطونيا 273
مالك شاه، سلطان 75، 111، 113، 264
المأمون، أبو جعفر عبدالله، الخليفة
بيت الحكمة 46، 55-60، 86، 94، 165، 261
الصابئة 93، 94
طموحه للدولة الإسلامية 49-51، 54
العقل مقابل الوحي 47-49،
51-54، 54-51، 63، 90
محاولات القتل 219
المرصد 125
نقوش قبة الصخرة، القدس 222
الوفاة 63-64
التوكل، الخليفة 63، 167
المجريطي، مسلمة 125، 130-131
مجمع ريجستان، سمرقند، أوزبكستان
76، 231-232
محاكم تفتيش 71-72
محمد (النبى صلى الله عليه وسلم)
حياته 8-9
الرؤى الإلهية 9-10
فى الفن 252، 253-254
موته وخلفاؤه 12-13
نسله 34-35
نشر الإسلام 11
محمد الأول (أمير أموى) 130
محمد الثانى 77
محمد الثانى عشر، ملك (غرناطة)
228-231
محمد رضا ابن أستاذ حسين بنا أصفهاني
234
محمود الغزني، السلطان 168-169،
192
الحنة (محكمة التفتيش) 53، 54
المخترعون والاختراعات 72، 154-
178، 198-199
المدارس (الكتاب) 59، 60، 232
المدارس النظامية 60، 75، 264
المدافع 174-175
مدرسة المستنصرية، بغداد، العراق 60
مدريد، إسبانيا
تأسيسها 130
مدينة الزهراء، قرطبة، إسبانيا 181،
198-204، 223-227
المدنية، أمينة 44
المدنية، أنور 44
المدنية، على 43-47
المدنية، ميرنا 44-45
مذبحة المسلمين 266-267
الذهب العقلى 98، 108، 109-110، 112
المرأة
حقوق المرأة 10
الطبيبات 206
القائدات السياسيات 273-274
الكاتبات 220
مرات الرابع، السلطان 178
- المرصد الفلكية 57، 60، 76، 111،
125-126، 146-147، 148،
150
مراغة، فارس
المرصد 76، 146-147، 148
المرض العقلى
علاج 213
مرو، فارس 54-55، 113
المساجد
الفن المعماري 35-37
المساواة: العنصرية والعرقية 11
المستشفيات 60، 179-182، 211-213
المسرح الأعظم 128
مسجد أبى حنيفة، بغداد، العراق
44، 49
مسجد الأزهر، القاهرة، مصر 102
مسجد الحاكم، القاهرة، مصر 100
المسجد الأموي، دمشق، سوريا 21،
35-37، 71، 78
مسجد شاه، أصفهان، إيران 235
مسجد قرطبة، إسبانيا 68، 69
مسح الأراضي 131
المسعودي، أبو الحسن على 63-64، 261
مسلمة (العم الكبير لعبد الرحمن الداخل)
65
المسلمون الإسماعيليون 112-113،
143-144، 266
المسلمون
رؤية الأوربيون 32-33
المشاريع الهندسية 101
مشهد، إيران 219-222
مصطفى (ابن سليمان) 283
مضخات المياه 160، 173
معاوية بن أبى سفيان، خليفة 17، 35،
37-38، 257
المعزلة 51، 52-53
المنعصم، الخليفة 54، 64، 145-146
المتعهد، الخليفة 167
المعرفة، وأهميتها 10-11، 17
معمل الدفع النفثي، بسادينا، كاليفورنيا
117-119
المغول 76، 77-78، 139-146،
147، 173-174، 236، 266،
274-278
مكة: المملكة العربية السعودية
570 ميلاديا 5، 7-14
600 ميلاديا 239-243
الأديان 5، 7
الحج 10، 11، 113
المكتبات 59، 60
المكين 225-226
الملاحة 122، 124
الخريطة 285
معناز (زوجة شاه جهان) 236-239
المنصور، الخليفة 40، 58، 65، 124
المهدى 59
موارد المياه 38، 61
مواقع التراث العالمى (اليونيسكو) 236
موسى بن نصير، الأمير 19، 20، 21
الموسيقى والموسيقيون 109، 239-243
الموقف (إمام) 108-109
- النجوم 124، 125، 127-128
القديم 93
التسطوريون 139-140
نظام الملك 75، 109، 111، 112،
113، 142، 264-265
نظرية التسببية 166
نفاجيرو، بيرناردو 285
نهر النيل، إفريقيا: تحكم فى فيضان 101
نوح ابن منصور 191
نور جهان 78
نورمان كازينس 196، 197
النيريزى 95
نيسابور، إيران 107، 108، 114
هارفى، ويليام 214-215
هارون الرشيد، الخليفة
الأطباء 161، 212
بناء بغداد 49، 58
خلفه 55
شخصيته 259-262
العلماء 124، 160، 161
القبر 142
مراسلاته لشارلمان 34
ماسدا، جون 151-154
حسدائى بن شبروت، الحاخام 70، 225
هرقل (إمبراطور بيزنطة) 15، 271
هشام الثانى، الخليفة: الأسرة 198-204
هشام، الأمير 263
الهند
الأديان 276-277، 278
الاكتشافات العلمية 87-88
العصر الذهبى 77-78
الهند، فاتحجور سيكرى 276، 277
الهندسة 89، 92، 95-96، 110،
122، 124، 126
الهندوس
التقويم 122
علم الرياضيات 88، 89
العلوم 87-88
الفن المعماري 83
هولاكو خان 76، 139، 144-145،
146، 148
واسط، العراق
المرصد 126
واشنطن العاصمة 251-254
الولايات المتحدة
الأمن 251-252
الوليد بن يزيد، الخليفة 21، 36،
62، 241
ياقوت الحموى (مورخ) 60-62
يحيى (شقيق عبد الرحمن الداخل)
39-40، 65
اليعقوبى، أحمد 57-58
اليهود
إجبار على اعتناق الدين 136،
154، 279
فى إسبانيا الإسلامية 70
اليهود السفرديون 154، 279-280
اليونان
العلم 86، 92، 97، 103
الفلسفة 51-53
يونج، كارل 195، 196

تاریخ ضامن